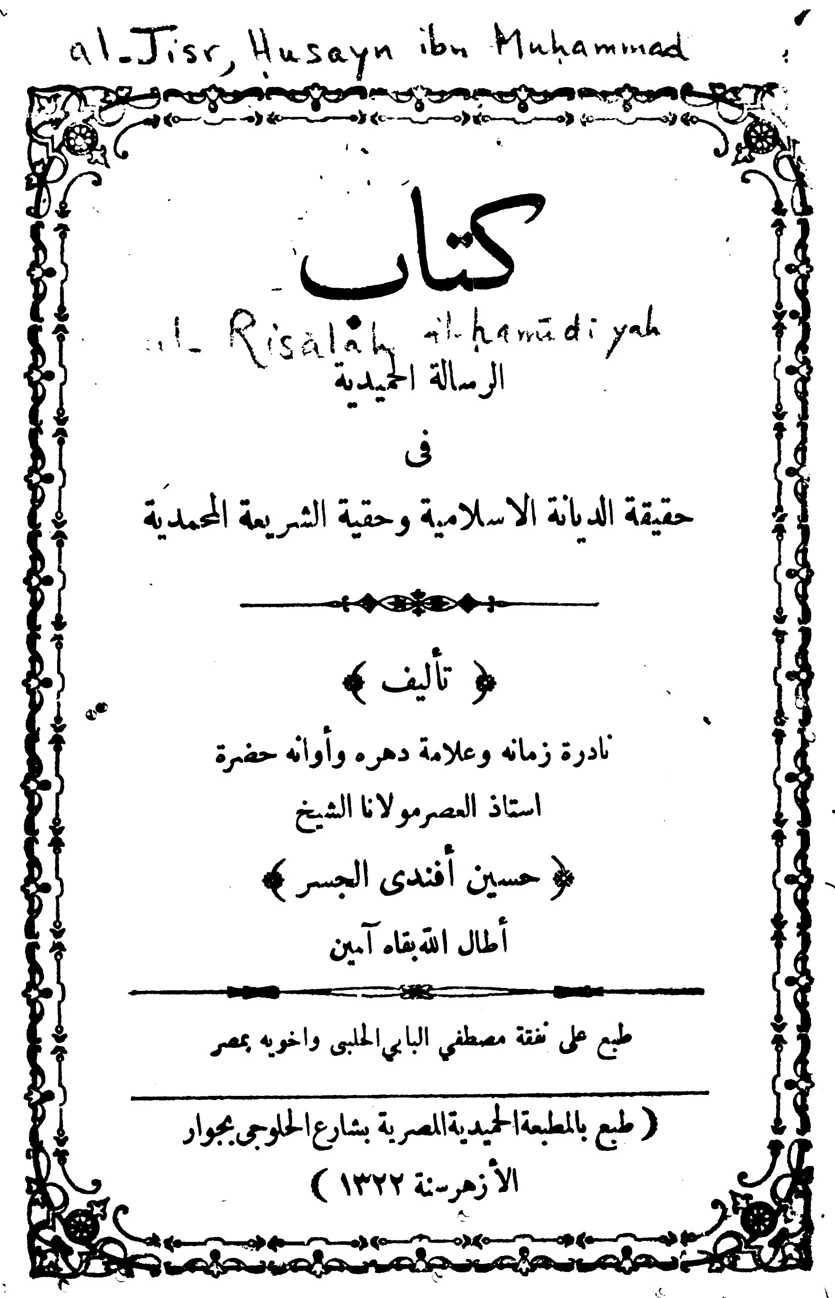


al-Jisr, Husayn ibn Muhammad

كتاب

al-Risalah al-hamidiyah

الرسالة الحميدية

في

حقيقة الديانة الاسلامية وحقية الشريعة المحمدية

﴿ تأليف ﴾

نادرة زمانه وعلامة دهره وأوانه حضرة

استاذ العصر مولانا الشيخ

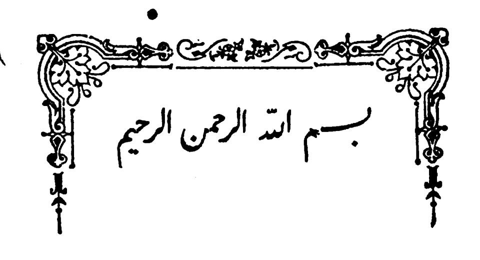
﴿ حسين أفندي الجسر ﴾

أطال الله بقاه آمين

طبع على نفقة مصطفى البابي الحلبي واخويه بمصر

﴿ طبع بالمطبعة الحميدية المصرية بشارع الحلوجي بجوار

الأزهر سنة ١٣٢٢ ﴾



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين ﴿أما بعد﴾ فيقول الفقير الى عفو مولاه حسين ابن محمد الجسر الطرابلسي انى فى هذا الاثناء وجدت فى جرائد بلادنا الشامية بعض مقالات مترجمة عن جرائد أو رباوية منسوبة لبعض احبار الانكليز المدعو اسحاق طيلر قد حاول فيها التوفيق بين معتقد الاسلام ومعتقد المسيحيين واقامة الدلائل على تقاربهما وتشابه كتبهما وان الاختلاف بين الطائفتين ليس الا فى امور غير جوهرية وذكر فى احدى تلك المقالات انه أتى البلاد المصرية لمخالطة الاسلام واستكشاف حقيقة دينهم لبلوغ هذه الغاية وكلامه وان كان صريحاً بهذا المقصد ولكنه يشف عن استحسان الدين الاسلامى ويرنو الى دفع اعتراضات يوردها بعض احبار بلاده على المسلمين فيعارضهم بورود امثالها عليهم ويدعوهم للنصفة ولاعتبار الدين الاسلامى أول مساعد على تمدن الامم المتوحشة التى يدعون حرصهم على على تمدنها مستدلا بان الذى شوهد فى افريقيا ان تلك الامم هناك اسرع قبولا للدين الاسلامي من سواه وهو أفعل فى تهذيب اخلاقهم وتعززانفسهم من كل ماعداه وماذاك الا لمطابقته لصريح العقول وسهولة فهمه عليها وقد انتشر هناك فى هذه السنين انتشارا غريبا مع عدم المبشرين به والداعين

اليه ومع ذلك كله فالناظر في كلام هذا القس لايقطع بحقيقة مقصده وان كان يتخيل للفكران بحثه في هذا الشان للتوصل الى كشف الحقيقة لبني جلدته واقناعهم بالصواب أعانه الله تعالى على عمله الذى يرضى الله تعالى و بلغه مقصده فيه و بلغني ايضا ان بعضا آخر من رجال الانكليز المتضلعين فى اللغات والفنون قد سعى هذه الايام ببناء معبد للاسلام في البلاد الانكليزية وانه يباشر هناك بنشر جريدة عربية ليكون جل مقصدها البحث عن حقيقة الدين الاسلامى واشهار فضائله لدى غير العارفين بها وقد رغب هذا الرجل بواسطة احد اذكياء المسيحيين اللبنانيين الموجود الآن في لندن من بعض فضلاء بلدتنا ان تقدم بعض مقالات للجريدة المذكورة في هذا البحث الرفيع وفقه الله لما فيه خير العالم الانسانى وما يرضي مولانا جل وعلا وقد خطر لي حيث وجدت مجالا للكلام وسميعا للنداء ان أحرر رسالة يستبان منها حقيقة الدين الاسلامى وكيفية تحققه لمتبعيه على أسلوب جديد سهل الفهم لا تمله الانفس ولا تستوعره الافكار يروق العقول الحرة و يعجب الاذهان المطلقة عن قيود التعصب ان شاء الله تعالى وحيث ان الحامي للدين الاسلامى والمؤيد لشعائره والمحافظ على أوامره هو حضرة مولانا امير المؤمنين وخليفة رب العالمين حامى حمى الاسلام ومشيد اركان شريعة المصطفى عليه الصلاة والسلام السلطان الاعظم والخاقان الافخم السلطان ابن السلطان السلطان (الغازى عبد الحميد خان) ابن السلطان الغازى عبد المجيد خان أدام الله أيامه ونصر أعلامه وامده بالامدادات الالهية والتوفيقات الصمدانية فكان من كمال حظ هذه الرسالة وطالع سعدها الاكبر ان تكون لاسمه الكريم منسوبة وفى صحائف حسناته

مكتوبة اذهى حسنة من حسنات عصره السعيد وقطرة من بحار تقدم رعاياه
فى منهج المعرفة والتسديد فسميتها (الرسالة الحميدية فى حقيقة الديانة
الاسلامية وحقية الشريعة المحمدية) فاسأل الله تعالى التوفيق لطرق الصواب
وهداية قلوب ذوى الالباب للنظر في عاقبة يوم المآب انه قريب مجيب وهذا
أوان الشروع بالمقصود بعون الملك المعبود

فاقول قام رجل بين جماهير بلدة وهو من أول نشأته قد عرف بينهم
بالصدق والامانة ولم يعهد عليه تزوير ولااحتيال باطل كما انه معروف لهم
بانه امى لايقرأ ولايكتب فضلا عن اقتداره على تقليد خط سواه ولم يسبق
له معاناة بوضع قوانين الملوك ونظامات الامم المتكفلة بصالح الرعايا فنادى
باعلى صوته بين أولئك الجماهير وقال ياأيها الناس انى رسول ملككم اليكم
أمرنى بأن ابلغكم رسالته واشرح لكم قوانينه التى سنها لكم الآن وهو يأمركم
بالسير على مقتضاها والعمل بفحواها وقد كان فيما مضى من الزمان ارسل
اليكم رسلا غيرى بلغوكم عنه قوانين كانت مناسبة لذلك الزمان الماضى
فالآن يأمركم بترك كثير من تلك القوانين القديمة حيث ان الزمان الذى
كان يناسبها وتناسبه قد انقضى ويوجب عليكم اتباع هذه القوانين الجديدة
التى أرسلنى بها كما يوجب عليكم ان تهجروا العوائد التى أخذتموها عن
أسلافكم أوابتدعتموها باهوائكم لم يكن أمركم بها وقتا من الاوقات وانما
هى عادات قبيحة يأباها العقل ويمجها الطبع وترجع عليكم بالضرر وكثير
منها هو لنعم الملك كفران وعلى ضعفاء رعيته عدوان فعليكم بتصديقى
وسلوك طريقى حتى أبين لكم مايرضى الملك ومايغضبه فاجابوه باجمعهم
وقالوا له مهلا أيها المدعى مقاما عظيما ومنصبا جسيما لقد كلفتنا بدعواك هذه
سلوك طريق يصعب علينا سلوكه وتنفر منه نفوسنا وتشمأز عقولنا وتضطرب

من تصور احتماله أفكارنا الا اذا تحققنا ان ملكنا المغدق علينا النعم والمسأمر أرواحنا بالكرم هو يأمرنا به ويرضاه لنا فاننا حينئذ لا يسعنا الا الانقياد والتسليم اليك والتصديق برسالتك والاقبال على اطاعتك لما لملكنا علينا من الامر النافذ والسلطان القاهر ولعلمنا انه لا يختار لنا الا ما فيه صلاحنا حسا ومعنى فهل لصحة دعواك من برهان وهل معك دليل يضطرنا الى الخضوع لك والايمان. فقال ذلك الرجل نعم ياذوى الالباب وهل يليق بالعاقل التصديق بدعوي الا بدليلها المرشد الى الصواب ان معى كتابا من الملك بخطه وختمه وانشائه المعلومة لديكم يقول فيه ان فلانا وهو أنا حامل كتابى هذا المتحلى بالعلامات الفلانية الظاهرة فيه للعيان هو صادق فى كل مايبلغكم عني وهو رسولى اليكم ليشرح لكم القوانين التى سننتها لكم لتعود بالنفع عليكم فامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه فقالوا له ابرز لنا هذا الكتاب الذي تدعيه حتى يتميز الصدق من المين وتزاح الشبهة من البين فحينئذ ابرز لهم كتابا والقاه بين أيديهم واجتمع للنظر فيه قاصيهم ودانيهم فنظروا باجمعهم فيه وقرؤه وفهموا معانيه فاذا هو طبق ما الرجل يدعيه مشتمل على خطاب الملك لاولئك الجماهير بان هذا الرجل الحامل كتابى المتحلى بالعلامات الفلانية الظاهرة فيه هو رسولى اليكم وهو صادق فيما يبلغكم عنى من دقيق وجليل فامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه وخذوا عنه القوانين التى سننتها لكم الى آخر ما ادعى ذلك الرجل من وظائفه التى فوضها الملك اليه وقد كان اولئك الجماهير فى قوة المدارك ومعرفة طرق الاستدلال متفاوتين ومفترقين عدة طوائف اذ من المعلوم ان العلم لا يوجد جميعه عند واحد ولكنه يوجد عند الجميع

(وطائفة) منهم كانوا يعرفون خط الملك حق المعرفة ولا يشتبهون فيه ويعلمون انه لايقلد فعند مانظروا ذلك الكتاب قالواهذاخط ملكنا فهذا كتابه بلا ارتياب فنحن قد أذعنا لما فيه وصدقنا هذا الرجل فيما يدعيه

(وطائفة) منهم كانوا يعرفون ختم الملك أتم المعرفة و يعلمون انه لايقلد أيضا فحينما نظروا اليه قالوا هذا ختم ملكنا الذى لايقبل التزوير فنحن أيضا قد صدقنا هذا الرجل بلا نكير

(وطائفة) منهم كانوا يعرفون انشاء الملك وأساليبه الملوكية وخطاباته السلطانية التى يقصر عن بلاغتها سواه فقالوا نعم ان انشاء هذا الكتاب هو انشاء ملكنا المعلوم لنا اختصاصه به وهذا الخطاب خطابه الذى نعهده منه فى مخاطباته رعاياه فنحن أيضا قدصدقنا هذا الرجل فيما ادعاه

وطائفة منهم لم يكونوا يعرفون شيأ مما تقدم ولكن كانوا يعرفون ان عند الملك أنواعا من التحف والذخائر التى لاتوجدعند سواه من أكبر الاغنياء وأعظم الملوك فقالوا لذاك الرجل ان برهان صدقك عندنا ان تحضر لنامن عند الملك التحفة الفلانية والتحفة الفلانية من تلك التحف المختصة بخزائنه فقال لهم افعل ان شاء الله تعالى وبعد مدة وجيزة احضر لهم ماطلبوه ونظروا اليه وتحققوه وهم يعلمون انه لايمكن احضاره الا باذن الملك وارادته اذهو محصن بخزائنه غاية التحصين فعند ذلك صدقوا ذلك الرجل فى دعواه على أكمل وجه

(وطائفة) منهم قالوا ان ملكنا كان فيما مضى من الزمان قد أرسل لنا رسلا وأصحبهم بقوانين تناسب ذلك الوقت وتكفى احتياجاته وقد برهنوا على ارسال الملك اياهم بما أثبت دعواهم وكانوا يقولون لنا ان الملك مزمع على

ارسال رسول اليكم يأتى بعد زمان من أيامنا هذه ويصحبه بقوانين تتكفل باصلاح شؤنكم وتناسب الزمان الذى يرسله فيه وتقوم باحتياجاته وان ذلك الرسول توجد فيه علامات هى كذا وكذاوذكروالنا .علامات كثيرة لايصدق العقل بوجودها بأجمعها في شخصين فنحن الآن نتأمل فيما جاء به هذا الرجل وادعى انه من عند الملك فان كان موافقا لما قاله أولئك الرسل ووجد فيه تلك العلامات التى ذكروها لنا نعلم انه صادق فيمايدعيه وان كان الامر بخلاف ذلك رفضنا دعواه بلاارتياب فعند ماتأملوا قوانينه التى يدعى انه مرسل بهاوجدوها طبق ماأخبرتهم به الرسل المتقدمون وبحثوا عن العلامات التى قالوا انها توجد فيه فوجدوها موجودة ظاهرة فيه بلا تمويه فعند ذلك صدقوه بدعواه أيضا واتبعوه أكمل الاتباع

(وطائفة) منهم قالوا الاحوط ان نتروي وننظر فيما يأمرنا به ذلك الرجل وما ينهانا عنه وفى تلك القوانين التى يدعى انهـا من عنـد الملك فان كان يأمرنا بما يعهده مطابقا لرضى ملكنا وينهانا عما نعهده خلاف رضاه ورأينا القوانين التى جاء بهـا هى طبق مانعهده أيضا من قوانين الملك متكفلة بخير الوطن رافعـة عن الناس شرور المحن لاسيما اذا رأينا ذلك الرجـل لايأمر بشيء يعود عليه بصالح خاص به بل مطالبه عائدة بالنفع العام لجميع الشعب نعلم انه صادق فى دعواه وان كان الامر خلاف ذلك كله نعـلم انه كاذب بمدعاه فعند مانظروا الى أوامره وجدوها طبق مايعهدونه مرضيا لملكهم ورأوا قوانينه كذلك متكفلة بخير البلاد ونجاح العباد ورفع الفساد ولا صالح له خصوصى فى كل مايأمر به وينهى بل هو مشتمل على مايجلب الخير ويدفع الضير محتو على تعاليمهم شكر الملك على انعاماته عليهم وبالحقيقة

ذلك الشكر عائد بالمنافع اليهم فعند ذلك جزموا بصدق ذلك الرجل بما يدعيه وخضعوا له أتم الخضوع

(وطائفة) منهم قالوا لاشك ان جميع مايدعيه هذا الرجل بيننا وما ينشره من القوانين وما هو عازم على اجرائه من التصرف بأحوال من يتبعونه من رعية ملكنا لابد ان يعلم به ملكنا ومن المحال ان لايعلمه لظهوره علنا بين الخاص والعام ومثل ذلك لايتم كتمانه ولو عن أقصى البلاد فان كانت دعواه صحيحة أقره الملك على اعماله ولم يرسل اليه من يكذبه ويقبض عليه وعلى من يتبعه و يعاقبهم أشد العقاب وان كان كاذبا فى دعواه مزورا على الملك خطه وختمه ومتلاعبا فى رعيته حسب هواه فلا شك ان الملك فى أسرع وقت بعد مايعلم خبره يرسل من يكذبه بمدعاه ويقبض عليه وعلى أتباعه وينزل بهم النكال الشديد لان هذا الافتراء لايكون حقيراً عند ملكنا الحكيم الحازم بل هو أمر من أعظم الامور يستحيل أن يعفو عنه أو يتساهل فيه فصبر أولئك القوم مدة من الزمان كافية لان يعلم الملك خبر ذلك الرجل ومضت الليالى والايام التى لايصدق العقل معها أنه يخفى على الملك خبره ومع ذلك لم يرد من جانب الملك من يكذب ذلك الرجل و يقبض عليه وعلى من يتبعه وينزل بهم النكال و يمنع الناس عن العمل بقوانينه التي نشرها بينهم فى جميع الشؤن والاحوال بل لم يزل ذلك الرجل يزداد اتباعا يوما فيوما ويعلوا شأنه حينا فحينا فعند ذلك جزم أولئك الطائفة بصدق ذلك الرجل واتبعوه اكمل الاتباع

(وطائفة) منهم لم تسبق افكارهم الى تلك الادلة التى وصلت اليها أفكار أولئك الطوائف السابقة وانما تأملوا فى شأن هذا الرجل وفى متابعة أولئك الطوائف

له وفى الوجوه والدلائل التى حملتهم على تصديقه والتسليم اليه فقالوا ان هؤلاء الاقوام الذين اتبعوا هذا الرجل لاشك انهم عقلاء وأصحاب آراء سديدة ومستعدون للاستدلال على الحقائق والتوصل للصواب ونراهم قد تركوا عوائدهم المألوفة لهم والموروثة عن آبائهم وهجروا أكثر قوانين ملكهم التى كان قد سنها فى الزمان الماضى كل ذلك بسبب تصديقهم هذا الرجل ولاشك ان هجر مثل تلك العوائد المذكورة يصعب عليهم جدا وانهم يعلمون قطعا ان تركهم لكثير من القوانين التى كان سنها لهم الملك ان لم يكن بأمره ورضاه يستحقون انتقامه الشديد فتصديقهم هذا الرجل لابد ان يكون ناشئا عن تحرير أدلتهم التى اعتمدوها فى تصديقه ولولا انها أدلة قاطعة أوصلتهم الى الصواب لما كانوا جروا بمقتضاها ولما هجروا مألوفاتهم وتعرضوا لانتقام ملكهم ولكانت عقولهم السليمة تمنعهم ان يقدموا هذا الاقدام ويخاطروا هذه المخاطرة اعتمادا على دليل ضعيف أو هوى نفس وخيم العاقبة فاتفاقهم جميعا على تصديق هذا الرجل مع تنوع أدلتهم لاشك أنه حجة اخرى مستقلة تثبت دعواه اذأن من المحال الذى لا يصدقه العقل ان يكون ذلك الاتفاق من أولئك القوم العقلاء وتوفر تلك الادلة التى وضحت لهم حاصلا بوجه الصدفة ولا يقول بالصدفة فى ذلك الا مكابر فنحن اعتمادا على جميع ماتقرر لدينا على هذا الوجه المشروح وهو اتفاق هؤلاء الجماهير بهذه الكيفية التى لاتكون بوجه الصدفة ولا تنشأ الاعن تثبت وتحقيق تام من أولئك العقلاء قد صدقنا هذا الرجل فيما يدعيه وامتثلنا جميع مايأمرنا به مقرين بانه رسول ملكنا بلا اشتباه

(وطائفة) منهم كانوا ممن أغفلهم أمر معاشهم واستغراقهم فى لذاتهم فهم لا يعلمون

أن للناس ملكا متوليا عليهم وان حقيقته انه كبير له السلطة التامة على شؤن
جميع الناس بحيث يتصرف فى أحوالهم بموجب العدل حتى يمكنه ان يجمع
الاموال الكثيرة منهم التى لا يتوفر جمعها لغيره وانّه يمكنه ان يقتنى التحف
الفاخرة التى يمتنع على سواه ان يقتنيها لانفراده بانقياد الناس اليه مادة وادبا
فيمكنه جمع قواهم الحسية والمعنوية الى قوته فيبلغ بذلك مالا يبلغه غيره
وكانوا ايضا من غفلتهم يظنون ايضا ان امور النــاس ومجرى احوالهــم
ومعاملاتهم بمقتضى القوانين التى بين ايديهم كل ذلك ليس بتــدبير ملك
واختيار متصرف متسلط بل يتوهمون ان ذلك جميعــه جار على طريق
الاعتياد ومقتضى تقلبات الزمان وطوارق الحدثان حتى صار ذلك ناموسا
مألوفا جاريا بلا تخلف ألفته الطباع وخلافه عندها لا يستطاع فهم بالاحرى
ان لا يعرفوا رسلا للملك وكيفية ارسالهم ووضع القوانين من جانب الملك
وانها باختياره وان له تبديلها بسواها فهؤلاء القوم لما سمعوا دعوى ذلك
الرجل التى ادعاها في بلدتهم على رؤس الاشهاد ونظروا الى شؤن أولئك
الطوائف معه وانهم كذبوه أولا وحاوروه ثم انقادوا اليه وصــدقوه تنبهت
افكارهم واستيقظت البابهم ومن يسمع يخل فقال بعضــهم لبعض ان هــذا
الامر مهم جدا فان كان يوجد للناس ملك متسلط عليهم غاية التسلط وشأنه
في تلك السلطة ان يتصرف فى احوالهــم وان يجمع اليــه قواهم ويتحلى
بغناهم وهو الآن مرسل هــذا الرجل ويامرنا باتباعه وبقينا نحن فى غفلتنا
هذه لا نمتثل له امرا ولا نرفع له ذكرا فلا شك ان عاقبتنا تكون وخيمة
علينا اذ لا بد ان هذا الرجل يبلغه حقيقة حالنا وعدم التفاتنا اليه فينتقم منا
أشد الانتقام ولا يعذرنا بجهلنا وغفلتنا عن سلطانه فالصواب لنا ان نتأمل فى

كلام هذا الرجل ودعواه وفى شؤون هولاء الجماهير الذين خالفوه ثم اتبعوه حتى نتوصل الى حقيقة الحال أهو صادق فنتبعه ام كاذب فبالتكذيب نصدعه فاخذوا يتأملون فى ذلك مع كامل التحرى واتم البحث فبعد تأملهم الصحيح وتحريهم الكامل وبحثهم التام عن حقيقة الصواب نتج لهم ماملخصه اننا وان كنا لا نعرف ان فى الكون ملكا ولا نعرف خطه ولا ختمه ولا انشاء ولا شيأ من قوانينه حتى نقابل بها ماجاء به هذا الرجل ولا نعرف اخبار الرسل المتقدمين فى شأنه ولا العلامات التى علموه بها فلاأقل من اننا نعتبر شهادة هؤلاء الجماهير الكثيرة الذين قالوا انهم يعرفون تلك الامور جميعها ويتحققونها وقد اتخذوها عمدتهم في تصديق هذا الرجل وسلوكهم فى سبيل يصعب عليهم سلوكه لولا تيقنهم بصدقه فاتفاقهم على ذلك وهم عقلاء وتصريحهم بشهاداتهم انهم يعرفون تلك الادلة ولا يرتابون فيها وانها كافية للتصديق وسلوك هذا الطريق الذى فارقوا فيه مألوفاتهم و بعض ماأمرهم به الكبير الذي دعوه باسم الملك هو دليل لنا كاف على صدق هذا الرجل فيما يدعيه فان ذلك كله لا يكون ناشئا بطريق الصدفة أو عن عبث أو هوى نفس أو مداهنة تحمل أولئك الاقوام على الامر الخطير واذا أهملنا هذا الاستدلال وقطعنا النظر عن شهادة هؤلاء الاقوام فى شان هذا الرجل وعن جميع ماأجروه معه فلا يمكننا ان نهمل النظر فيما احضره من التحف الفاخرة التى طلبت منه وشهد له طلابها بأنها من عند الملك ولا توجد عند سواه ولا يمكن احضارها الا باذنه ونحن كذلك نرى انه ليس من شأن هذا الرجل قطعيا ان يوجد عنده مثل هذه التحف بل بمقتضى شانها وعزتها وقلة أمثالها تجزم عقولنا بانها لا توجد الا عند من له السلطة التامة والتصرف

المطلق فى أموال الناس قادر على جميع قواهم الحسية والمعنوية الى قوته حتى تبلغ درجة يمكنه معها ان يقتنى مثل هذه التحف النفيسة فاحضار هذا الرجل لها عند ماطلبت منه هو دليل كاف على وجود كبير متصف بتلك الصفات السامية يسمى ملكا وانه هو الذى أرسل ذلك الرجل الينا وصدقه فى دعواه بتسليمه له تلك التحف عند ماطلبت منه فاعتمادا على ذلك كله قد جزمنا نحن بوجود ملك للناس وبارساله هذا الرجل الينا وخضعنا له أتم الخضوع وانقدنا اليه كامل الانقياد

هذا وقدكان يوجد بين أهل تلك البلدة من كل طائفة من الطوائف المتقدمة أناس أخذتهم عزة النفس وعتو الانفة والتهالك على مااعتادوا عليه موروثا عن آبائهم فتصوروا ان هذا الرجل اذا سلمنا له دعواه فلا بد ان يصير هو الآمر علينا ونحن المأمورين له وكثير منهم قد كانوا أمراء بين أقوامهم متميزين على أقرانهم فصعب عليهم تصديقه والخضوع له بسبب تلك الوساوس فاصروا على تكذيبه ظاهرا وقلوبهم مملوءة بتصديقه ولكنما غلب هواهم العاجل على عقولهم وهان عليهم انتقام الملك الآجل بما سكنت اليه نفوسهم من اختيارها الباطل وهكذا يوجد من الحمقاء من تراه عند انفعالاته النفسية من نحو عزة النفس أو الغضب أو الغيرة أو التعصب الباطل يغمص الحق وينصر الباطل ويهون عليه الخطر العظيم ثم يندم بعد ذلك حين لاينفعه الندم ثم أخذ أولئك المعاندون يؤولون كل دليل من الادلة التى اعتمد عليها سواهم من أولئك الجماهير بتأويلات واهية وتمحلات ساقطة ويصرفون كلا منها عن دلالته بطرائق فاسدة لايقبلها صريح العقل ولا يشهد بها الضمير الحر وتارة يغلطون أولئك الاقوام فى استدلالاتهم بغير

سند يعتمد عليه وغفلوا عن أمر لايغفل عنه الا البليد الجاهل بطريق الاستدلال ولا ينكره الا متجاهل مكابر يدعى جواز وقوع المحال وهو انه لو سلم لهم بالفرض ومجاراة الخصم تأويل كل دليل على حدته لايسلم العقل السليم والضمير الحر انه بطريق الصدفة قد توفرت تلك الدلائل لتصديق ذلك الرجل وتيسر له ان يصورها مع فسادها بصور الادلة الصحيحة ويموهها على أولئك الجماهير حتى اقنع افكارهم بتصديقه واخرجهم مما الفوه الى غير ما الفوه على ان بعض تلك الدلائل لم يكن ذلك الرجل مقيما لها عليهم ولا ساعيا بتدوينها لديهم وانما أوصلتهم اليها عقولهم بعد التأمل والاستبصار ولا صنع له فيها البتة ووجود العلامات التى قالت الرسل قبله انها توجد فيه لايصدق العقل ايضا ان يكون في قدرته احداثها في نفسه واحواله وقد جهل هؤلاء المؤلون أن الاشياء المجتمعة لها حكم غير حكم كل فرد منها على انفراده فلها من القوة ماليس له وهذا مسلم في المحسوسات والمعقولات فشهادة الفرد غير شهادة الافراد الكثيرة المجتمعة وهذه تفيد مالاتفيده الاولى وتعطي من القوة مالا تعطيه وكذلك الادلة الكثيرة المجتمعة على نتيجة واحدة تقنع الضمير وتبعده عن الركون للتاويل مالا يفعله الدليل الواحد والدليلان فاذا سلمنا ان ذلك الرجل تيسر له تقليد خط الملك فكيف يصدق العقل انه مع ذلك تيسر له تقليد ختمه وانشائه وموافقة القوانين التى سنها الملك سابقا واحضاره التحف التى لاتوجد الا عند الملك ولا يمكن احضارها الا بارادته وكيف اتفق مع ذلك ان توجد فيه العلامات التى كانت الرسل المتقدمون ذكروا انها توجد فى الرسول الذى فى عزم الملك ان يرسله بعد حين وكيف خفى أيضا أمر

دعواه على الملك بعد اشاعته فى البلدة ومرور مدة كافية لبلوغ خبره للملك ولم يرسل اليه من يكذبه و يعاقبه و بالحق انه لايصر على القول بتلك التأويلات واعتقاد الصدفة بتلك الموافقات الا مكابر جامد على هواه وتعصبه الاعمى يستحق اهمال كلامه وعدم الالتفات اليه (وقد) وجد ممن كذب ذلك الرجل فرقة لم يعملوا فكرهم فى الاستدلال على صدقه أو كذبه فغاية ماكان منهم انهم بتوا متمسكين بما الفوه من قديم الزمان موروثا عن اسلافهم وقالوا اننا لانترك مانحن عليه ولا نفارقه الى سواه تمسكا اعمى وتعصبا أعشى وهؤلاء القوم لو قيل لهم ان هذا الرجل اذا كان صادقا فى دعواه يخشى عليكم من انتقام الملك بسبب عدم اتباعه لم يكن لهم من الجواب الا قولهم انه كذاب ونحن لا نصدقه فيما يدعيه فهذا غاية ماعندهم من الجواب الناشئ عن الجمود البارد والفكر الخامد فهؤلاء الخاملون هل يظلمهم الملك بانزال انتقامه بهم لا والله لانه لو قيل له عند ارادته عقاب من كذب رسوله ان هؤلاء معذورون فى تكذيبهم اياه لعدم ظهور دليل لهم على صدقه كان له ان يقول لو كنت أراهم عديمي العقول فاقدى الادراك فى أمر معاشهم لكنت عذرتهم وعفوت عنهم ولكنى أراهم في أمور معاشهم وصوالحهم الخاصة بهم ذوى عقول وتنبه تام وتيقظ كامل كاف لبلوغهم مآربهم فكان عليهم ان يوجهوا هذه القوى التي يستخدمونها في تعيشهم وصوالحهم الى التأمل في دعوى ذلك الرجل والاستدلال بواسطتها على صدقه أو كذبه كما يستعملونها فى استدلالهم على اخصامهم عند منازعتهم فى اغراضهم فاذن هم عندى غير معذورين بل تهاونهم فى الالتفات الى كلام رسولى والتأمل فى دعواه هو الذي أعمى عين بصيرتهم وأوقعهم فى خطأ تكذيبهم اياه وبذلك يستحقون انتقامي وسلب انعامي

فانا أنتقم منهم بهذا الوجه الظاهر الجارى على موجب العدل

ثم ان ذلك الرجل المدعى ارسال الملك اياه بعد اتباع أولئك الجماهير له لم يزل مهتماً باقناع الذين لم يصدقوه وهم الفرقة المكابرة المتمحلة عليه بالتأويلات الواهية والفرقة المكذبة له بدون التفات الى الدلائل فجعل دائماً يقدم لهم النصائح ويوضح لهم الادلة ويوقظ افكارهم لما فيه صلاحهم وهم مع ذلك لايزدادون الا نفوراً ومكابرة وجموداً فلما اعياه أمرهم وتحقق انه لاينجع فيهم عمل البرهان ورآهم قد انتصبوا له ولاتباعه أعداء ألداء يترقبون الفرص للاضرار والاذى جرد لهم السيف وناصبهم الحرب بأمر الملك الذي أرسله

اذا المرء لم ينجع به النصح لم يكن   له رادعا الا العصا فوق رأسه

فاستعان بمن أطاعه على من عصاه وقامت بين الفريقين الحرب على قدم وساق وحاصل الامر بعد مااستمرت الحرب بينهما سجالا سنة الله فى خلقه اذ جعل الامر دولا انه انتصر ذلك الرجل على مخالفيه والعاقبة للمتقين فقتل بعضهم اذلا دافع لاذاهم الا القتل واتلاف المؤذى أمر معقول مقبول وبقتلهم سلامة المدينة من الدمار

(وقطعك العضو المريض ان يكن   به حياة المرء عين الواجب)

واستأسر بعضهم كسر الشوكة أذا هم بضرب الاسترقاق عليهم وجزاء لمخالفتهم رضاء ملكهم واخضع بعضهم لامتثال بعض أوامره التى تكف بأسهم عن الاضرار به وبأتباعه وشرط عليهم ان لايجاهروا بتكذيبه وان كانوا باطنا مكذبين حفظا لابهته وحذرا من انصداع افكار متبعيه وان يدفعوا اليه من مكاسبهم مايكون عونا على تدبير شؤن البلدة وأبقى مجازاة تكذيبهم له الى حضور الملك يفعل بهم ما تقتضيه حكمته والبعض منهم

خرج من البلدة والتجأ الي المعاقل والجبال وهؤلاء أيضا لم يهمل محاربتهم كلما امكنته الفرصة املا فى رجوعهم الى تصديقه وحذراً من كرهم عليه وعلى اتباعه بالاذى عند قدرتهم عليه وقد أنذرهم بانه وان خلصوا من انتقامه بتحصنهم فلا يخلصون من انتقام الملك متى حضر وظهر عليهم فانه يفعل بهم حينئذ مايستحقونه بمقتضى العدل والحكمة

والبعض منهم الجأهم الخوف أوالطمع الى التصديق ظاهرا واضمروا في قلوبهم التكذيب فألحقهم ذلك الرجل باتباعه وعاملهم معاملة أشياعه لانه كان يقول انى مامور من الملك ان أعتبر ظاهر من يتبعنى لان البحث عن بواطنهم ربما أفسد علىّ كثيراً منهم بعد ان يكون صادقا و يفتح لاعدائى باباً ان يقولوا عنى انى مرتاب فى اتباعى وغير مطمئن لهم وهؤلاء القوم المتلبسون متى انكشف حالهم للملك فيما بعد واطلع على بواطنهم وانهم لم يتبعوا رسوله الاخوفا أوطمعا وهم يبغضونه أشد البغض ويترقبون الفرص لاذيته وأذية اتباعه الصادقين فلا شك انه ينزل بهم أشد النكال ويذيقهم الاهوال اذهم أعظم ضرراً من سواهم ولا يؤمن فى جميع الاحوال اذاهم

والبعض منهم الجأهم الخوف أو الطمع بمافى أيدى ذلك الرسول وأيدى اتباعه من الاموال التي يجمعها لاصلاح شأن المدينة الى التصديق والخضوع ظاهراً وهم في الباطن مكذبون ولكنهم بعد ما خالطوا ذلك الرجل واختبروا أحواله وفهموا حقيقة القوانين التى ادعى أن الملك أرسله بها وشاهدوا معاملته مع اتباعه بكل استقامة وانه لايأمر الا بالخير ولاينهى الاعن الشر انشرحت قلوبهم لتصديقه ظاهراً و باطناً نصدقوه كذلك وصاروا من خيار اتباعه وأكرم أنصاره

اذا أحطت خبرا بجميع ما حررناه وفهمت رموزه وخفاياه وظهر لك فى شأن هذا الرجل ان العقل الحر السليم الخالى عن الهوى والتعصب الاعمى المطلق من قيود التقليد وخجل الخروج عن الخطأ الذى اعتاد عليه يحكم بصحة دعواه وانه رسول الملك بلا اشتباه لان اتفاق تلك الدلائل لايكون بوجه الصدفة عند كل لبيب عاقل فاعلم ان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه الصلاة والسلام قد نقل لنا بالتواتر أى نقل لنا الجماهير الكثيرة الذين لايحصى عددهم ويحيل العقل تواطئهم على الكذب كاحالته مثلا تواطئ الناس جميعا على الاخبار بوجود مكة وهى غير موجودة عن الجماهير الكثيرة كذلك وهلم جرا عن الجماهير الكثيرة كذلك الذين شاهدوه ونظروه راي العين واحاطوا باحواله وبما جرى له فى مدة حياته مع الامم حتى تم له تصديق الالوف من اتباعه بكل ماجاء به انه بعد مامضى له من العمر اربعون سنة بين قومه وقد عرفوه بالصدق والامانة حتى دعوه محمد الامين ولم يجر له فى تلك المدة تعلم القراءة والكتابة ولم يجتمع مع اهل هاتين الخطتين اجتماعا يمكنه معه ان يتعلمهما منهم ويؤهله ذلك لاكتساب جملة من معارف الامم وشرائع الاقدمين وقوانين المما لك ولم يعثر عليه فى تلك المدة بمعاناة شئ من ذلك قام بين جماهير العالم من العرب والعجم مع قلة ذات يده وقلة انصاره واعوانه وعدم سبق سلطنة فى اجداده قد زالت فيظن به انه يريد استردادها بالتحيل على الرآسة فادعى ان الله سبحانه وتعالى اله العالم ارسله الى الناس كافة لاجل ان يبلغهم شرعه الذى شرعه لهم ليتكفل بنجاحهم فى الدنيا والآخرة وان هذا الشرع يناسب زمانه الذى بعث فيه الى انقضاء هذا

العالم وانه ينسخ به كثيرا من احكام شرايع الرسل الذين بعثهم الله تعالى قبله فيما مضي من الزمان الذى كان هذا المنسوخ يناسبه وانه ينهاهم عن عوايد واخلاق قبيحة مضرة بصوالحهم ورثوها عن ابائهم أو زينها لهم الشيطان واقبح شئ منها عبادة الاوثان والنيران والاحجار والاشجار وانه يامرهم بتوحيد الله تعالى واعتقاد اتصافه بصفات الكمال وتنزهه عن صفات النقصان وانه يعلمهم كيفية شكرهم لخالقهم على نعمه التى انعمها عليهم وبالحقيقة ذلك الشكر عائد بالمنافع اليهم الى غير ذلك من كل مايجلب لهم الخير ويدفع عنهم الضير مما حوته شريعته المرسل بها فعند ماسمع منه أولئك الجماهير عاليهم ودانيهم وسلاطينهم وجبابرتهم هذه الدعوى العظيمة نفروا من قبول دعواه وعادوه اشد المعاداة وهجره منهم الاهل والخلان وكذبه الشيوخ والشبان وتحول له الاوداء أعداء والموافقون اخصاما الداء ثم اخذوا فى مجادلته ومحاولته وجرهم منهج المجادلة الى طلب حجته وصار كل منهم يطلب برهانا على صدق دعواه ويتمحل له التعجيز فى كل مايراه وهو عليه السلام ينصب لهم الدلائل ويجيب في المقترحات كل سائل ومن أعظم الحجج التى استند فى اثبات دعواه اليها وجعل معظم اعتماده عليها ماتلاه عليهم من مجموع كلام عربى يسميه قرآنا ويقول انه من عند الله تعالى أرسله به اليهم وهو مشتمل على التصريح بأنه رسول الله تعالى الى الناس كافة وانه صادق فى كل مايبلغ عنه سبحانه وهو متكفل ببيان الشريعة التى شرعها الله تعالى لهم وقد جعل عليه السلام يتحداهم بأقصر جملة منه يسميها سورة بمعنى انه يستدل على انه من عند الله تعالى بعجز فصحاء اللسان العربى منهم وبلغائه بأجمعهم عن الاتيان بما يساوى أقصر سورة

منه فى فصاحتها وبلاغتها وأهل ذلك اللسان هم أمرا. هاتين الخطتين وفطاحل هاتين الصنعتين وفيهم من بلغ فيهما أعلى المراتب التى يعجز عن بلوغها كل من سواهم من البشر ولا توجد فوقها مرتبة يمكن استيلاء القوة البشرية عليها ووصول العقل الانسانى اليها ثم بعد الاخذ والرد والاقبال والصد أخذ أولئك الجماهير ينضمون الى محمد عليه الصلاة والسلام ويخضعون لديه ويدخلون فى دينه أفواجا ويمتثلون أوامره افرادا وأزواجا مسلمين له بالرسالة من عند الله الا من لم يرد الله تعالى ان يتولاه واذا أردنا ان نمثل أحوال أولئك الاقوام وشؤنهم معه عليه السلام حسب ماتدل عليه الاخبار الصحيحة والآثار الثابتة وحسب الامكانات العقلية التي لوفرض وقوعها تكون نتايجها كما سنقرره فى هذه الرسالة أوصلنا التأمل الصادق الى تمثيل شؤنهم معه عليه السلام بأنهم كانوا فى شأنه على طرائق مختلفة ومناهج متنوعة سلكوها حسب استعدادهم وسمو أفكارهم وخمودها فطائفة منهم وهم أهل الفصاحة والبلاغة العربيتين الرائج فى ذلك الزمان بين الامة العربية سوقهما فكانتا أشرف علومهم وأكرم مفاخرهم وهم أمراؤهما العالمون بأساليبهما الحاملون أعلامهما والمحيطون بأسرارهما وبما هو فى طوق البشر من مراتبهما وبما هو ليس في طوقهم من ذلك أصحاب الخطب الطنانة والقصائد الرنانة لما تحداهم عليه السلام بأقصر سورة من القرآن الذى جاء به وادعى عجزهم عن معارضته ووصفهم بالضعف والقصور عن بلوغ تلك المنقبة ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا منوها بذلك فى كل محفل مشهرا له فى كل جحفل ومع ذلك يسفه أحلامهم فى عاداتهم وعباداتهم ويطعن في معبوداتهم التى عبدوها بضلالتهم أخذوا يتأملون فى ذلك القرآن

ويسبرونه بمسبار التبيان ويقلبونه ظهرا لبطن ويتدبرونه تدبر الناقد البصير فظهر لهم ان هذا القرآن بلغ مرتبة فى الفصاحة والبلاغة لا تدركها القوى بشرية ولو ان بعضهم كابر وعارضه لجاء بالغث البارد وأصبح سخرية عند الصادر والوارد لان كل أمر قوبل بما يفوقه ويفضله بدرجات سامية تظهر للمقول دناءته وتتضح للافكار خساسته وتنحط فى الأنفس منزلته ولو كان فى نفسه سميا فتحقق عندهم عجزهم عن معارضته ولو بأقصر سورة منه فاقروا بعجزهم بل بعجز البشر وبان ذلك دليل على انه من عند خالق القوى والقدر فصدقوا جميعا دعوى محمد عليه السلام بالرسالة واتبعوه فيما جاءبه من عند الله على مايرام

وطائفة منهم كانوا من اهل الخبرة فى نقد الكلام ومعرفة الصفات الفاضلة فيه وتدبر اساليبه التى تروق ذوى الالباب ومشتملاته التى تاتى بالعجب العجاب فظهر لهم بعد التامل الصادق فى ذلك القران أنه وجدت فيه خواص كاملة لايمكن فى العقل اجتماعها في مجموع كلام مهما تأنق فيه واضعه واتسع اطلاعه على الماضى والحاضر والمستقبل وأحوال الامم فى شؤنها اجمع والاحاطة في جميع الفنون والآداب والحكم والسياسات وتحرى فيه عدم المضاربة والتناقض وحسن الاسلوب مع الانفراد عن الاساليب المعهودة عند العرب الاان يكون القائل هو الله تعالى القادر على ذلك كله وعلى جمعه فى كلام يريد جمعه فيه وذلك انهم وجدوا هذا القرآن يخبر عن غيوب مستقبلة تاتى طبق اخباره كوعده اتباع محمد عليه السلام بدخول مكة آمنين فجاء الامر كذلك ويخبر عن قصص الاولين وسير المتقدمين كما هى حكاية من شاهدها وحضرها ويخبر عن الضمائر من غير

ان يظهر ذلك من اصحابها بقول اوفعل كما يعلم من حوادث حدثت لبعض اتباع محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام ولبعض اعدائه (كما فى التفاسير وكتب الحديث) وهو مع اتساع مجاله فى كل فن من اخبار وأحكام ومواعظ وامثال واخلاق وآداب وترغيب وترهيب ومدح الاخيار وذم الفجار وتحذير من قبائح السجايا ومواقع الدنايا وتدبير السياسات ومراعاة الاوداء ومدافعة الاعداء ومجادلة الاخصام وتبكيت الطغام واقامة الدلائل على وجود الباري تعالى وتوحيده وعلى الحشر والنشر ودفع الشبه وازالة الريب ووصف دار النعيم واحوال سكانها ودار الجحيم واهوالها ووصف عالم السموات ومافى العالم العلوى من الآيات من كواكب وامطار وسحائب وبروق ورعود وعجائب ووصف الارض وجبالها وسهولها وبحارها وينابيعها وانهارها وما اشتملت عليه من نباتات وحيوانات ومعادن وازهار وأثمار واشجار واطيار وظلمات وأنوار حتى يصح ان يقال انه لم يبق علما من علوم الاوائل والاواخر الا صرح به أو أشار اليه على أساليب متنوعة وطرائق مبتدعة لم يقع فيه تناقض ولم يتخلله تضارب خاليا عن جميع العيوب خارجا بحسن نظمه عن مشابهة كل اسلوب ليس له مثال يحتذى عليه ولا امام يقتدى به فلا هو من نوع القصائد العربية ولا من الاراجيز البدوية ولا من الخطب القسيه ومع ذلك فهو فى العقول مستحسن وفي النفوس مستملح وفى الاذواق مستعذب وفي القلوب محبوب وللاسماع مألوف كلما تكرر حلا ومن أى الافواه سمعته علا وغلا ولا يصح بصرك الله تعالى فى العقل السليم ان تجتمع كل تلك الصفات فيه اتفاقا ولا يصدق بالصدفة فى ذلك الضمير الحر فقالوا ان الذى ظهر لنا وتحققناه من اجتماع تلك الصفات فى

هذا الكلام البديع انه كلام تعجز عنه قوي البشر ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا فاتيان محمد عليه السلام به وهوامى ومن المحال عادة ان يأتى به اكبر العلماء واحذق الفلاسفة واعظم المؤرخين وا كبر السياسيين دليل واضح على انه من عند الله تعالى ارسل محمدا به ليكون معجزة له تدل على تصديقة اياه فنحن قد صدقنا دعوى محمد عليه السلام بالرسالة من عند الله وآمنا بجميع ماجاء به فاصبحوا من اتباعه وا كرم اشياعه

وطائفة منهم لم يكونوا من اصحاب الفصاحة والبلاغة ولم يكن عندهم قوة النظر والاحاطة بالصفات التى اشتمل عليها القرآن الدال اجتماعها فيه على انه ليس من مصنوعات البشر ولكنهم رأوا محمدا عليه السلام ادعى الرسالة من عند الله وادعى ان هذا القرآن من عند ربه وانه يتحدى أهل الفصاحة والبلاغة باقصر سورة منه ويدعى عجزهم عن معارضته ويشافههم بذلك فى كل مجمع ويقرعهم بقصورهم عنه على مرأى من عموم الناس ومسمع ورأوا ان البعض من أهل الفصاحة والبلاغة الحائزين قصب السبق فى ميادينهما قد أقروا بالعجز عن معارضته وفارقوا دين آبائهم وقديم عاداتهم واتبعوا محمدا عليه السلام فى دينه وسلكوا معه سبيلا يصعب عليهم سلوكه لولا تيقنهم بأنه عليه السلام رسول الله تعالى يأمرهم بسلوك هذا الطريق ورأوا ان بعضا أخر من أهل الانتقاد والبصيرة ومعرفة الصفات الفاضلة للكلام قد شهدوا له باجتماع صفات فاضلة شريفة فى ذلك القرآن لايمكن اجتماعها فى كلام الا ان يكون من عند الله تعالى فصدقوا محمدا لاجل ذلك أيضا وفارقوا ماهم عليه واتبعوا سبيله ورأوا بعضا آخر من أهل الفصاحة والبلاغة المشهود لهم بالسبق فى هذين الفنين من جمهور أهلهما

قد أحجموا عن المعارضة لذلك القرآن مع تحديه لهم عليه السلام باقصر سورة منه ومناداته بين الملاء العام بعجزهم عن معارضته وتقريعهم فى كل ناد بذلك العجز ومع ذلك لم يظهر منهم الا الاصرار على ماهم عليه والالتجاء الى مكافحته عليه السلام بالحرب فتعرضوا لسفك دمائهم ونهب أموالهم وسبى ذراريهم وتخريب ديارهم وهجر أوطانهم فلو كان فى قدرتهم معارضة ذلك القرآن ولو بمقدار اقصر سورة منه كما تحداهم به لما كانوا أحجموا عن المعارضة وتعرضوا للبلاء العظيم فكان يمكنهم ان يؤلفوا مقدارا من الكلام الفصيح البليغ مساويا فى الفصاحة والبلاغة لاقصر سورة من القرآن ويقولوا لمحمد عليه السلام هانحن قد عارضنا قرآنك وابطلنا برهانك فسقطت دعواك بعجزنا عن المعارضة وتبين ان الاتيان بمثل هذا القرآن في استطاعة الانسان فلا وابيك مافعلوا ذلك ولو فعلوه أو جاءوا بما يقارب المساوى لنقل الينا لتوفر دواعيه كما نقل الينا جميع شؤنهم معه عليه السلام من هجوله وقذف وسفه عليه وعنف ومعارضة شعراء امته وخطبائهم وانما التجوا الى ذلك البلاء العظيم والخطر الجسيم وهم بلا شك اصحاب عقول تمنعهم ان يتركوا السبيل السهل المستطاع ويختاروا اوعر المسالك واصعب المناهج فاى عاقل يفعل ذلك ويسعى في اتلاف نفسه وماله وولده وتخريب دياره وهجران اوطانه بلا ضرورة تلجئه الى اختيار الاشق وارتكاب الصعب نعم

اذا لم تكن الا الاسنة مركبا * فما حيلة المضطر الا ركوبها

وحيث لااضطرار فأى شئ حملهم على تجشم الاخطار ماحملهم الا عجزهم عن المعارضة والتعصب الاعمى الذى اشقاهم فاولئك القوم لما تأملوا في

أحوال هؤلاء الفرق الثلاث وتبصروا فيها تبصّر الناقد البصير قالوا ان شؤن هؤلاء الفرق من اقرار الفصحاء البلغاء منهم بالعجز عن المعارضة غير متهمين بالمداهنة وانقيادهم الى التصديق واقرار اهل المعرفة منهم ببلوغ القرآن الدرجة التي لا تنال في الصفات الكمالية واذعانهم أيضا بصدق محمد عليه السلام وظهور عجز بعضهم من أهل الفصاحة والبلاغة عن المعارضة باحجامهم عنها والتجائهم الى الصعب الاشق هو دليل كاف لنا على صدق محمد عليه السلام في دعواه الرسالة فنحن آمنا به وصدقناه

أقول كان هؤلاء الطائفة قد كوشفوا باستدلال الجاحظ رحمه الله تعالى فى بعض كتبه على صحة دعوى محمد عليه السلام الرسالة من عند الله بعجز العرب عن معارضته فى القرآن الكريم ولننقل هنا كلامه في ذلك كلاما يأخذ بمجامع القلوب ويدفع الريب عن كل محجوب قال رحمه الله تعالى بعث الله تعالى محمدا عليه السلام أكثر ما كانت العرب شاعرا وخطيبا واحكم ما كانت العرب شاعرا وخطيبا واحكم ما كانت لغة وأشد ما كانت عدة فدعا أقصاها وأدناها الى توحيد الله تعالى وتصديق رسالته فدعاهم بالحجة فلما قطع العذر وأزال الشبه وصار الذى يمنعهم من الاقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة حملهم على حظهم بالسيف فنصب لهم الحرب ونصبوا له وقتل من عليتهم واعلامهم واعمامهم و بنى اعمامهم وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباح مساء الى ان يعارضوه ان كان كاذبا بسورة واحدة أو بآيات يسيرة فكلما أراد تحديا لهم بها وتقريعا لعجزهم عنها تكشف حيلة ولا حجة قالوا له أنت تعرف من أخبار الامم ما لا نعرف فلذلك يمكنك ما لا يمكننا قال فهاتوها مفتريات فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع

فيه شاعر ولو طمع فيه لتكلفه ولو تكلفه لظهر ذلك ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامى عليه ويكابر فيه ويزعم انه قد عارض وقابل وناقض فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم واستفحال لغتهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته لان سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله وأفسد لامره وأبلغ فى تكذيبه وأسرع فى تفريق اتباعه من بذل النفوس والخروج عن الاوطان وانفاق الاموال وهذا من جليل التدبير الذى لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأى والعقل بطبقات ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ولهم الاسجاع والمزدوج واللفظ المنثور ثم يتحدى به أقصاهم بعد ان أظهر عجز أدناهم فمحال أكرمك الله ان تجتمع هؤلاء كلهم في الامر الظاهر والخطاب المكشوف البين مع التقريع بالنقص والتوقيف على العجز وهم أشد الخلق انفة وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا اليه والحاجة تبعث على الحيلة فى الامر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة وكما انه محال ان يطيقوه ثلاثا وعشرين سنة على الغلط في الامر الجليل المنفعة فكذلك محال ان يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل اليه وهم يبذلون أكثر منه انتهى

(وطائفة منهم) وهم غالبا الذين لاسبق لهم في الفصاحة والبلاغة ولم تسم أفكارهم الى الاحاطة بما حواه القرآن من الصفات الفاضلة التى لايمكن جمعها فيه لاحد من البشر ولم يلتفتوا الى عجز من عجز عن معارضته من أهل تينك الخطتين واقرارهم بذلك ولا الى حال من حملهم

العجز عن الالتجاء الى المقارعة كانت أنظارهم منصرفة الى عالم الطبيعيات والى النواميس التى تجرى على موجبها حوادث الكون ويعلمون انه ليس في قدرة البشر تغيير شيء منها قالوا نحن نطلب من محمد (عليه السلام) الاتيان بامور تكون خارقة لتلك النواميس أي خارقة للعادة المطردة في هذا الكون فان جاء بذلك يكون صادقا لانه اذا خرقت العادة فى ذلك على يديه عند طلبنا ذلك منه يتبين لنا ان الله تعالى خرقها له تصديقا لدعواه الرسالة من عنده ويكون اجراء ذلك بمنزلة قوله تعالى صدق محمد فيما يبلغ عنى ألا ترى انه لو قام رجل فى حضرة ملك وخاطب الحاضرين قائلا ان هذا الملك يأمركم ان تطيعونى فيما آمركم به فقالوا نحن لا نصدقك فى هذه الدعوى حتى يقوم هذا الملك الآن من مكانه ويجلس فى المكان الفلانى من هذا المجلس فلما سمع الملك كلامهم قام من مكانه فى الحال وجلس فى ذلك المكان الذى ذكروه ثم اذا طلبوا منه حركة أخرى تصدر من الملك تكون تصديقا له كنزع الملك التاج عن رأسه ووضعه على رأس آخر ففعلها الملك فى الحال وهكذا حركة أخرى كمشيه سبع خطوات في المجلس ورجوعه لمكانه ففعلها أيضا فلاشك ولا ريب حينئذ ان تلك الافعال التى صدرت من ذلك الملك على خلاف عادته بمجرد سماع كلامهم لاتكون بوجه الصدفة وانما هى بمنزلة قوله صدق هذا الرجل فيما يدعيه لديكم من انى آمركم باطاعته ومن يقل خلاف ذلك ويدعى الصدفة فى وقوع ذلك يعد من الحمقاء وان عجز محمد عن الاتيان بما نطلبه منه من خوارق العادات كان ذلك دليلا على كذبه وتكذيب الله له فاخذوا يطلبون منه عليه السلام اجراء خوارق للعادات الجارية في هذا

العالم باطراد

فبعضهم طلب منه انشقاق القمر فأتى به طبق ماطلبوه ورآه رأى العين حاضرهم وغائبهم ممن وردمن أمكنة بعيدة متحدة الافق مع مكان الحاضرين فاخبر بانه رأى انشقاقه مثل مارأى الحاضرون

وانشقاق القمر ليس الا من قبيل مايحصل عند الزلازل من انصداع الجبال العظيمة وانقلاب عاليها سافلها ومن قبيل مايزعمه بعض متأخري الطبيعين من ان الارض وكواكب أخر منفصلات عن الشمس وسيعدن اليها يوما ما وكل ذلك من الجائز عقلا الداخل تحت تصرف الاله القادر وان كان غير معتاد سواء جعل له سبب أملا وطول الزمان الذى يلزم ان يكون عوضا عن زيادة القوة فى احداث الاعمال انما هو شرط فى جانب القوة الناقصة أى قوة المخلوقات لافى جانب قدرة الاله التامة وانما جعل سبحانه تلك الازمنة والاسباب فى اعماله ذات الاعجاب ابتلاء لاولى الالباب يضل بذلك من يضل ويهتدى آخرون الى الصواب

وبعضهم طلب منه ان تسعى اليه شجرة وتكلمه وتشهد له بالرسالة فجاء بذلك طبق ماطلب منه

وبعضهم طلب ان يكلمه الضب ويشهدله بالرسالة أيضا ففعل على وفق ما طلب منه (وكلام ماذكر يكون بخلق الله الكلام وصدوره من ذلك وهو من الجائز عقلا الداخل تحت تصرف القدرة الالهية بناء على المعتمد ان نحو الحياة والادراك والآت النطق ليست الا شروطا للنطق عادية يمكن حصوله بدونها أويكون بخلقها ثم صدور النطق عما ذكر بناء على انها شروط لازمة للنطق على ما قيل وهو أيضا تحت تصرف القادر سبحانه وتعالى)

وبعضهم شاهد اتباعه عليه السلام حينما أعوزهم الماء فى السفر فطلبوا منه السقيا فوضع كفه فى قليل من الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه وهم يستقون منه حتى اكتفوا وهم كثيرون (وهذا يكون بخلق الله تعالى مقدارا من الماء ينضم الى ذلك القليل منه ويظهر للرائين انه خارج من بين أصابعه حيث يخلق هناك والله الخالق لاخالق سواه وأيضا اذا كان انقلاب الهواء ماء هو داخل تحت تصرف قدرة الكيماويين فما بالك بقدرة خالق العناصر والكيميا والكيماويين) وهكذا من خوارق العادات التى جرت على يديه عليه السلام عند ماطلبت منه وقد نقل لنا ذلك بالاخبار الصحيحة التى جاء بها العدول وان يكن بعض منها على انفراده لم يبلغ حد التواتر فلاشك ان مجموعها بالغ ذلك الحد فانه بلا ارتياب صح متواترا اجمالا انه عليه السلام أتى بخوارق العادات عندما طلبت منه وهذا هو التواتر المعنوى المعتبر عند المحققين من العقلاء ولا ينكر تواتر ذلك الا مكابر لايخجل من انكار الضروريات فهؤلاء القوم حين وجدوا انه عليه السلام قد جاء بما طلب منه من خوارق العادات وخلاف النواميس الكونية التى لايقدر على خرقها الا الله تعالي أيقنوا بتصديق الله له باجرائها على يديه عند طلبها منه فآمنوا به وصدقوه واعتقدوا رسالته عليه السلام (أقول وليعلم ان أمثال هذه المعجزات ماكانت الا لاقناع عقول من قصرت أفهامهم عن ادراك المعجزات الادبية كما مر فى شأن القرآن وسيأتي في شأن انتظام الشريعة المحمدية واشتمالها على مايدل انها من عند الله تعالى وفى انطباق العلامات المذكورة فى كتب المتقدمين على محمد عليه السلام ونرجو ممن يدعون ادراكهم للمعجزات الادبية ان لاتكون تلك المعجزات الحسية عقبة فى طريق ايمانهم

زعما انها تخالف علومهم التي درسوها في مدارسهم وترفضها عقولهم بل الصواب فى شأنهم والحزم والاحتراس في سعيهم ان يعلموا ان هذه الخوارق ما جاءت الا لاقناع من قصر عن ادراك تلك الادبيات وان عليهم ان يقتنعوا بما تقبله عقولهم ثم مالا تقبله ويرفضه البرهان العقلى القاطع يرجعون فيه الى التأويل الجامع بين النقل والعقل كما سيأتى ان ذلك هو القاعدة فى الشريعة المحمدية فيما ورد نقله وظاهره مخالف للبرهان والا فيصبحون كمن يرى الشمس فى كبد السماء ويزعم ان الوقت ليل لانه تخيل له رؤية نجم طالع فيترك الدليل الواضح على وجود النهار ويتشبث بما تخيله من ذلك النجم الذى لم يتحقق وجوده كما تحقق وجود الشمس ثم لقصور تحققه ربما يكون مخطئا في رؤيته واعتقاد وجوده لسبب من أسباب الغلط فكان عليه ان يؤول رؤيته لذلك النجم ان لم يتحقق عدمه ولا يهمل الدليل الواضح على وجود النهار وهو تلك الشمس المشرقة والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

(وطائفة منهم) قالوا ان الله تعالى قد ارسل الينا رسلا فيما مضى من الزمان مصحوبين بشرائع شرعها لنا تتكفل باصلاح شؤننا وتناسب الزمان الذى ارسلوا فيه وقد كان أولئك الرسل يقولون ويشيرون الى انه سوف يرسل الله الى الناس كافة رسولا بعد حين بشريعة تتكفل باصلاح شؤنهم وتناسب الزمان الذى يرسل فيه ويوجد فى ذلك الرسول علامات هى كذا وكذا ولم يزل كثير من تلك العلامات مذكورا فى الكتب التى بين أيدينا المنسوبة لاولئك الرسل فنحن ننظر فى حال محمد عليه السلام فان كان ماجاء به من الشريعة طبق ما أخبر به الرسل المتقدمون ووجدنا

فيه تلك العلامات التي قالوا انها تكون فيه نعلم يقينا انه صادق فى دعواه وان كان الامر بخلاف ذلك كانت دعواه ساقطة ولا يعبأ بكلامه فلما تأملوا في حاله عليه السلام وجميع شؤنه وجدوا ان شريعته متكفلة باصلاح شؤن الناس على أكمل مايرام (كما سيأتي شرحه في كلام الطائفة التالية لهذه الطائفة) ووجدوا فيه العلامات التى ذكرها الرسل على أظهر مايكون عند من يرفع التعصب الاعمى والتأويلات الواهية ويروم الوقوف على الحق والخلاص من سوء العاقبة والنصيحة لنفسه ولولا مه قومه وعذله بنوه وتلك العلامات لم تزل مسطرة فى تلك الكتب الى الآن وتفصيل ذلك انهم وجدوا انه يصدق على محمد عليه السلام كناية اشعيا بقوله (١) ان الرب استعلن من جبال فاران ومعه الوف الاطهار وفي عينه سنة النار كما ان مجيء الرب من سينا فى قول اشعيا كناية عن موسى واشراقه في ساعير كناية عن عيسى عليهما السلام لان جبال فاران هى مكة كما جاء فى سفر التكوين عن اسماعيل عليه السلام انه سكن فاران (٢) وقوله معه الوف الاطهار كناية عن اتباع محمد عليه السلام الطاهرين من كل الشوائب كما هو مشاهد فيهم (٣) وقوله فى عينه سنة النار كناية عن مشروعية الجهاد فى شريعته ويصدق عليه مافي التثنية (٤) انه يقيمه الرب نبيا من وسط اخوتهم وليس اخوة اسرائيل الا بنى اسماعيل (٥) وانه مثل موسى يعنى فى شريعته ومشروعية الاحكام والجهاد فيها (٦) وجعل كلام الرب فى فمه هو ذلك القرآن الذى أتى به فى غاية الكمال ويصدق عليه مافى يوحنا (٧) من انه الفارقليط والمعزى الذى يعلم كل شيء يعنى من الحقائق والمعارف التى نراه يعلمها اتباعه (٨) وانه هو المذكر بما قاله عيسى عليه السلام يعنى من

التوحيد والايمان والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة (٩) وانه الذى يشهد لاجل عيسى عليهما السلام يعنى بالنبوة والرسالة وبراءته مما قيل فيه (١٠) وانه لم يجئ حتى يذهب عيسى عليه السلام وكان الامر كذلك (١١) وانه يوبخ العالم على الخطيئة فانا نراه يوبخ كل ذى معصية واثم ويصدق عليه مافي المزامير وهو (١٢) كونه حسنا فانه في اعلى طبقات الحسن (١٣) وكون الحكمة منسكبة على شفته وذلك ظاهر فى ذلك القرآن الذى يتلوه والحكم التى يجلوها والمعارف التى يبرزها (١٤) وكونه متقلدا سيفا فهو ملتزم محاربة اعداء دينه (١٥) وكونه قويا فهو قوي الحجة متين السياسة قوى الجسم فقد صرع اشـداء العرب (١٦) وكونه ذا حق (١٧) وكونه ذا دعة (١٨) وكونه ذاصدق فهذه الصفات الثلاث ظاهرة فيه (١٩) وكون نبلة مسنونة فاستعداده هو واتباعه للاعداء فى أدوات الرمى امر معلوم وهم مأمورون في شريعته بتعلمه ومن نسيه منهم بعد ان تعلمه يحكم عليهم بالاثم (٢٠) وكون الشعب تحته فهو قد استولى على الشعب العربى تقريبا (٢١) وكونه محبا للبر (٢٢) وكونه مبغضـا للاثم فكلا الامرين محقق فيه يشهد له بهما اعدى اعدائه (٢٣) وكون بنات الملوك تخدمه فهذه بنات امراء العرب يجلبن اسيرات اليه وهذه صفية بنت احطب صارت زوجتـه وهى بنت ملك من ملوك اليهود (٢٤) وكون الهدايا ترد اليه من الملوك فهذا النجاشى ملك الحبشة والمقوقس ملك مصر وغيرهما يقدمون له الهـدايا (٢٥) وكون الاغنياء تنقاد له فهؤلاء أغنياء اتباعه يدفعون زكاة أموالهم للفقراء بمقتضى أوامره ويصدق مافى أشـعيا أيضا (٢٦) على صلاته التى فرضت فى شريعته من أنها تسبيحة جـديدة

لأنه لم يعهد فى الشرائع الماضية عبادة تشاكلها (٢٧) وانه يعممها على سكان أقاصى الارض وأهل الجزائر والبرارى فهى أول عبادة في دينه بعد الايمان لايستثنى منها مكلف (٢٨) وان البرية ترفع صوتها بذكره وهى لديار التى يسكنها قيدار وهو أحد أجداده في سلسلة النسب الذى بينه وبين اسماعيل عليهما السلام وهى بلاد العرب وقد طبق ذكره تلك البلاد بل ملأ المسكونة من اغوار وانجاد (٢٩) وانه به يترنم سالع وهو سلع من رؤس الجبال فهؤلاء اتباعه يهتفون بذكره فى رؤس الجبال وقمم الآكام في الاذان والصلاة عليه والتسليم فى كل آن (٣٠) وانه يخبر بحمده وهو الاذان فى خمسة أوقات فى اليوم والليلة يذكر فيه اسمه ويشهد له بالرسالة (٣١) وخروج الرب كجبار هو كناية عن الجهاد المشروع في شريعته ولما كان الاخلاص فى الجهاد مؤكدا عليه غاية التأكيد حتى أخذ بتعريفه فقيل ان الجهاد هو مقاتلة العدو لاعلاء كلمة الله تعالى صح ان يكنى عنه بخروج الرب تعالى كجبار (٣٢) وهو يسير العمى في طريق لم يعرفوها وهم العرب اجهل خلق الله فى الاديان وقد سيرهم فى طريق دينه الذى لم يعرفوه (٣٣) وهو يخزى عباد الاوثان والمنحوتة فهو اشد خلق الله عليهم وقرآنه مملؤ بتسفيه احلامهم والطعن فى اصنامهم (٣٤) وهو القتول الذى خلق لاهلاك من اشرك بالله تعالى ويصدق عليه ما فى متى (٣٥) من انه الحجر الذى رفضه البناؤن صار راس الزاوية لانه من نسل هاجر الذين كان بنو اسرائيل يحتقرونهم ويقولون عنهم أبناء الجارية ويصدق عليه فى المشاهدات (٣٦) من انه الذى أعطى سلطانا على الامم وهو يرعاهم بقضيب من حديد لانا نراه قد أعطى ذلك السلطان كما هو مشاهد فيه فقد خضعت

له اعظم القبائل اصحاب الانفة وقضيبه الحديد هو سيفه الذى زجر وساق به من عصاه (٣٧) وهذا القرآن الذى جاء به اذا تأملنا هدايته لمنهج الخيرات فهو كوكب الصبح الذى يعطاه ويصدق عليه ما في المزامير (٣٨) ان الحبشة تجثو له فهذا نجاشيها قد آمن به (٣٩) وهذه ملوك اليمن تأتيه بالقرابين (٤٠) وهذه الامم تخضع وتدين له بالطاعة (٤١) وهو مخلص المضطهد البائس ممن هو اقوى منه لانا نراه يحرج على ظلم الاقويا للضعفاء وينهى عنه اشد النهى ويكف الظالم عن ظلمه مادة وادبا (٤٢) وهو ينقذ الضعيف الذى لا ناصر له فانا نرى هذا شأنه كما هو مشاهد فيه (٤٣) وهو رؤف باالضعفاء والمساكين كما هو معلوم من حاله ولا يزال يتودد اليهم حتى يعد نفسه منهم ويدعو به بذلك فهو يقول اللهم احينى مسكينا وامتنى مسكينا واحشرني فى زمرة المساكين (٤٤) وهو ينقذهم من الربا فقد شدد على منع الربا شفقة على المساكين الذين يحتاجون للاستقراض وحضا للاغنياء على عمل المعروف بالاقراض وقد قال فى بعض خطبه كل ربا تحت قدمى (٤٥) وهو يعطى من ذهب سبا وهى من احدى جهات اليمن فهذا خراجها يجبى اليه (٤٦) وهو يبارك عليه فى كل يوم كما هى عبادة اتباعه فهم فى كل يوم فى صلوتهم يقولون ماينوف عن العشرين مرة السلام عليك ايها النبى ورحمة الله وبركاته و يقولون ماينوف عن عشر مرات وبارك على محمد وعلى آل محمد (٤٧) ونراه هو واتباعه مثل الزرع الكثير على وجه الارض فى الاخذ فى النمو من يوم قام بدعواه الى الآن ويصدق عليه مافي اشعيا (٤٨) انه معضد مختار وهذا ظاهر فيه من تقدم امره يوما فيوما (٤٩) وهو يسمى فى اظهار

الدين الذى ادعاه دين الله من غير ملال ولا كلال واظهر العلامات الجسدية فيه مافى اشعيا أيضا (٥٠) من وجود علامة سلطانه على كتفه بقدر ريضة الحمام وهو يسميه خاتم النبوة (٥١) وانه يدعى اسمه عجيبا فانه اسمه محمد لم يسبق التسمية به لاحد من اجداده واسمه أحمد لم يسم به احد قبله (٥٢) وهو مشاور الله تعالى لان دعواه انه لاينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى (٥٣) وانه ابوالعالم لان اتباعه كالابناء له في الطاعة وهو لهم كالاب في الشفقه والتربية (٥٤) وانه رئيس السلام لانه منع الحروب الجاهلية التى كانت بين العرب لاثمرة لها الا اتلاف النفوس وجهاده لاعدائه انما كان لتثبت الدين الذى يدعى انه دين الله تعالى ولتقرير السلام بين العالم فهو من قبيل القتل انفى للقتل (٥٥) وان سلطانه يكثر يوما فيوما كما هو مشاهد (٥٦) وانه يكثر سلامه لانه كلما ازدادت اتباعه راقت الاحوال وزالت الفتن الجاهلية (٥٧) وهو راكب الجمل اذ هو من العرب ركاب الجمال كما ان راكب الحمار هو عيسى عليه السلام (٥٨) وانه بعد ظهوره تكسرت الاصنام والقيت الى الارض كما فعله عليه السلام بها عند فتح مكة ودخوله الكعبة فصار يلقى الاصنام عنها فتتكسر و يصدق عليه مافي رؤيا يوحنا (٥٩) انه يدعى امينا وهذا الاسم قد اشتهر به حتى من قبل ان يدعى الرسالة فكان يقال له محمد الامين (٦٠) وانه يحكم بالعدل ويحارب وهكذا نرى حاله حتى انه يفرض على امته الحكم بالعدل ولوكان المرء يحكم على نفسه أو ولده ومحاربته كذلك بالعدل لايغدر اذا عاهد ولا يقتل فى جهاد صبيا ولا امرأة ولا عاجزا عن مباشرة الحرب وتدبيرها ولا منعزلا لما يعتقده من العبادة

(٦١) والاجناد الذين يتبعونه يلبسون بزا ابيض نقيا وهكذا نرى احب الملابس اليه البياض وامتـه على اختياره ويحب فى شريعته لبس البياض فى يوم الجمعة الذى هو العيد الاسبوعى عندهم (٦٢) ومن فمه يخرج سيف ماض لكى يضرب به الامم ينطبق هـذا على القرآن الذى جاء به فانا نراه قد ضرب به الامم العربية واعجزهم عن معارضته (٦٣) وهذه الطيور تأكل لحوم الملوك الذين يحاربونه ويقتلهم وهو أمر مشاهد فكم جندل من ملك اصبح طعمة للطير (٦٤) وقـد اجتمعت عليـه ملوك الارض واجنادهم ليصـنعوا معه حربا وكفانا شاهدا لذلك من تجمع عليـه من الاحزاب من ملوك خيبر والاعراب ويصـدق على اتباعـه مافى المزامير (٦٥) ان معهم السيوف ذات الحدين وانهم المنتقمون من الجبابرة (٦٦) وانهم يقودون الملوك ويسوقونهم بالسـلاسل والاغلال فقد فعلوا هذين الامرين بلا ارتياب (٦٧) وانهم يبتهجون على مضاجعهم اذ من سنتهم ان يبتهجوا بذكر الله تعالى عند ارادة المنام حتى يناموا (٦٨) وانهـم يكبرون فى كل وقت فهذه صلاتهم لايجوز لهم الدخول فيها الا بتكبير الله تعالى مع تكرار التكبير فى انتقالاتها وتكبيرهم فى الاذان للصلوات وفى عيد الاضحى امر معلوم ويصـدق عليهم مافى التثنية (٦٩) ان الله اغار بهم شعب اسرائيل اغارهم واغضبهم بشعب جاهل اذ العرب اجهل الشعوب قبلما اهتدوا بمحمد عليه السـلام لايعرفون من الاديان سـوى عبادة الاوثان (٧٠) وانهم هم الذين اعطوا ولم يسألوا اذ هم لم يطلبوا شيئا من الشرائع ويصدق على بلد محمد وهى مكة ما في اشعيا (٧١) انها العاقر لانه لم يظهر منها نبى بعد اسماعيل عليه السـلام (٧٢) وبنو الوحشة

هم العرب اولاد هاجر التى هى بمنزلة المطلقة وقد وقع في حق اسماعيل
كما فى سفر التكوين انه سيكون وحشا وبنو ذات رجل هم اولاد سارا
فقد ظهر سر الخطاب لمكة المدعوة عاقرا بان تسبح وتهلل وتنشى الشكر
لان كثيرا من اولاد هاجر الوحشة التى هى بمنزلة المطلقة افضل من اولاد
سار التى هى ذات رجل (٧٣) وقد حصل لمكة من الوسعة بواسطة
محمد عليه السلام مالم يحصل لغيرها من المعابد (٧٤) وحصل لها التعظيم
بتقديم القرابين فى كل سنة مالم يحصل لغيرها أيضا من المعابد الا نادرا
فلما تم لهؤلاء الطائفة المقابلة بين ماجاء فى الكتب المنسوبة للرسل
المتقدمين من العلامات التى ذكروا انها تكون فى الرسول الذي وعد الله
تعالى بارساله وبين شؤن محمد واتباعه ووجدوا انها باجمعها منطبقة عليها لم
يشذ عنها شىء مع بلوغ العلامات ما ينوف عن السبعين وهذا العدد من
الكثرة بمكان حتى شاع ذكره عند ارادة المبالغة قال بعضهم لبعض ان
اجتماع تلك العلامات لمحمد عليه السلام لم يكن حاصلا لسواه من الرسل
الذين جاؤا بعد ورود تلك العلامات فى تلك الكتب الى زمن ظهوره
وان وجد بعضها فى بعض الرسل الذين جاؤا قبله لكن لم يوجد فيه البعض
الآخر منها ولا يصح ان يقال انه وجد فيه لظهور ان صفاته تخالف ذلك
وتنافيه مثلا من وجد منهم انه يحب البر ويبغض الاثم لم يوجد فيه ان
تخضع له الملوك ويسوق العالم بقضيب من حديد أو هو قتول للاعداء ونحو
ذلك ثم ان اجتماع تلك العلامات فيه (عليه السلام) لايصح فى العقل
ان يكون بوجه الصدفة مع كثرتها وتنوعها ولا يقول بالصدفة الا مكابر
متعنت ومن العبث والعناد وعدم التحرز من سوء المعاد انا بعد ان وجدنا

انطباق هذه العلامات الكثيرة على شؤن محمد عليه السلام ولا مانع يمنع من
كونه هو المعلم بها لاعقلا ولا عرفا ولا عادة ولا شرعا ان نقول لعل
المعلم بتلك العلامات هو غيره وأن ذلك الغير سيأتي بعد زمن آخر ونترك
اتباع هذا الشخص الذى تحققت العلامات فيه ونتنظر شخصا آخر موهوما
مشكوكا فى مجيئه فلو ان خادما اعطاه سيده كتابا وقال له ادفعه الى رجل
يأتيك بعد حين ويقول لك انا الرجل الذى امرك سيدك بدفع الكتاب
اليه وعلامة ذلك الرجل هى كذا وكذا وذكر جملة علامات يستبعد العقل
اجتماعها فى اثنين ثم لما جاء ذلك الرجل عند الخادم وطلب منه الكتاب
كما قال سيده ورأى الخادم فيه تلك العلامات امتنع عن دفع الكتاب
اليه واحتج على امتناعه بأنه لعل مراد سيدى غيرك أفلا يجزم كل عاقل
ان ذلك الخادم قد خالف سيده واستحق عقابه وترك الامر المحقق
وانتظر الامر الموهوم بلا داع يدعوه الى ذلك سوى الوسواس أو شيء
آخر قريب منه فنحن ان تركنا اتباع محمد (عليه السلام) بعد انطباق
تلك العلامات عليه واقمنا ننتظر غيره (لاسيما ان مرت المئات من السنين
ولم يجئ ذلك الغير) يحكم علينا العقل السليم بما يحكم على ذلك الخادم
من انحرافه عن منهج الصواب بلا ارتياب فاذا كان محمد صادقا في دعواه
ووجدنا فيه تلك العلامات وبعد ذلك لم نصدقه واقمنا ننتظر غيره فماذا
يكون جوابنا لربنا أنكذب ونقول له لم تنطبق عليه العلامات التى علمته
بها وهو سبحانه لايخفى عليه شئ ام نقول له انا لم نصدقه لاننا انتظرنا
شخصا غيره يجيء فيما بعد فاذا سألنا وقال ماالذى حملكم على ذلك ولاى
دليل استندتم في ترك تصديقه وانتظارسواه فما جوابنا سوى ان نقول هكذا

فعلنا تركنا المحقق وانتظرنا الامر الموهوم أيكون هذا جوابا منجيا عند ربنا لا والله فالصواب فى حقنا ان نتبع محمدا ونصدقه بدعواه واذا فرض (وقد يفرض المحال للتوصل الى الحق في الاستدلال) انه غير المراد لله ولرسله بتلك العلامات واخطأنا باتباعه مع اجتماع تلك العلامات فيه كان لنا عذر وحجة عند ربنا اذلنا ان نقول حينئذ يا ربنا أنت عليم بكل شئ وتعلم الرسل الصادقين والمدعين الرسالة كذبا ولا يخفى عليك شئ من حوادث المستقبل البتة فحيث انك تعلم انه سيأتي رجل كاذب فى دعوى الرسالة وتوجد فيه جميع العلامات التى ذكرتها وسلك انهاتوجدفى الرسول الصادق الذي ترسله لنا أفلا يكون من موجب حكمتك التامة ورأفتك ورحمتك علينا ان تنبهنا على لسان رسلك عن ذلك الكاذب وتحذرنا منه ولو بعلامة واحدة تميزه عن الرسول الصادق المراد بتلك العلامات ولا اقل ان تقول الرسل انه ياتى كاذب متصف بتلك العلامات قبل الرسول الصادق فاحذروه فحيث يا ربنا لم يحصل لنا شى من ذلك فحكمتك تقتضى اعفاءنا من المؤاخذة والعقاب على اتباعنا غير مرداك لان عذرنا ظاهر ولكن حاشا ربنا من تلبيس الامر على عباده لان التلبيس نقص فى الحكمة وكل نقص في الحكمة محال على الله تعالى فالتلبيس على الله تعالى محال فلو كان المراد بتلك العلامات غير محمد لحصل علينا التلبيس منه تعالى لكن التلبيس لايحصل منه لانه محال فلا يكون المراد غير محمد (عليه السلام) فهو المراد بها من غير شك ولا تردد فنحن اعتمادا على جميع ماقام لدينا من هذه الادلة بكل اطمئنان قد صدقنا محمدا عليه السلام واتبعناه لان صريح عقولنا قد حكم بصدقه بمقتضى هذه الدلائل التى ظهرت لنا

أقول لو ان هؤلاء الطائفة حصلت مشاهدتهم لبقية العلامات المذكورة له عليه السلام فى تلك الكتب وظهرت فى ملك أمته بعد زمنه بقليل أو بكثير الى وقتنا هذا لزاد ابتهاجهم بتمام علاماته وتوفرت قوة حجتهم على مخالفيهم وبيان ذلك انه صدق عليه ما فى المزامير (٧٥) ان الشعوب سقطت تحته فقد أخضعت أمته فارس والروم والبربر وسواهم واستولت على ممالكهم ولا يقال ان السقوط تحت أمته لاتحته لان هذا التعبير مجاز معهود استعمال نظيره فى كتب الرسل ألا ترى ان الله وعد بنى اسرائيل حين أخرجهم من مصر ان يملكهم الارض المقدسة وانما ملكها أبناءهم لان نفس الذين خرجوا من مصر مع موسى عليه السلام قد ماتوا فى زمن التيه كما هو معلوم من تلك الكتب ونظائر هذا المجاز كثير (٧٦) وانه قامت بنوه عوضا عن ابائهم رؤساء في الارض فكم من ذريته عليه السلام أمراء فى اليمن والحجاز والغرب وغيرها يقوم أبناؤهم مقامهم (٧٧) وانه يذكر اسمه دورا فدورا فهو يذكر اسمه على ممر الأيام بين أمته فى الاذان والصلوات وفاتحة كل خطبة وخاتمة كل دعاء (٧٨) وانه تحمده الشعوب فهذا حمده فى ألسن الشعوب من أمته من عرب وترك وفرس وهنود وداغستان وافغان وقزاق وبربر وسودان وغير ذلك (٧٩) وانه لم يزل مباركا وهو كذلك الى هذا الدهر كيفما فسرنا المباركة بأحد معانيها وصدق عليه تفسير دانيال لرؤيا بختنصر (٨٠) من انه عليه السلام أعطى السلطنة له ولاتباعه فقد تسلطوا فى مدة قليلة شرقا وغربا وعلى بلاد فارس التى كانت هذه الرؤيا في شأنها (٨١) وانه الحجر الذى انقطع من جبل وسحق الخزف والحديد والنحاس والفضة والذهب أى دول فارس المعلومة من كتب التاريخ فانها

انسحقت بزمن أمته ولم يبق لهـا باقية (٨٢) وان ذلك الحجر صار جبلا
وملأ الارض وعظم سلطان أمته كان كذلك ويصـدق على شريعته مافي
متى من قوله (٨٣) يشبه ملكوت الله بحبة خردل أخذها انسان وزرعها
في حقل فنمت وصارت شجرة كبيرة فكان امر شريعته كذلك لان ابتداءها
كان فى غاية الضعف لانه قام بها منفردا مضاد القبائل والملوك فلم يال جهـدا
فى رفع شانها حتى نصر دينه وانتشرت شريعته ونمت ونموا عظيما لاسيما بعد
ماشرحتها علماء أمته واستنبطت احكامها واوضحت حلالها وحرامها (٨٤)
وان الملكوت نزع من غـير أمته وأعطى لامته الذين يعملون أثماره فهذه
شريعته لاتضاهيها شريعـة من الشرائع أحكاما وعدلا وآدابا وهؤلاء أتباعه
قائمون بها اعتقادا وعملا وصدق عليـه مافى المزامير (٨٥) من انه يملك
من البحر الى البحر فقد ملكت أمته من بحر الهند الى أقصى بحر طنجه
(٨٦) وانه يملك من النهر الى أقاصى الارض فقد ملكت أمتـه من نهر
الاردن اشهر نهر عند بنى اسرائيل فى زمن داود الى أقصى بلاد العـرب
جنوبا وهى أقصى الارض اذ ليس بعد ذلك الا الاوقيانوس الجنوبى ويصدق
على أتباعه مافي اشعيا (٨٧) من انه هرب أعداؤهم امام سيوفهم وقسيهم
وشدة حربهم (٨٨) وانه فنى مجد قيدار وهو أبو العرب وقلت عدد قسيهم
وذلك بظهور أمته الذين يعتمدون فى التناصر على الدين لا على الجنسـية
ويصدق عليه (٨٩) انه انفتح به أعين عمى وآذان صم وذلك هـداية
تلك الامم الجاهلية بشريعته (٩٠) وقد انفجرت فى البرية مياه وأنهار فى
القفر وصار السراب أجمـا والمعطشة ينابيع ماء وذلك بما أجراه خلفاؤه
فى الطريق الحجازية من المصانع والاسبلة (٩١) وصارت هنـاك سكة

وطريق يقال لهـا المقدسة لانه يمر فيها أهل ملته الموحـدون المقدسون من الشرك (٩٢) ولا يمر فيها نجس لانهـا محرمة على المشركين (٩٣) والسالك فيها لا يضل لكثرة علائمها و آثار الحجاج الذين يعرون فيها كل عام الوفا مؤلفة (٩٤) ويسلك المغديون فيها ومغديو الرب فهم حجاج الكعبة وزوار قبر محمد عليه السلام كل عام (٩٥) ويرجعون ويأتون الى صهيون احدى البلاد القدسية التى كانت في مملكة داود عليه السلام يعنى بهم الحجاج السوريين الذين يعودون من البلاد الحجازية الى بلادهم ومنها صهيون وأظهـر ماكان عودهم على هـذا الوجه عنـد ماكان قسم من الحجاج ينعطفون فى عودتهم من المزيريب الى البلاد القدسـية كما يعلم من التاريخ ولم تزل آثار ذلك موجودة من البرك الكبيرة التى تشاهد قرب القـدس وحبرون (٩٦) وهم بترنم وهو ذكرهم مولاهم على ماأولاهم من التوفيق لاداء فريضة حجهم وزيارة قبر نبيهم عليه السـلام (٩٧) وكونهم بفرح أبدى هو معلوم لكل من يخالط الامة الاسلامية فانه يشاهد من الحجاج فرحا لا يماثله فرح من أى افراحهم حتى ولا فرح الاعراس عند أكثرهم فترى السرور ملأ قلوب الحجاج عنـد عودتهـم وقلوب اهليهم وأحبابهم وفرقوا الهدايا واطعموا الاطعمة وأجروا الصدقات كل منهم على قدر حاله ويدوم ذلك الفرح فى قلب الحاج الى آخر نفس من حياته ولذلك سمى ابديا ومهما حدث عليه من المشاق في مدة سـفر الحج فلا يزال طول عمره يتلذذ يذكر ذلك السـفر المبارك ويدعو الله ان يمنحه اياه ثانيا ولو بلغه ثانيا يدعو بنواله ثالثا وهلم جرا واذا أرادا احدان يثنى عزم الحاج عند ارادته تكرار حجه ويقول له يافلان يكفيك ماسبق لك فقد اديت

فرضك يجاوبه باستغراب قائلا له وهل هذا الامر تقل فيه رغبة الانسان ويرتوى من منهله الظمآن هذا والله حال الامة الاسلامية فى فرحها بزيارة الكعبة المكرمة وقبر رسولهم عليه السلام على رغم الاثقال التى يتحملونها والحجر الصحى الذى يثقل عواتقهم ويضاعف نفقاتهم وكثرة من يموت منهم أو يقتله قطاع الطريق ينسلون من كل حدب من اقصى كشغر وبخارى وخوارزم وافغنستان وبلخستان والهندوالجاوى وداغستان والكرج والقوقاز وفارس والروملى والانضول وبلاد الروس والعراق والغرب واليمن والسودان وداخل افريقيا ومصر والشام يتكبدون حر الهواجر ويهجرون المنام في الدياجر يسلكون القفار ويمتطون لجج البحار ويفارقون البنين والعيال ويهون عندهم اقتحام الاهوال وقد يمر على بعضهم العام والعامان حتى يعود لاوطانه ويحظى بخلانه وكثير منهم من يحج على الاقدام فى تلك البوادى والآكام كل ذلك لرضاء الرحمن وطلب الغفران فهم بكل افتخار أعظم من تمسك بالدين ودفع الوهم باليقين (٩٨) وقوله عن أولائك العائدين الى صهيون وعلى رؤسهم الابتهاج والفرح هو ظاهر في الحجاج بما ينالونه من زيارة الكعبة المكرمة وقبر نبيهم عليه السلام فتراهم مبتهجين فرحين بما آتاهم ربهم (٩٩) وقوله ويزول حزنهم يعنى الذى كان فى قلوبهم قبل نوالهم مرغوبهم في تلك الزيارة المباركة (١٠٠) وقوله ويزول التنهد يعنى الذى كان يعتريهم أيضا قبل حجهم لقلة ذات أيديهم أو لموانع اخرى فهذه تمام مائة علامه تنطبق على أحوال محمد عليه السلام وأحوال أمته وبها قدظهر الصبح لذى عينين وزال عن القلب الغين

ثم أقول لو بقيت هذه الطائفة الى هذا الزمان أيضا لكان لهم استدلال من تلك الكتب على صدق محمد عليه السلام من أظهر مايكون وبيان ذلك انه ورد فيها كمافي الزبور ان طريق المنافقين تهلك وانه يهلك كل الذين يتكلمون بالكذب وان وجه الرب على الذين يعملون المساوى ليبيد من الارض ذكرهم وان سواعد الخطاة تكسر وانهم يهلكون وان اعداء الرب اذ يمجدون ويرتفعون يبيدون وكالدخان يفنون انتهي فأى ذكر باد لمحمد عليه السلام مع مرور ثلاثة عشر قرنا واسمه يذكره الالوف والملايين من أمته على المنابر وفى المآذن وفى الصلوات وكثير من العبادات فى أقطار الارض من مشارق ومغارب ومدن وقرى وقفار وبحار آناء الليل وأطراف النهار ولايذكر اسم الله تعالى فى الغالب الامقرونا به اسمه عليه السلام معظما مبجلا مدعوا له بكل خير محمودا بالالسنة محبوبا فى القلوب مفدى بالارواح محفوظ المقام مرعى الجناب تسعى الى حضرة قبره الشريف كل سنة الالوف المؤلفة من ملوك وأمراء وأعزة وكبراء وأغنياء وفقراء يسلمون عليه ويطلبون الشفاعة لديه ويتبركون بلثم أعتابه ويتداوون بعفير ترابه ترفع ليه مدائح الشعراء ومحامد الفصحاء مزينة بذكر محاسن صفاته وباهر آياته ولم تزل شريعته عليه السلام معززة مرفوعة المنابر موفرة الانصار تقتبس من أنوارها الامم وتهتدى بشموسها العرب والعجم واتباعه بفضل الله تعالى مالئون الارض متبعون ماشرع لهم من سنة أو فرض وان خالف بعضهم بعضا فى فهم بعض الاحكام من شريعته عليه السلام عند ارادة توضيح المرام فهم متفقون على أصولها ذات الاحكام من التوحيد والتصديق بالقرآن والحشر والنشر ووجود دار السلام ودار الانتقام

متماثلون على حبه وتعظيمه على ممر الليالى والايام فأى هلاك هلكوا وأى سواعدهم كسرت وأى فناء كالدخان فنوا غاية مايكون ان ينالهم حظهم من الابتلاء فى هذا العالم المنطبع على البلاء سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا وصورة استدلال هؤلاء الطائفة على صدق محمد عليه السلام لوبقوا الى هذا الزمان ان يقولوا لوكان محمد وأتباعه ممن ذكر في كلام المزامير من الخطاة والكاذبين وأعداء الرب لفعل بهم جميع ذلك النكال من ابادة الذكر والاهلاك والفناء كالدخان وكسر السواعد والا لزم تخلف خبر الرب على لسان داود لكنه لم يفعل بهم شىء من ذلك فهم ليسوا مما ذكر البتة واذا لم يكونوا ممن ذكر فيكونون من الطائعين والصادقين وأحباب الرب وحينئذ اذا نحن كذبناهم وأردنا نقض ما جاء به محمد عليه السلام نكون محاربين لله تعالى كما قال عمالائيل معلم اليهود فى حق الحواريين كما في اعمال الرسل وان كان (يعنى رأى الحواريين وعملهم) من الله تعالى فلا تقدرون ان تنقضوه لئلا توجدوا محاربين لله تعالى انتهى وعند ما ينتظم لاولائك الطائفة هذا الاستدلال كنت تراهم من أكمل الناس ايمانا دافعين كل وسوسة ترد على قلوبهم قائلين قبح الله الشيطان وقبح الله الهوى ما أغنانا عن التعصب الاعمى وأسر الضمير واسترقاق الفكر أيليق بنا الخجل من الحق أيحسن بنا ترجيح العاجل الدني الفاني على الاجل العظيم الباقى أيجمل بنا الركون الى الغفلة عن النظر فى العواقب والتقليد الفاسد والجمود البارد لا والله لا يرضى بذلك عاقل فانا لله وانا اليه راجعون والله الهادى الى سواء السبيل

(وطائفة منهم) كانوا فلاسفة أخلاق وآداب ولهم معرفة تامه في الشرائع

التى شرعها الله تعالى للامم السابقة ودقة نظر في أسرارها وفوائدها وفطرة سليمة تميز بين الحسن والقبيح من الصفات والافعال والسياسات والاحوال فقالوا من المعلوم ان لكل رسول يبعثه الله تعالى آيتين تدلان على صدقه أحدهما عقلية يعرفها أولو البصائر والافهام وهى ماله من الاصول الزكية والصور المرضية والاحوال الكمالية والعلوم الباهرة والدلائل القاهرة وثانيتهما هى المعجزة التى تدركها الحواس تكون خارقة للعادة وهذه يطلبها أحد رجلين أما ناقص عن ادراك ماتقدم ذكره من الاصول الزكية وماعطف عليها فيحتاج الى ما يدركه حسه لقصوره عن ادراك ذلك واما ناقص ومع نقصه هو معاند فقصده بما يطلبه العناد فيقول للرسول المبعوث اليه لا أومن بك حتى تفجر لى من الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب وتفجر الانهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء على أو تأتينى بالله وبالملائكة أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن أومن لرقيك حتى تنزل على كتابا أقرأه فيقول له الرسول سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا يعنى انى بشر عاجز وايجاد هذه المطالب وأمثالها مفوض الى ربى ان شاء أيدنى بها وان شاء لم يفعل نعم ان منصبى الرسالة وقد بلغتك ما أمرنى الله بتبليغه فاختر لنفسك ماتشاء ونحن لله الحمد والمنة لسنا من القاصرين عن ادراك آيات الرسل التى هى من القسم الاول بل نحن من ذوى البصائر والمعرفة وقد شاهدنا فى محمد صفات فاضلة هى من شأن الرسل الذين يرسلهم الله تعالى لهداية الخلق وذلك كشرف النسب وحسن الخلق والخلق وذكاء وفطنة وقوة حجة واستقامة محجة فعلينا بعد ذلك ان نتروى في دعواه وننظر فيما احتوت عليه شريعته التى يدعى انه مرسل

بها من عند الله تعالى فان كانت محتوية على الامر باعتقاد العقائد الصحيحة
التى تكون موافقة لما يعطيه البرهان الصحيح ولا يكلف الانسان بان يذعن
بضد يقينه وعلى الامر بالتحلى بالاخلاق الحسنة والآداب المستحسنة
والصفات الكاملة والاعمال الفاضلة والتدبيرات التى تحفظ حسن نظام
هيئتنا الاجتماعية والعبادات التى تحسن تأدية الشكر لنعم خالقنا علينا وايجابها
يكون لحكم ترجع بالنفع الينا كما هو سر العبادات التى تكون في شرائع
الرسل لان الله تعالى غنى عن كل شيء وكانت مشتملة على النهى عن اعتقاد
العقائد الباطلة الخرافية المكلفة للانسان الاذعان بضد ما تعطيه المشاهدة والبرهان
وعلى النهى عن الاتصاف بالاخلاق الذميمة وخلع حلة الآداب والتدنس
بصفات تذم وتعاب والاخذ بامور تخل بحسن هيئتنا وتفصم عقد نظامنا ولا
تكلفنا باعمال تزعمها عبادات تكون كفرانا لنعم ربنا مخلة بالادب معه تعالى
فهو رسول الله تعالى بلا شك لان هذا شأن رسله تعالى وحالة شرائعهم
عليهم السلام لاسيما اذا لم يكن فى شريعته ما يرجع عليه بالنفع الخاص
ويضر بالصالح العام فنؤمن به حينئذ ونصدقه وان كان الامر بخلاف ذلك
فنرفض دعواه ونشدد له المعاداة فتأملوا في شريعته وما اشتملت عليه
واستقصوا في البحث والانتقاد فوجدوا ان شريعته عليه السلام تأمر
بالاعتقادات الصحيحة الحقة الخالية عن كل خرافة وعما يكون ضد اليقين
وبالتخلق بالاخلاق الجميلة والتأدب بالآداب النبيلة والاتصاف بالاوصاف
الكاملة والاخذ بالتدابير الفاضلة التى تحفظ هيئة أمته ونظامها وتعود عليهم
بالمنافع وتدفع عنهم المضار وبالعبادات التى تحسن تأدية شكر النعم للخالق
تعالى وهى تنطوى على حكم ترجع عليهم بالنفع الكثير وتنهى عن العقائد

الزائغة الخرافية المخالفة ليقين الانسان وعن التخلق بالاخـلاق الذميمـة
وخلع حلة الآداب والتدنس بالصـفات التى تعاب وارتكاب اعمال سيئة
التدبير تخل بنظام الامة وعن العبادات الباطلة المخلة بالادب مع الله تعالى
والمنتجة كفران النعم لاشكرها وتفصيل ذلك انهم وجدوا الشريعـة
المحمدية محتوية على الامر بتوحيد الله تعالى ذاتا وصفات وأفعالا واعتقاد
انه تعالى متصف بصفات الكمال ومنزه عن صفات النقصان فتوجب على
المكلف ان يعتقد بانه سبحانه وتعالى موجود حى عليم أكمل العلم مريد
أتم الارادة قادر أعظم القدرة مستغن عن كل ماسواه مفتقر اليه كل ماعداه
لايشابه أحدا من خلقه ولا يشابهه أحد منهم قديم أزلى دائم أبدى ليس
لقدمه بداية ولالدوامه نهاية حكيم يفعل الاشياء طبق الحكـمة من غير وجوب
عليه لايكلف العباد بماليس فى وسعهم لاخالق سواه ولا مدبر غـيره خلق
الخلق من العدم وقدر أحوالهم من القدم منزه عن الظلم ولايتصور منه لان
الظلم التصرف بملك الغير بغير رضاه وهو سبحانه المالك الحقيقى المطلق
لجميع الكائنات خلق دارين غير هـذه الدار احـداهما لنعيم من أطاعه
والاخرى لعذاب من عصاه فهو يعيد الخلق بعد الفناء كما خلقهم بعد العدم
ليثيب المطيع ويعاقب العاصى ان شاء والا لم يكن من الحكمة ان يتساوى
بعد الموت الغنى المترفه الجبار الظالم لغـيره الكافر بربه مع الفـقير البائس
الضـعيف المظلوم المؤمن وان له سـبحانه وتعالى ان يتصرف بخلقه كيف
يشاء لكن حاشاه ان تجرى أفعاله على خلاف منهج الحكمة بل هى عين الحكمة
وكل ماجاء منه فهو بحسب صدوره عنه حسن أرسل رسلا الى البشر لهدايتهم
الى العقائد الصحيحة الحقة في حقه تعالى لان عقولهـم وان كانت تدل على

وجوده تعالى واتصافه بالصفات الكمالية التى تستلزمها الالوهية ولكن كثيرا من صفاته العظيمة لايمكن للعقول البشرية التوصل الى اعتقادها الا بتوفيقه تعالى بواسطة أولئك الرسل وكذلك فى ارسالهم هداية الخلق الى ما فيه صلاحهم واستكمال شؤونهم لان حكمته اقتضت ان يخلقهم مطبوعين على اخلاق حسنة تساعدهم على انتظام حالهم وعلى اخلاق تخالفها لاجل ان يتسابقوا بها فى عمار هذا الكون الذى قدر وجودهم فيه الى أجل معلوم لكن لما كان تحديد الرغبة فى السبق توجب وقوف كل راغب عند حده ويأسه من مجاوزته وبذلك تتعطل حركة المسابقة لم تعدل الاخلاق فى اصل الفطرة فصارت تلك الاخلاق السيئة فى معرض الطغيان والوصول الى حد يصبح به ضرها أكبر من نفعها فاقتضى الحال تلطيفها وايقافها عند حدها النافع غير الضار فبعث الرسل لتلطيفها وكسر سورتها حتى تعود لدرجة يظهر فينا نفعها ويزول عنا ضرها فكأنها تعود أخلاقا حسنة بعد ان كانت سيئة وذلك التلطيف يكون من الرسل بآلتين مؤثرتين فى النفوس وهما الترغيب والترهيب معما يقوى تأثيرهما من اقامة الدلائل على حسن الحسن وقبح القبيح مثلا الطمع خلق سيئ ولكن لولاه ماتجشم الخلق اعباء المكاسب والغرس والعمارة واذا طغى نشأ عنه منازعات الخلق وتولدت الشرور المبيدة فشريعة الرسول تلطفه وترده الى ارادة السعى والتعيش بعد ان يكون ارادة التكثر والاستئثار وبذلك تتم المسابقة فى عمار الكون بلا ضرر ولاضرار والى هذا الاشارة بقوله عليه السلام بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ثم هؤلاء الرسل طبعهم الله تعالى على الصفات الكاملة من الصدق والامانة والقيام بالحق فى جميع أحوالهم مع البر والاحسان والنصيحة

لكل انسان ونزههم عما لا يليق بمنصب رسالتهم من الوقوع فى المعاصى والاتصاف بسفاسف الامور ووجود كل منفر للخلق عن الاقبال اليهم وما وقع منهم من صور المعصية وسماها الله معصية فهى أمور طفيفة لا تنقص مراتبهم ولا تحط بشؤونهم وتسميتها معصية ومعاتبتهم عليها من جانب الله تعالى ليس الا بالنسبة لعلو مراتبهم وسمو مقاماتهم عليهم السلام وحكمة وقوعها منهم الاشارة الى انفراد الله تعالى وتوحده بالكمال المطلق فهم مبرؤن من كل مالا يليق وقوعه من أحد أتقياء البشر فضلا عن وقوعه منهم وهم كمل الخلق وصفوة الناس وذلك كالزنا لاسيما فى محارمهم والتسلط على اعراض اتباعهم ومدانسة المومسات والكذب والخيانة والكفر وعبادة الاوثان حاشاهم من جميع ذلك والشريعة المحمدية تأمر بالثناء عليهم وذكرهم بالتعظيم والتوقير ولزوم الادب معهم والعمل بما جاؤا به الا ما كان من أحكام كانت تناسب أزمنتهم فابدلت فى الشريعة المحمدية بما يناسب زمنه عليه السلام بامر الله تعالى الذى قدر من الازل لكل زمن ما يناسبه من الاحكام وتأمر أيضا هذه الشريعة المحمدية بتعلم القدر اللازم للانسان من العلم النافع فى تصحيح الاعتقاد والعبادات والاخلاق والآداب وبعد أمرها الامر الاولى المؤكد بالايمان وهو التصديق الجازم بجميع ماجاء به محمد عليه السلام قطعيا وبالاسلام وهو الخضوع والانقياد لجميع ما جاء به عليه السلام كذلك تأمر بالتقوى وهي اتقاء كل مضر للانسان فى دينه وبالاخلاص فى العمل لله تعالى وبالبر والاحسان فى العمل وهو ان المرء يعبد ربه كأنه يراه وبالنصيحة لخلق الله تعالى وبالصبر وهو مقاومة الآلام والاهوال وبالرضى بما يرضى الله تعالى وبالحياء وهو انحصار النفس خوف ارتكاب

القبايح وبالحلم وهو الطمأنينة عند سورة الغضب وبالعفو وهو ترك المجازاة للمذنب مع القدرة عليها ما لم تكن حدا من حدود الله تعالى وبالغبطة فى عمل الخير وبالسخاء والكرم وبالشجاعة وبالحمية وهى المحافظة على الحرم والدين من التهمة وبالنجدة وهى عدم الجزع عند المخاوف وبالايثار وبالمروة وهى الرغبة الصادقة فى الافادة بقدر ما يمكن وبالدعة وهى السكون عند هيجان الشهوة وبالقناعة وبالوقار وهو التأنى في التوجه نحو المطالب وبالسكون وهو التأنى في الخصومات والحروب وبالرفق وهو حسن الانقياد لما يؤدى الى الجميل وبحسن السمت وهو محبة ما يكمل النفس وبالحكمة وبالشكر وبالخوف من الله تعالى وبالرجاء منه وبالتفويض اليه والتسليم وبالالفة وهى اتفاق الآراء فى المعاونة على تدبير المعاش وبالوفاء وبصلة الارحام وبالشفقة على خلق الله تعالى وبالاصلاح بين عباده وبالامانة وبانجاز الوعد وبالوفاء بالعهد وبالحب فى الله وبالبغض فى الله وبحسن الظن وبالرشد وبالسعى وبالاناة وبالمبادرة فى عمل الخير وبالصلابة في أمر الدين وبالانس بالله وبالشوق اليه وبمحبته تعالى وبالعفة وبالورع وهو ملازمة الاعمال الجميلة وبالاستقامة وبالشهامة وهى الحرص على ما يوجب الذكر الجميل وبالرقة وهى التأذى من أذى يلحق الغير مطلقا وبالنزاهة وهى اكتساب المال من غير مهانة ولا ظلم وانفاقه فى المصارف الحميدة وبكظم الغيظ وبالخشوع وبالعبودية لله وبالحرية وهى تحرير النفس من ربقة الشهوات وبمحاسبة النفس وبمعاتبتها وهكذا من كل خصلة حميدة وخطة مفيدة (فعلى المرء ان يعالج نفسه للتخلق بهذه السجايا ويجد فى ابلاغها درجة الكمال) وتنهى الشريعة المحمدية عن الكفر واتخاذ الشريك لله تعالى فى العبادة وعن الفسق والعصيان

لله تعالى في أوامره ونواهيه وعن اتباع الهوى وعن الرياء وهو العمل لاجل روية الناس وعن الكبر وعن الحقد وعن العجب وهو ان يرى الانسان نفسه بعمله بل عليه ان يرى الفضل لله تعالى الذى وفقه للعمل وعن الحسد وهو تمنى زوال النعمة عن الغير وعن الشماتة بمصائب الخلق وعن العداوة لغير الله وعن التهور وهو ان يهجم المرء على ما لايكون كفؤا له وعن سوء الظن بالله تعالى وعن الطيرة والتشاؤم الذى لامستند له من الشرع وعن البخل وعن الشح وعن التقتير وعن الاسراف والتبذير وعن حب المال للحرام وعن الكسل وعن البطالة وعن العجلة فى الامر وعن الفظاظة وعن غلظة القلب وعن الوقاحة وعن قلة الحياء وعن الجزع وعن كفران النعم وجحودها وعن السخط وعن الغضب وعن بغض العلماء وعن الجراءة على الله تعالى وعن الأمن من عذابه وسخطه وعن التأسف على ما فات من أمر الدنيا وعن الضعف فى أمر الدين وعن الطيش والخفة وعن العناد وعن مكابرة الحق وانكاره بعد العلم به وعن التمرد والآباء وعن الشره وعن الطمع وعن الخمود وعن الاصرار على المعاصى وعن الغضب بالباطل وعن الحمية لغير دين الله تعالى وعن القنوط من رحمة الله تعالى وعن محبة الظلمة والفسقة وعن بغض الصالحين وعن قسوة القلب بحيث تمنع صاحبها عن اغاثة المضطر وعن آفات كثيرة للسان فمنها النميمة وهى كشف ما يكره كشفه وافشاء السر والسخرية والاستهزاء والاستصغار والاستخفاف بالناس واللعن والسب والشتم والتعبير عن الامور المستقبحة بالعبارة الصريحة والطعن بالانساب والمراء وهو الطعن في كلام الغير لا لاظهار الحق والخصومة عنادا والخوض في الباطل والشحاذة لغير مضطر والمنافقة باللسان وكلام

ذي اللسانين بين المتعادين والشفاعة السيئة والامر بالمنكر والنهي عن المعروف وغلظة الكلام والعنف فيه والسؤال والبحث عن عيوب الناس والدعاء للظالم بالبقاء والكلام الدنيوى فى المساجد والمنابذة بالالقاب واليمين بغير الله وكثرة الحلف ولو على الصدق لاجل تعظيم اسم الله ورد عذر أخيه وعدم قبوله وتفسير القرآن برأيه وقطع كلام الغير لغير مصلحة شرعية ورد التابع كلام المتبوع ومخالفته وعدم قبوله ما دام كلام المتبوع لا يمنعه الشرع والتناجي بين اثنين عند ثالث والتكلم مع الشابة الاجنبية ودلالة من يريد المعصية على طريقها والمزاح الذى يمنعه الشرع ويوصل الى الشر والكلام فيما لا يعني وافساد العبد عن سيده وافساد المرأة عن زوجها وكتمان الشهادة وشهادة الزور وقذف المحصنات الغافلات وسب الاموات وسب السلاطين وترك الدعاء بصلاحهم وكتم العلم وتعمد الكذب على الله تعالى وعلى رسوله والكلمة التى تعظم مفسدتها وينتشر ضررها وملازمة الفحش حتى يخاف الناس من شره والالحاح بالسؤال المؤذى للمسؤل ايذاء شديدا والمن بالصدقة وكفران نعمة الخلق المتسلزم لكفران نعمة الخالق وترك المريض اقراره بما عليه من الدين والاقرار بنسب كاذبا أو جحوده كذلك والاستطالة في الاعراض وانتساب المرء الى غير أبيه وترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والغيبة وهي ان تذكر أخاك بما يكره فى نفسه أو فيما يخصه وهي أكثر آفات اللسان وقوعا ومن أعظمها ضررا وعن أفعال واعمال قبيحة كثيرة أيضا منها نقض العهد وخلف الوعد والخيانة والمكر والخديعة والفتنة وهي ايقاع الناس باضطراب والاختلال والاختلاف بلا فائدة دينية وقتل النفس وقتل الانسان نفسه والزنا واللواطة واتيان أحد

ولو امرأته فى الدبر لان في هذه الامور الثلاثة تقليل النسل ومخالفة الحكمة الالهية وفى الزنا ضياع الانساب المؤدى لترك التناصر وغش الغير فى النسب وتمليك الاموال لغير مستحقها وضياع الولد لعدم من يربيه حق التربية الى غير ذلك من المفاسد التى يطول شرحها ومس المرأة الاجنبية والخلوة بها لان ذلك داعية الزنا وفعل مثل ذلك فى الولد الامرد ووطئ الحائض لما فيه من الاذى وسفر المرأة فى طريق تخاف فيه على بضعها وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال واظهار الجماع والتبتل أى ترك الزواج للقادر عليه ولاعذر له فى تركه لان فيه تعطيل الحكمة الالهية في تكثير النسل وعضل الولى موليته عن النكاح وافشاء الرجل سرز وجته وعكسه وخروج المرأة مزينة والدياثة والقيادة بين الرجال والنساء وشرب المسكرات لان فيه ذهاب العقل الذى هوأفضل نعمة على الانسان والسكران مستعد للوقوع فى كل معصية وارتكاب كل شنيعة والنفع المزعوم به لايوازى اضراره والمقامرة التى تعرض المال للمخاطرة وانفاق السلعة بالحلف الكاذب وبخس الكيل أو الوزن أو الذرع ومطل الغنى بالدين بعد مطالبته وانفاق المال فى المحرمات وايذاء الجار ولو ذميا والسرقة والغصب والربا الذى يفقد معه عمل المعروف من الدائن بالاقراض وسد حاجة المحتاج بالاستقراض وتلقى الجلب والسوم على السوم وخيانة احد الشريكين لشريكه واستعمال العارية فى غير ما اذن به صاحبها وتاخيره اجرة الاجير او منعه منها بعد فراغه ومنع الناس من الاشياء المباحة لهم عموما او خصوصا والتصرف فى الطريق الخاص بغير اذن اصحابه اوالعام بما يؤذى والخيانة فى الامانات والتصوير ووضع الصور الحيوانية فى المكان تباعدا عن التشبه بعباد الحيوانات وصورها والاكثار من الطعام بحيث

يضر وترجيح احدي الزوجات على الاخرى ظلما وعدوانا وتهاجر المسلمين
فوق ثلاثة ايام والتدابر والتشاحن واضاعة المرء أولاده وعياله والضرب
لاحد بغير مسوغ شرعي وترويع أحد بسلاح من غير مسوغ شرعي
ايضا والسحر وتعلمه وتعليمه وطلب عمله والكهانة والتنجيم واتيان
اصحابها والخروج على امام المسلمين بلا تاويل او بتاويل يقطع ببطلانه
ونكث بيعة الامام لفوت غرض دنوى وقبول الامارة مع علم المتولى بخيانة
نفسه وتولية جائر اوفاسق امرا من امور المسلمين وعزل الصالح وتولية من
دونه وجور ولاة الامور واحتجاب ولى الامر عن قضاء حوائج رعيته
المضطرين اليها بنفسه او نائبه وظلم الامراء والقضاة لمسلم او ذمى بنحو
ضرب او شتم وقبول القاضى هدية من احد لم يكن له عادة باهدائها له
قبل توليته القضاء وقبوله الضيافة الخاصة واخذ الرشوة من محق او مبطل
ودفع الرشوة من مبطل لا من محق اضطر الى دفعها والتوسط بالرشوة
المحرمة وخذلان المظلوم مع القدرة على نصرته وهتك مسلم وتتبع عوراته
حتى ينفضح واطلاع المرء على دار غيره بغير اذنه ولو من ثقب والتسمع
لحديث قوم يكرهون الاطلاع عليهم وترك الجهاد عند تعينه وترك الامر
بالمعروف والنهى عن المنكر وقتل او ظلم او غدر من له أمان او عهد اوذمة
وترك الرمى بعد تعلمه وتوليته القضاء من يعلم قصوره عنه بالجور اوالجهل
والخصومة بباطل او بحق مع اظهار اللدد والكذب لايذاء الخصم والتسلط
عليه والخصومة لمحض العناد بقصد قهر الخصم وكسره وجور القاسم بقسمه
وجور المقوم بتقويمه والجلوس مع الفساق والتغوط تحت شجرة مثمرة
او على ضفة نهر وترك التوبة عن المعاصى وهكذا من كل ما يضر بالهيئة

الاجتماعية او النفس او المال او العقل او الشرف مما لو اردنا الاحاطة به
مع ذكر أدلته من القرآن والاحاديث المنقولة عن محمد عليه السلام لضاق
لذلك المجلدات الكبيرة ثم ان هولاء الطائفة تاملو بالعبادات التى أوجبتها
الشريعة المحمدية على اتباعها فوجدوها اعمالا منطوية على تعظيم الخالق
سبحانه واداء بعض شكره على نعمه التى لاتحصى معما اشتملت عليه من
الاسرار والحكم والفوائد التى يفوز بها المتعبد وينال اعلى منازل السعادة وذلك
من تهذيب نفسه وتخليتها عن الاخلاق الذميمة وتحليتها بالسجايا الحميدة
وتذكاره بخالقه ليأمن من الغفلة عنه سبحانه بما يستولى على قلبه من شواغل
الدنيا فيحجم عن العصيان ويهجر امانى الشيطان وتلازمه المراقبة بان
عليه رقيبا مهيمنا قريبا ومن الاجتماع مع اخوانه في أوقات العبادات
الداعى ذلك الى الالفة معهم والاطلاع على شؤنهم المحتاجة للتعاون
والتوازر ومن اغاثة ذوى الحاجات وتصور حالهم المحزنة ليقضى ذلك بالشفقة
عليهم والاحسان اليهم وتذكر شؤن الرسل المتقدمين وآلهم الذين أدوا
عبادة ربهم وامتثلوا اوامره واجتنبوا نواهيه ليكون ذلك داعيا للاقتداء
باعمالهم والنسج على منوالهم وتجديد الثناء عليهم وعلى متبعيهم ومن السعى
في تكثير سواد المسلين وهداية المخالفين واعلاء كلمة الله تعالى الى غير
ذلك من الثمار اليانعة والفوائد النافعة والتدابير الجامعة المنبثة فى تلك العبادات
ولا يعقلها الا العالمون ومن نظر الى ظواهر تلك العبادات وغفل عن حكمها
واسرارها وفوائدها واثمارها كان كمن نظر الى صدفة مملوءة بالدرر
النفيسة فيحسبها قطعة حجر فلا يلقى لها بالا ولا يروق منظرها فى عينه
حسنا وجمالا فيفوت ذلك الجاهل انفس نفيس ينفق فى تحصيله الذهب

الابريز ويفادي به كل عزيز وربما بعض الجهلة المطموس على بصيرته يستقبح تلك العبادات فهو كالمريض الذى ينكر طعم الماء و يحكم بمرورة الحلواء فليته اذا استصعبتها نفسه الساقطة الهمة يعتقد بها اعتقاد المريض بالدواء المر يحكم بنفعه و يتكلف تجرعه فقاتل الله الجهل وقبح محياه من صاحب سوء مشؤم الطالع على اهله يوقعهم بالخسران ويلعب بهم كاكرة الصبيان وتفصيل بعض ماظهر لهذه الطائفة من أسرار العبادات فى الشريعة المحمدية انهم وجدوا ان تلك الشريعة قد أمرت كل مكلف من اتباعها باداء عبادة تسمى الصلاة وهى عبارة عن أقوال وافعال مبتدأة بتكبير الله تعالى مختتمة بالتسليم يأتى بها المكلف كالمتمثل بين يدى الله تعالى وقد شرعت ان يدعو المنادى المكلفين اليها عند حضور أوقاتها بافصح الفاظ مشتمله على أشرف معان فيبدأ بتكبير الله تعالى أربع مرات كانه يقول ايها الناس كل ما انتم فيه من رغائبكم الدنيوية والاخروية الحسيه والمعنوية فالله تعالى اكبر واحق برغبتكم فى جنابه من كل مرغوب فيه ثم يشهد له سبحانه بانفراده بالالوهية مرتين كانه يقول لايقضى حوائجكم الدنيوية والاخروية حقيقة الا الاله الحقيقى الذي من اخص أوصافه التى ينفرد بها استغناؤه عن كل ماسواه وافتقار كل ماعداه اليه والله تعالى قد انفرد بمقام الالوهية الحقة فعليكم أن تقصدوا جنابه فى طلب حوائجكم الدنوية والاخروية وتلتجؤا الى حضرته ثم يشهد لمحمد عليه السلام بالرسالة مرتين كأنه يقول ان هذا الرسول الذى هو الواسطة بينكم وبين ذلك الاله العظيم فى هدايتكم لصالحكم الدنوية والاخروية وقد علمتم بالمشاهدة أو بالدليل ماعليه ذلك الرسول من النصيحة لكم والهداية الى سبيل الخير فعليكم اذن أن تسعوا لاداء ماشرعه لكم وهداكم اليه من

هذه العبادة الجليلة المتكفلة لكم بالخيرات الحسان ثم يطلب منهم الاقبال
على تلك الصلاة مرتين وهو كالتصريح بما أشار اليه أولا بالتكبير والتشهد
من لزوم الالتجاء الى حضرة ذلك الاله العظيم أو هو كالنتيجة لما تقدم كأنه
يقول اذا كان ذلك الاله اكبر من كل كبير ومنفردا بالالوهية وقضاء حوايج
الخلق وذلك الرسول الناصح قد هداكم الى عبادة ذلك الاله ووعدكم
ببلوغ أمانيكم بها فعليكم أن تقبلوا عليها وتدخلوا حضرة ذلك الاله الجليل
وتتوسلوا اليه وتطلبوا قضاء حوايجكم الكلية والجزئية منه عند أداء تلك
الصلاة ثم يشير الى ثمراتها. وما احتوت عليه على وجه الاجمال فيقول حى
على الفلاح مرتين كانه يقول ان فلاح المرء هو أعظم رغائبه وان الفلاح الدنيوى
والاخروى منوط بهذه العبادة لما تفيده من تهذيب الاخلاق واستحضار
عظمة الخلاق ونوال الثواب يوم المآب فاقبلوا عليها واغتنموا فلاحها ثم بعد
ذلك كله يستدرك ذلك المنادى ويريد صرف همم المكلفين لاكمل الرغائب
بانهم اذا أقبلوا على هذه العبادة فلا يجعلوا مطمح أنظارهم الاجناب الحق تعالى
والقرب الى حضرته فليكن هو المقصد الاعلى والمرام الاسنى فى هذه الدار
وفى دار القرار ولذلك يعيد التكبير مرتين وافراده تعالى بالالوهية فيقول
الله أكبر الله أكبر لااله الا الله ثم ان السامعين لذلك المنادى يقولون
مثل قوله كأنهم يصرحون بموافقته على مايسمعون منه ويقولون صدقت فيما
تقول لكن عند طلبه منهم الاقبال على الصلاة والاقبال على الفلاح
لايقولون مثل قوله لان تلفظ المأمور بلفظ آمره الذى أمره به يعد كالسخرية
بل يقولون لاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم كأنهم يقولون ان تحصيل
هذا الخير العظيم من الدخول فى تلك العبادة ونوال فلاحها لاطمع لنا فيه الا

بحول الله تعالى وقوته فنحن نستعين به تعالى وليس قولهم ذلك عن قصد التكره لما دعوا اليه كما يستشكله بعض الجهلة ثم عند اجتماعهم في المكان الذي يخصص لاداء تلك العبادة يعيد عليهم ذلك المنادى تلك الالفاظ المتقدمة التى دعاهم بها أولا لتأكيد تلك المعاني فى نفوسهم وليسمع من لم يكن سمع أولا بل حضر بسبب غير سماعه النداء وليكونوا على أتم الاستحضار لدخول تلك الحضرة الجليلة حيث قد قرب وقت دخولها ولهذا يزيد على تلك الالفاظ قوله قد قامت الصلاة مرتين أى قرب وقت قيامها ثم ان هذه الشريعة شرطت لهذه العبادة شروطا وسنت لها آدابا فشرطت لها طهارة بدن المصلى وثوبه ومكانه من أعيان مستقذرة ترد من خارج البدن أو من داخله وطهارة بدنه من أحوال اعتبارية تسمى احداثا يعتبر قيامها فى بدنه عند حدوث أمور مخصوصة وكأن في ذلك الاشارة والتنبيه للمصلى على انه عند دخوله في الصلاة التى هى بمنزلة حضوره بين يدى مولاه ودخوله فى حضرته لاداء شكره وطلب بره يلزمه ان يكون نظيف الجوارح من الاعمال الذميمة التى يكون منشؤها من ميله وشهوته أو من وساوس ترد عليه من غيره وان يكون طاهر القلب من الاخلاق السيئة غاسلا جميع تلك الادران بماء التوبة والندم كما ان من يدخل حضرة ملك من ملوك الدنيا يجتهد أن لا يقع نظر الملك على شيء منه تشمئز منه نفسه ثم في غسل الجسد بالماء تنشيط يصل أثره للروح اذ العلاقة بينه وبينها لاتنكر فكل تأثير باحدهما يظهر فى الاخر فترى الروح عند تلك الطهارة قد انشرحت وزال كسلها كأنها نشطت من عقال لاسيما عقب مباشرة النساء وفيها من الفوائد الطبية مالا يخفى ثم ان الشريعة قسمت طهارة بدن المكلف من الاحوال

الاعتبارية التي تعتبر قيامها في بدنه وتسميها احداثا الى قسمين طهارة كبرى وهي غسل جميع الجسد وطهارة صغرى وهي غسل أعضاء منه مخصوصة ومسح أخرى فأوجبت غسل جميع الجسد عند خروج منى ولوحكما كما فى حالة الجماع بلا احساس بانزال أو عند خروج دم الرحم بالحيض أو النفاس لان هذه الاعيان المستقذرة واردة من جميع البدن فتعتبر الشريعة بخروجها ان حالة اعتبارية تسمى حدثا أكبر قد حلت فى جميع البدن فكأنها تشير بغسله وتطهيره الى التوبة والطهارة من الذنوب التى تسب الى البدن جميعه لا الى عضو مخصوص لاسيما الاخلاق السيئة وأيضا ان هذه الاعيان هى مادة تكوين الولد فالمنى مادة تلقيحه وتصوره ودم الرحم مادة غذائه ونموه والولد الذى يحدث بسببها يحتمل ان يكون تقيا ويحتمل أن يكون شقيا فباعتبار النظر للاحتمال الاول يكون التسبب فى تكون الولد من الاعمال الممدوحة شرعا الموعود عليها بالثواب الجزيل للزوجين المتباشرين لاسيما ان كانت مباشرتهما على نية صالحة يقصد بها تكثير نسل الموحدين المطيعين لله تعالى وباعتبار النظر للاحتمال الثاني تظهر الاشارة الى المكلف عند خروج هذه الاعيان منه ان هذه الاشياء المنفصلة منك المشترك فيها جميع جسدك هي مادة لتكوين ولد يحتمل ان يعصى الله تعالى ويكفر به فتنبه بغسل جسدك الى التوبة من تأهلك لهذا الذنب الذى انت فى معرض الوقوع فيه فكأن المكلف يقول بلسان حاله يارب انى بمشاهدة هذه الاعيان التى خرجت منى واشترك فيها جميع جسدى تمثل وتشخص عندى انى متأهل للتسبب ببروز ولد يكون لك عاصيا فانا اغسل جسدى واجعله عنوان توبتى اليك من هذا التأهل الذى أنا متصف به وهذا من باب التباعد عن الوقوع فى المعصية والمبالغة والتشدد

فى التوبة منها ولو كانت بالقوة لا بالفعل وأما عند خروج بقية الاعيان المستقذرة من البدن التى لم يشترك فيها جميع الجسد حقيقة كخروج دم من غير الرحم وخروج شئ من احد السبيلين غير المنى والدم المذكور أو حكما كما عند تماس الفرجين من غير ادخال فاعتبرت الشريعة ان حالة اعتبارية تسمى حدثا اصغر حلت فى اعضاء مخصوصة من الجسد وكأنها تشير بالطهارة الصغرى المسماة وضوءا وهي غسل بعضها ومسح الاخر الى التوبة من ذنوب تلك الاعضاء المخصوصة وفى تخصيصها وترتيب تطهيرها سر عجيب يروق ذوى الالباب وبيان ذلك انه ليس فى البدن ما يتحرك للمخالفة اسرع من هذه الاعضاء فكأن في غسلها التنبيه للمتعبد على الاعتناء بطهارتها الباطنة وهي التوبة من ذنوبها الكثيرة الوقوع وأما ترتيبها في التطهير فعلى ترتيب سرعة الحركة فى المخالفة فما كان منها اسرع في التحرك فى المعصية من غيره امر المكلف بغسله قبل أما بعده فامر بغسل الوجه اولا وفيه الفم والانف والعينان فيبدأ بغسل فمه اولا لان اللسان اكثر الاعضاء واشدها حركة فى المخالفة لان به التلفظ بالكفر والغيبة والنميمة والفحش وغير ذلك من آفات اللسان فبغسل الفم يتذكر ان طهارة الظاهر انما هي اشارة الى التطهير الباطن فيتوب الى الله تعالى ويقلع عما تكلم به لسانه ثم بالاستنشاق يتذكر كذلك ويتوب مما شم بانفه وكذلك يتوب مما نظرت عيناه مما حرم عليه نظره ثم يؤمر بغسل اليدين لانه اذا تكلم اللسان ونظرت العينان بطشت اليدان أو لمستا فاذا جاء الى طهارتهما ابتدأ بطهارتهما باطنا فيتوب مما تحركتا فيه ثم يؤمر بمسح رأسه وكأنه انما أمر بمسحه ولم يومر بغسله لاجل انه لم يقع من نفس الراس مخالفة وانما هو مجاور لما وقعت منه وهو اللسان والعينان فاعطى حكما بين حكمين وامر بمسحه ولم يومر بغسله

وكأنه لما كان السمع قد يطرؤ على الانسان في غالب الحال وهو لا يتعمده خفف امر الاذنين فامر بمسحهما ولم يؤمر بغسلهما وبهذين المسحين يتذكر فيتوب ويطهر الباطن مما سمعت الاذنان ومما وقع من الراس من مجاورة تلك الاعضاء المخطئة ومثل ذلك يقال في مسح الرقبة ثم يؤمر بعد ذلك بغسل الرجلين لان العينين اذا نظرتا وتكلم اللسان وتحركت اليد وسمعت الاذن حنيئذ تسعى الرجلان فالرجلان اخر الجميع في المخالفة فجعلتا اخر الجميع فى الغسل وبغسلهما يتذكر ويقدم طهارتهما الباطنية فيتوب مما سعتا فيه من المخالفة ثم كأن تثليث الغسل للاعضاء المغسولة المباشرة للمخالفة عمدا فى الغالب سرا دقيقا وحكمة فائقة وهي المقابلة لار كان التوبة الثلاثة وهى الندم على ماوقع من الذنب والاقلاع عنه والعزم على عدم العود اليه فكأن كل غسلة تنبيه على ركن من هذه الاركان ثم بعد فراغ المتوضى من الوضوء وتحصيل ما امر به من تطهير الباطن بالتوبة شرع له ان يقول اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين فكأن فيه اشارة له ان يسال الله تعالى قبول ما قد اتى به من التوبة والتطهير والتفضل به عليه ثم اذا تعسر الماء على مريد الصلاة فقد عوضته الشريعة بالتيمم وهو مسح الوجه واليدين بطاهر من جنس الارض وهذه هى الاعضاء التى ينزهها الانسان عن ملامسة ذلك غالبا زيادة عن غيرها ففى ذلك المسح بعض الذلة والانكسار للنفس فكأن الاشارة فيه الى العبد انه اذا تعسرت عليه اركان التوبة ولم يوفق لها فلا اقل من التجائه الى الذلة والانكسار من رؤية معاصيه فقد يكون ذلك سببا لعفو مولاه تعالى كما قيل رب معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة اورثت عزا واستكبارا على ان ذلك المسح بملاحظة الاشارة المذكورة حقيق باغراء العبد بتحصيل تلك

الاركان ثم لما كانت الرجلان فى اعضاء الوضوء هما محل الاسراف بالماء ومظنة المشقة خفف الامر باباحة مسح خفيهما الملبوسين بالماء بشروط مخوصة ولاتفوت بمسحهما اشارة التذكار للتوبة من معاصيهما ثم شرطت هذه الشريعة لهذه الصلاة ستر العورة وفيه من الادب الظاهر مالايخفى وفيه اشارة الى ان العبد عند دخوله فى الصلاة وتمثله في حضرة مولاه اذا لم يتيسر له الطهارة من المخالفة بالمعاصى والاخلاق السيئة بالتوبة التامة فلا اقل من ان يعالج اضعاف تلك المخالفات واخماد سورتها حتى تبقى كالمستورة وان كان لايخفى على علم الله شئ وفي الستر أيضا منع دواعى الشهوة للجماع بحجب النظر عن اعضائه وما يقرب منها ولما كان النظر الى جميع بدن المرأة داعيا لتلك الشهوة شرط لها ستر جميع جسدها الاما احوجت الضرورة الى كشفه من الوجه واليدين والقدمين اذا كانت حرة والا فهذه الاعضاء واعضاء اخرى تقتضى الخدمة كشفها غالبا وفى التزام سترها نوع من الحرج اذا كانت رقيقة وشرطت لها أيضا استقبال المصلى جهة الكعبة لان العبد قد خلق ذا جهات ألوفا لها عند اداء اعماله وهى الامام والخلف واليمين والشمال والفوق والتحت فلو فوض اليه امر الاستقبال وخير في أى جهة اراد عند اداء هذه الصلاة التي يطلب فيها حضور القلب مع الله تعالى وجمع الضمير في خدمته تعالى لغلب على نفسه الاضطراب والحيرة فلا يدرى أى الجهات هي اقرب واوفق لاقبال مولاه عليه واجابة دعاه فلطفا من الله تعالى وتنزلا لعقل العبد وفطرته التى فطر عليها عين له في توجهه جهة الكعبة المكرمة التى هى بقعة من الارض شرفها الحق وكرمها وله ان يفضل مايشاء من ملكه اذ هو الفاعل المختار والمالك المطلق وسماها بيته وهو سبحانه غنى عن المكان ومنزه عنه وبهذا

التعيين يجتمع قلب العبد عند مناجاة ربه وتطمئن نفسه بانه استقبل افضل
الجهات واقربها واوفقها لاقبال ربه عليه وحظوته باجابة دعاه فقد تبين ان
الصلاة وما تحتوى عليه من نحو ركوع وسجود يقصدبها جناب الحق تعالى
عند استقبال الكعبة وليس المقصود بها الكعبة فان الشريعة تحكم على من يقصد
بسجوده غير الله تعالى بالكفر والعياذ بالله تعالى فتوهم قصد الكعبة بتلك
العباده يعد من اقبح الجهل الفاحش ثم ان تلك الصلاه مفتتحة بالتكبير كما تقدم
وهو قول العبد الله اكبر ويرفع عنده يديه حذاء اذنيه والمرأة قبال كتفيها
وفي ذلك مع تعظيم الله تعالى والاتيان بما هو بمنزلة التحية والسلام على
حضرة الملك والاستئذان بالدخول عليه اشارة للعبدان يستحضران مولاه
الذى هو عازم على التمثل بين يديه اكبر من كل شئ ولا يداينه شيء فى
العظمة والكبرياء فعلى العبد ان يطهر قلبه من كل ما سوى مولاه من علائق
الدنيا ورغائب الآخرة واكد هذا المعنى باشارة رفع اليدين كالذى يكف يديه
عن تناول ما هو حاضر امامه كأنه يتخيل ان كل ماسوى مولاه حاضر نصب
عينيه ويكف يديه عنه قائلا الله اكبر من كل شئ فلا اختار عليه سواه
وها انا فارقت رغائبي وعزمت على الدخول فى حضرته وفي بلوغ الرجل
فى رفع يديه حذاء اذنيه والمرأة قبال منكبيها اشارة الى انحطاط رتبتها عنه
فى الاقتدار على كف النفس عن رغائبها فكأن كلا منهما يترجم ويشير الى
منزلته في ذلك الاقتدار على ان اكتفاء المرأة بحذاء المنكبين اقرب لسترها
اللائق بشانها ثم بعد ذلك التكبير يتمثل العبد قائما قيام الخادم بين يدى
مولاه واضعا يديه بهيئة الادب مطرقا نظره الى الارض صافا قدميه لا يتحرك
منه عضو ولا يميل منه طرف ثم يشرع فى الاستفتاح وهو تسبيح ربه وتنزيهه

والثناء عليه وتعظيم اسمه والتنويه بعظمة سلطانه وافراده بالالوهية وهو بمنزلة
استفتاح الخطاب للملوك بذكر الالقاب التى تذكر قبل مخاطبتهم
مشتملة على التعظيم والتبجيل ولله المثل الاعلى فالتكبير افتتاح
دخول الحضرة الالهية وهذا استفتاح خطاب الحق تعالى ثم لما كان الشيطان
مسلطا على العبد وحريصا على تفريق قلبه بوساوسه وتشويش مناجاته
مع ربه يريد العبد ان يتحصن من ذلك العدو الالد فيقول أعوذ بالله من
الشيطان الرجيم ثم بعد أن يطمئن قلبه باعاذة مولاه اياه من ذلك العدو المبين
ولم يبق الا التشرف بمناجاة ربه سبحانه يشرع فى قراءة الفاتحة وكأن الاشارة
فى قراءتها مايأتى وهو انه يبتدى بالتوسل اليه سبحانه باشرف الوسائل وهو
اسمه العظيم الاعظم الذى لم يسم به سواه متيمنا بذكره وحيث يرى أنه
في مقام هو فيه احوج مايكون الى الرحمة والاحسان بجلائل النعم ودقائقها
أذ هو مقام الطلب لرغائبه ونوال أمانيه يأخذ بوصف ربه بانه الرحمن الرحيم
كأنه يشير الي انه لاوسيلة له فى اجابة دعاه الا الرحمة العامة المطلقة من جانب
مولاه ثم يستحضر عظمة الحق سبحانه وسعة انعامه على خلقه لاسيما نعمة
التربية التى تلازم العبد من أول نشأته فيأخذ بالثناء عليه لذاته العلية المستحقة
أسنى المحامد ولنعمه الوفيه التى من أكملها نعمة التربية بادرار الارزاق
الحسية والمعنوية والامداد بابقاء الوجود ثم يلاحظ ان كثيرا لايراعون
قدرهذه النعمة ولا يوفونها شكرها ولعل ذلك العبد من اؤلئك الكثير
فيعود ويلتجي الى جانب الرحمة الالهية ويصف ربه بها اشارة الى ان
هؤلاء لا يسعهم الا تلك الرحمة الواسعة ثم يلاحظ ان البعض منهم لا يزيده
الاحسان الا بطرا ولا يصلحه الا المعاملة بالعدل والتأديب فينعطف العبد

الى وصف مولاه بصفة الجلال بانه مالك وملك يوم الدين والجزاء فكما ينبغى للعبد أن يرجوه أعظم الرجاء ينبغى أن يخافه أشد الخوف ثم يأخذ العبد فى عرض عبادته وخدمته على جناب ربه سبحانه التى هى بعض الشكر لنعمه تعالى ويلاحظ امرين مهمين الاول انه مقصر فى ايفاء تلك العبادة فعيرضها مع عبادة اخوانه الموحدين الذين كثير منهم بالغ على قدر طاقته البشرية ايفاء عبادته باخلاصه فيها لعل عبادة ذلك العبد تقبل فى ضمن عباداتهم لانه سبحانه نهى عن تفريق الصفقة بين المتبايعين فالرجاء به سبحانه ان لا يفعل ما نهى عنه فيرد عبادة ذلك المصلى ويقبل عبادة سواه والثانى ان المشركين اشركوا في عبادة ذلك الاله المستحق الا فراد بالعبادة فيأتى ذلك المصلى في عرض عبادته بصيغة تفيد حصر العبادة به تعالى ثم ينظر الى حاله فيجد انه عاجز اشد العجز عن القيام بتلك الخدمة واداء ذلك الشكر ان لم يعنه الحق تعالى ويخلق افعاله ويسدد اعماله ويوجد فى قلبه الباعث ويدفع عنه المانع وانه لا يقدر على ذلك سواه تعالى فيطلب الاعانة منه تعالى بعبارة تشعر بانه لا يستعين بسواه ثم يلاحظ ان المقبول عند مولاه من الخدمة ما كان على منهج الاستقامة خاليا من كل عوج فيطلب منه سبحانه الهداية الى الطريق المستقيم ليحظى فى عبادته بالقبول ويبلغ اسمى الوصول ثم ان الخلق مفترقون ثلاث فرق منهم من هدى الصراط المستقيم اعتقادا وعملا ففازوا فى ذلك بنعمة الله تعالى عليهم ومنهم من زاغ في طريق العمل فاستحق واغضب الله تعالى ومنهم من زاغ فى طريق الاعتقاد فاصبحوا ضالين عن الصواب فبعد ان طلب المصلى الهدية الى الصراط المستقيم يرغب ان يكون فى ذلك الصراط رفيق الفرقة المنعم عليهم بصحة الاعتقاد وحسن الاعمال

ليقتبس من انوارهم ويقتطف من اثمارهم وفيه الاشارة الى حاجة العبد الى المرشد في طريق الحق ورغبته في التباعد عن أهل الفسق وذوي الضلال فكأن المصلى يقول ياربنا ندعوك اناواخوانى الموحدون ان يكون ذلك الصراط المستقيم الذى طلبنا الهداية اليه صراط القوم الذين انعمت عليهم بصحة العقائد وحسن الاعمال لنكون في رفقتهم ونفوز ببركة صحبتهم لاصراط المغضوب عليهم بما جنوه من الاعمال السيئة ولا الضالين بما اعتقدوه من العقائد الباطلة فهؤلاء باعدنا عنهم لئلاتسرى الينا بلواهم ونصاب بما اعتراهم ثم يختم ذلك الدعاء بطلب الاجابة لما دعا به مولاه اذ هو اكرم مسئول واقرب مجيب فيقول أمين أى استجب لنا ياربنا كما وعدتنا على لسان رسولك ثم لما كان المريض عند طلبه من الطبيب المعالجة يامره باخذ الدواء ويعده بالشفاء وهو عليه ان يمتثل ويستعمل ذلك الدواء صار الحال كأن العبد فى طلبه الهداية من مولاه تعالى الى ذلك الصراط المستقيم يطلب الدواء الكافى لشفائه من امراض الاعمال والاعتقادات السيئة فيقول الله تعالى له خذ دواءك من كلامى واتل شيئا منه فهو الدواء الوحيد الشافي الكافى لجميع الامراض من الفسق والشرك والرياء والكبر والحسد والحقد وغير ذلك اذ فيه الدلائل الوافية والمواعظ الكافية فبتلاوته تجد دواء دائك وشفاء بلوائك فيأخذ المصلى بتلاوة شئ من القرآن غير الفاتحة التى كانت كشكوى المريض للطبيب واشارة الطبيب بالدواء المفيد ثم بعد اخذه ذلك الدواء وهو تلاوة شئ من كلام الله تعالى ينظر الى عجزه وضعفه واحتياجه الى مولاه في هدايته لذلك الدواء وحصول الشفاء ويتصور انه لاقادر على ذلك سوى مولاه الذى انتهت اليه الرغائب فيخر المصلى حينئذ راكعا ممثلا صورة

عجزه مكبرا مولاه تعالى ثم يسبح مولاه العظيم الذى استغنى عن كل ماسواه
وافتقر اليه كل ما عداه وهذا غاية العظمة ثم بعد تمثيله لعجزه واقراره
بافتقاره وتنويهه بعظمة مولاه الذى انتهت اليه الحوائج ينهض من صورة ذلك
التمثيل لاداء الحمد والشكر لمولاه الذى من عليه بالدواء الشافى من الداء
ويوطن نفسه بانه وان يكن هو فى غاية الضعف ونهاية الحقارة ومولاه في غاية
العظمة والكبرياء فهو سبحانه سميع مجيب يسمع حمد من يحمده فلذلك
يقول تأنيسا لنفسه سمع الله لمن حمده ثم يعرض حمده ويقول اللهم ربنا ولك
الحمد ثم يرى ان نعم مولاه عليه لاتحصر وهو عاجز عن اداء عشر معشار
شكرها ولو قطع الابدطاعة وخضوعا فكأن لسان حاله غدا عند ذلك يقول
يارب انى عاجز عن اداء شكر نعمك وانت غنى عن كل شئ فأى عمل
يكون مكافأة لعظيم افضالك وانت الكبير المتعالى فما عندى الاجهد المقل
وهو انى اضع اشرف اعضائى واعزها على واكرمها لدى وهو وجهى على
الارض تعظيما لجلالك وتنويها برفيع كمالك وهذا غاية اقتدارى ونهاية
استطاعتي على ان ذلك لايزيد في عظمتك وكبريائك شيئا اذ انت اكبر من
كل كبير فيخر ساجدا معظما مولاه قائلا الله اكبر ويضع جبهته على الارض
وفي ذلك السجود يرى نفسه قد بلغ غاية الخضوع وانه ما فعل ذلك الا
لتعظيم مولاه الاعلى فوق كل على فينطلق لسانه قائلا سبحان ربى الاعلى ثم
يرفع من سجوده لاستحضاره عجزه عن استيفاء تعظيم معبوده ولو قضى
عمره يبذل مجهوده قائلا الله اكبر كانه يشير الى انه لايدرك شأو عظمته
وكبريائه تعظيم المعظمين وتكبير المكبرين ثم بعد رفعه من السجود كأنه
يجد ان تلك الحالة السجودية هي غاية شرفه واكمل مجده وانه لم يقض لربه

من ذلك المرام السامى ويتذكر ان ابليس امتنع لشقائه عن السجود مرة وحدة فيعود فيسجد ثانيا داخلا تلك الحضرة السجودية مظما مولاه بالقول والعمل والطوية مخالفا الشيطان فى حميته الشيطانية ثم يرفع من ذلك السجود الثانى لاداء بقية ما امره مولاه به من انواع اخرى من العبادات ويجرى فى اكمال الصلاة على المنوال المتقدم لحكم واسرار يطول شرحها حتى يتم ما فرض عليه مولاه فيها من الاقوال والافعال المشتملة على الفوائد التى فى سواها لاتنال ثم يجلس جلوس العبد على ركبتيه متهيئا للخروج من تلك الحضرة والرجوع الى حالته التى كان عليها قبل دخوله فى هذه الخدمة لتحصيل ضروراته التى فطر على السعى فى طلبها وللتفرغ لعبادات أخرى مدعو اليها فياخذ بتقديم التحيات وعرض الصلوات والطيبات لدى مولاه رب الارض السموات مثلما يسلم المفارق لحضرة سلطانه عند خروجه من ديوانه ثم كأنه يتذكر فضل من كان سبب هدايته لدخول تلك الحضرة وتشرفه بتلك الخدمة وهو رسول الله (عليه السلام) فيسلم و يترحم و يبارك عليه قائلا السلام عليك أيها النبي و رحمة الله و بركاته ثم يرغب الى الله تعالى بالامان له ولاخوانه المتعبدين على ما انعم به عليه واولاه من انوار هذه العبادة وفوائد تلك الخدمة فيقول السلام علينا ثم يتذكر اخوانه الذين كان فى أول تلك العبادة عرض عبادته مع عبادتهم رجاء القبول فصار عليه لهم حق خصوصى معقول فيدعو لهم بالامان على نعم مولاهم عليهم و يقول وعلى عباد الله الصالحين ثم كأنه يتمثل لديه مشاهدة ان المنعم الحقيقى هو الله تعالى وان الواسطة العظمى لبلوغ هذا الخير هو محمد رسول الله (عليه السلام) فيشهد من صميم قلبه بتفرد الله بالالوهية و يشير برفع

احدى اصابعه المسماة بالمسبحة الى ذلك التفرد حتى يكون موحدا اعتقادا وقولا وعملا وفى ذلك الاشارة الى ان المتفرد بالالوهية هو المنفرد بالانعام ثم يشهد بأكمل المراتب وهي العبودية لله تعالى و باشرف المناصب وهي الرسالة لمحمد رسول الله عليه السلام و يقول اشهدان ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا عبده ورسوله ثم ينعطف للدعاء لهذا الرسول الكريم الذى كان الواسطة بذلك الخير العظيم فيطلب له الصلاة والمباركة عليه وعلى آله جزاء هدايته للمؤمنين كما صلى و بارك ربه على ابراهيم وعلى آله جزاء هدايته للامم السابقين ثم يلحظ ذلك المصلى افتقاره لمولاه في كل ضروراته الدنيوية والاخروية فيعيد الدعاء والتضرع فيطلب لنفسه جميع مايحتاج اليه ثم لما لم يبق الا الخروج من تلك الحضرة لاداء ماكلف به من بقية الطاعات والسعى فى احتياجاته المعاشية التى كلفه الله تعالى بها حسبما رتب في هذا الكون من ربط المسببات بالاسباب يفارق تلك الحضرة بتحويل وجهه مع بقاء قلبه على توجهه كان لسان حاله يقول لولا الضرورة لما تجرعت ألم هذا الفراق و بارحت تلك الخدمة الشريفة والضيافة المنيفة التى قد حوت الوان العبادات من ذكر ودعاء وتعظيم الحق تعالى وسجود و ركوع وتذلل وخشوع واشتملت على طرائف اسرار و بواهر انوار فيطلب بالتفاته على عالمه الذى كان فارقه و يتوجه الى اخوانه من مؤمنى الانس والملائكة و يقول السلام عليكم و رحمة الله ثم يأخذ بعد ذلك في اداء تكاليفه وتحصيل احتياجاته ثم لما كان الانسان عند قيامه من منامه يصبح كالمبعوث بعد الموت لان النوم موت الادراك والاحساس فيجد ان الله تعالى قد أحياه من بعد تلك الحالة النومية الشبيهة بالموت وقد عوض

عليه بهذا المنام ماكان خسره من جسده وقوته بسبب حركات أعضائه فى اعماله وجولان افكاره فى همومه فاصبح مرتاحا نشطا بعد ان كان تعبا كسلانا وقد حماه مولاه فى تلك الحالة النومية من اذى الموذيات وشرور العاديات واتم هضم طعامه الذى رزقه اياه وجعله غذاءه بدورة عجيبة وحركة غريبة وتدبير يحار فيه الفكر وهو لا يدرى ماهو جار هنالك ولا بما جلب له من المنافع ودفع عنه من المضار غاية ما سعى هو فيه انه دفع ذلك الجسم الطعامى فى معدته وفاز بلذته وربما لا يخطر بعد ذلك في فكرته الى غير ذلك من النعم التى يعجز عن حصرها اللسان والقلم فكان عليه بطريق الحتم لاداء الشكران يبادر عند يقظته الى خدمة الصلاة المذكورة فيصلى صلاة تدعى صلاة الفجر ثم بعد مايمضي عليه نصف النهار وقد وجد نعم الله عليه عظيمة المقدار من انارة الكون لهدايته لسبل معاشه وامداده بحواسه التى يميز بها النافع من الضار و بالقدرة والاستطاعة على مقاصده وقد فتح له باب الكسب ورزقه حاجته من الغذاء الى غير ذلك من النعم المستحيلة الاحصاء فكان عليه ان يعود الى اداء بعض الشكر فيصلى صلاة تسمى صلاة الظهر ثم عند ما يجد النهار قد قارب الزوال وقد تواردت عليه فى ضمنه نعم عظيمة المثال وقد عزم على عوده لمسكنه بطينا بعدما فارقه خميصا تحتم عليه العود الى تلك الخدمة بل النعمة فيصلى صلاة تسمى صلاة العصر ثم عند ماولى النهار وأقبل الليل الصالح لسكونه وراحته ولم يكن النهار سرمدا لا يجد فيه الى السكون والراحة سبيلا بل انقضى مملوا بالنعم ولطائف الكرم كان عليه الرجوع الى تلك العبادة بل السعادة فيصلى صلاة تسمى صلاة المغرب ثم حينما حول الظلام ولم يبق الا المنام

ووجد ان النعم التى تواردت عليه من الصباح الى ذلك الآن يعجز عن شكرها وجميع ما اداه من العبادة ما قام بمقابلة عشر عشرها ورأى ان ايجاد هذا الوقت الصالح لراحته مع أمنه من المخاوف وايوائه في مسكنه على الفراش الوارف من جملة النعم التى لا تحصى بادر الى اداء صلاة تسمى صلاة العشاء قياما ببعض الشكر الذى يعجز عن ايفائه مدة العمر لانه لو دام اناء الليل ولحظات النهار فى خدمة مولاه لم يكن الا مقصرا ولا يدعى الا عاجزا ثم ان تلك الصلوات الواجبة لاداء الشكر جعلت في الحضر عشرين ركعة عشرة نهارية وعشرة ليلية وردت في السفر للتخفيف الى أربع عشرة ستة في النهار لانه محل حركة السفر وثمانية فى الليل لانه محل قرار المسافر وسكونه وقد ضمت للصلوات الخمس صلوات اخرى غير واجبة تدعى سننا لتكميل ما عسى ان يطرأ من النقص فى الصلوات الواجبه ثم للعناية برمضان شرع فيه عشرون ركعة اخري تسمى التراويح لزيادة التكميل لصلواته هذا واذا تاملنا فى هذه الصلوات الخمس وجدنا فيها فوائد وحكما لا تحصى من تهذيب النفوس لا سيما نفوس الجبابرة والمتكبرين الذين يأنفون من مس الارض لاذيالهم فضلا عن جباههم ومن تمرينها على الخضوع ومن تذكير الغافلين والمنهمكين في هموم الدنيا بخالقهم والرقيب عليهم اذ لولا انقيادهم الى تلك الخدمة والقيام بين أيدى رب النعمة لمرت عليهم الايام بل الاعوام والرجل منهم لا يخطر فى باله ان له الها عليه حسيبا رقيبا وناهيك ما في هذه الغفلة من التأهل لارتكاب كل مخالفة وتجشم كل شر (هذا وما فكيف لو) ومن تجديد التوبة فى كل وقت صلاة ومن هنا يظهر سر كون الصلاة وصلة بين العبد وربه وكونها تنهى عن الفحشاء والمنكر كما جاء فى القرآن الشريف ثم فى صلاة الجماعة واتباع المصلين لامامهم

في جميع أعمال الصلاة تمرين النفوس على الاطاعة والانقياد الى الرئيس كما ترى رؤساء الجنود يمرنونهم على أعمال يعلمون انهم لايمكنهم مراعاتها وقت الحرب وانما القصد منها ألفة نفوس الجند للاطاعة والانقياد لامر الرئيس (وقد أدرك هذا السر رستم قائد جيش الفرس عندما رأى الصحابة يصلون خلف امامهم ويتحركون لحركته ويسكنون لسكونه فقال في حق سيدنا عمر ماقال مما هو منقول في كتب التاريخ) وفي صلاة الجماعة أيضا اجتماع المسلمين مع بعضهم في أوقات تلك الصلوات كما في غيرها من العبادات وذلك انه على أهل كل محلة أن يجتمعوا في اليوم والليلة في مسجد محلتهم خمس مرات في جماعة هذه الصلوات وعلى أهل البلدة أن يجتمعوا في الاسبوع مرة في صلاة الجمعة وأهل البلدة وما جاورها يجتمعون غالبا في العام مرتين في صلاة العيدين كما ان على أهل الاقطار ان يجتمعوا في العمر مرة من استطاع منهم في اداء الحج كما سيأتي عند الكلام على فريضة الحج وقد شرعت الشريعة المحمدية لاتباعها في بعض هذه الاجتماعات ان يخطبهم امامهم بالخطب المشتملة على المواعظ والزواجر والتذكير بما جاء به رسولهم وأوجبت عليهم الاستماع لتلك الخطب والانصات فتراهم جاثين على الركب مطرقين الرؤوس منصتين مستمعين لاتبدوا منهم حركة كأن على رؤوسهم الطير لايظهر منهم تصفيق استحسان ولا تصفير استقباح علما منهم ان جميع مايتلوه عليهم خطيبهم هو وفق شريعة رسولهم نعم لو فرض خروجه عن حدودها (وهذا لايكون) كان عليهم ان يردوه اليها يباح ذلك لكبيرهم وصغيرهم ثم لكثرة فوائد هذه الصلوات في الشريعة المحمدية شددت النكير على كل من يتركها ووصفته باشد الاثم وحكمت عليه بالنكال الشديد في الدنيا والآخرة حتى

جعلت تركها عنوان الكفر كما جعلت المواظبة عليها عنوان الايمان ومن هنا يظهر جهل من يتساهل فى أمر هذه الصلاة من أحاط به الكسل أو استولى الشيطان على قلبه وانطمست عين بصيرته فراح ينظر القشر وفاته نظر الالباب حتى ان بعض الجهلة من تاركيها يعتذرون عن تركها بخرافات واهية ويقولان ان ربنا غنى عن المداهنة ولا حاجة له بهذه الصلاة فقل لهؤلاء الاغرار نعم ان ربنا غنى عن كل شئ ولكن أنتم ياضعفاء العقول لستم بأغنياء عن الفوائد التى تشتمل عليها الصلاة وقدأوجبها الله عليكم لاتحافكم بهالا لنواله شيئا منكم أأنتم أغنياء عن التهذيب والتذكير بربكم وتجديد التوبة والتمرين على الاطاعة وثمرات الاجتماع مع اخوانكم الداعى ذلك الى الالفة والتعاون الى غير ذلك من فوائد الصلاة لااخالكم تدعون الاستغناء عن ذلك وان أفضي بكم الجهل والعناد الي ادعاء هذه الدعوى فلا أرى كم حينئذ الا حمقاء تستحقون الاسقاط والاهمال من عداد الرجال فأنتم بعد ذلك كالمرضى الذين يأمرهم الطبيب الناصح بتناول الدواء النافع وهم يمتنعون عن تناوله ويقولون للطبيب أنت غنى عن تناولنا هذا الدواء نعم إن الطبيب غنى عن ذلك ولكن هؤلاء المرضى غنيون عنه لايكون صدور ذلك القول منهم الا من هذيان المرض الذى تعتع عقولهم ثم قل لهؤلاء الظالمين لانفسهم بحرمانها فوايد الصلاة لاى داع تتركون الصلاة ان كنتم تتركونها جحودا أو استقباحا لها بعقولكم الفاسدة فاعلموا أن الشريعة المحمدية قد حكمت بالكفر وخلع ربقة الايمان فلا كلام لنا معكم حينئذ في شان الصلاة اذ ليس بعد الكفر ذنب ولكن علينا أن ننصحكم بتجديد ايمانكم وتوبتكم من الكفر وان كنتم تتركونها كسلا فما أبرد ذلك الكسل وما أسمجه فى النفوس

تأملوا ياجهلاء ان اليوم أربع وعشرون ساعة تمرحون فيها بشهواتكم وملذاتكم والسعى على مآربكم الدنوية والاوقات التى تلزم لاداء هذه الصلوات اذا جمعت تبلغ الساعة أو الساعتين أ يكون من الانصاف وسداد الرأى وحسن التدبير ان تنشطوا لنولكم تلك الشهوات الزائلة والمأرب الفانية اثنين وعشرين ساعة وتكسلوا عن نوال تلك الفوايد النافعة الدائمة قدر ساعة أو ساعتين أقل من عشر اليوم أهذا نصحكم لانفسكم أهذا نتيجة عقولكم التى تدعون انها عقول سليمة اتهتدون بها فى مناهج الصواب من يتأمل فيكم الخير بعدما غششتم أنفسكم من ينتظر عدلكم اذا كنتم لنا حكاما من يطمئن لاماناتكم اذا كنتم بيننا تجارا من يحسبكم من عداد اخوانه المسلمين وقد هدمتم ركنا من أعظم أركان الدين الاسلامى ماعذركم عند ربكم في ترك هذه الصلاة وقد أمركم باقامتها المرار العديدة فى كتابه العزيز أما تخجلون من رسولكم الذى كانت قرة عينه عليه السلام فى الصلاة والله اني لاعجب ممن يتركونها وهم يدعون الدين الاسلامى ويظهر من محاوراتهم ان لهم عقولا و آراء سديدة فى أمر الدنيا ولكن عندما تذكر لهم الصلاة أراهم عمى البصائر عن ثمراتها تنقلب عقولهم كعقول الاطفال فلا تأويل لذلك عندى الا ان معهم الخبل المفرد فى شأن هذه العبادة وهو نوع من الجنون والجنون فنون وتالله انى لاخجل عند ما أرى بعض هؤلاء ممن ينسب للعقل والفطنة والمروءة جالسا فى مجلسه معرضا عن الصلاة مع اخوانه الذين قاموا لاداء الصلاة فى ذلك المجلس اعراض الثور عن كيمان الذهب الابريز فياللعار وياللخجل من افعال السفل أ ما يعلم ذلك البهيم ان كل من شاهده فى هذه الحالة من اخوانه المؤمنين يعتقد به الفسق ان لم ينسبه للكفر وتنحط منزلته من قلبه ويتصوره

ضعيف الدين واهي اليقين مرذول المقام بين اخوانه المسلمين مسلوب العدالة مردود الشهادة اما يحس ذلك الجاهل بألم الخجل في نفسه من تلك الحالة السافلة نعم انه يحس ولكن الشقاء غاب عليه والشيطان لعب به وليعلم ذلك الغر ان اخوانه المسلمين وان لم يصرحوا له بقبيح حاله لمانع من الموانع فترجمة حاله في نفوسهم هي من أقبح التراجم فأقل كلمة يذكرونها عند سنوح فرصة للتصريح قولهم (تارك صلاة قليل الدين) فانا لله وانا اليه راجعون ثم وجد هؤلاء الطائفة ان الشريعة المحمدية أوجبت أيضا على من كان غنيا من اتباعها الزكاة وهي أداء جزء من أموالهم في كل سنة الى فقرائهم قياما بحق الشفقة والرحمة وشعائر الانسانية وتطهيرا لنفوسهم من رذيلة البخل ومع ذلك وعدتهم بالثواب الجزيل على أداء ذلك القدر القليل وقد عين مقدار ما يجب عليهم على وجه لا يظهر به نقص في أموالهم واذا أكملوا اداءه لا تجد بينهم فقيرا يعوزه أمر كفايته ثم ان هذه العبادة مع حصول هاتين الفائدتين وهما سد حاجة الفقير وتطهير نفس الغني والفة نفسه للعطاء الذي هو من اكرم الاخلاق يسبر بها مقدار حب المزكي لله تعالى في اخراج محبوبه وهو المال من يده ابتغاء لمرضاته عز وجل ومن هنا ينتبه المؤمن الى ان التحيل في اسقاط الزكاة عنه غير مقبول عند الله تعالى لان في التحيل فقد المنفعتين المذكورتين فاى سد حاجة للفقير في التحيل ولم يصل ليده ما يغني فقره وأي تطهير لنفس الغني من داء البخل ومحبوبه لم يخرج من يده

ووجد هؤلاء الطائفة أيضا ان الشريعة المحمدية أوجبت على المكلفين من اتباعها صيام شهر واحد من السنة أي امتناعهم نهارا فيه عن الاكل والشرب

ومباشرة النساء وفى ذلك ثمرات جمة من اجلها تهذيب نفس الصائم بكبحها
عن شهواتها اطاعة لخالقه تعالى فيتسلط عقله على نفسه بعدان كانت متسلطة
عليه ويظهر لها انها صارت محكومة بعد ان كانت حاكمة فتيأس من اطاعته
لها فيما حرمته الشريعة من المضار وكأنها تقول اذا عجزت عن التسلط
على عقل صاحبي عند صيامه فى تناوله الطعام والشراب النافعين المملوكين
له وفى مباشرة زوجته الآمن من ضرر يحصل بمباشرتها فكيف يمكننى التسلط
عليه فى تناوله طعام الغير أو شرابه بغير رضاه وذلك يقبح كل القبح أو فى
تناوله الشراب المسكر المذهب للعقل والمخل بالشرف أو فى مباشرة غير
زوجته التى يحصل بمباشرتها أضرارا كثيرة من معارضة الناس وخلط
الانساب وضياع الذرية وادخال الحقوق على غير أهلها ثم قالوا لو تأملنا
في حالة اتباع محمد (عليه السلام) عند ما يجلسون في شهر صيامهم قبيل
الغروب وامامهم طعامهم وشرابهم ونفوسهم تائقة اليهما وهم ينظرون اليهما
من طرف مشوق ومع ذلك لو رغب الواحد منهم سيما الاتقياء بأعظم
الرغائب على أن يتناول من الطعام ذرة أو من الشراب قطرة لم يفعل الا أن
تغرب الشمس لقلنا انهم من أقدر الناس على كبح نفوسهم فى طاعة
مولاهم ومن هنا يتبين ان من لم يأت بهذه العبادة الصومية ممن غلب
عليه شقاه واسرته شهوته لا يحق له أن يعد نفسه من الرجال أصحاب العزم
والحزم بل يعلم انه ضعيف القوة العقلية ساقط الهمة عبد بطنه ورقيق فرجه
وان عقل المرأة الصائمة أقوى من عقله وهمتها أعلى من همته وعندها من
شهامة النفس ماليس عنده منه ذرة ومن أجل فوائد الصوم أيضا تصور
الصائم حالة الفقير المحزنة عند ما يحس بألم الجوع فيرق قلبه اليه ويعطف

بالتصدق عليه فان الغنى المترفه لولا معاناته الصوم لربما كان يمر عمره ولا يتصور ألم الجوع فاذا وقف الفقير الجايع بين يديه وطلب منه الاحسان وشكى له ألم جوعه لا يدرى ماحقيقة هذا الالم فاى شفقة تكون عنده عليه فبالصيام يعلم مافى الجوع من الآلام فيبادر بالصدقة على الفقراء والايتام

ثم وجد هؤلاء الطايفة ان الشريعة المحمدية أوجبت أيضا على المستطيع من أتباعها عبادة الحج وهي زيارة الكعبة المشرفة وأماكن تجاورها بأفعال وأقوال مخصوصة وفى ذلك من الاسرار والحكم مايعجز عن حصره حكماء العرب والعجم فمنها اجتماع المسلمين الوفا مؤلفة فى تلك الاماكن فى كل سنة وذلك يدعو الى التعارف والتآلف فتراهم هناك أنواعا منوعة من عرب وترك وفرس وهنود وداغستان وقزاق وأفغنستان ومغاربه وبربروسودان وجاوى وغير ذلك من امم البشر كلهم على دين واحد ومقصد واحد وهو طلب الغفران من الرحيم الرحمن ومن حكم الافعال التى يكلفون فى اجرائها فى تلك الاماكن تذكار ما جرى لرسل الله المكرمين وعباده الصالحين فى تلك البقاع المشرفة كتذكار ماجري لسيدنا آدم أبي البشر و زوجته حواء عليهما السلام هناك بعد هبوطها من الجنة وما ألهمهما الله تعالى من الالتجاء اليه حتى تاب عليهما و كتذكار ماجرى أيضا هناك لسيدنا ابراهيم الخليل وولده اسماعيل عليهما السلام والسيدة هاجر عليها الرضوان مما يدل على ما لهم من الاطاعة لمولاهم و الصبر على مابه ابتلاهم فلم يحيدوا عن كل ما يستوجب رضاه وناهيك ما ابتلى به سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام من أمره بذبح ولده وثمرة كبده فاطاع ذلك الوالد الشفوق ورضخ للحكم ذلك الولد البار

مسلما بادهاق روحه وسكنى ضريحه وطرد الشيطان عنه لما حاول ان يوسوس
له في وادي منى فباء ذلك اللعين بالخسران فانعم الله على الوالد والولد بالفداء
وأبدل حزنهما بالهناء الى غير ذلك من الاعمال المرضية من أولئك الكاملين
وما أنعم عليهم رب العالمين فبتذكار أعمال أولئك الاخيار وبمحا كتها فى تلك
الديار تنبعث الانفس لتذكار بقية أفعالهم وعباداتهم وسجاياهم واطاعتهم
لمولاهم فتشتاق للاقتداء بهم والتخلق باخلاقهم فى كل مرضى لخلاقهم وترغب
فى الثناء عليهم والدعاء لهم على ماسنوا وشرعوا من الاعمال المرضيـة وما
هدوا الية من سبيل التوبة وطرق الانابة ومكارم الاخلاق من الصـبر والرضى
والتسليم والاداب مع رب الارباب ثم ان اعمال الحج فضلا عن التذكار موضوعة
على وضع عجيب وترتيب غريب فيه التنزل من حضرة الحق تعالى لافكار
البشر وعقولهم والمرعاة لما الفوه من العوائد مع ملوكهم وأمرائهم عنـد
مايرفعون اليهم شكواهم ويلتجؤن الى حماهم ممن سطا عليهم وأذاهم وحينما
يطلبون احساناتهم وادرار انعاماتهـم وبذلك التنزل تطمئن نفوس الحجاج
عند مايجرون تلك الاعمال التى وعدهم الله تعالى عليها الغفران بان الله تعالى
يغيثهم من جيوش ذنوبهم وعاديات سيأتهم ويقبل شكواهم ويتفضل عليهم
بنوال مناهم وبيان ذلك ان البشر اعتادوا على انه اذا دهمهم عدوهم وعجزوا
عن مقاومته او جارت عليهم حوادث الزمان من قحط وجـدب وأعوزهم
طلب معاشهم التجؤا الى منازل ملوكهم فوردوا عليها شعثا غبرا حفاة عراة على
قدر ماأثرت بهم الحوادث مستغيثين ضارعين محترمين في طريقهم كل ما ينسب
الى ملوكهم ومنازلهم من خدم وحشم وغير ذلك حتى الحيوانات والنباتات
فعند وصولهم الى تلك المنازل يأخذون فى الطواف حولها والتردد على أبوابها

حتى يؤذن لهم بالدخول على الملك والتمثيل بين يديه و بث الشكوى اليه متوسلين اليه باكرم الوسائط منوهين بالثناء عليه وذكر ماله عليهم وعلى اسلافهم من عظيم الاحسان والرحمة والشفقة يعم بذلك قاصيهم ودانيهم واذا سمح لهم بتقبيل يده قبلوها بكل رغبة وأدب ووجدوا ان ذلك من علامة قبولهم ونوال مأمولهم وبعد ذلك يمدهم الملك باجابة دعاهم ودفع بلواهم ولاجل تمكين ولائهم لسلطانه وتثبيت عبوديتهم لعظمته وتطمين نفوسهم بانه من عادته اغاثة رعاياه والاحسان اليهم فيذكرهم بما اجراه مع أبائهم واسلافهم عند ما وردوا قديما الى أبوابه واستغاثوا بجنابه واجروا هناك فى حضرته خدما وأدر عليهم نعما فيامرهم بمباشرة تلك الخدم التى سلفت من ابائهم فى حضرته وباجرائهم تلك الخدم تنطبع نفوسهم على العبودية له والولاء لجنابه كما هي العادة من الفة النفوس للجرى على سنن الاباء والتخلق باخلاقهم ثم بعد ادائهم تلك الخدم ينزلهم في منزلة الضيافة ويدر عليهم انعاماته الوافرة و يزيل شعثهم و يخلع عليهم الخلع ثم يقومون ببابه و يتوسلون اليه بنجاز وعده الكريم بالاغاثة مما دهمهم فتصدر أوامره بذلك ويغيثهم من أعدائهم ويدفع عنهم أسباب اذاهم ويبلغهم مطلوبهم ويمنحهم مرغوبهم و ياذن لهم بالرجوع الى أوطانهم ومساكن خلانهم فيعودون للتشرف بمنزله العظيم للقيام بما عليهم من الثناء والتعظيم ويقبلون يده الكريمة و يفارقون حضرته ودموعهم من الم الفراق ديمة فالله سبحانه فى تنزله لعقول البشر ومجاراتهم على ما اعتادوا عليه مع ملوكهم عند الالتجاء اليهم من مصائبهم خصص بقعة من الارض وفضلها وسماها بيته وهى الكعبة المكرمة وهو سبحانه منزه عن المكان وغنى عن البيت وسمى حجرا اسود فى أحد أركانها بيمينه وكلتا يديه

يمين ويداه ليست كايدى الخلق بل هما على ما يعلمه و وصف به نفسه وشرع سبحانه فى الشريعة المحمدية لاتباعها حيث لا بد ان تدهمهم جيوش الذنوب وتجور عليهم عاديات الخطايا و يفتقروا الى احسانات الحق تعالى ان يرد المستطيعون منهم الى ذلك البيت شعثا غبرا تاركين لبس المخيط هاجرين الطيب وتنعمات تطيب كاشفين رؤسهم مستغيثين بربهم من ذنوبهم وخطاياهم ضارعين اليه بنوال مناهم محترمين حمى ذلك البيت لا يقطعون حشيشه ولا أشجاره ولا يقتلون وحشه ولا اطياره حتى اذا بلغوا ذلك البيت المعظم والمنزل المكرم طافوا حوله طواف المستغيث وتشبثوا باستاره تشبث المستجير ثم قبلوا ذلك الحجر المبارك المسمى يمين الله تعالى مع اعتقادهم انه حجر لا ينفع ولا يضر وانما الضار النافع هو الله كما (قال عمر بن الخطاب عند ماقبله مامعناه انى اعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا انى رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقبلك ما قبلتك تنبيها منه رضى الله عنه للافكار على حقيقة الاعتقاد فى شريعة المختار) ثم بعد ذلك ينصرفون الى اعمال هناك عديدة هى تذكار لاعمال اسلافهم المتقدمين من سيدنا آدم وزوجه حواء والسيد الخليل وولده اسماعيل وامه هاجر عليهم السلام من نحو السعى بين الصفا والمروة والوقوف فى عرفة ثم في مزدلفة ثم النزول لمنى ورمى الجمار الممثل اخزاء الشيطان عندما تعرض لولد خليل الرحمن الى غير ذلك من الاعمال التى من جهل اسرارها من ذلك التذكار والاقتداء فى الخدمة باولئك الابرار اضطربت افكاره لطلب حكمتها والسؤال عن فائدتها ومن فهم ذلك باشرها مطمئن القلب منشرح الصدر راغبا فى حصول ثمراتها متشوقا الى الفوز بفوائدها فى ميقاتها فايجاب الحق تعالى على الحجاج تلك الاعمال بعد وصولهم للكعبة المكرمة

والطواف بها الطواف الاول هو بمنزله صرف الملك رعاياه المستغيثين به الى أداء الخدم التى باشرها اسلافهم فى حضرته لاجل تثبيت عبوديتهم وولائهم وطبع نفوسهم على التخلق باخلاق ابائهم فالحجاج في تلك الاعمال التى يجرونها في تلك الاماكن المكية تمكن من نفوسهم العبودية لرب البرية جريا على سنن ابائهم الاخيار وساداتهم الاطهار ولقد سميت تلك الاعمال تعبدية لا لانها خالية عن الحكم والاسرار بل لانها بظواهرها يكون الآتى بها كالممتثل أمر مولاه بغير منفعة تخشاه تعبدا واطاعة على انه لو فرض خلوها عن الحكم فالامتثال بادائها يشف عن غاية الخضوع والعبودية لله تعالى كأن لسان حال العبد يقول عند ادائها يا ربى انى امتثل ما تأمرنى به وان لم تظهر له ثمرة خضوعا لعظيم سلطانك وتعظيما لعلو شأنك وهذا شأن العبد المطيع يمتثل الامر ولا يسأل عن الحكمة والسر وهذه الحالة هى المقصد الاعلى والمقام الاسنى الذى تبتغيه الشريعة المحمدية لاتباعها فى جانب مولاهم جل وعلا وهو الحال الذى يعده صاحب هذه الشريعة عليه السلام من أشرف أوصافه واكمل نعوته وتقول مامعناه الى عبدا جلس كما يجلس العبد ونهى عن الاطراء في مدحه فقال مامعناه باختصار لاتطرونى ولكن قولوا عبد الله ورسوله وقد وصفه ربه بوصف العبودية فى أشرف مقام ذكره فيه فقال تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده) فكان له فى ذلك اكمل المبرة ووافر المسرة (ومن هنا يتبين للعاقل اللبيب سقوط ما ينسب لبعض الاغرار كالمعرى من الشعر الذي قاله فى اعمال الحج المذكورة فانه لو ثبت عنه لسلبه اسم العاقل فضلا عن الفيلسوف الذى لايخفى عليه حكم الشرائع واسرارها) ثم بعد اداء الحجاج تلك الخدم ينزلون في دار

ضيافة مولاهم بوادى منى و يز يلون شعثهم فيلبسون الثياب و يتمتعون بالاطياب و يز يلون زوائد الشعور و يستبيحون جميع ماكان في تنعمهم من المحظور و يقصون ايام العيد السعيد باكل وشرب وتضحية الضحايا التى تملأ لحومها الاودية والجبال و يشبع منها الوحوش والاطيار فضلا عن الفقراء ذوى الاضطرار فهناك ضيافة الحق تعالى اذ هو الرزاق وصاحب الملك الحقيقى والاموال بايدى الخلق بطريق العارية لا مالك سواه ولهذا حرم صيام يوم العيد لان صيامه اعراض عن ضيافة الله تعالى ثم بعد تمام تلك الخدم وقضاء الوطر من تلك الضيافة المباركة يرجعون للطواف بالبيت المعظم وهو كطلب اكمال التفضل بالاحسان ونوال الغفران والغوث من جيوش الذنوب وعوادى العصيان و كطلب الاستئذان بالرجوع الى الاوطان وعند ذلك يؤذن لهم بالرجوع الى اوطانهم وهذا الاذن هو عنوان الاجابة وقبول التوبة والانابة والتفضيل عليهم والاحسان بالرحمة والغفران واغاثتهم من عوادى العصيان كما بشرهم بذلك رسولهم عليه السلام فيوجهون العزم الى الانصراف الى ديارهم وعندهم انهم قد نالوا المنى وزال عنهم العنى لكنهم قبيل المسير ينعطفون لوداع البيت المعظم ويطوفون به طواف الوداع واداء الشكر لما وجدوه من النعم فى تلك البقاع ويفارقونه ودموعهم منسكبة وأفئدتهم للفراق مضطربة شاكرين مولاهم على ماأولاهم داعين من هداهم بكمال مناهم راجعين القهقرى وغليهم من أسف الفراق مايذهب بالكرى ثم عند ورودهم بلادهم تمتلئ قلوبهم بالفرح الابدى (الذى ذكر فى المزامير) لما نالوه من نعم الغفران والاحسان والامان من عادية العصيان ولو أردنا أن نستقصى جميع أسرار الحج المندرجة فى مفردات أعماله لاستغرق ذلك مجلدات وضاقت عن مطالعتة

الاوقات فما ذكر شذرة من عقد نحر ونقطة من ماء بحر والله الهادي الى
الى سواء السبيل
ثم نظر أولئك الطائفة فوجدوا ان الشريعة المحمدية أوجبت على اتباعها
قتال من خالفهم فى الدين عند سنوح الفرصة ليدينوا بدينهم أو يخضعوا
لسلطانهم وتسمى ذلك القتال جهادا وقد اجرته على موجب العدل كما قيل
عن محمد عليه السلام فى الكتب السالفة انه يحارب بالعدل فنهت عن قتل
الصغير والمرأة والهرم والمنعزل لما يعتقده عبادة الا اذا كان احد هؤلاء
منكيا فى الحرب أوفى تدبيرها والقصد من ذلك الجهاد اعلاء كلمة الله تعالى
وهداية المخالفين لذلك الدين حتى اذا دخلوا فيه سواهم المسلمون فى جميع
الشؤون والحقوق والاحوال لا يميز فى جميع ذلك عربي على عجمى بل
الكل اخوان متناصرون وكل فرد منهم بالنسبة لبقية اخوانه المحمديين
كالعضو الواحد من الجسد اذا تألم اشتكى له الجسد كله وذمتهم واحدة
ومقصدهم واحد وهو توحيد الله تعالى وافراده بالعبادة وطلب رضاه واذا
لم يهتد أولئك المخالفون لارغبة ولارهبة قاتلهم المسلمون حتى يرضخوا
لاحكامهم فيحكمون عليهم بما يعود على الهيئة الاسلامية بالنفع ودفع المضرة
ويدخلونهم فى ذمتهم بمعني أنهم يحافظون على دمائهم وأموالهم وأعراضهم
لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ويتركونهم وما يدينون ويفوضون حسابهم فى
الآخرة الى الله تعالى فهذا الجهاد لو قيس بالجهاد الذى ينسب لبعض الشرائع
السابقة لوجدانه قد احتوى على تخفيفات كثيرة قد خلت عنها تلك الشرائع
لان الشريعة المحمدية لم تامر باستئصال جميع الاعداء حتى الاطفال
الصغار كما كان في تلك الشرائع ومن يعلم احكام الشريعتين فى الجهاد يظهر

له الفرق ويحكم بان جهاد الشريعة المحمدية في غاية العدل .
وهكذا تلك الطائفة استقصت عبادات شريعة محمد عليه السلام جميعها فوجدتها على اتم مايرام من كونها اعمالا مشتملة على تعظيم الخالق ورحمة المخلوق ومنا فعها عائدة الى المتعبد لا الى المعبود لان الحق تعالى لا يناله نفع من خلقه اذ هو الغنى المطلق عن كل ماسواه
ثم تامل هولاء الطائفة في احكام هذه الشريعة وما سنته من الضوابط الكلية لتأمين ذوى الحقوق على حقوقهم ودفع التعديات من الاشرار وذوى الاطماع على احد من الامة أوأهل الذمة فوجدوا ذلك على اكمل وجه واقوم سبيل وكذلك وجدوها قد سنت احكام الزوجية على اكمل نظام فبينت حقوق الزوجين على بعضهما عند الاجتماع وعند ارادة الافتراق واجازت لهما الافتراق لدفع ماعسى ان يحصل عليهما من الضرر ان منشأ منه من نحو النفور الشديد لاسباب كثيرة مشاهدة بين كثير من الازواج ومن ارتكاب الزنا والوقوع فى الديانة اذا غلبت الشهوة على احدهما مع نفوره من الاخر ومن حرمان النسل لاحدهما اذا كان العقم من الاخر وجعلت سلطة الفراق بيد الرجل لتميزه عن المرأة بالتثبت وسعة البال ووفور تحمل الاثقال يعلم ذلك من سبر اخلاق النساء والرجال ولان الرجل هو المكلف بالانفاق على المراة فلا يسمح بفراقها وضياع ما انفقه الا اذا اضطر غاية الاضطرار ولا عبرة بمن يشذ من الحمقاء الاغرار وفرضت على الزوج النفقة لانه اقدر على الكسب من المرأة بحسب تركيب بنيته وقبوله لتجشم اعباء المكاسب واستحسنت لها القيام بمصالح البيت الداخلية وتربية الاولاد كما على الزوج ان يسعى في مصالحها الخارجية وحيث اصبحت بذلك

غير مضطرة للخروج من بيتها وهي محل الشهوة ومطمح نظر الرجال فلاجل سد باب الفتنة وكف دواعي الزنا الممقوت شرعا وعقلا امرتها بالحجاب والستر وكان ذلك من اشرف نعوتها واكرم مفاخرها تتباهى به كلما استكمل فيها فالحجاب صيانة ومحافظة عليها كالشيء النفيس الذي يضن به على الانظار ويحجب بالحجب والاستار وليس هو كما يظن بعض الجهلاء انه لظن السوء بها فان ذلك يقال لو أمرت بكف بصرها عن رؤية الرجال في كل حال وامرت الرجال بالحجاب عن النساء أيضا كما يزعم بعض الاغبياء ان حجابها هو حبس وتضييق عليها وملاشاة لحريتها فان المرأة المسلمة تشب على الحجاب من اول نشأتها وتألفه من بادى فطرتها فتجده كاللازم لطبيعتها وتعتاده اعتيادا محبوبا مألوفا وتعير من يتساهل فيه من النساء وتنسبهن للطيش والوقاحة وقلة الحياء على انها تقبله بانه حكم الشريعة الالهية فترجو محو الثواب ونوال الاجر من الملك الوهاب فكيف بعد جميع ما ذكر يقال ان المرأة في الشريعة المحمدية مظلومة أو محبوسة حاشا الله ما عليها من الحيف ادنى شيء بمقتضى احكام هذه الشريعة والصواب ان يقال انها في هذه الشريعة محفوظة منصانة من انظار الفسقة واميال الفجار والسنة السفهاء يغار عليها من مرور النسيم على انه لا يخلو الامر من وجود امرأة غير كاملة في الاداب والتدين فبالحجاب لا ترتاب النفوس بامانتها على نسب ذريتها ولا يدخل الشك على زوجها فيعلم ان من تلده هو ولده مطمئن القلب لذلك ليس للشيطان عليه سبيل في الوسوسة التي يتوصل اليها فيما لو كانت المرأة تخرج غير مستترة وتخالط الاجانب ومع ذلك كله فالشريعة المحمدية قد اجازت للمرأة الخروج لبعض امور ضرورية من زيارة ارحامها والتعلم لاحكام دينها اذا لم يعلمها الزوج ونحو ذلك مع التستر الذي يمنع نظر الفساق

وتهيج النفوس المغتلمة للتعرض لها بما يشين العرض والدين والذى يحكم به
العقل السليم الخالى عن التعصب الدنى ان الحجاب اللمرأة من احسن
الاحكام وانفع الوسائل لصالح الزوج والمرأة بل لعموم الامة يقطع مادة الفساد من
البلاد ومن هنا تري البلاد التي تحتجب نساؤها لا يهتم رجال السياسة فيها بتخصيص
اما كن للزوانى يردها الفساق لان شهوات فساقها غير مهيجة برؤية النساء
ولا طامحة لمنازعة أهل العرض فى نسائهم واما البلاد التي لاتحتجب نساؤها
فترى رجال السياسة فيها يرتكبون تخصيص اما كن للزوانى ولا يمنعوه
الفساق عنهن حتى صار والعياذ بالله تعالى الاولاد النغول يقاربون فى العدد
اولاد النكاح هناك ويحتج أولئك السياسيون لارتكاب هذا الامر
الفظيع بانه حصن للحرائر فلولا خشيتهم وخشية أهل العرض على
نسائهم من منازعة الفساق الذين تتهيج دهواتهم برؤية النساء المتبرجات
وخوفهم ان يغلبوهم عليهن لما ارتكبوا دلك الامر القبيح فيا للعار ويا للشنار
على أولئك السياسيين الذين يسوسون بلادهم ويحصنون نساءهم باعمال
البهائم فلو اخذوا بحجاب النساء لكان يغنيهم عن ذلك الامر الممقوت فقد
ظهر ان خروج المرأة غير مستترة ضرر عظيم ولو سلم ان الحجاب ضرر عليها
لكان عدمه اضر وارتكاب اخف الضررين هو الموافق للمعقول والمنقول فما
بالك وقد ظهر انه لاضرر عليها فى الحجاب كما يحكم به ذوو الالباب
ثم نظر أولئك الطائفة في احكام المعاملات في الشريعة المحمدية من نحو البيع
والشراء والاجارة والشركة والمداينة وقسمة التركات على طريق الحكمة
من ترجيح من هو اشد حاجة وامس قرابة وادخل فى التناصر فظهر لهم
ان جميع ذلك موضوع على اكمل نظام واتم ترتيب من كل مايسير بهذه

المعاملات فى منهج العدل ويرفع المنازعات ثم نظروا الى القصاصات والحدود والعقوبات والتعازير التي وضعتها تلك الشريعة لحفظ الانفس والاموال والاعراض والعقول فوجدت جميع ذلك على وفق الحكمة متكفلا بالصيانة والا من وكأنها والله اعلم تشير بذلك الى ماياتى من الحكم وبيانها ان من يعلم انه اذا قتل غيره قتل به يمتنع عن قتله فيحيا الاثنان ولذلك ورد ان فى القصاص حيوة ومن يعلم انه اذا سرق تقطع يده الخائنة يمتنع عن السرقة فيامن كل ذى مال على ماله وما احسن جواب بعضهم عن قول بعض الملحدين

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت فى ربع دينار

وهو

عزالامانة اغلاها وارخصها ذل الخيانة فافهم حكمة البارى

ولما كان الزنا معما فيه من القبائح هو قتل للولد الذى يتولد منه لانه يكون عديم النسب فاقد النصرة من العشيرة وكثيرا مايموت لعدم وجود من يربيه جعلت الشريعة جزاء الزاني اذا كان محصنا بالزواج القتل بالرجم حتى تردالعقوبة على كل عضو من اعضائه التذ بقضاء تلك الشهوة التى تعم الجسد واذا لم يكن محصنا عذرته بعض العذر فاكتفت بضربه مائة جلدة تفرق على اعضائه المشتركة بلذة تلك الشهوة الا ماكان من عضو يتولد بضربه الموت أو تشويه الخلقة وكانت الجلدات مائة اشارة الى ان الولد الذى كان يمكن ان يتولد منه وهو تعرض لقتله بالزنا يجوز ان يعيش مائة سنة وهو العمر المتاهل له الانسان بحسب تركيب بنيته وبطوء نموه كما قاله بعض الاطباء ولكن تعرض عليه اسباب الموت من حوادث المعيشة فيموت باجله الذى قدر له

قبل بلوغ تلك المدة وقد تكون هي اجله المقدر فيبلغها فكأنه جعل فى
مقابلة كل سنة متى هل ذلك الولدان يعيشها جلدة لذلك الزانى الذى
أضاعه ثم لما كان الانسان متأهلا ان يعيش المائه ومن المعلوم أن عقله قبل
بلوغه خمس عشرة سنة سن البلوغ غالبا فى أول عمره لايكون معتبرا فى
فى التكاليف الشرعية لعدم كماله كما انه يضعف جدا فى آخر عمره بمعدل
خمس سنوات لو عاش المائة فيكون عقله المعتبر الكامل القوى متوافرا له مدة
ثمانين سنة فاذا تعرض لاخلاله بشرب الخمر الذى يعرضه للذهاب او الضعف
وهو أكبر نعمة يعطاها الانسان بعد الايمان تحكم عليه الشريعة بضرب
ثمانين جلدة فكأنها جعلت فى مقابلة كل سنة من السنين التى تتوفر فيها نعمة
العقل جلدة واحدة وتشير اليه بذلك العدد بان النعمة التى تتوفر عليك
أيها الشارب للخمر فى تلك المدة قد تعرضت لزوالها فلذلك جوزيت بهذا
الجلد ثم ان الانسان قبل سن بلوغه وهو خمس عشرة سنة لم يكن
مكلفا فلا يشان فى أمر العرض كما يشان البالغ وفى السنين الخمس الاخيرة
من عمره فيما لو بلغ العمر المتاهل له وهو المائة نظرا لانحطاط شهوته
وقواه قلما ترتاب فيه النفوس فى أمر الفاحشة فيستبعد ان يشان فى عرضه
أيضا فى تلك المدة غالبا فبقيت مدة كمال المحافظة على شرف العرض هي
ثمانون سنة من عمر الانسان الذى هو متاهل ان يعيشه فلذلك جعلت
الشريعة حد من من يقذف غيره فى شان العرض ثمانين جلدة كأنها تشير
بذلك العدد الى المدة التى يكمل فيها محافظة المرء على عرضه وكأنها يقول
للقاذف انك تعرضت لشين عرض المقذوف الذى تكمل محافظته عليه فى
تلك المدة من عمره فجوزيت بذلك الجلد بمقابلة كل سنة بجلدة ثم ان

الشرائع المتقدمة على الشريعة المحمدية بعضها حكم بالقصاص في القتل وبعضها حكم بالعفو والشريعة المحمدية جمعت بين الحكمين فاجازت لولى المقتول ان يقتص من القاتل أو يعفو ورغبته بالعفو أقرب للتقوى (وهكذا تراها فى كثير من الاحكام جمعت ماتفرق فى الشرائع المتقدمة ولخصت زبدها وماذاك الا لأنها خاتمة الشرائع فجعلها الله جامعة لمحاسنها) ثم نظر هؤلاء الطائفة الى الاداب التى جاءت بها الشريعة المحمدية فوجدتها مكملة فى كل باب فقد استوفت آداب الاكل وآداب الشرب وآداب المنام وآداب الكلام وآداب الجماع وآداب قضاء الحاجة وآداب المجالسة وآداب الحضر وآداب السفر وآداب الزوجية وآداب ذوي الارحام مع بعضهم وآداب الجيران وآداب الاصحاب وآداب جميع المسلمين مع بعضهم وآدابهم مع أهل ذمتهم الى غير ذلك مما يعرف من البحث والتمعن في تلك الشريعة ثم أخذ هؤلاء الطائفة في انتقاد سياسة محمد عليه السلام والبحث عما اذا كان يامر بشيء يعود عليه او على ذريته بصالح خصوصي أم لا فبعد التنقير والبحث عن ذلك بكل دقة لم يجدوا منه عليه السلام أمرا ولا فى شريعته حكما يترتب عليه صالح خصوصى له أو لذريته وما كان ظاهره ذلك تبين لهم بعد التدقيق ان باطنه مبنى على حكم تعود بصالح العموم مثلا الصفى الذى كان ياخذه من الغنيمة قبل قسمتها انما يخصص به نفسه ظاهرا فى أول الامر تنويها بمنصب رياسته وهذا معهود مالوف بين الاتباع والمتبوع وهو مما يمثل فى النفوس عظمة المتبوع وابهته وهو مقصود من مقاصد سياسة البشر ثم آخر الامر كان عليه السلام يصرفه فى حوائج الفقراء فكان اظهار اختصاصه به أولا لتحصيل تلك الابهة للرياسة ولكف أيدى الاغنياء عنه وايصاله

للفقراء وتوسعهم به على وجه لا يجعل فى نفوس الاغنية ضغينة على الفقراء بترجيحهم عليهم وانفاقه ذلك بل جميع ما كان يردعليه على الفقراء والمساكين الا قدر الكفاف له ولعياله أمر متواتر عنه (حتى خرج من الدنيا ولم يورث عياله درهما ولا دينارا بل أنفق فى الصدقة كل منقول ووقف فى سبيل الله ما كان له من عقار) وقد ساوى بين عياله وعيال أصحابه فى النفقة الضرورية من خزينة المسلمين ولم يوص بالخلافة عنه لاحد من ذريته وانما فوض ذلك لرأى المسلمين ولوشاء ان ينص على ذلك لما خالفه في ذلك مخالف الى آخر الدهر وأعظم من ذلك كله انه لم يزل يوصى أهله وجميع أصحابه بالتحرز من ولاية الاحكام والغرور بمناصب الدنيا وزخارفها

ثم ظهر لهؤلاء الطائفة انه عليه السلام مادام رسول الله ومعصوما من الظلم والجور وقادرا على العدل بين الزوجات مهما كثرن فقد أباحت له شريعته ان يتزوج منهن ماشاء من العدد كما كانت الرسل قبله كداود وسليمان وغيرهما عليهم السلام ولكن لما كان من شان البشر غير الرسل العجز عن العدل بين الزوجات متى كثرت حجرت شريعته تزوج أتباعه فوق الاربع وكأنها والله أعلم أباحت لهم أصل تعدد الزوجات لان الذكور فى معرض النقص عن عدد النساء لتعرضهم لمخاطر الاسفار والحروب ومشاق الارتزاق فلو منعوا من التعدد لبقي العدد الزائد من النساء معطلات عن النسل ثم ان الرجل مستعد لاداء النسل من سن بلوغه الى آخر عمره ولو عاش مائة سنة والمرأة تيأس من سن الخمسين أو الخمس والخمسين بقطع مادة الحيض وفقد البزور من مبيضها لطفا من الله تعالى بها حيث ان الحمل والولادة والارضاع تضعف قوتها فمقدار استعدادها للنسل من سن

البلوغ الى سن الايأس خمس وثلاثون سنة غالبا فلو منع الرجل من التعدد لربما عطلت المرأة عليه اداء نسله مقدارا عظيما من عمره فاباحة التعدد له تخلصه من غائلة هذا التعطيل ومن هنا يظهر سر جواز الطلاق حتى لاتتعطل عليه مدة من استعداده للتناسل فيما لو أيست زوجته أو كانت عقيما وهو لم يقدر على التعدد فيستبدل بزوجته غيرها وان كان العقم منه لايتعطل عليها نسلها (وقد مرت حكمة كون الطلاق بيد الزوج فارجع اليها) وكأن حكمة حصر التعدد بالاربع لمقابلة كل واحدة بنوع من أنواع المكاسب التى يرتزق منها الانسان وينفق على زوجته وهي التجارة والصناعة والفلاحة والامارة وقد تكون احداها وافرة فتقوم مقام البقية وشرطت فى الاربع العدل أيضا حتى لو خاف الرجل الجور بين اثنتين تحظر عليه الجمع بينهما وتبيح له الواحدة ولو خاف الجور على الواحدة بنحو ظلمها أوعجزه أوقصور يده عن الانفاق عليها تحجر عليه أن يتزوج الواحدة أيضا ولما كانت الرقيقات مجلوبات لبلاد ليس فيها ذكور بمقابلتهن لعدم تمكن الارقاء من نكاحهن لشغلهم بالخدمة أباحت للمالكين لهن التسرى بما فوق الاربع منهن لئلا يتعطل نسلهن ولم تبح للمملوك أن يصير زوجا لمالكته لان ملكها له يقتضى ولايتها وتسلطها عليه وصيرورته زوجا لها يقتضى ولايته وتسلطه عليها وذلك من التناقض السياسى فى المعاشرة بمكان يقتضى عدم انتظام أمر الراحة والوفاق بينهما وهذا خلاف مقاصد هذه الشريعة العادلة

ثم وجدوا ان شريعته عليه السلام قد حرمت نكاح أزواجه من بعده ولدى التدقيق ظهر لهم ان ذلك لحكم جليلة

أولا تعظيم شأنه عليه السلام وتعظيم شأن الرسل بين اتباعهم أمر

معهود فى الشرائع المتقدمة ولزوم أدب معه وهو مستحسن أيضا فان الانفس البشرية تأبى نكاح أزواجهم من بعدهم ولم تجعل لغيره هذه المراعاة من علماء الامة وكبرائها لئلا يضيق أمر التناسل ثانيا سد باب التداخل فى أمر الخلافة من غير مستحقيها فانه لو أبيح تزوج أزواجه من بعده عليه السلام لكان من ينكح واحدة منهن ولو غير أهل للخلافة يستولى على نفوس العامة ويخدع عقولهم بأن معى زوجة رسولكم ولى بذلك الحق فى الخلافة والتقدم على غيرى ثم يسند اليها كل ما يروج مقاصده عند العامة الهمج كما شوهد نظير ذلك فى تقلبات الدول ممن نكح نساء الملوك بعد موتهم واستند بذلك في التداخل فى أمر الملوك كما يعلم من التاريخ ثالثا لو أبيح ذلك لانفتح به باب الفتنة بين أتباعه من بعده لان كل واحد منهم يرغب أن تكون معه زوجة رسوله يتبرك بقربها ويتيمن بذريتها ويحوز أسنى الشرف ويفاخر بذلك الاقران ويتعلم منها ما خفى على كثير من ذوي العرفان وبهذا يقع التغاير وتقوم الفتنة بينهم على قدم وساق فسدا لهذا الباب حجرت الشريعة هذا الامر على وجه الصواب رابعا لاشك انه يلحق زوجاته عليه السلام بنكاح غيره من بعده ما يزرى بمقامهن من انحطاط الرتبة والقدر وتسقط عظمتهن من قلوب الامة جميعا لان المرأة التى كانت مع رسول الله ثم تقترن بسواه ولو انه أعظم رجال الامة تكون كالمنحطة من الاوج الى الحضيض وبذلك تنفر منهن النفوس وترتاب بحديثهن لدخولهن تحت كنف من لم تجبله العصمة فيتخيل للعقول انهن يجرين على هواه فى أقوالهن وأعمالهن ويروجن أفكاره بما ينقلن عن رسول الله عليه السلام (حاشا حضراتهن من ذلك وانما هو شئ تتخيله العقول عند ذلك وترتاب من أجله) وحينئذ تفقد

الامة ثمرات كثيرة من علومهن التى نقلنها عنه عليه السلام المفيدة لاحكام
شرعية جليلة اخذت من اقواله وأفعاله بنقل تلك النساء المخالطات له فى
أكله وشربه ونومه وجميع شؤنه فى خلوته ومباشرة نسائه الى غير ذلك
وان غالب هذه الاحكام لا تعلم الا من جهتهن ولو اقترن بغيره من بعده
لا نحطت عظمتهن في الانفس كما قدمنا وضعفت الثقة باخبارهن كما قررنا
ففاتت تلك العلوم كما أوضحنا الى غير ذلك من الحكم والاسرار المنطوية
تحت الحكم بذلك التحريم فضررهن الخاص بمنعهن من النكاح بعده عليه
السلام لايقوم بمقابلة تلك الاضرار العامة فليس ذلك الحكم لغاية نفسية
أو لافكار منحطة دنية كما أوضحه البحث والتدقيق حاشاه عليه
السلام من ذلك ما هذا الحكم الامحض تشريع من الله تعالى لاسرار
عالية وحكم سامية

فلما تم انتقاد هؤلاء الطائفة لشريعة محمد عليه السلام ولسياسته وظهر لهم
جميع ماتقدم من حسن الانتظام وبدائع الحكم العظام قال بعضهم
لبعض الحق أحق أن يتبع لاشك أن ماجاء به محمد عليه السلام
هو شريعة من عند الله تعالى والا فان محمدا رجل أمي ناشئ بين
الامة الجاهلية لم يفارق أوطانه الا أشهرا قلائل فى سفر قريب
لا تصلح مدته لتحصيل أقل القليل من العلوم ولم يجتمع على
أحد من اهل المعارف فى مدة حياته في بلده ولم يعثر عليه انه
عانى تعلم شيء من الشرائع أو قوانين الدول فمن أين له أن يستنبط عقله
هذا الترتيب الغريب العجيب الذى أحاط بكل حكمة باهرة واحتوى على
كل خصلة حميدة فاخرة وتكفل بانتظام حالة البشر وصالح أحوالهم وطهارة

نفوسهم وعمار ديارهم وكف أشرارهم وبكل شيء يعود عليهم بالخير ويدفع عنهم الضير مع تلك العقائد فى حق رب البرية السالمة من كل خرافة ودنية وفى حق الرسل الاخيار هداة الأنام عليهم الصلاة والسلام ولو كان محمد من أعقل الخلق وأحذق البشر وأكبر الفلاسفة وأعظم السياسيين العالمين بوضع نظامات الامم لما صح في العقل امكان التصديق باقتداره على الاحاطة بجميع ماجاء به الاان يكون مرسلا من جانب الله تعالى وهو الذى هداه الى جميع ذلك واطلعه عليه وأفهمه أسراره وامره بتبليغه فانا نرى أكبر الفلاسفة مهما بلغوا فى المعرفة والاحاطة فى الفنون انما ينبغون فى فن اوفنين فهذا جالينوس نبغ فى السياسة البشرية وارسطو فى الحكمة النظرية والالهيات وابقراط فى الطب واقليدس فى الهندسة وفلان بكذا وفلان بكذا واما ان واحداً منهم احاط بكل فن أو بمعرفة كل ما هو صالح للبشر فهو شيء لم يكن البتة وأما محمد (عليه السلام) فشريعته قد أحاطت بجميع ما يتكفل بخير البشر لم تغادر منه شيئا كما تقدم لنا بيانه فما كان أمس حاجة وأشد لزوما فصلته وشرحته على اكمل بيان وماكان أقل فى الاحتياج اليه وليس من الضروريات المعاشية أو التهذيبية رمزت اليه وأشارت ألى طرق تعلمه من اربابه وسهلت السبيل اليه من نحو الفنون الحسابية والهندسية والصناعات ونحو ذلك يعلم هذا الامر منها من اطلع عليها اطلاع الناقد البصير لا من نظر اليها بعين البغضاء أو لحظها بطرف العجلة وأطل على بعض مباحثها فظن انه احاط بها احاطة الجفون بالمقل وهو لعشر معشارها مافهم ولاعقل فصدق هؤلاء الطائفة محمدا عليه السلام فى جميع ماجاء به وآمنوا برسالته من عند الله واصبحوا من اشياعه الاخيار واصحابه الانصار

أقول ان هذه الطائفة قد فتحت بابا للاستدلال على صدق محمد عليه السلام يبقى مفتوحا الى يوم القيام فلكل من كان يأتي بعد عصره الى آخر الزمان ان يستدل كما استدلت فيتضح له الطريق كما اتضح لها فاذا غاص في بحار هذه الشريعة المحمدية ونظر فيها نظر الناقد البصير المطلق من أسر الضمير عاد بها وهو مؤمن وبصدق صاحبها مستيقن ولقد اتسع ذلك الباب لمن جاء بعد الاعصر المديدة من بعثة محمد عليه السلام سيما من جاء بعد مرور ثلاثة عشر قرنا فانه فضلا عن اتضاح الحق لديه بما في تلك الشريعة من المزايا الداله على انها من عند الله يجد انها لم تزل محفوظة الموارد مطردة القواعد لم تختل منها قاعدة فيحكم العقل ان هذه القاعدة لم تبق مناسبة لهذا الزمان ولم تتخلف ثمراتها ولم تطمس آياتها كما هو مسلم عند ذوي العقول السليمة من داء التعصب والاختبار أقوى دليل على ما نقول ولو كانت من وضع البشر لاختلت وفسد نظامها كما تختل نظامات البشر بمقتضى اختلاف الزمان

ولا يهولنك ما يهذي بعض الحمقاء حتى ممن ينتسب الى هذه الشريعة وهو فى الحقيقة مارق منها مروق السهم من الرمية قد طمس على بصيرته وعمي قلبه جاهل بحقيقة شأنها وعلو مكانها لم يعلم منها الا الاسم فتسول له نفسه الخاملة ويخيل له عقله الفاسد ان الزمان قد صار محتاجا لبعض قواعد خلاف قواعدها وضوابط خلاف ضوابطها وانها ما بقيت كافية لحاجة هذا الزمان فيلتجيء للاخذ ببعض قواعد لبعض الامم أما هي قاصرة المنفعة واهية الاحكام ان اسندت من جهة مالت من جهات وأما هي فى الحقيقة من اصل قواعد تلك الشريعه مكاملة أخذها أولئك الامم وألبسوها حلة غير حلتها

الاسلامية فيظن ذلك الجاهل المغرور أنها شيء جديد اخترعته تلك الامم وضمنته بدائع الحكم ولو كان من اهـل المعرفة فى الشريعة المحمدية التى انتسب اليها لظهر له ان في هذه الشريعة قواعد فاضلة كاملة وافية باحتياج هذا الزمان وكل زمان لا تذكر عندها تلك القواعد القاصرة ولا يعبأ بها عند مقابلتها او لظهر له ان القواعد الكاملة عند أولئك الامم هى من جملة القواعد التى اشتملت عليها الشريعة المحمدية غاية الامر انهم ابرزوها بصورة غير صورتها الاسلامية واذا كانوا لم يأخذوها من الشريعة المحمدية فقد صادف وصول عقولهم اليها لانها من مستحسنات العقول مع ان الشريعة المحمدية تشتمل عليها أيضا فكان يحكم ذلك الجاهل ان قواعد الشريعة المحمدية تغنى الامة عن الاخذ بسواها الا انه يحتاج في ذلك للمعرفة فى الشريعة المحمدية والتبحر فى أبوابها ولا يكفى مجرد اللمح من طرف ضعيف فمن أراد أن ينشر قواعد مفصلة مشروحة قريبة لفهم العامة لتصلح شأنا من شؤنهم فعليه أن يكلف علماء الشريعة المحمدية المتبحرين فيها أن يجمعوا له منها ما يقوم بمطلوبه ويفى بمرغوبه فيجيئونه بالمطلوب الكافي الوافى من تلك الشريعة طبق المراد لصوالح العباد كما جرى ذلك عند ما طلب السلطان الاعظم نصر الله دولته جمع كتب مجلة الاحكام العدليه فى المعاملة الجارية بكثرة بين الناس من العلماء يكون سهل مفهم على الاحكام والاخصام فأتوا بما يفى بالمراد من ذلك

ولا يهولنك أيضا ان بعض من ينتسب الى هذه الشريعة تراهم مختلى النظام فاقدى الآداب فاسدي السياسة عديمى التدبير فربما يتخيل لمن لم يعلم حقيقة حالهم وما جنوه على أنفسهم من مخالفة شريعتهم ان يقول

كيف ان المسلمين يدعون ان الشريعة المحمدية تقوم بمصالح من يتبعها وتهذبهم غاية التهذيب وانا نرى هؤلاء القوم قد انغمسوا في الشرور وتراكمت عليهم انواع الشقاء مع انهم منتسبون لهذه الشريعة فاين اصلاحها وتكفلها بانتظام حال اتباعها فقل له ياقليل الانصاف من ادعى منا ان الشريعة المحمدية تكفلت باصلاح حال من ينسب اليها بالاسم ويخالفها بالاقتداء والعمل فلا يجرى على احكامها ولا يتحلى بادابها كلا والله لم تتكفل هذه الشريعة الا باصلاح من تمسك باحكامها وتخلق باخلاقها وجرى على ادابها كما صرح القرآن الكريم بذلك والاحاديث النبوية وقد اخبرت تلك الشريعة ان من خالفها فى تلك الامور تتوارد عليه انواع الشقاء واصناف البلاء حتى انه يجد من ذلك مالا يجده غير اتباعها المنتسبين اليها تبديلا لانتقام الاخرة بانتقام الدنيا للردع عن المخالفة وللتذكار بالرجوع الى التوبة ولتمحيص ذنوب ممن يريد الله به اللطف لشفاعة بعد صفات حسنة ترافق تلك المخالفة فتكون واسطة لتكفير الذنوب بورود تلك البلايا الدنيوية العاجلة وانا اضرب لك مثلا لمن يخالف الشريعة المحمدية ممن ينسب اليها فلا يجد من ثمراتها شيئا فاقول هو كرجل عنده مكتبة عظيمة مشتملة على الكتب النفيسة المحتوية على الاداب والاخلاق الجميلة والاعمال الفاضلة وهو لايفتح منها كتابا ولا يستفيد منها فائدة ايتصور فى العقل ان يصير ذلك الرجل مهذبا فاضلا سعيدا بمجرد وضع تلك الكتب فى داره وتصفيفها في مكتبته وتذهيب جلودها وتوقيع اوضاعها لا والله لايكون ذلك الرجل الا كمثل الحمار يحمل اسفارا لايدرى ما هو حامل ولا يستحق الا اسم الجاهل

فان قال قائل انا نرى بعضا ممن يعده الناس من علماء الاسلام غيرمهذب

الاخلاق ولا كامل الصفات بل هو متهافت على الدنيا وادرانها اكثر من
الجهلاء متكالب عليها تكالب كلاب البيداء مضر للبشر متجاهر بالضرر فاي
تهذيب حصل لهذا الشرير من تلك الشريعة وأى ثمرة اكتسبها بل لو لم
يعد فى صف العلماء لقصرت يده عن كثير من الشرور فاقول ان هذا المذكور لم
يدرك من الشريعة المحمدية الا القشور وفاته اللباب وثمرات الآداب فاذا
حققت امره تجده قد اتقن شيئا من علوم اللغة العربية التى جاءت هذه الشريعة
فيها من نحو صرفها ونحوها وبيانها مما هو وصلة الى فهم الشريعة لا هو عينها
ومر مرورا على كتب الشريعة بمقاصد ساقطة ونية زائفة وهو مصلم على
الاطلاع على ما للشريعة من احكام ليتوصل بها الى رضى الحكام والى اكل
المال الحرام من العوام الذين لا يفرقون بين الضياء والظلام وقد حفظ من اداب
الشريعة المحمدية ومواعظها ما يزين به زخارف الكلام لا لان تكون دواء
لذاته وشفاء لبلوائه فلا يتخلق باخلاقها الرفيعة ولا يتأدب بآدابها البديعة
ولا ينزجر بمواعظها عن احواله الشنيعة فغاية مقصده نوال ما رغبت فيه
نفسه من تلك المقاصد الدنية فمثله كطبيب يعلم تشخيص الامراض وادويتها
ومعالجتها ولكن لا يلتفت الى تشخيص دائه العضال ولو التفت اليه لا ياخذ
دواءه ولا يصبر على معالجته بل همته مصروفة الى جلب الاموال من ذوى
الامراض ولا له الى مرضه ادنى التفات فبالله عليك كيف يشفي هذا الطبيب
من دائه العضال وهو بهذا الحال من الاهمال ايكون مجرد معرفته علم
الطب كافيا لشفاء دائه لا والله ايصح عند ذلك ان يقال ان علم الطب لا ينفع فى
شفاء الامراض حيث ان هذا الطبيب لم يشف من دائه مع علمه بالطب
وتركه المعالجة لا أخال ان احدا يتجرأ على ذلك القول الفاسد الا ان يكون

مختل العقل وليعلم ان من كان بتلك الحال ممن يعد فى صف علماء الاسلام وقد تهتك بمخالفة الشريعة المحمدية بين الانام هو وامثاله تدعوهم هذه الشريعة بعلماء السوء وهم اضر على المسلمين من اجهل الجهلاء بل من الد الاعداء قلل الله من بين المسلمين امثالهم ونسخ ظلالهم وابدل المؤمنين بهم علماء فضلاء اتقياء قادة للحق هداة للصدق متصفين بالصفاة الكاملة متحلقين بالاخلاق الفاضلة محافظين على اداب الشريعة متابعين رسولهم فى كل ما سنه لهم من المناهج البديعة فهؤلاء كثر الله من امثالهم واثابهم على اعمالهم وجزاهم عن الامة المحمدية احسن الجزاء فهم علماء الآخرة الذين خصص الله تعالى خشيته بهم واثنى عليهم فى كتابه الكريم وعلى لسان رسوله عليه من الله اسنى الصلاة والتسليم وهولاء في استقامة احوالهم ونجاحهم فى اقوالهم واعمالهم من آثار اتباعهم للشريعة المحمدية لم يتركوا للمعارض مجالا ولا للخصم مقالا كما لايخفى على ذوى الالباب

ثم اقول لمن اغتر بعلماء السوء فظن انهم علماء الشريعة الذين يرجى صلاحهم واصلاحهم انى ياصاحبي اعذرك فى اغترارك بهولاء الشياطين الذين يزينون ظواهرهم بما حفظوه من العلوم الرسمية والفاظ الاحكام الشرعية ولكن ان كنت نبيها فلا اخالك تغتر بفرقة اخرى اصبحوا فارغين من كل معرفه خالين من كل استقامة انما هم جهلاء اغرار تزيوا بلباس العلماء وتحلوا بشعار الاتقياء حيلة على الدنيا وشبكة لاصطياد حطامها فترى عليهم عمائم كالابراج وجبيا كالاخراج والعلم عند الله فشأنهم (تغيير شكل لاجل الاكل) وقد يتجرؤ بعضهم على مناصب العلم من التدريس والافتاء والقضاء ويغتر بهم همج العامة الذين لايعلمون الارض من السماء فانا لله وانا اليه راجعون فاياك ان تحتج

فى مناقضتك ايها الخصم بهولاء الملبسين فان آلة تلبيسهم ضعيفة جدا
وينكشف حالهم بكلمة واحدة فيظهر بها انهم كالا نعام بل هم اضل هذا
وقد بقى من الملبسين قوم قد يضرون أهل الدين الاسلامى اشد الضرر
ويروج تلبيسهم على العامة فيفسدون عقائدها وهي لا تشعر بل تظن بزخارف
هولاء الدجالين انها قد وصلت الى حقائق الامور وفازت على العلماء الاعلام
فى المعرفة وهي فى ضلال مبين وحقيقة هولاء الدجالين انهم يدعون وصولهم
الى معرفة علوم واسرار فى الشريعة المحمدية تخفى على العلماء الاعلام وان
الله خصهم بها بسبب الوسائط الفلانية ويترجمون عن تلك المعارف والاسرار
بعبارات هي محض كفر وضلال بمقتضى قواعد الشريعة المحمدية لكن تلك
العبارات تشابه بعض الكلام الذي ورد عن بعض العارفين من علماء هذه
الشريعة المشهود لها بصحة العقدة واستقامة الحال على منهج الدين المحمدى
وقد اطلعهم الله تعالى بواسطة تقواهم واقتفائهم اثار رسول الله صلى الله تعالى
عليه وسلم على معارف واسرار في هذه الشريعة لم يطلع عليها غيرهم ممن لم
يعمل كعملهم ولم يستقم كاستقامتهم وهي في الحقيقة لا تنافى الشريعة المحمدية
فى شى بل هى من الشريعة توخذ من رموزها وتفهم من اشاراتها غاية الامر
ان بعض تعبيراتهم عنها كانت موهمة لمخالفة الشريعة وما كان ذلك الا لضيق
الالفاظ اللغوية عن الافصاح عنها فاصبح التعبير فى ادائها موهما ما يخالف
الشريعة وليس الحال كذلك ولثبوت استقامة هولاء العارفين التزم العلماء تاويل
ما يتوهم من كلامهم وتطبيقه على قواعد الشريعة المحمدية بما يدفع عنهم الريب
في عقائدهم وأما أولئك الملبسون الحائدون عن منهج الاستقامة فى الشريعه
الساعون على تحصيل شهواتهم وبلوغ مأربهم الفانية فقد ادعوا مناصب هولاء

العارفين واصبحوا يتكلمون بكلمات تشبه كلامهم وهم عنهم بمعزل ماعندهم من تقواهم ذرة ولا من معارفهم قطرة فالحذر الحذر من الركون الى كلام هؤلاء الملبسين الضالين المضلين وقد كثر عددهم في هذه الايام فكم افسدوا من عقائد وكم احلوا من حرام فعلى كل مؤمن متبع للشريعة المحمدية ان يعتقد ما جاء به صريح القرآن والسنة الصحيحة و يعتمد فى كل ذلك كلام العلماء الاعلام المسلم بمعرفتهم واستقامتهم من الخاص والعام و يهجر ما سوى ذلك من وساوس الاوهام والله يتولى هدانا اجمعين بحرمة سيد المرسلين اللهم آمين

وطائفة من أولئك الجماهير لم تسبق افكارهم الى تلك الاستدلالات التى وصلت اليها افكار الطوائف السابقة ولكنهم تاملوا فى حال محمد عليه السلام وفي متابعة أولئك الطوائف له بعد ما كانوا مخالفين وفى الوجوه والدلائل التى حملتهم على تصديقه والانقياد اليه فقالوا ان هؤلاء الطوائف الذين اتبعوا محمدا (عليه السلام) لاشك انهم عقلاء واصحاب اراء سديدة وعندهم الاستعداد للاستدلال على الحقائق والتوصل الى الصواب ونراهم أولا قد نفروا من تصديق دعوى محمد (عليه السلام) غاية النفور وكذبوه اشد التكذيب حتى خلانه واقاربه من اعمامه وأولادهم وعشيرته اجمعين ولا سيما منهم من يعتقدون باديان الرسل المتقدمين و بين ايديهم المنسوبة الى أولئك الرسل وأخذ جميعهم بتوبيخه وتقريعه على هذه الدعوى التى ادعاها وحاولوه بالرجوع عنها والكف عن تسفيه احلامهم والطعن باصنامهم واعتقاداتهم واحتالوا عليه باطماعه بانهم يشاركونه في أموالهم و يزوجونه كرم بناتهم اذا هو رجع عما هو فيه ثم انهم بعد جميع ذلك النفور وكل

ذلك الامتناع اخذوا يتركون عاداتهم المالوفة لهم والموروثة عن ابائهم و يرفضون اعتقاداتهم لا سيما منهم من يعتقدون باديان تنسب الى الرسل المتقدمين فان هؤلاء بعد ما تشددوا في النفور غاية التشدد تمسكا بما لديهم من الدين السماوى والكتب الالهية عادوا فاقبلوا على تصديق محمد احسن الاقبال اعتمادا على ما ظهر لهم من شهادات الكتب التى عندهم بصدقه عليه السلام وانطباق العلامات المذكورة فيها عليه وقد تركوا كثيرا من أحكام الشرائع التى يعتمدونها عند ما اخبرهم محمد بان شريعته ناسخة لها ولا شك ان ترك مثل تلك العادات المألوفة يصعب جدا عليهم فلا يهجرونها الا لموجب قوى وداع قاهروانهم يعلمون قطعا ان تركهم لكثير من احكام شرائع رسلهم المتقدمين ان لم يكن بأمر الله تعالى ورضاه يستحقون منه أشد الانتقام فايمانهم بمحمد وتصديقهم برسالته لا بدان يكون ناشئا عن تحرير ادلتهم التى اعتمدوها في تصديقه ولولا انها أدلة قاطعة وبراهين ساطعة اطمأنت بها نفوسهم واذعنت لها عقولهم وتوصلوا بها للصواب لما كانوا جروا بمقتضاها ولما هجروا مالوفاتهم وتعرضوا لانتقام الله تعالى حسب زعمهم الاول ولكانت عقولهم السليمة تمنعهم ان يقدموا على الباطل وان يخاطروا هذه المخاطرة ويعتمدوا على دليل ضعيف أو يميلوا لهوى نفس سيء العاقبة ولا داعي هناك من نحو الانفعالات النفسية التى تدعو في بعض الاحيان الي ارتكاب خلاف الصواب بل الذى في أنفسهم من الانفعالات النفسية والتعصبات النسبية والدينية تدعوهم الى التكذيب لا الى التصديق وتحملهم على الاصرار على ماهم عليه لا على الانتقال عنه فاتفاقهم جميعا على تصديق محمد عليه السلام مع

تنوع ادلتهم أنواعا مختلفة الطرائق متفقة على نتيجة واحدة لاشك انه حجة مستقلة تثبت دعواه وتدل على صدقه اذ من المحال الذى لا يصدقه العقل السليم ان يكون ذلك الاتفاق من أولئك العقلاء المتعصبين لعاداتهم واعتقاداتهم وتوفر تلك الادلة حاصلا جميع ذلك بوجه الصدفة ولا يقول بالصدفة فى مثل ذلك الامعاند مكابر فنحن اعتمادا على ما يحصل لدينا من هذا الاتفاق من أولئك الطوائف ومن توفر تلك الادلة مع ان ذلك لا يكون بوجه قد الصدفة صدقنا محمد عليه السلام فيما ادعاه وامتثلنا جميع مايأمرنا به مقرين بأنه رسول الله بلا اشتباه

أقول ملخص استدلال هؤلاء الطائفة بصورة القياس الاستثنائى المستثنى فيه نقيض التالى لينتج المقدم هكذا لولم يكن محمد صادقا لما اتفق هؤلاء العقلاء المخالفون المتعصبون على تصديقه ولما توفرت لهم تلك الادلة لكن قد اتفقوا على تصديقه وتوفرت لهم تلك الادلة فيكون صادقا فايمان هذه الطائفة ليس بالتقليد لاولئك الطوائف كما يتوهم بل هو بالاستدلال أيضا كما علمت

وطائفة منهم كانوا طبيعيين ماديين دهريين اى انهم يعتقدون ان مادة العالم أزلية ليست مخلوقة وانه لا اله للعالم أوجده من العدم ورتبه على هــذا النظام وانمـا تكونه على هذه الكيفية المشاهدة التى يحار فيها الفكر وتنوعه بهذه الانواع ليس الا من تركب عناصره وتفاعلها بمقتضى نواميسه القائمة فيه وحيث لم يعتقدوا بوجود اله للعالم فبالضرورة لا يصدقون بالرسل المدعين انهم مرسلون من عند الله تعالى الذى هو آله هذا العالم فعند ماسمعوا محمدا عليه السلام يدعى ارسال الله تعالى له وشاهدوا

احوال أولئك الجماهير الذين كذبوه أولا ثم صدقوه وسمعوا بدلائلهم التى استدلوا بها على صدقه مع اختلاف أنواعها وتخالف طرقها وما نتج عن ذلك كله من الانقلاب العجيب فى العالم البشرى من ترك أولئك الجماهير لعاداتهم ومالوفاتهم ومعتقداتهم واتباع ذلك الرجل الامى الفريد الوحيد الذى قاوم بدعواه أولئك الالوف ولا ناصر له ولا معين حادثا ليس بالقليل يستحق التفات الافكار وتمعن الانظار والبحث عن اسبابه وكيفية تسببه عنها وانتقاد حقيقة هذا الامر هل حصل عن تصورات يقينية أوعن تخيلات وهمية تنبهت افكارهم وتيقظت البابهم (ومن يسمع يخل ومن يشاهد يفتكر) فقال بعضهم لبعض ان هذا الحادث مهم جدا ونحن نبحث عن أقل قليل يحدث في الكون بالتفتيش عن اسبابه ومقتضياته وحقيقته وغايته والذي تقرر اعتماده عندنا ان كل حادث وانقلاب فى العالم البشري لابد ان يكون ناشئا عن مقتض اقتضاه كما الحال فى حوادث المادة واثارها فانه لا اثر منها الا وهو ناشئ عن سبب ومقتض يقتضيه أبعد ذلك نغض الطرف عن هذا الحادث العظيم من نجاح محمد بهده الدعوى التى ادعاها واتباع أولئك الجماهير الذين باتباعهم حصل انقلاب في العالم الانسانى يقل نظيره في التاريخ البشرى ونكتفى بقولنا ظنا وتخمينا لا علما وتحقيقا ان هذه الدعوى من محمد هى تحيل على الرأسة وذلك الاتباع من أولئك الجماهير مبنى على الاهوام إما علينا ان نستعمل فلسفة التاريخ ونبحث عن الاسباب التى أوجبت هذا الانقلاب والانقياد لهذا الرجل الامى الوحيد الفريد فهب ان دعواه تحيل على الرأس فما نقول في سبب ذلك الاتباع والانقياد من أولئك الطوائف الكثيرين المتعصبين لماهم عليه من

العادات والاعتقادات فان قلنا سبب هذا الانقياد هو العصبية لم يصح ذلك
فان عصبية أولئك الجماهير انما هى لما هم عليه من العادات والاعتقادات
وهذه تقتضى مخالفة محمد لا موافقته وان قلنا ان السبب عصبيه عشيرته له
وطمعها بنواله الرأسة اذا هو نجح فى دعواه لم يصح هذا أيضا لانا نرى
عشيرته أشد الناس مخالفة له عند ما قام يظهر دعواه ومن
اتبعه منها فانما كان اتباعه له آخر الامر بعد ما تم نجاحه وكثرت
أنصاره وقليل منها من أتبعه فى أول أمره وعلى هذا الحال فليست عصبيتها
هي السبب البتة على انه لوفرض عصبيتها له فى أول أمره لم تكن لتؤثر فى
انقياد أولئك الجماهير الكثيرة وهى دونهم فى القوة والاقتدار ونفوذ الكلمة
فلو انه اعتمد عليها وقاوم بها عصبيتهم لكان قد عرضها للهلاك ولانسحقت
بقوة أولئك الالوف المؤلفة كما يعلم ذلك من الاطلاع على عددها وعددهم
ومنزلة اقتدارها واقتدارهم وان قلنا ان السبب هو طمع أولئك الجماهير فى
الثمرات التى تحصل لهم اذاهم اتبعوه ونجح فى دعواه وبلغ سلطانه ما بلغ
فلا يصح هذا أيضا فمن أين أيقن أولئك الجماهير أن محمدا (عليه السلام)
ينجح في داعواه وتحصل له السلطنة وقد قام فى أول أمره وحيدا فريدا
صفر اليدين من كل سبب موصلى للنجاح ومعرضا نفسه لسخرية عموم
العالم ونسبتهم اياه الى الحمق بانه يدعي دعوى دون نوالها خرط القتاد فاى
قوم يعتقدون فى رجل انه كاذب فى دعواه وهو وحيد فريد خال عن
الاسباب المرجو بها نجاحه ثم يتركون ماهم عليه من عاداتهم المألوفة واعتقاداتهم
المرجو لهم بها سلامة الدنيا والآخرة ويتبعونه طمعا بانه اذا نجح تحصل لهم
ثمرات فانية وان فاتتهم ثمرات باقية لايفعل ذلك الا المجانين وأولئك الاقوام

جميعهم لا يصح فى العقل الحكم عليهم بالجنون قطعا وان قلنا ان السبب هو
الخوف فلا يصح أيضا لانه لم يحصل لاولئك الجماهير أدنى خوف من محمد
فى ابتداء أمره لانه كان فريدا لا رفاق ولا صحب نعم قد حصل خوف
لبعض من اتبعه ولكن بعد ماتم نجاحه وكان له من الاتباع الالوف المؤلفة الذين
اتبعوه بدون أدني خوف فهؤلاء ما سبب اتباعهم وان قلنا ان السبب فصاحة
لسانه وسحر بيانه فقد خلب عقول أولئك الجماهير بقوة نطقه وموه عليهم
الحجج الكاذبة التى أقامها على صدقه فلا يصح هذا أيضا لان أولئك
الجماهير لم يتبعه جميعهم بسبب حجج تلاها عليهم وزينها لهم بزخارف بيانه كما
يعلم من الرجوع الى استقصاء استدلالاتهم على صدقه بل بعض حججهم لا صنع
له بها وليس فى قدرته اقامتها وتحصيلها فى قدرته ان يوجد فى نفسه وفى أحواله
العلامات المذكورة فى كتب بعض أولئك الجماهير التى يقولون انها كتب رسل قد
سبق ارسالهم اليهم وأخبروهم انه سيأتى رسول توجد فيه تلك العلامات
وقد شاهدوها جميعا فيه (عليه السلام) أفى قدرته ان يجمع جميع تلك
الصفات الفاضلة فى قرآنه التى يعجز عن جمعها أكبر الفصحاء وأعظم الفلاسفة
وهو رجل أمى تربى بين أمة جاهلية ثم يقيمها حجة على صدقه أفى قدرته
ان يرتب تلك القونين التى يقول انها شريعة بذلك الترتيب العجيب الغريب
التى يعجز العقول بحسن انتظامه وهو على ما فيه من الامية والخلو عن معارف
الامم والاطلاع على قوانين الممالك والدول ثم يقيم ذلك حجة على صدقه
أفى قدرته أن يخرس ألسن فصحاء أولئك الجماهير وبلغائهم عن معارضة
أقصر سورة من قرآنه حتى أقر بعضهم بالعجز وبعضهم التجأ الى محاربته
وعرضوا أنفسهم لبلاء الحروب ولم يأتوا بالمعارضة التى هى أسهل ما يكون

عليهم لوكانت فى امكانهم وما ذاك الا عن العجز عنها وان قال قائل ان عجز
أولئك الجماهير عن المعارضة ما كان الا من تسلط الوهم عليهم فانه عندما قال
لهم انكم تعجزون عن معارضة أقصر سورة من قرآني تسلط عليهم الوهم
وتصوروا أنفسهم عاجزين فعجزوا بالفعل وافعال الوهم لاينكر تاثيرها فى
العقل الانسانى فلا يسلم قول هذا القائل ولا يقبله العقل السليم لان الذي
نعهده من افعال الوهم فى البشر انه يتسلط على جماعة أو جماعتين وفى مقام أو
مقامين وفى يوم أو يومين أوشهر اوشهرين اما تسلطه على جماهير مجمهرة
وفى كل مقام ومجتمع وفي السنين المديدة التى تنوف عن عشرين سنة
وعلى الجماعة الحاضرين عند ورود سبب الوهم وعلى الجماعة الغائبين البعيدين
عن ذلك المقام وانما بمجرد بلوغهم الخبر بما جرى مع غيرهم يحل بهم من
الوهم ما حل باولئك الغير فلم يعهد ان للوهم هذا التسلط العمومى المستمر
في كل مقام وفي سنين عديدة والعقل السليم لايسلم ان للوهم هذه الخاصة
بدون سبب خارج عنه يقوى به على ذلك على ان الامور الموهومة لا بد
ان الافكار على طول الزمن تخلص من توهمها و تكشف حقيقة الامر
فيها ولو بعد حين لان الافكار لاتحاول امرا الا انكشف لها وهؤلاء الجماهير
لاشك انهم بمخالفة محمد ومضادتهم له حريصون على كشف الحقيقة فى
شأنه واثبات تكذيبه ومع هذا لم يصلوا الى شئ من ذلك و بقى أمر عجزهم
عن معارضة قرآنه أمرا مستمرا ثابتا لم يظهر فيه أدنى تأثير فاذن لايكون
ذلك العجز منهم الا حقيقيا لاوهميا وان أورد على منع جواز عموم الوهم
واستمروه ان علماء الهيئة القدماء قد كان وهمهم فى دوران الفلك وثبوت
الارض عموميا مستمرا الميئات من السنين يدفع ذلك الايراد بان عموم الوهم

واستمراره فيهم كان لسبب قوى يدعو الى ذلك وهو ما يعطيه النظر والمشاهدة
من دوران الفلك وسكون الارض وعدم وجود الآلات التى أعانت
المتأخرين على كشف الحقيقة (على مازعموا) وما نحن فيه لاسبب معه
يوجب الوهم على العموم والاستمرار وما سببه (على زعم الخصم) الاقول
محمد لاولئك الجماهير انكم تعجزون عن المعارضة وهذا السبب ليس فيه
من القوة مايقتضى العموم والاستمرار للوهم كما هو ظاهر ومسلم عند
المنصف فظهر الفرق بين ما كان مع القدماء من علماء الهيئة و بين مانحن
فيه (أقول اذا كان عموم الوهم واستمراره مقدار ما ينوف عن عشرين
سنة غير مسلم عند العقل بدون سبب قوى يقتضي عمومه واستمراره فعمومه
واستمراره مقدار ثلاثة عشر قرنا بلا سبب قوى يقتضيهما هما ابعد عن
التسليم عند العقل السليم بمراحل فقد مرت الى الآن هذه المدة والمعاندون
والاخصام لدعوى محمد عليه السلام من علماء الفصاحة والبلاغة والشعراء
والمنشئين وافرو العدد يحاولون اطفاء نور شريعته ولا مانع يمنعهم ولم
يزالوا متسربلين بسربال العجز ومرتدين برداء الضعف عن معارضة اقصر
سورة من القرآن العزيز ولن يزالوا بعد الآن نقول هذا على رؤس الاشهاد
وفى كل ناد) وهكذا بقى أولئك الطائفة يبحثون عن سبب يكون هو الذي
أوقع أولئك الجماهير فى الخطأ باتباع محمد عليه السلام فلم يجدوا بل
قام فى أنفسهم انه بعد استقرائهم في هذا الباب لاسبب هناك للغلط فقالوا
حينئذ هل احطنا نحن بحقيقة كل ما يتصوره العقل ويقوم فى الاذهان وكمل
علمنا لكل شئ لاوحق الشرف الانساني لم يحط علمنا بجميع الحقائق
المتصورة بل القسم الاكبر من نواميس هذا الكون المادى المشاهد لنا لم يزل

محجو با عناعلمه وكل يوم يتجدد لنا في تلك النواميس علم جديد والذي تطمئن
به نفوسنا ان ماعلمناه منها انما هو نقطة من بحر في جانب ما لم نعلمه منها فاذا
كان الحال كذلك و كنا منحطين هذا الانحطاط في معرفة الحقائق ولم
ولم يتفق لنا الوصول الى درجة الاحاطة بمعرفة كل حقيقة تتصور من هذا
الكون فضلاً عن كون الاحاطة لازما من لوازم ذواتنا فما الذى يؤمننا أن
تكون هناك فى نفس الامر حقائق وراء هذا العالم المادي لم نطلع عليها ولم
نعلم عنها شيئا اما لعدم بحثنا عنها لانصراف أفكارنا وانشغالها فى العالم المادى
واعتيادها على ذلك حتى صار يتخيل لنا انه لأعالم وراء هذا العالم واما لعدم
عثورنا على دليل يدل عليها واما لفقد الوسائط فينا التى توصل الى معرفة
عالم غير هذا العالم المشاهد لنا فمن كان منا قبل اكتشاف الكهربائية يتصورها
ويتصور اثارها ويصدق بذلك كله حتى أبرزتها الصدفة وحققتها التجارب مع
انها من عالم الطبيعيات ومع ذلك فلا نزال عاجزين عن مشاهدتها بالبصر
غاية الامر اننا نستدل على وجودها باحساسنا بأثارها على ان ما اشتهر بيننا
من القول بأننا لانصدق بوجود شيء حتى ندركه باحدى حواسنا الخمس لم
يمكننا التزامه دائما بل نخرج عنه عند الحاجة فهذه مادة الاثير قد صدقنابها
وأثبتناها ولم يكن ادراكها باحدي حواسنا قطعا وانما الذى الجأنا لاثباتها
احتياجنا الى معرفة حقيقة النور وباثباتها قلنا ان النور هو حركة هذه المادة
الاثيرية السارية فى جميع الكون (الاثير عندهم غاز منتشر فى الخلاء مالئ
خلاله ساكن بذاته مالم تفعل به بعض الاجسام كالكواكب فيهتز و يتموج
بفعلها فيه كما يهتز الهواء من تأثير الجسم به للصوت و ينتقل اهتزازه الى عضو
البصر فيؤثر به ويورثه الشعور بالمرئيات وقالوا ان العوامل أو القوى الكيماوية

وهى الحرارة والكهربائية والمغنطيسية ماهى الا انبثاق من الاثير وهو الاصل الذى يجمع المواد الاربع غير القابلة للوزن فى مادة واحدة وهى النور وهذه الثلاثة) على ان هذا القول المشهور بيننا لا يعتمد عليه فاى مانع من وجود أشياء تعجز حواسنا بنفسها عن ادراكها وقد تحقق ذلك بالموجودات المكروسكوبية التى لاتدرك الا بالالات البصرية وأى مانع من وجود أشياء لاصلاحية فى حواسنا لادراكها ولو بالواسطة بل يحتاج ادراكها الى حاسة أخرى لم توجد فينا كما فى الاثير المذكور واذا كانت حواسنا فى هذا العجز فى العالم المادى فكيف يستبعد عجزها عن ادراك أشياء فى عالم وراء هذا العالم المشاهد لنا فالانصاف الانصاف اننا قاصرون فى سبيل المعرفة عظم القصور وأوان وسائط العلم فينا لحقائق الاشياء التى يتصورها العقل غير كاملة البتة فيجوز فى العقل ان هناك حقائق كثيرة فى نفس الامر لم نزل جاهلين بها وغافلين عنها ووسائطنا الى معرفتها مفقودة أو عديمة الشروط واذا نصرنا الانصاف وخذلنا الاعتساف نرى ان رفضنا لوجود عالم وراء عالم الطبيعيات ماهو الا ضرب من المجازفة وحكم بغير دليل لان غاية ما أوصلنا اليه البحث اننا لم نجد دليلا على وجود عالم وراء هذا العالم ولا دليلا على ارتباط هذا العالم بعالم وراءه وأما انه قام دليل معنا على عدم وجود عالم وراء هذا العالم المادى أو على عدم ارتباط هذا العالم به فلا وحق شرفنا الانسانى ومن المعلوم المسلم عند كل ذى بصيرة انه لا يلزم من عدم الوجدان عدم الوجود فى نفس الامر ولا يلزم من عدم وجود الدليل عدم وجود المدلول فلا يلزم من عدم وجود الدليل على ذلك العالم أو من عدم وجدانه عدم وجوده فى نفس الامر هؤلاء القدماء منا مضت عليهم الوف من السنين

وهم يبحثون عن الشئ الذى يصدر عنده الرعد والبرق ولم يصلوا الى دليله الصحيح ولم يعلموا حقيقته وما لزم من عدم وجدانهم اياه ولا من عدم وجدانهم دليله عدم وجوده فى نفس الامر وقد وجد المتأخرون دليله وعرفوا حقيقته (وهي الكهربائيه على زعمهم) وهي من لوازم الكون الفعالة فيه العجائب فعلى جميع ماتقدم من قصور معارفنا لحقائق الاشياء وان لم يقم معنا دليل على عدم وجود حقائق وعوالم وزاء هذا العالم المادى فقد بقى ذلك فى نفس الامر فى حيز الامكان فما الذى يؤمننا ان دعوى محمد من جملة تلك الحقائق الممكنة الوجود وانها موجودة فى نفس الامر ونحن نجهل حقيقتها وحقيتها ونظنها تحيلا على الرأسة ونظن ان انقياد أولئك الجماهير لمحمد مبنى على الوهم لامستندما لهم يقيني فما المانع بعدئذ ان محمدا صادق فى دعواه وأولئك الجماهير انكشفت لهم الادلة التي أوصلتهم الى تصديقه ونحن مالنا بصحتها أدنى المام واذا كان الحال كذلك وكان محمد عليه السلام مرسلا من جانب آله لهذا العالم وسوف يتحقق جميع مايخبر به ومن جملة ذلك انه لابد من البعث والنشور للعالم الانسانى ويجازي ذلك الاله من اتبع محمدا بالثواب الدائم ومن كذبه بالعذاب الابدى فاى صواب نكون حصلناه وأى ثمرة نستحوذ عليها من اتعابنا وابحاثنا في علومنا الطويلة العريضة من فلكيات وجويات وجيولوجيات ونباتيات وحيوانيات وكيماويات وغير ذلك أفلا يكون حينئذ قد اشتغلنا بالدني الزائل وتركنا العظيم الدائم وحق علينا أن يقال كما في المثل الجارى (لقد خسرت صفقتنا) والذى يهيج أفئدتنا ويبعث بنا الى الخوف من الوقوع فى سوء الاختيار انه اذا صح قول محمد واتباعه في البعث كان الخسار علينا وحق لنا أن نجرى الدموع دما وان صح قولنا

فی عدم البحث وذهاب البشر بلا اعادة لم يكن عليهم من الخسران أدنى شيء كما قال أحدهم في الطبيب والمنجم اللذين على اعتقادنا في انكار البعث

شعر

قال المنجم والطبيب كلاهما لن يبعث الاموات قلت اليكما

ان صح قولكما فلست بخاسر أوصح قولی فالخسار عليكما

فالصواب فی حقنا أن نحترز ونأخذ بالحزم ونترك الجمود على تكذيب كل ما سمعناه مما يغاير معارفنا وناخذ فی البحث عن دعوى محمد التي ادعاها وعما أوجب تصديق أتباعه له والنظر فی دلائلهم ولا ضرر علينا فی ذلك ولا مانع يمنعنا منه بل الجائز أن يكون عاقبة هذا البحث دفع الضرر عنا فعند ذلك صادق جميعهم على هذا الحكم الذی قر رأيهم عليه لوضوح دلائله التي تقدمت وانبعثوا بهمة ونشاط للنظر فی دعوى محمد عليه السلام والبحث عنها أهي صادقة ام كاذبة وعما أوجب تصديق أتباعه له من الدلائل التي اعتمدوها ليظهر لهم أهي صحيحة موصلة لهم كما أوصلت تلك الجماهير الى تصديقه أم فاسدة فترتفع بظهور فسادها الشبهة فاول ما نظروا فيما جاء به محمد عليه السلام وادعى انه من عند الله تعالى اله هذا العالم وسماه شريعة فوجدوا فيه كثيرا مما ينافي علومهم الطبيعية التي يعتقدونها وعندهم انها من اليقينيات فمن ذلك ماورد فی تلك الشريعة ان مادة العالم حدثت بعد ان كانت معدومة وان الذی أوجدها بعد العدم وكونها أنواع الكائنات على هذا النظام هو الاله وانه قادر على ملاشاتها واعدامها من الوجود كما اوجدها بعد العدم وان هذا الاله خلق الانسان نوعا مستقلا عن بقية الحيوانات وخلق أنثاه وأسكنهما فی دار تسمى الجنة ثم أهبطهما الى الارض لمخالفتهما

ما نهاهما عنه وان للانسان نفسا تسمى روحا هي غير جسده وان لها تعلقا بجسده ينشأ عنه حصول حياته وعندما تنفصل عنه يحله الموت وان تلك الروح باقية بعد انفكاكها عنه تدرك وتلتذ وتتألم وان الانسان بعد حلول الموت فيه وفنائه يعيده ذلك الآله ويعيد تعلق الروح به ويثيبه على أعماله الخيرية التي عملها في مدة حياته في الارض ويعذبه على أعماله الشرية هناك وانه يجري نعيمه في دار خلقها تسمى الجنة وعذابه في دار خلقها تسمى جهنم يدخلهما البشر بعد خراب عالم الارض والسموات وبعثهم بعد الموت ويخلدون فيهما وان الذي يقوم به اللذة والالم عند تعلق الروح بالجسد وقيام الحياة فيه هو مجموع الروح والجسد وان لبقية الحيوانات أورواحا مثل الانسان وعندها من الادراك ما يكفي لتعيشها وليس عندها من الادراك والعقل مثل ما عند الانسان فلذلك كلف بعبادة ذلك الآله دونها وان ذلك الاله خلق اجساما نورانية تسمى الملائكة قادرة على التشكل وانها تمر امامنا ولا نراها وهي خيرية وتفعل افعالا تعجز عنها القوي البشرية وهي الواسطة بين ذلك الآله و بين اخيار البشر المسمين بالرسل في تبليغهم أوامره كما انه أوجد اجساما اخرى تشابه الملائكة المذكورين في بعض خواصهم من نحو الاقتدار على التشكل والاحتجاب عن الابصار وقدرتها على أفعال عظيمة ولكنها تخالفهم بأنها ليست نورانية مثلهم ولا خيرية صرفة ولا هي واسطة بين ذلك الاله و بين الرسل وتسمى جنا وانه خلق سبع سموات فوقنا مملوءة بالملائكة وانه ينزل المطر من السماء وانه خلق جسما كبيرا يسمى كرسيا فوق تلك السموات وجسما آخر اكبر منه فوقه يسمى عرشا وان بيننا و بين تلك الاجسام مسافة عظيمة وان الملك يقطعها بمدة

قصيرة جدا وان جميع ما يحدث فى هذا العالم فى أرض أو سماء أوفي
داري الجزاء فهو بقضائه وتقديره أي بان يعلمه ويريده ويبرزه الى الوجود
بقدرته وقد خلق جسما كبيرا يسمى لوحا وجسما آخر يسمى قلما
لاثبات ما يكون وتسطيره لا عن حاجة الى ذلك ثم جميع ما يقضيه فهو
بخلقه يوجد ويكون لا خالق سواه وانه وان يكن قد ربط المسببات
بالاسباب وجعل الاولى تنشأ عن الثانية فهو الخلق للثنتين يخلق السبب
ويعقبه بخلق المسبب وجميع الاشياء انما يوجد تأثيرها المشاهد لنا بخلقه
وايجاده ولا شئ يؤثر بطبعه أو بقوة أودعت فيه وانه موجود قديم دائم
يستحيل عليه العدم واحد أحد فى ذاته وصفاته غنى عن كل ما سواه مفتقر
اليه جميع ما عداه لا يشبه شيئا من جميع الموجودات ولا يشبهه شئ
منها مريد اتم الارادة عالم اكمل العلم يعلم ما كان وما يكون وما هو كائن لا
يعزب عن علمه شئ قادر على كل شئ من الجائز العقلى مهما كان عظيما
جسيما حى متصف بصفات الكمال التى تليق به منزه عن صفات النقصان
الى غير ذلك مما وجدوه في تلك الشريعة المحمدية مما يخالف معتقداتهم التى
أوصلتهم اليها علومهم أو مما لا تدل عليه تلك العلوم بحسب ما وصلت اليه
عقولهم فكادوا عند ذلك ينفرون عن عزمهم الذى عزموا عليه من البحث
عن دعوى محمد عليه السلام وتبين أمرها ويرجعون الى الجمود على
التكذيب لولا حكمهم السابق الذى أجمعوا عليه من ان الصواب فى حقهم
البحث عنها وتبين أمرها تحرزا من الوقوع في الخطأ وأخذا بالحزم لما
الجأهم الى ذلك من ظهور القصور فى معارفهم وعدم احاطتهم بكل حقيقة
يتصورها العقل فبقوا ثابتين على العمل بموجب ذلك الحكم وقالوا لنبحث

أولا عن هذه المسائل التى وجدناها فى شريعة محمد مخالفة لاعتقاداتنا المأخوذة من علومنا أولا دليل فى علومنا عليها قبل ان تنظر فى الادلة التى اعتمدها اتباعه فى تصديقه فلعله يظهر لنا فساد ما جاء فى شريعته من تلك المسائل بسبب بحثنا فيها و يتبرهن لدى اتباعه ذلك فيكون دحضا لدعواه من أول الامر ونكفى مؤنة البحث فى أدلة اتباعه أو سواها لكن خطر لهم عند ذلك اننا اذا أخذنا في البحث عن هذه المسائل فيما بيننا ربما يصعب علينا ظهور الصواب لاحتمال ان المراد بها غير ما يتبادر الى الفهم أو يكون له وجه صحيح يطابق علومنا ونحن لاندركه فالاولى ان نجتمع مع عالم من علماء اتباع محمد ونذاكره في هذه المسائل ونطلب منه بيانها فاما ان يظهر لنا فسادها واما ان يظهر لنا صحتها و بالمذاكرة مع ذلك العالم لايصعب علينا فهم المراد منها فاجتمعوا مع عالم من علماء اتباع محمد عليه السلام من أضعفهم فهما واقلهم علما فشرحوا له قصتهم وما اعتمدوا عليه من المفاوضة معه فى تلك المسائل فقال لهم ان شئتم فاشرحوا لى أولا ملخص مذهبكم واعتقاداتكم في هذا العالم واصل وجود هذه الكائنات فلعلى أجد بين ذلك وبين المسائل التى تنكرونها فى شريعة محمد عليه السلام توفيقا أو اظهر لكم فساد بعض ما تعتقدونه أوغير ذلك مما يرفع الخلاف من البين أو انفصل عنكم صفر اليدين فاستصوبوا هذا الرأى منه وقالوا له اسمع خلاصة مذهبنا وما أوصلتنا اليه علومنا اعلم ان لقدمائنا في أصل هذا العالم وتكون تنوعاته من سماويات وأرضيات مذاهب شتى ولكن الذى قر عليه الأمر الآن وكشفه لنا الاختبار والدليل ان أصل هذا العالم من سماويات وأرضيات أمران المادة وقوتها (حركتها) وهما قديمتان متلازمتان من

الازل لايتصور انفكاك احدهما عن الاخرى اما المادة فهى الاثير المالئ الخلاء وهو الهيولى فى أبسط ما يمكن تصورها واما القوة فهى حركات اجزائها الفردة المتماثلة فى الذات المتخالفة في الصفات المتغيرة فى الاشكال ونقول انه ليس لتلك الحركة سبب الا نفسها ثم ان الاجرام السماوية وهى الكواكب والكائنات الارضية من جمادية وحوانية ونباتية تكونت من المادة بواسطة حركتها وحدثت بعد ان لم تكن حدوث المعلول عن علته بمقتضى الضرورة وليس للمادة ولا لحركتها ادراك وقصد فى تكوين شئ منها فبتجمع تلك الاجزاء على كيفيات مخصوصة حصل مادة سديمية أى أجسام صغيرة وتجمعت على بعضها بناموس الجاذبية وتكونت كرة ودارت على محورها والتهبت بمقتضى نواميس أخرى فكانت تلك الكرة هى الشمس ثم أخذت بقية الكواكب تنفصل عنها بمقتضى دورتها وتكون كرات وتدور على محاورها ومن جملتها ارضنا التى نحن عليها ثم بعد انفصالها ودورانها على محاورها مدة من الزمان أخذت تبرد قشرتها وتكون طبقاتها وتتولد المعادن والحيوانات والنباتات بسبب حركة اجزاء المادة وتجمعها على بعضها على نسب وكيفيات مخصوصة وقد ثبت لدينا حدوث الحيوان والنبات بعد ان لم يكونا باكتشافات علم طبقات الارض وذلك ان تلك الاكتشافات أظهرت لنا ان آخر طبقة وصلنا اليها من طبقات الارض خالية من الحيوانات والنباتات وأثارهما وانه مر على الارض زمن ليس فيها من الاجسام الحيوية شئ وبعد ذلك أوصلنا البحث والاكتشاف ومشاهدة أعمال الكيمياء الى انه بتجمع احزاء المادة بواسطة حركتها تكونت العناصر التى تزيد على الستين وبتجمع بعضها وامتزاجه على نسب

مخصوصة تكونت المعادن والاجسام الحيوية وأول مكون لهذه هو مادة زلالية مكونة من عدة عناصر بين الجامد والسائل لها قوة الاغتذاء والانقسام والتوالد سميناها بروتوبلاسما (أي المكون الاول) وبانقسامها تكونت الخلايات التي تتركب منها الاجسام العضوية وحدث بتجمعها ابسط الحيوانات وابسط النباتات وما الحياة الا ظاهر من ظواهر تفاعل تلك العناصر وامتزاجها الكيماوي وليست شيئا اخر تحل في الجسم كما يقول به الحيويون منا وليس للحيوان روح غير حياته هذه ثم اخذت تتوالد وتتكاثر تلك الحيوانات والنباتات البسيطة بما لازمها من اربعة نواميس الاول تباين الافراد فكل فرد لا يشابه اصله تماما ومن جملة التباينات الذكورة والانوثة الثاني انتقال التباينات من الاصول الى فروعها مع الاخذ بتباينات اخرى فحدث عن ذلك بين الافراد القوي والضعيف والمتحمل للكوارث الخارجية وغير المتحمل والذى تناسبه الظروف والذى لا تناسبه الثالث تنازع البقاء بين الافراد فيهلك الضعيف وغير المتحمل والذي لا تناسبه الظروف ويبقى ما هو بخلاف ذلك والرابع الانتخاب الطبيعي وهو اختيار الطبيعة وحفظها للاحسن والاكمل فبكرور الملايين من السنين وصلت الحيوانات والنباتات الى ما وصلت اليه بحركة اجزاء المادة الاضطرارية والجرى على هذه النواميس الاربعة حتى ان الانسان نفسه ما هو الا حيوان من جملة الحيوانات ترقى في التحسين بالانتخاب الطبيعي حتى بلغ ما هو عليه الآن وبمقتضى مشابهته للقرد لا يمتنع ان يكون قد اشتق هو واياه من اصل واحد واخذ هو في الترقى عنه حتى فاق عليه وهو من احدث الانواع الحيوانية فوجوده من زمن محدود بملايين من السنين معدودة وان كان انوع كثيرة وجدت قبله بملايين كثيرة وما عقله وادراكه الانسانى

الافعل من افعال مادته بتفاعل اجزائها المتحركة.وعناصرها الممتزجة وان يكن اصل المادة والحركة خاليا عن العقل والادراك ثم ان عقله لايخالف عقول بقية الحيوانات الا بالكم ولا يخالفها فى الذات والحقيقة ثم بقية المسائل التى وجدناها فى شريعة محمد (عليه السلام) من بعث الانسان بعد الموت ووجود دار للنعيم ودار للعذاب ووجود الملائكة والجن والسموات والعرش والكرسى واللوح والقلم وأفعال الملائكة العظيمة وأمثال ذلك (أى من المسائل التي تقدم ذكرها) فانه لادليل في علومنا عليها فلا نعتقدها بل البعض منها ترفضها علومنا وتدل على استحالتها لانها خارقة للنواميس الطبيعية التى وجدناها فى الكائنات فعدم اعتقادنا بها ضربة لازب هذا مذهبنا بالاجمال وهو آخر ما قر عليه رأي الجمهور منا معشر الطبيعيين فهات ما عندك أيها العالم المحمدى ونحن لكلامك من السامعين فعند ذلك قال لهم ذلك العالم المحمدى اعلموا ياإخوانى فى الانسانية ان دينى المحمدى واختياركم اياى فى المفاوضة لاظهار الحق هما أمران يوجبان على تمحيض النصح لكم والتدقيق في اظهار الحق ولكن عليكم ان تصغوا الى كلامى وتعوا ما اقول بدون تعصب وبغير جحود فان ذلك يعمى عين البصيرة ويستر عنها شمس الحقيقة كما يستر الغمام عن البصر شمس النهار فاذا تركتم التعصب لمذهبكم والجحود على اعتقاداتكم واخلصتم ضمائركم من اسر هذين الامرين المسترقين للضمائر فانى اشرح لكم ما يظهر الحق ظهور الشمس فى رابعة النهار (ان شاء الآله الذى لااعتقد فاعلا فى الوجود سواه) فاقول انى بعد التأمل الصادق فى مذهبكم هذا الذى شرحتموه لى وجدت ان اساسه هو اعتقادكم بقدم المادة فحيث اعتقدتم قدمها لم يلجئكم ظاهر الامر الى الاعتقاد بوجود آله احدثها وحيث

وجدتم تنوعاتها السماوية والارضية وثبت عندكم انها حادثة ولم تسلم عقولكم بحدوثها عن نفس المادة فقط اذ لا يظهر للعقل صلاحيتها لذلك احتجتم الى اثبات حركة اجزائها الفردة وبنيتم على المادة وتلك الحركة تكون تلك التنوعات ولو انكم اعتقدتم بحدوث المادة لالجاكم الامر الى الاعتقاد بوجود آله احدثها ورجح وجودها على عدمها ثم متى نظرتم بعد ذلك الى تنوعاتها كنتم تقولون حينئذ ان ذلك الآله الذى احدث المادة هو الذى احدث تنوعاتها اد لا موجب لاثبات منشألها سواه ولم تحتاجوا الى اثبات حركة اجزاء المادة وتتجشموا القول بان تلك التنوعات نشأت عن المادة والحركة بوجه الضرورة بدون قصد ولا روية ولا ادراك ولا تدبير حتى باغ مابلغته من النظام العجيب الغريب الذى يحكم صريح العقل بانه محتاج الى اتم القدرة واكمل العلم واسمى الحكمة والتدبير فالذى اراه في هذا المقام انى اذا قمت لكم البرهان على ابطال قدم المادة واثبات حدوثها واحوجكم الحال حينئذ الى الاعتقاد بوجود آله احدثها من العدم واوصلكم ذلك ان تنوعاتها هي بفعل ذلك الآله وانها تدل على كمال قدرته وعلمه وحكمته وتدبيره لا يصعب عليكم بعد ذلك التصديق بشىء من بقية المسائل التى وجدتموها في الشريعة المحمدية مخالفة لاعتقاداتكم وامر فواضة بمقتضى علومكم فاعلموا انى وجدت فى مذهبكم المتقدم ثلاث قضايا اعتقدتموها اعتقادا جازما وبالتامل فى شانها بالنظر السديد يظهر انها لا يمكن التصديق بثبوتها جميعا في نفس الامر اذ بعضها الذى ثبوته قطعى بالمشاهدة يقتضى التصديق بثبوته ان لا يصح التصديق بثبوت البعض الآخر (فالقضية الاولى) من تلك القضايا انكم قلتم بقدم المادة وقدم حركة أجزائها الفردة وانهما متلازمتان من الازل لا تنفكان عن بعضهما

(القضية الثانية) انكم قلتم بحدوث تنوعات المادة من سماويات وأرضيات لا سيما الانواع الحيوية منها فان اكتشافانكم لطبقات الارض ألزمتكم بالحكم ان أنواع الحيوانات والنباتات قد حدثت في الارض بعد ان لم تكن وقدرتم حدوثها بالملايين من السنين وحكمتم بمقتضى ذلك ان الانسان من أحدثها حيث ان اثاره لم توجد الا فى الطبقات العليا من الارض ولم يوجد له اثارفى الطبقات السفلى وذلك يدل على تاخره فى الحدوث وقد اختلفتم فى تقدير مدة حدوثه كما وجدته فى كتبكم (القضية الثالثة) انكم قلتم ان جميع التنوعات للمادة قد حدثت عنها بواسطة حركة اجزائها الملازمة لها من الازل على وجه الضرورة و بمقتضى النواميس التى اكتنفتها ولم يكن للمادة ولا لحركتها اختيار فى ذلك ولا ارادة والمعنى فى ذلك كما هو مصرح به في كلامكم السابق ان التنوعات حدثت عن المادة وحركتها حدوث المعلول عن علته فالتنوعات معلول وهما علة لها (العلة فى الحقيقة عندهم هى الحركة ولكن لما كانت لاتنفك عن المادة ولا تنفك المادة عنها حتى قالوا لا تتصور احداهما بدون الاخرى اعتبرتا كشئ واحد هو العلة وانما جازهذا التلازم الحاصل بينهما) اذا تقرر جميع ذلك فاعلموا ان كل عقل سليم يحكم صريحا بأن الشئ لايتخلف عن علته المستلزمة له البتة فان كانت علته حادثة كان هو حادثا عقبها بدون تاخر وان كانت قديمة كان هو قديما تابعا لها فى القدم لايتاخر عنها أيضا والالزم وجود العلة بدون المعلول وهو محال اذا ثبت هذا فاقول ان قولكم بقدم المادة وحركتها اللين هما علة التنوعات الكونية من جماد ونبات وحيوان يلزم منه قدم هذه التنوعات المعلولة لهما وانتم لاتقولون بقدمها حسب ما ثبت في علومكم الطبيعية واكتشافاتكم لطبقات الارض وان قلتم

ان لزوم هذه المعلولات لهذه العلة لايلزم منه استكمال الوجود دفعة واحدة لارتباط العلل والمعلولات بعضها ببعض وتحول بعضها الى بعض فالحياة مثلا يستحيل أن تظهر قبل أن يكون الماء والماء قبل تكوّن عنصريه وهما الهدروجين والاكسجين وهما قبل اجتماع أجزاء المادة على كون يتألف منه ذلك فوجود الحياة يتوقف على وجود الماء ولو لحظة قبلها ففى قياس أى عقل يصح وجودها ووجود سائر المركبات مما قلنا اذا كانت العلة الاولى من هذه العلل وهي المادة وحركة أجزائها حادثة يلزم لها مدة بحسب نواميس النشوء الذى تقولون به لاجل استعدادها واجتماع الاجزاء على كون تتألف منه العناصر ثم الماء ثم الحياة ولا يصح فى قياس العقل حسب تلك النواميس أن توجد الحياة قبل الماء والماء قبل العناصر والعناصر قبل تجمع أجزاء المادة (هذا على سبيل المجاراة لعقولهم واما فى عقول اتباع محمد عليه الصلاة والسلام فيصح ذلك حيث يحال فعله على قدرة الآله القادر على ذلك) واما اذا كانت العلة الاولى قديمة كما زعمتم فكيف يصح الحكم بان تلك المعلولات لها حادثة مع ان علتها موجودة من الازل فما دامت علتها توجب حصولها بالاضطرار فما الذى أخر حدوثها الى مدة كذا مليونا من السنين ولاى شئ لم توجد قبل ذلك وان قلتم حتى استعدت العلة لحدوث المعلولات فاقتضى الحال مدة كذا مليونا للاستعداد قلنا لكم ولم لم يحصل الاستعداد قبل تلك المدة التى عينتموها له مع ان العلة الاولى القديمة هى مقتضية له أيضا وما الذى أخره وأى شى أحدثه بعد ذلك وكلما ترقيتم فى تطويل مدة حدوث المعلولات ومدة الاستعداد لحدوثها نقول لكم ولم لم يكن الحدوث والاستعداد قبل ذلك وهلم جرا والملخص انه لاشك ان الاستعداد ناشى عن

لعلة الاولى بالاضطرار فيكون كمعلول لها وتلك العلة قديمة فيلزم أن يكون قديما ويتبعه قدم التنوعات المعلولة والا يلزم وجود العلة فى الازل بدون المعلول وهو محال فاما ان تقولوا بقدم تلك التنوعات المعلوله وتكذبوا ماثبت في علومكم الطبيعية واكتشافاتكم لطبقات الارض وأنتم لاتقولون بذلك واما ان تقولوا ان المادة وحركتها فاعلتان بالاختيار فخصصتا زمانا لحدوث التنوعات وأنتم أيضا لاتقولون بذلك وتنكرونه أسد الانكار كما رايته فى كتبكم ولو فرض أن بعضكم يقول به يلزم عليه القول بأن لكل جزء من أجزاء المادة علما وادراكا يؤهله أن يتخابر به مع بقية الاجزاء على كيفية اجتماعها معه ليحصل النوع الفلاني أو النوع الفلانى مخابرة تقصر عنها مخابرة مجلس الاعيان ومجلس الشيوخ فى العالم السياسى واشكالات أخر ترد على ذلك يطول بنا الشرح ان أوردناها الآن واما أن تبينوا سببا لتأخر تلك التنوعات عن علتها ونكونها من كذا مليونا ولا أرى عندكم من بيان ذلك عينا ولا أثرا ودونه خرط القتا دواما أن يقولو بحدوث المادة وحركتها التي تزعمونها وهو المطلوب ونظم الدليل بوجه الاختصار هكذا لوكانت علة التنوعات وهى المادة وحركتها قديمة لكان الاستعداد لها قديما ولو كان الاستعداد قديما لكانت التنوعات قديمة لكن التنوعات غير قديمة فلم يكن الاستعداد قديما ولما لم يكن الاستعداد قديما لم تكن العله المذكورة قديمة وهو لمطلوب ثم اذا قلتم (ولا أخالكم تجترؤن على ذلك) ان الاستعداد حادث والتنوعات حادثة ولكن المادة وحركتها قديمتان أقول لكم وقبل الاستعداد ماذا كانت المادة وحركتها تفعلان فى الازل وكيف يمر على المادة الازل وهى متحركة حركة عقيمة غير منتجة وما الذي هيأ لها بعد ذلك العقم الممتد الازلى الغير المحدود

ان ينتج عنها ذلك الاستعداد من زمن محدود ثم تلك التنوعات كذلك ولا
أخال أن عندكم جوابا غير السكوت فالحق بعد ذلك كله ان المادة وحركة
أجزائها التي تزعمونها وتثبتونها لتفهموا كيف تنوعت الانواع حادثتان
وجدتا بعد أن لم تكونا ثم ههنا أدلة أخرى برهانية تدل على حدوث المادة
ولكنها ليست مبنية على اكتشافاتكم كالدليل المتقدم ولا بأس بايراد واحد منها
حسن ظن بكم ان عقولكم لا تقصر عن فهمه والاذعان له لاسيما اذا وفيتم
بوعدكم برفض التعصب الذى تأملته منكم وذلك انه لا يخفى ان الماده لا تخلو
عن صورة تقوم بها ولا يمكن أن يتصور وجود المادة خالية عن كل صورة (كما
انه لا يمكن أن يتصور وجودها خالية عن التحيز وأخذ قدر من الفراغ)
فلا بد انها تكون ذات صورة اما أثيرية أو سديمية أو عنصرية أو معدنية أو نباتية
أو حيوانية ولذلك قلتم انها فى وجودها الاول الذى هو قبل تنوع الانواع
منها كانت فى أبسط ما يمكن تصوره وأن الصور التى تلبسها المادة انما هى ناشئة
عن الحركة التى تتحركها وان الحركة والمادة غير منفصلتين فهذا صريح بأنكم
لم تعتبروها فى ذلك الحين خالية عن جميع الصور لان عقولكم لا تقبل
ذلك ثم ان كل صورة تقوم فى المادة لاشك انها حادثة لانها تزول
ويطرأ عليها العدم ولو كانت أبسط صورة كالصورة التى فهم من كلامكم
انها كانت للمادة قبل تنوع أنواعها لانه شوهد عدمها وخلفها الصور النوعية
بعدها وكل ما يطرأ عليه العدم ويقبله يستحيل عليه القدم لان القديم لا يزول كما
سيأتى لان قدمه اما لان ذاته تقتضى وجوده أى انه ليس له سبب الا نفسه وهو
القدم الذاتى وأما لان علة قديمة غير ذاته تقتضى وجوده وهو القدم غير الذاتى
وغير ذلك لا يتصور أن يكون قديما وما دام المقتضى لوجود الشئ سواء ذاته أو

شيء آخر قائما وحاصلا فكيف يمكن طرؤ العدم والزوال على ذلك الشيء فالقديم بنوعيه لايمكن طرؤ العدم عليه ولايقبله البتة اذا تقرر هذا فنقول مادامت الطور اللازمة للمادة حادثة فلا يمكن أن تكون المادة قديمة لانا اذا ترقينا الى أبسط صورة كانت في المادة لايمكن فى العقل أن تكون قبلها صورة أبسط منها نقول هذه الصورة حادثة بدليل قبولها العدم فقبل حدوثها ماذا كان حال المادة فاما ان تقولوا انها كانت بدون صورة وهو محال لما تقدم من استحالة وجود المادة بدون صورة واما ان تقولوا انه قبل هذه الصورة كانت صورة ابسط منها وهو خلاف المفروض من ان هذه الصورة هى ابسط ما يمكن من الصور وليس فوقها ابسط منها واما ان تقولوا ان المادة قد حدثت مع هذه الصورة فتكون حادثة لاقديمة وهو المطلوب وبعبارة أخرى نقول ان المادة ملزومة لتلك الصورة أولما خلفها من الصور النوعية التى أتت بعدها وتلك الصور وماخلفها لازمة لاتنفك عن المادة كما بين العلة والمعلول وحينئذ يقال لوكانت المادة الملزومة قديمة لكانت هذه الصور اللازمة قديمة لعدم جواز انفكاك اللازم عن الملزوم لكن هذه الصورة ليست بقديمة بدليل قبولها العدم فالمادة ليست بقديمة أيضا اذ ان رفع التالى يقتضى رفع المقدم كما هو مبرهن عليه فى المنطق ويدركه كل ذى عقل سليم

ثم بعد تمام ما تقدم نقول ان الحادث لابد له من أمر يحدث عنه ويترجح به وجوده على عدمه ويخرج به من ظلمة العدم الى نور الوجود والافيلزم الترجيح بلا مرجح وهو من المحالات البديهية وان أفضى بكم الحال الى القول بجواز الترجيح بلا مرجح فاقول لكم اذا سمعتم رجلا يقول اني رأيت

ميزانا من أدق الموازين التي اخترعها البشر وهو متساوى الكفتين فى الثقل
وبينما كفتاه متوازيتان أو اليسري مائلة و بالغة بميلها الى الارض بسبب
ما اذا رجحت اليمنى على اليسرى حتى صدمت الارض وارتفعت اليسرى الى
غاية ما يمكن من ارتفاعها وقد حصل ذلك بدون مرجح للكفة الراجحة
لاقوة حيوان ولامصادمة هواء ولا جسم آخر سقط فيها ولا شئ من جميع
ما يصلح لترجيحها فان صدقتم قول هذا القائل فانى أعلم حينئذ انكم بلغتم
درجة من العناد لا يسوغ عندها المحاورة معكم وان لم تصدقوه وقلتم ان ذلك
من المحال قلت لكم هذا هو الترجيح بلا مرجح الذى قدمت لكم انه من
المحالات البديهية ولا فرق بين هذا المثال وبين جميع ما يتصور من الحقائق سواء
كانت حسية أو عقلية فى ان الترجيح بلا مرجح محال فى الجميع كما هو ظاهر
للمتأمل واذا تنبهتم لكثير من محاوراتكم في علومكم تجدون أنفسكم كثيرا
ما تلتجؤن الى هذا الاصل وهو استحالة الترجيح بلا مرجح عند محاججة
أخصامكم فاذا ادعى شخص ان الحادث الفلانى الطبيعى قد وجد بدون سبب
نتج عنه ووجود فلتة من فلتات الطبيعية تقولون له هذا غير ممكن والتحقيق
عندنا ان ما يسمى فلتة انما هو بحسب الظاهر حيث لم يعلم سببه وفى الحقيقة
لا بد ان يكون وجوده عن سبب وناموس من النواميس الطبيعية قد خفى
علينا فكلامكم هذا هو عين الاعتماد على استحالة الترجيح بلا مرجح
وبهذا ظهر انكم تقولون بهذا الاصل ولا تنكرونه وانما أطلت لكم فى تقريره
مع بداهته ووضوحه لانى رأيت بعض ضعفائكم ينكرونه ويقولون لا مانع
من الترجيح بلا مرجح وقاحة ناشئة عن الجهل لا يرتكبها الا كل بليد
قاصر القوى العقلية أشبه الناس بالسوفسطائية المنكرين حقائق الاشياء حتى

المشاهدات زاعمين انها خيالات

هذا فاتباع محمد عليه السلام بعد ما ثبت عندهم ان المادة حادثة بادلة كثيرة منها ما قدمته لكم هنا وخصصتكم به حيث يناسب اكتشافاتكم وأصول علومكم أو انه واضح لايتوقف على مقدمات يصعب فهمها على عقولكم وثبت عندهم ان الترجيح بلا مرجح محال قالوا لابد من شئ حدثت عنه تلك المادة وترجح به وجودها على عدمها وهذا الشئ لابد أن يكون موجودا لان المعدوم لايوجد عنه شي مالا اضطرارا ولا اختيارا كما هو بديهى عند العقل فاعتقدوا بوجوب هذا الشئ الذى نشأت عنه المادة التي هي أصل العالم باستحالة عدمه لامتناع حدوث الموجودات عن المعدوم ولامتناع اجتماع الوجود والعدم وسموه اله العالم ثم قالوا ان هذا الاله لابد ان يكون قديما والا فلوكان حادثا لاحتاج الى ما يحدث هو عنه لامتناع الترجيح بلا مرجح وهكذا يقال فيما حدث عنه وهلم جرا فيلزم اما الدور واما التسلسل وكل من الدور والتسلسل محال فماأدى اليهما وهو حدوث ذلك لاله يكون محالا واذا استحال حدوثه وجب ان يكون قديما

اما الدور فهو توقف وجود كل من الشيئين على وجود الآخر فيلزم أن كل منهما وجد قبل وجود سببه فيلزم ان يوجد قبل وجود ذاته وهو ظاهر البطلان فلو قلنا ان الاله الذى توقف عليه وجود المادة توقف وجوده عليها اما بلا واسطة واما بواسطة بان توقف وجوده على شيء آخر وذلك الشيء الآخر توقف وجوده على وجود المادة فيلزم ان المادة وجدت قبل وجود الشيء الذى كان سبب وجودها فيلزم انها وجدت قبل ذاتها وهو ظاهر البطلان ولا يقول به عاقل

وهـذا هو الدور الحقيقي الذي لاشـك فى بطلانه وأما الدور المعى الذى هو عبارة عن توقف شيئين على بعضهما لانهما معلولان لعـلة واحـدة كوجود النهار وضياء الكون المعلولين لطلوع الشمس فهو غير محال وليس كلامنا فيه وأما التسلسل فهو ترتب أمور وتعاقبها فى جانب الازل لا نهاية لها وانما حكم العقل باستحالته لاستلزامه عدة محالات وما يستلزم المحال يكون محالا وقد ذكر اتباع محمد عليه السـلام فى كتبهم جملة أدلة على بطلانه مفصلة مشروحة ولكن نحن نقتصر هنا على ما يقرب لافهامكم منها ونذكر مما يناسب ذلك دليلين فنقول لا شك ان كل عقل سليم يحـكم انه من أجلى البديهيات ان العدد الناقص لا يساوى فى عدة أفراده العـدد الزائد عليه وهو ظاهر الاستحالة ويحكم بأن المقدار الذى يكون محصورا بين حاصرين لا بد أن يكون متناهيا واجتماع كونه محصورا بين حاصرين وكونه غير متناه محال فاذا سلمتم هذين الحكمين ولا شك فى تسـليمكم اياهما لبداهتهما فاقول أولا لو جاز وقوع التسلسل وهو تعاقب أمور لا نهاية لها في جانب الازل لساغ لنا ان نفرض سلسلـتين من تلك الامور احداهما مبتداة من هذا الزمان والاخرى من قبله بألف سنه مثلا ولا شك ان الاولى تكون زائدة على الثانية فى عدد مخصوص ثم نأخذ باسقاط امر أمر من كل منهما أعنى أن نسقط من الاولى واحدا ومن الثانيـة واحدا وهلم جرا فاما ان تفنى واحدة من السلسلتين دون الاخرى وهو خلاف المفروض واما ان تفنيا معا فقد بطل عدم التناهى فى جانب الازل الذى هو التسلسل وهو المطلوب واما ان لاتفنى واحـدة منهما فيلزم مساواة الناقصة للزائدة وقد قلنا ان مساواة العد د الناقص للزائد عليه

محال فقد ظهر ان عدد تناهى الامور في جانب الازل الذى هو التسلسل يستلزم المحال فيكون محالا وثانيا لوكان التسلسل جائزا لساغ لنا ان نفرض خطين يخرجان من نقطة بصورة ساقي مثلث ذاهبين الى غير نهاية فاجزاؤهما بمنزلة امور متعاقبة فى جانب الازل غير متناهية ثم نفرض المسافات التى بينهما خطوطا تمد كلما امتد الخطان المذكوران هكذا فاذا قلنا بعدم تناهى الخطين يلزم منه عدم تناهى امتداد المسافات بينهما التي اعتبرناها خطوطا فلا بد ان نقول بوجود خط من تلك الخطوط غير متناه وهو محصور بين حاصرين اذ لا شك ان تلك المسافات محصورة بين حاصرين وهما الخطان وقد قدمنا ان المقدار الذي يكون محصورا بين حاصرين لا بد أن يكون متناهيا واجتماع كونه محصورا كذلك مع كونه غير متناه محال فما أدّى اليه وهو عدم تناهى الخطين المفروضين الذى هو التسلسل محال فاذا تأملتم فيما حررته لكم فى ابطال الدور والتسلسل واستحالتهما وانعمتم النظر ظهر لكم ان ذلك الاله الذى هو مصدر المادة لا يمكن أن يكون حادثا عن شئ آخر والا يلزم اما الدور فيما لو رجعنا وقلنا ان وجوده متوقف على وجود المادة واما التسلسل فيما اذا قلنا ان وجودة متوقف على وجود شيء آخر والشيء الاخر متوقف على آخر وهلم جرا الى غير النهاية وكل من الدور والتسلسل محال كما تقدم فما ادى اليهما وهو كون ذلك الاله حادثا يكون محالا واذا استحال حدوثه وجب ان يكون قديما اذ لا واسطة بين الحدوث والقدم وقدمه هو المطلوب

ثم بعد ثبوت قدم ذلك الاله يقول اتباع محمد عليه السلام ان قدمه ما هو الا لامر يقتضى وجوده فى الازل اما ذاته فهو قديم لذاته واما أمر آخر غير ذاته

فهو قديم لغيره ولا دليل على انه قديم لغيره ولاداعى اليه ولو قيل به لانتقل الكلام الى ذلك الغير هل هو قديم لذاته أو لغيره وهكذا فيلزم اما التسلسل وهو محال واما الانتهاء الى قديم لذاته فعلام المهرب منه فالحق ان يقال ان ذلك الاله قديم لذاته أى ان ذاته تقتضى وجوده من الازل (نظير ذلك قولكم ان مقتضى الحركة لاجزاء المادة هو نفس الحركة لامقتضى لها سواه كما رأيته فى كتبكم فلا تستغربوا هذا القول بأن الآله قديم لذاته بمعنى ان ذاته تقتضى وجوده) وحينئذ فيقال ما دامت الذات التى تقتضى وجود الاله قائمة فلا يجوز ان تقبل العدم والزوال والا يلزم قيام المقتضى لوجود الشئ مع عدم وجود ذلك الشئ وفنائه وهو محال فثبت بهذا ان ذلك الاله يستحيل عليه العدم والفناء ويجب له البقاء فهو باق الى غير نهاية

ثم يقولون ان هذا الآله الذى هو مصدر المادة اما ان يكون حدوث المادة عنه بطريق العلية والضرورة بدون ارادة واختيار واما ان يكون حدوثها عنه بطريق الارادة والاختيار أى انه هو الذى أراد وجودها واختاره وعين له الوقت الذى وجدت فيه لا جائز ان يكون حدوثها عنه بطريق العلية لانه لو كان ذلك وهو قديم للزم ان تكون المادة قديمة ويتبعها قدم التنوعات اذ حيث لا اختيار ولا ارادة هناك فلم تكن التنوعات الا بطريق المعلولية فلا يجوز ان تكون حادثة متأخرة عن علتها وقد ثبت حدوث كل من المادة وتنوعاتها فلم يكن حدوث المادة عن ذلك الآله بطريق المعلولية فلم يبق الا انها حدثت بارادته واختياره وتخصيصه لها الوقت الذى أوجدت فيه فقد ثبت بهذا ان ذلك الآله مريد مختار وجبت له الارادة واستحال عليه ضدها وهو الكراهية والاضطرار

ثم ان ذلك الاله بارادته لوجود تلك المادة قد رجح وجودها على عدمها وخصص زمانه واما احداث نفس الوجود وابرازها من العدم فهو لا يكون بالارادة وقد قلنا انه لا يكون بطريق العلية فلا بدان يكون بطريق الصنع والفعل فتلك المادة ما حدثت الا بفعل ذلك الاله وصنعه قابلة لتلك التنوعات المحيرة للافكار وحينئذ يقول اتباع محمد عليه السلام ان ذلك الاله الذى أوجد تلك المادة (الغامضة الحقيقة على عقول فلاسفة البشر كما يظهر من الاطلاع على الاحتباط الواقع فى كتبهم في تحديدها وكشف حقيقتها) التى تنوعت الى تلك الانواع العجيبة الغريبة من سماويات وأرضيات جمادية ونباتية وحيوانية قابلة التطور من طور الى طور والاستحالة من صورة الى صورة لاشك انه قادر اكمل القدرة وعالم أتم العلم سواء كان هو الذي نوع تنوعات المادة الى أنواعها وطورها الى أطوارها وأوجد منها تلك الكائنات الغريبة مع ذلك الاحكام العجيب كما هو اعتقاد اتباع محمد عليه السلام أو انه أوجد المادة الصالحة لتلك التنوعات والتطورات بموجب النواميس القائمة بها وحركة اجزائها الفردة كما تقولون انتم من ان تلك التنوعات حصلت عن حركة اجزائها جارية على نواميس مخصوصة فعلى كل من الامرين تحصل الدلالة القاطعة على كمال قدرته وعلمه لان الذى يوجد شيئا بسيطا ثم يقلبه الى أنواع لا تعد ولا تحصى ويستخرج منه الغرائب والعجائب مع غاية الاتقان والاحكام أو الذى يوجد شيئا بسيطا قابلا بمقتضى نواميس قائمة فيه ان يؤل الى انقلابه الى أنواع تفوق الحد غرابة متقنة محكمة لا يشك عاقل بوجوب قدرته وعلمه واستحالة عجزه وجهله مثلا اذا رأينا ساعة من الساعات التي يستعلم بها

الوقت وكل منا يعرف ما تحتوى عليه من التركيب العجيب المبنى على قواعد هندسية وقياسات نظامية ونواميس ميكانيكية فى غاية الضبط ونهاية الاحكام فكما نعلم ان لها صانعا صنعها واتقنها نعلم قطعا ان ذلك الصانع ما صنعها الا وهو ذو قدرة كافية لصنعها وذو علم كاف لاتقانها وأحكامها سواء كان هو الذي صنع اجزاءها وركبها حتى تم عملها أو هو صنع اجزاءها على طريقة تتركب هى بها و يتم عملها ولو قيل لنا ان الذى صنع هذه الساعة رجل أعمى أصم مقطوع اليدين والرجلين جاهل ابتر لا يدرى شيئا من علم الهندسة ولا شيئا من فن الميكانيكيات لكذبنا ذلك القائل أشد التكذيب ولم تذعن له عقولنا باقل التصديق وقلنا ان من يصدق هذا القول هو أحمق الحمقاء هذا ثم أقول لكم انكم لما لم تهتدوا الى العلم بوجود من أوجد المادة واعتقدتم قدمها ثم رأيتم تنوعاتها وتطوراتها التى حدثت فيها بعد ان لم تكن ولم تهتدوا أيضا الى العلم بوجود من أحدث تلك التنوعات والتطورات احتجتم الى البحث عن موجب نشأت عنه تلك التنوعات اذ العقل لا يقنع انها حدثت عن المادة بمجردها لان كل حادث لابد له من سبب صالح لحدوثه ومجرد المادة ليس كذلك فبعد هيامكم فى كل واد قلتم ان اجزاء المادة الفردة المختلفة الاشكال متحركة حركة أزلية و بسبب تلك الحركة أخذت تجتمع تلك الاجزاء على كيفيات وأوضاع شتى فنتجت تلك التنوعات فاقنعتم عقولكم بان تلك الحركة هى سبب تلك التنوعات مع انكم لم تروا تلك الاجزاء لا بالعين المجردة ولا باكبر المعظمات للمرئيات (ولن تروها) ولم يحصل لكم ادنى احساس بحركتها (ولن تحسوا) وانما الذى الجأكم الى القول بها وبحركتها

هو مجرد احتياجكم الى فهم كيف تنوعت تلك الانواع وما اكتفيتم بذلك
حتى قلتم ان لتلك الاجزاء اشكالا متغايرة حتى يصح لكم أن تقولوا انه
باجتماعها مع تغاير اشكالها تظهر الانواع والصور وأنتم مع ذلك كله لم
تروا نفس الاجزاء فضلا عن رؤية اشكالها بل كل ذلك فرض وتقدير
حملكم عليه الاحتياج الى فهم كيف حصلت الانواع فانتم هاهنا قد تركتكم قاعدتكم
التى طالما نسمعكم تطنطنون بها وهى انكم لا تسلمون الا بالذى يؤديكم اليه
الاحساس والمشاهدة فنراكم هنا قد التجأتم الى الاستدلال بالدليل
النظرى العقلى بدون احساس ولا مشاهدة ونحن لا ننكر عليكم هذا
الطريق من الاستدلال العقلى فانه طريق لنا ولجميع الحكماء الاساطين
ولكن نذكركم ان قولكم انا لا نعتمد الا على الاحساس والمشاهدة قول
لم يتم لكم الجرى عليه (ولن يتم) وان قلتم ان الحال الجأنا هنا حيث قد شاهدنا
أثار تلك الاجزاء وحركتها وهى التنوعات واستدللنا بتلك الاثار على
مؤثرها نقول لكم وهكذا نحن وسائر أهل الملل نستدل على وجود اله
للعالم بمشاهدة اثاره وهى هذه الكائنات فلم نراكم تستصعبون فهم
استدلالنا ويسهل عليكم استدلالكم مع ان استدلالنا هو المقبول عند العقل
كما سيأتى بيانه

هذا ثم نرجع الى صدد ما كنا فيه ونقول واما اتباع محمد عليه السلام فلما ثبت
عندهم حدوث المادة وثبت ان لها محدثا أحدثها وأوجدها من العدم على
ما هى عليه من قبول التنوعات والتطورات وثبت عندهم بذلك ارادة
ذلك الموجد وقدرته وعلمه لم يحتاجوا بعد ذلك الى ان يلتمسوا اثبات
شئ أخر غير ذلك الموجد لاجل فهم كيف تنوعت تلك الانواع فقالوا

ان ذلك الاله الموجد للمادة على ماهى عليه من قبول التنوعات المتصف بالارادة والقدرة والعلم هو الذى نوع من المادة بعد ايجادها تلك الانواع وابتدع هاتيك الصور التى تحتار فيها الفكر اذ حيث لابد من موجب لحدوث تلك الانواع فاحالة احداثها على ذلك الاله المريد القادر العليم هو المقبول عند العقل دون احالته على حركة اجزاء المادة التى لا توصف بارادة ولا قدرة ولا علم بل بمجرد الاتفاق فى تجمع الاجزاء على الكيفيات المخصوصة ثم جريها على نواميس لايدري العقل كيف لازمتها وبعض تلك النواميس وان كان فى امكان العقل ان يلتمس لملازمته موجبا وذلك كوراثة الفروع للتباينات التي في الاصول كما تقدم افى تقرير مذهبكم ولكن ليس فى امكانه ان يلتمس موجبا للملازمة بعض اخر منها وذلك كالتباينات التى لابد أن توجد فى كل فرع يخالف فيها أصله اذ لكل عاقل أن يقول أى داع للزوم تباينات الفروع للاصول وان لايتفق موافقة فرع لاصله بدون تباين عنه فى شئ ما مع ان المأمول فى العقل أن الفروع توافق الاصول ولا تخالفها فلولا ان هناك شيأ يوجب تلك التباينات دائما لما كانت ناموسا ملازما واما مجرد حركة الاجزاء فلا مقنع فيه للعقل انه يوجب تلك التباينات على الدوام اذ لايظهر فيها ادنى صلاحية لذلك الاستمرار كما هو ظاهر لكل فكر سليم

وفى هذا المقام مثال لايخلو عن توضيحه وهو انا اذا علمنا ان رجلا صنع اجزاء آلة بخارية ثم وجدناها بعد ذلك مركبة وآخذة فى الدوران وفى عملها الخاص بها فاى الامرين يقبله العقل أقولنا ان الذى صنع اجزاء تلك الآلة هو الذى ركبها وادارها أم قولنا ان تلك الاجزاء بواسطة حركة قائمة بها أخذت تتركب مع بعضها على طول الزمان حتى تم تركبها

لاشك ان العقل يقبل الاول ويرفض الثانى من دون شك ولاريب وها هنا انما يقبل العقل ان الذى أوجد المادة قابلة لتنوعاتها هو الذى نوعها منها لانها هى بحركة اجزائها وناموس الوراثة وناموس التباين بدون أن يكون لموجد المادة صنع تنوعت تلك التنوعات المحتاجة لاتم القدرة واسمى العلم والحكمة فانصفوا يا أولى الالباب

وبعد جميع ما تقدم في اثبات ارادة اله العالم وقدرته وعلمه قال اتباع محمد عليه السلام بامر يجب التنبيه عليه هنا وهو انهم قالوا ارادة ذلك الآله وقدرته انما يتعلقان بالجائز عقلا أى بالامر الذى يصدق العقل بان يكون موجودا وبان يكون معدوما مهما كان عظيما جسيما فالاله بارادته يخصصه بوجود او بعدم وبغير ذلك من الشؤن والاحوال و بقدرته يبرزه على طبق ما خصصه بارادته وأما الامر الواجب عقلا أى الذى لا يصدق العقل بعدمه كملازمة الحيز للجرم والامر المستحيل عقلا أى الذى لا يصدق العقل بوجوده كالجمع بين النقيضين فارادة ذلك الآله وقدرته لا يتعلقان بهما البتة لا ايجادا ولا اعداما لان الواجب عقلا حاصل حتما ولا يمكن خروجه عن الوجود فلا يتعلقان به ايجادا لانه تحصيل حاصل ولا اعداما لاستحالة عدمه وخروجه عن الوجود والامر المستحيل معدوم حتماً ولا يمكن دخوله فى الوجود فلا يتعلقان به لا اعداما لانه تحصيل حاصل ولا ايجادا لاستحالة وجوده ودخوله فى الوجود واما علم ذلك الاله فيتعلق بكل أمر تعلق انكشاف سواء كان ذلك الامر جائزا عقلا أو واجبا أو مستحيلا فذلك الاله يعلم بعلمه كل شئ ايما كان وسواء كان حاضرا أو ماضيا أو مستقبلا اما الحاضر فتعلق علمه به ظاهر سواء كان واجبا أو جائزا أو مستحيلا فان المستحيل حاضر

في التصور فيعلمه ويعلم استحالته وأما الماضي المنقطع الوجود فهو من الحوادث
التي حدثت بايجاده وعدمت باعدامه ولا غرابة بان من صنع شيأ ثم أعدمه
يبقى تعلق علمه به واما المستقبل الذى لم يوجد بعد فتعلق علمه به أيضا
ظاهر فانه مادام ذلك الشيء سيحدث ولا يحدث الا بتعلق ارادته بتخصيصه
وقدرته بابرازه لان كل الحوادث آثار أفعاله فلا بد انه يعلمه قبل أن يوجد
حيث انه أراده ولا غرابة فى ان انسانا عزم على عمارة دار بكيفية مخصوصة
بعد شهر مثلا انه يعلم ماسوف يصنعه فى تلك الدار لكن الفرق بين علم ذلك
الانسان وعلم الاله ان ذلك الانسان ربما لا يتيسر له صنع تلك الدار لمانع
ما فيصير علمه السابق غير مطابق للواقع وأما الاله فلا مانع يمنعه من أفعاله
التي يريد ان يفعلها فلا بد ان يفعلها فلا يزال علمه مطابقا للواقع ولا يمكن
تخلفه البتة ومن هذا المقام تفهمون ما ورد فى الشريعة المحمدية ان كل
شيء من الحوادث بقضاء وقدر لانه مادام ان كل حادث في الكون هو
هو بصنع الله العالم على وفق ماسبق به علمه فلا بد ان تتعلق به قدرته ايجادا
على وفق ما سبق به علمه وهو القضاء ولا بد ان يتعلق به علمه أزلا ويحدده
بحده الذى يوجد عليه وهو القدر (تفسير القضاء والقدر بماهنا هو أحد
تفاسير ثلاثة ذكرها الباجورى في حاشية الجوهرة وهذا تفسير الماتريدية)
ومن هنا أيضا تفهمون ما ورد فى تلك الشريعة من ان الرسل والاولياء
يخبرون بالغيب ومستقبل الامور لانه اذا كان الله العالم يعلم الغيب والمستقبل
من الحوادث حيث ان كل حادث بصنعة ويتعلق ارادته وعلمه فلا مانع
من أنه يعلم بذلك الغيب أو المستقبل احدا من أولئك الرسل والاولياء وان
قلنا ليس من طبيعة علم الانسان أن يعلم شيأ منها لذاته لكن لا مانع من

اعلام الاله له به فما كان ذلك من أولئك المذكورين الا باعلام الاله لهم وهم يخبرون بذلك وليس أحد منهم يدعى علم الغيب بذاته لانه فضلا عن كون علمهم لايقتضى ذلك فالشريعة المحمدية تعد ادعاء علم الغيب بالذات من أكبر المحظورات وتوجب تكفير من يدعيه

ثم ان اتباع محمد عليه السلام قالوا ان اله العالم الذى ثبت لدينا وجوده وقدمه وبقاؤه وقدرته وارادته وعلمه يجب أن يكون حيا اذ الميت لايعقل وصفه بارادة ولاقدرة ولا علم كما هو ظاهر فقد ثبت له صفة الحياة واستحال ان يوصف بالموت ثم قالوا ان هذا الاله لايمكن ان يشابه المادة فى خاصة من خواصها التى من طبيعة نفس المادة ان تكون لازمة لها لاتنفك عنها وهى الصفات العامة اللازمة لجميع أنواع المادة أو من طبيعة نفس المادة ان تقبلها سواء وجدت فى جميع أنواع المادة أوفى بعض مركباتها وهى الصفات العامة غير اللازمة أوغير العامة وذلك كالجوهرية والجسمية والعرضية والتحيز والتركب والتجزىء والتولد عن الغير و ولادة الغير والاتصال والانفصال والحيوانية والنباتية والجمادية والانتقال من حيز الى حيز والانفعالات النفسية وامثال ذلك لانه لو شابهها فى شئ من تلك الخواص لكان مادة مثلها لان الشئ الذى يشابه شيأ آخر فى خاصة من خواصه ومقتضيات ذاته وطبيعته يكون مثله البتة ولوكان ذلك الاله مادة لجاز عليه ما جاز عليها من الحدوث لان ما جاز على أحد المثلين جاز على الآخر وقد قام الدليل على وجوب قدمه واستحالة حدوثه فقد ثبت بهذا ان ذلك الاله لايجوز ان يشابهها فوجب ان يخالفها وهذا معنى ما يعتقده اتباع محمد عليه السلام من أن اله العالم يجب له المخالفة للحوادث ويستحيل

عليه المشابهة لها فلا هو مادة ولا يجوز اتصافه بشيء من خواص المادة كما تقدم

ثم حيث تبين انه ليس جوهرا ولا جسما فلا يحتاج لمكان يقوم فيه ولا عرضا فلا يحتاج لمحل يحل فيه ويتقوم به وأيضا لو كان عرضا واحتاج الى محل يتقوم به لكان صفة ولو كان صفة لما صح اتصافه بالصفات التى تقدمت وهى القدرة والارادة والعلم والحياة وقد قام الدليل على اتصافه بها فلا يصح ان يكون صفة فليس هو عرضا محتاجا الى محل يحل فيه ويتقوم به وهو المطلوب ثم حيث ثبت انه قديم فلا يحتاج الى موجد يوجده وهذه المعانى وهى عدم احتياجه الى المكان والمحل والموجد هى معنى ما يعتقده اتباع محمد عليه السلام من ان آله العالم يجب له القيام بنفسه ويستحيل عليه القيام بغيره وعلى هذه الصفة دليل آخر وهو انه لو احتاج الى مكان أو محل يحل فيه أو موجد يوجده لكان من الواجب ان يكون كل مما ذكر موجودا قبله ولا يكون مصنوعا له وقد قام الدليل على انه هو القديم قبل كل شيء من الاكوان وكل شيء منها مصنوع له فكيف بعد ذلك يفتقر الى شيء منها ولا يشكل ما مر من انه لا يشابه المادة فى شيء من خواصها بانه يشابهها في انه موجود ومريد وعالم وقادر وحى وامثال ذلك مما ثبت له من الصفات فان انواع المادة توصف بذلك لان اعتقاد اتباع محمد عليه السلام ان صفاته المذكورة لا تشارك صفات انواع المادة الا بالاسم لمشابهة الاثار وتخالفها فى الحقيقة غاية المخالفة لان صفاته المذكورة عندهم هى صفات قديمة ليست اعراضا واما صفات انواع المادة التي تشاركها فى الاسم فهى اعراض واحوال للمادة حادثة زائلة ولا يخفى ان المشابهة فى الآثار لا تقتضى المشابهة فى الحقيقة ولا تستلزمها على انه شتان

ما بين آثار صفاته وآثار صفات تلك الانواع من عظمة آثار صفاته وشمولها وكمالها وحقارة آثار تلك الصفات وقصورها ونقصها يعلم كما ذلك بالمقابلة بين آثار الطرفين

ثم ان اتباع محمد عليه السلام بعد استدلالهم على وجود اله للعالم والزامهم اياكم بالتصديق بوجوده بمقتضى ما تقدم من الدليل لاحاجة لهم ان يقيموا دليلا فى مقابلتكم بان هذا الآله واحد لاشريك له فى الالوهية وفى تخصيص العالم وايجاده لانكم كنتم لاتصدقون بوجوده آله واحد فالزموكم بالتصديق بوجوده فهم في مأمن منكم ان تدعوا بوجود آله اخر سواه اذ من الواضح لديكم ان تقولوا انه ابعد اثبات وجود اله للعالم بدلالة آثار عليه أى داع يدعو الى اثبات وجود غيره مع انه يكفى لايجاد هذا الكون آله واحد متصف بتلك الصفات التامة الكافية للايجاد والاحكام لكنهم حيث يعتقدون ان ذلك الآله واحد ويستحيل ان يكون له شريك فى الالوهية وعقائدهم لايبنونها الا على الدليل القاطع سواء كان دليلا عقليا أو دليلا نقليا يلزمهم ان يقيموا الدليل عقليا أو نقليا على وحدانية ذلك الآله وانفراده بايجاد والعالم واستحالة وجود اله سواه كذلك اذا انتصبوا لمخاصمة الفرق الذين يقولون بتعدد الآلهة ويعتقدون بوجود الهين للعالم أو ثلاثة أو اكثر فيلتزمون حينئذ أيضا لالزام هولاء الفرق بالاقرار بوحدانية آله العالم ان يقيموا الدليل على وحدانيته واستحالة آله سواه لكن دليلهم فى مقابلة هولا الفرق لايكون الا عقليا لان هولاء لايؤمنون بالدليل النقلى فلا تجدى نفعا اقامته فى مقابلتهم

اما الدليل النقلى على وحدانية اله العالم الذى يعتمده اتباع محمد عليه السلام فهو كثير في القرآن الذى جاء به محمد عليه السلام واخبر انه من عند الله العالم فاكثر سوره محتوية على التصريح بتوحيد الآله وانفراده بالايجاد بل

على دلائل على توحيده عقلية برهانية أو اقناعية توافق عقول العامة الذين تقصر عقولهم عن ادراك البرهان وانما جاز لاتباع محمد عليه السلام ان يعتمدوا في اعتقادهم توحيد الآله على الدليل النقلى لان التصديق برسالة محمد عليه السلام و بصدق جميع ما جاء به لايتوقف على اعتقاد وحدانية الآله اذ لهم ان يصدقوا برسالته من جانب من اوجد العالم لقيام الدلائل الدالة على صدق دعواه سواء كان ذلك الموجد واحدا منفردا بالايجاد ام لا ثم بعد تمام تصديقهم له برسالته يخبرهم بان الذى ارسله هو واحد منفرد بالايجاد لا شريك له فى ذلك

واما الدليل العقلى الذى يقيمه اتباع محمد عليه السلام على وحدانية اله العالم في مقابلة الفرق الذين يقولون بتعدد الالهة ويعتمدونه فى اعتقادهم وحدانيته أيضا فله صور كثيرة وطرق شتى وانا اذكر هنا دليلا واحدا من ذلك في هذا المقام حبا بالاختصار فاقول ان اتباع محمد عليه السلام يقولون في هذا المقام لو تعدد اله العالم كأن يكون هناك الهان (أو اكثر اذ لا فرق في هذا الاستدلال) لما وجد شيء من العالم لكن عدم وجود شيء من العالم باطل لانه موجود بالمشاهدة فما ادى اليه وهو التعدد باطل واذا بطل التعدد ثبتت الوحدانية وهو المطلوب وانما لزم من التعدد كان وجد هناك الهان عدم وجود شيء من العالم لانهما اما ان يتفقا واما ان يختلفا فان اتفقا فلا جائز ان يوجداه لئلا يلزم اجتماع مؤثرين على اثر واحد وهو محال لاستلزامه انه ان حصل بايجاد كل منهما وجود للعالم مستقل فيلزم انه وجد بوجودين وهو انما وجد بوجود واحد فقط كما هو ظاهر وان لم يحصل بايجاد كل منهما الا وجود واحد للعالم فيلزم ان كلا منهما لم يوجده بانفراده بل بمشاركة الاخر كما لو سلطت قوتان على دحرجة حجر لا تكفى كل منهما

بانفرادها لدحرجته بل يلزم لها اجتماعهما فكل من هاتين القوتين محتاجة للاخرى فهى مركبة معها وقد صارتا قوة واحدة تنسب اليهما الدحرجة ولا تنسب لواحدة منهما على الاستقلال فعلى هذا يكون هذان الالهان قد ركبا وجعلا الها واحدا ينسب اليه الايجاد ولا ينسب لكل منهما على الاستقلال لانه جزؤ الموجد لا موجد مستقل واله العالم انما هو موجده واذا قيل ان الاله حقيقة هو المجموع المركب من الاثنين قلنا قد مر ان التركيب محال على الاله الموجد للعالم لوجوب مخالفته للمادة وانواعها في صفاتها التى تختص بها ومنها التركيب ولا جائز ان يوجداه مرتبا بان يوجده احدهما ثم يوجده الاخر لئلا يحصل تحصيل الحاصل وهو محال كما تقدم ولا جائز ان يوجد احدهما البعض والاخر البعض الاخر للزوم عجزهما حينئذ لانه لما تعلقت قدرة احدهما بالبعض سد على الاخر طريق تعلق قدرته به فلا يقدر على مخالفته وهذا عجز والعجز على الاله محال وان اختلفا بان اراد احدهما ايجاد العالم والاخر اعدامه فلا جائز ان ينفذ مرادهما لئلا يلزم عليه اجتماع الضدين ولا جائز ان ينفذ مراد احدهما دون الاخر للزوم عجز من لم ينفذ مراده والاخر مثله لانعقاد المماثلة بينهما وأيضا اذا نفذ مراد احدهما دون الاخر كان الذى نفذ مراده هو الاله دون الاخر وتم دليل الوحدانية وقد ذكر فى القرآن الكريم هذا الدليل مجملا مختصرا فقال (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) أى لو كان يقوم فى خلق السموات والارض آلهة غير الله أى وان كان الله معهم لفسدتا يعنى لم توجدا أى لكن عدم وجودهما باطل لمشاهدة وجودهما فبطل ما ادى اليه وهو وجود جنس الآلهة غير الله فثبت انه ليس فيهما اله غير الله بل هو المنفرد بالالوهية وهو المطلوب وليس المحال

وجود جمع من الآلهة بل مجرد التعدد كما أشرنا اليه بقولنا جنس الآلهة ثم ان ماتقدم من فرض تجويز الاتفاق بين الالهين أنما هو ببادىء الرأى عند التامل لايصح صلح بين الهين اذ مرتبة الالوهية تقتضى الغلبة المطلقة والاستبداد التام كما أشار اليه فى القرآن المجيد بقوله (اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلى بعضهم على بعض) (هذا وانى أكرر التنبيه بأن هذا الدليل وأمثاله انما تقام فى مقابلة من يعتقد بوجود اله للعالم ويعرف عظم مرتبة الالوهية ولكنه يدعى التعدد فيردع عن دعوى التعدد بهذا الدليل وأمثاله وأما من لم يعتقد بوجود اله للعالم فانما يصح اقامة هذا الدليل في مقابلته بعد الزامه انه لابد للعالم من اله أوجده ثم تعريفه مرتبة الالوهية وماتقتضيه من العظمة والاستقلال والا فلا تراه مباليا بعجز الاله ولابما يلزم من بقية المحلات التي تقدمت فى الدليل المتقدم فليتنبه) ٥

ثم ان أتباع محمد عليه السلام وجدوا ان هذه الصفات التى ثبتت للاله الموجد للعالم وهي الوجود والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث والقيام بالنفس والوحدانية والعلم والارادة والقدرة والحياة هى التي عليها مدار الالوهية ووجود اله متصف بها يكفى لتعليل وجود هذه الاكوان ويقتنع بذلك كل عاقل ولكنهم تأملو بعد ذلك فى شأن ذلك الاله سبحانه وفي بديع مصنوعاته وما احتوت عليه من كمال الاتقان فقالوا اذا كانت مصنوعاته فى هذا الكمال أيكون هو سبحانه ناقصا فى صفة من الصفات الكمالية كلا انافى جميع ماتصوره لانجد الشىء يوجد مثله فضلاعن ان الناقص يوجد ويبتدع الكامل أوان الكامل يوجد أكمل منه هذه الحيوانات مهما صنعت وابتدعت ترها عاجزة عن صنع مثلها فى الحيوانية بل مايقرب من مثلها هذا

بانفرادها لدحرجته بل يلزم لها اجتماعهما فكل من هاتين القوتين
محتاجة للاخرى فهى مركبة معها وقد صارتا قوة واحدة تنسب اليهما الدحرجة
ولا تنسب لواحدة منهما على الاستقلال فعلى هذا يكون هذان الالهان قد
ركبا وجعلا الها واحدا ينسب اليه الايجاد ولا ينسب لكل منهما على الاستقلال
لانه جزؤ الموجد لا موجد مستقل واله العالم انما هو موجده واذا قيل
ان الاله حقيقة هو المجموع المركب من الاثنين قلنا قد مر ان التركيب محال
على الاله الموجد للعالم لوجوب مخالفته للمادة وانواعها في صفاتها التى تختص
بها ومنها التركيب ولا جائز ان يوجداه مرتبا بان يوجده احدهما ثم يوجده
الاخر لئلا يحصل تحصيل الحاصل وهو محال كما تقدم ولا جائز ان يوجد
احدهما البعض والاخر البعض الاخر للزوم عجزهما حينئذ لانه لما تعلقت
قدرة احدهما بالبعض سد على الاخر طريق تعلق قدرته به فلا يقدر على مخالفته
وهذا عجز والعجز على الاله محال وان اختلفا بان اراد احدهما ايجاد العالم
والاخر اعدامه فلا جائز ان ينفذ مرادهما لئلا يلزم عليه اجتماع الضدين
ولا جائز ان ينفذ مراد احدهما دون الاخر للزوم عجز من لم ينفذ مراده
والاخر مثله لانعقاد المماثلة بينهما وأيضا اذا نفذ مراد احدهما دون الاخر
كان الذى نفذ مراده هو الاله دون الاخر وتم دليل الوحدانية وقد ذكر
فى القرآن الكريم هذا الدليل مجملا مختصرا فقال (لو كان فيهما الهة الا الله
لفسدتا) أى لو كان يقوم فى خلق السموات والارض الهة غير الله أى وان
كان الله معهم لفسدتا يعنى لم توجدا أى لكن عدم وجودهما باطل لمشاهدة
وجودهما فبطل ما ادى اليه وهو وجود جنس الالهة غير الله فثبت
انه ليس فيهما اله غير الله بل هو المنفرد بالالوهية وهو المطلوب وليس المحال

وجود جمع من الآلهة بل مجرد التعدد كما أشرنا اليه بقولنا جنس الآلهة ثم
ان ماتقدم من فرض تجويز الاتفاق بين الالهين انما هو بادئ الرأى عند
التامل لايصح صلح بين الهين اذ مرتبة الالوهية تقتضى الغلبة المطلقة
والاستبداد التام كما أشار اليه فى القرآن المجيد بقوله (اذن لذهب كل اله بما
خلق ولعلى بعضهم على بعض) (هذا وانى أكرر التنبيه بأن هذا الدليل
وأمثاله انما تقام فى مقابلة من يعتقد بوجود اله للعالم ويعرف عظم مرتبة
الالوهية ولكنه يدعى التعدد فيردع عن دعوى التعدد بهذا الدليل وأمثاله
وأما من لم يعتقد بوجود اله للعالم فانما يصح اقامة هذا الدليل في مقابلته
بعد الزامه انه لابد للعالم من اله أوجده ثم تعريفه مرتبة الالوهية وماتقتضيه
من العظمة والاستقلال والا فلا تراه مباليا بعجز الاله ولا بما يلزم من بقية
المحالات التي تقدمت فى الدليل المتقدم فليتنبه)

ثم ان أتباع محمد عليه السلام وجدوا ان هذه الصفات التى ثبتت للاله
الموجد للعالم وهي الوجود والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث والقيام
بالنفس والوحدانية والعلم والارادة والقدرة والحياة هى التي عليها مدار
الالوهية ووجود اله متصف بها يكفى لتعليل وجود هذه الاكوان ويقتنع
بذلك كل عاقل ولكنهم تأملوا بعد ذلك فى شأن ذلك الاله سبحانه وفي بديع
مصنوعاته وما احتوت عليه من كمال الاتقان فقالوا اذا كانت مصنوعاته
فى هذا الكمال أيكون هو سبحانه ناقصا فى صفة من الصفات الكمالية كلا
اننا فى جميع ماتتصوره لانجد الشيء يوجد مثله فضلا عن ان الناقص يوجد
ويبتدع الكامل أوان الكامل يوجد أكمل منه هذه الحيوانات مهما صنعت
وابتدعت تراها عاجزة عن صنع مثلها فى الحيوانية بل مايقرب من مثلها هذا

الانسان وهو أعلمها وأقدرها في الصناعة مهما صنع وابتدع فانه لايقرب في مصنوعاته من الكمال الذى هو قائم فيه فضلا عن أن يصنع مثله أو أكمل منه فلا يقدر على صنع نبات فضلا عن صنع حيوان أو انسان غاية مايصنعه انه ينحت صورة جمادية خالية عن كل حياة او يركب تركيبا كيماويا يجمع فيه العناصر مع بعضها ولا يبلغ من الحياة أدنى مبلغ أو يركب آلة ميكانيكية تتحرك بسبب نواميس الميكانيكيات حركة غير دائمة ولا حياة هناك ولا احساس واذا أراد التصرف بشيء من الحيوان أو النبات بتغيير صورته فلا قدرة له على ذلك الا باستعمال النواميس الموضوعة للتغير فى ذلك الشيء من جانب الاله سبحانه وفى الحقيقة ليس التغيير الحادث هناك صنعا له وماله فيه الا انه اكتشف على الناموس الذى ينشأ التغير عنه وسلطه على الامر الذي يريد تغيره ولو كان ذلك بصنعه وخلقه لكان يعلم شؤونه قبل بروزه فيعلم قدره وكيفيته بكل تدقيق والحال ليس كذلك بيان ذلك ان الانسان اذا أراد ان يجعل فرخ الطائر مشوها في خلقته يسلط الحرارة على جانب من البيضة بقوة ويضعفها عن جانب آخر فيظهر الفرخ منها بتشويه مخصوص فذلك التشويه ليس صنعا لذلك الانسان والا لكان يعلم قدره وكيفيته وتحديده وموضعه من الفرخ بكل تدقيق قبل أن يخرج من البيضة والحال ليس كذلك غاية الامر انه بالتجربة أو الصدفة أطلع على ناموس تغيير الفرخ فى البيضة وتشويهه فصار يستعمله فى سبيله كالذى يعلم ان الماء يروى الظمأ فعندما يظمأ يرسل الماء فى معدته فيرتوى ويذهب ظمؤه أيقال ان هذا المرسل للماء هو الذى أوجد الارواء وأذهب الظمأ ويعد ذلك من مصنوعاته كلا غاية مافعل انه أرسل الماء فى المعدة والماء عندما وصل اليها نشأ عنه

تبريد حرارتها وذهاب العطش ومالذلك المرسل فيما حدث من ذلك أدنى
تأثير ومن هنا يظهر بالطريق الاولى ان زارع الزرع مهما سعى فى بروزه
وبدو ثمرته للوجود باستعمال النواميس المعروفة لذلك لايقال عنه انه أوجد
هذا الزرع وأبدى ثمرته وكونهما على مافيهما من التركيب العجيب والخواص
البديعة فليس شئ من ذلك مصنوعا له على سبيل الحقيقة نعم طريق المجاز
لاحجر فيه وهكذا يقال فى جميع مايتسبب الانسان في وجوده باستعمال نواميس
الأكوان لاصنع له فيها الاتسيير النواميس في سبلها ثم الاثار تنشأ عنها) وسيأتي
ان أتباع محمد عليه السلام يقولون ان الاثار تنشأ عن نواميسها بخلق الله تعالى
لابتأثيرها كما سيأتي تحقيقه) فأتباع محمد صلى الله عليه وسلم لما تبين لهم ماتقدم
من أن الشيء لايصنع مثله فضلا عن أنه يصنع أكمل منه قالوا لابد أن الاله الموجد
للمادة على نواميسها العجيبة التى تهيؤها للتطورات التي لاتحصى والمبدع منها
تلك الانواع البديعة التي لاتستقصى يجب أن يكون له مرتبة الكمال في صفاته التى
ثبتت له بالدليل وفى كل صفة كمالية تليق به تعالى والا لكان مثل مصنوعاته أو
دونها وذلك خلاف ماعلمه العقل وصدق به فاعتقدوا حينئذ ان ذلك الاله
سميع بصير متكلم متصف بكل صفة كمالية تليق به تعالى اذلا يقبل العقل أن يكون
أصم أعمى أبكم وهو الذى أبدع السمع وأنار البصر وأطلق اللسان بالكلام ولا أن
يكون ناقصا فى صفة كمالية وقد أوجد نظيرها فى مصنوعاته على أكمل وجه لكن جميع
ماعتقدوه له من الصفات يعتقدون أنها ليست كصفات الحوادث ولا تشبهها فى
الحقيقة وان شاركتها في الاسم لمشابهة الاثار وقد تقدم أن مشابهة الاثار لاتوجب
مشابهة مانشأت عنه فسمعه سبحانه ليس بصماخ بل هو صفة قديمة قائمة بذاته
تنكشف بها مسموعاته وبصره ليس بمقلته بل هو صفة قديمة قائمة بذاته تنكشف

بها مبصراته وكلامه ليس بحرف ولا صوت بل هو صفة قديمة قائمة بذاته يفهم عنه بها
ما يريد افهامه لاحد مصنوعاته وهكذا القول فى بقية فى صفاته التى تقدمت من العلم
والارادة والقدرة والحياة فهى صفات قديمة قائمة بذاته تعالى يتعلق منها ما كان
له تعلق بالاشياء حسب اقتضائه تعلق انكشاف أو تخصيص أو احداث والا فلو كانت
صفاته تعالى كصفات الحوادث لكان حادثا مثلها وقد قام الدليل على وجوب
قدمه تعالى واستحالة حدوثه وقد تقدم شرحه

ثم ان أتباع محمد عليه السلام عندما أمنوا برسالته من عند ذلك الاله
سبحانه بسبب الدلائل التى قامت معهم على صدقه وجدوا فى شريعته اثبات
ما يوصلهم اليه الدليل العقلى من تلك الصفات التى مر ذكرها لاله العالم مما
يتوقف عليه أمر الالوهية ومما يقتضيه عظمة شأنها من الصفات الكمالية وغير
ذلك من صفات العدل والرحمة والكرم والهداية والاحسان الى أمثال ذلك
مما طفحت به نصوص تلك الشريعة وقد يوجد فيها اثبات صفات له تعالى لا يوجد
عند العقل دليل على اثباتها ولا على نفيها فاعتقدوها لورود النص بها فى الشريعة
المحمديه لان المخبر بها وهو محمد عليه السلام صادق مجزوم بصدقه لما قام لديهم
من الدلائل القاطعة على صدقه والعقل لا يحيلها وكذلك ورد فى هذه الشريعة
اثبات أشياء للاله سبحانه مما يوهم الجسمية وذلك كالوجه والعين واليد والاصبع
والقدم فاعتقد أتباع محمد عليه السلام اثباتها له تعالى ولكن حيث قام الدليل العقلى
والنقلى على تنزيهه تعالى عن الجسمية لم يعتقدوا معانيها المتبادرة واعتقدوا ان لها
معانى تليق به تعالى ليست كالمعانى التى فى الحوادث وفوضوا علم حقيقتها اليه
سبحانه فيقولون مثلا له تعالى يد ليست كايدينا وعين ليست كاعيننا وهلم جرا
هو سبحانه اعلم بحقيقة المعنى من ذلك فهم بذلك منزهون له تعالى ومفوضون

اليه سبحانه واجمال الامر انهم اعتقدوا اتصاف اله العالم سبحانه بكل كمال يليق بشأنه وتنزيهه عن كل نقص لا يليق به سبحانه حسبما دلهم عليه العقل وافادهم اياه الشرع المحمدى ثم ان هذا الشرع كما جاءهم باثبات صفات الاله سبحانه جاءهم أيضا باثبات أسمائه تعالى التي سمى بها نفسه ومنها لفظ (الله) الذى هو الاسم الخاص به الذى لا يطلق على سواه وهذا اللفظ وان كانت اللغة العربية تطلقه على موجد العالم سبحانه قبل بعثة محمد عليه السلام ولكن جاءت شريعته باطلاقه عليه تعالى فصار تسميته به سبحانه عند اتباع محمد عليه السلام تسمية شرعية اعتمدوا بها على نص الشرع المحمدى لا على مجرد اللغة العربية وهكذا بقية أسمائه تبارك وتعالى ثم ان الشريعة المحمدية كما عرفت اتباعها بوجود الله تعالى واتصافه بتلك الصفات الكاملة مما يدل العقل على اثباته أيضا أو على جوازه وبأسمائه الكريمة فقد هدتهم الى طرق الاستدلال على وجوده واتصافه بتلك الصفات وعظمتها بدلائل عقلية برهانية ودلائل اقناعية تنشرح لها الصدور وتطمئن عندها القلوب فانفتح لهم بذلك باب واسع ومهيع رحب وانا أريد ان أذكر لكم شيئا من ذلك مما يدل على وجود اله العالم سبحانه واتصافه بتلك الصفات الكاملة وعظمته وعظمتها واتساع أثارها مما يربى فى القلوب تعظيم شأنه جل جلاله والتصديق بقدرته على أعظم المصنوعات وأكبر المبتدعات وقبل ذلك أقدم لهذا الامر مقدمة لها ارتباط به ونفع فيه فاقول لا يخفى ان للمادة وأنواعها صفات عامة وذلك كالتحيز الشامل جميع الاجسام وصفات خاصة وذلك كقبول الانطراق للحديد والانقصاف للزجاج فانهما خاصان بنوع دون نوع من الاجسام

والذى يظهر من كلامكم فى كتب علومكم ان الصفات العامة لاتنفك عن شئ من أنواع المادة أصلا و يستحيل انفكاكها عن شئ منها وأما الصفات الخاصة فالذى يظهر من كلامكم ان كل صفة منها قد تنفك عن صاحبها بسبب من الاسباب الطبيعية فتقولون ان الحديد مثلا تفارقه صفة قبول الانطراق وتخلفها صفة قبول الانقصاف اذا نقع فى المحلول الفلائى والمغناطيس تفارقه صفة جاذبية الحديد عند حصول الزلزلة وعلى ذلك صنعت الآلة المنبهة على قرب الزلزلة ليحترس منها فهذا تصريح منكم بانفكاك الصفة الخاصة عن صاحبها بسبب من الاسباب الطبيعية كما قدمنا واما اتباع محمد عليه السلام فهم يقولون فى الصفات العامة التي يتبرهن عندهم ثبوتها فى جميع أنواع المادة اننا بالتأمل فيها نجدها تنقسم الى قسمين قسم منها لا ينفك عن جميع أنواع المادة ويستحيل انفكاكه عنها وهذا لا تتعلق قدرة الله تعالى باعدامه منها مع تحققها فى الموجود لان قدرته تعالى لا تتعلق باعدام الواجب أى الامر الذي يجب وجوده ويستحيل عدمه وذلك كالتحيز للجسم أى أخذه قدرا من الفراغ فلا يمكن ان يوجد جسم غير متحيز وقسم منها يجوز عقلا ان ينفك عن جميع الانواع فلا مانع من ان قدرة الله تعالى تتعلق باعدامه من جميع الانواع أو من أى نوع منها لانه الجائز العقلى الذى هو تحت تصرف قدرته تعالى وذلك كالجاذبية العامة للاجسام وكجاذبية الملاصقة أى القوة الجاذبة لاجزاء الجسم الفردة من جنس واحد كالحديد حتى تتلاصق و يتكون الجسم وامثال ذلك فانهم يقولون ان هذا القسم ان ثبت حصوله فى الاجسام فهو ليس واجبا لها بل حصوله فيها على سبيل الجواز العقلى يمكن للعقل ان يتصور وجوده فيها وان يتصور عدمه منها فاى مانع يمنع

من تصورنا الجسم خاليا عن الجاذبية العامة فلا يجذب غيره ولا غيره يجذبه وأى مانع يمنع من تصورنا الجسم خاليا عن جاذبية الملاصقة ويكون تلاصق أجزائه بسبب آخر غيرها على ان قولكم بها مع مصاحبة قوة الدفع لها أي القوة التى تتدافع بها الاجزاء حتى تبقى بينها مسام وتمانع القوة الخارجية اذا ضغطت الجسم كما هو مشروح فى كتبكم يشبه ان يكون قولا باجتماع الضدين وان قلتم لا يمكن ان يتصور تكون الاجسام الا بها قلنا يمكن عندنا بقدرة الله تعالى وان قلنا ان هناك سببا نقول يمكن ان يكون ذلك السبب غيرها فما المانع من ان الاجزاء الفرة التى قلتم بها في الاجسام وانها ذات اشكال متغيرة هي ذات نتوات وذات تجاويف فعند اجتماعها تتداخل النتوات فى التجاويف وتتماسك فان كانت تلك التجاويف غير ضاغطة على النتوات أوضعف ضغطها بسبب مثل الحرارة يوجب اتساعها كان الجسم سائلا أو غازيا وان كانت ضاغطة عليها أو اشتد ضغطها بسبب مثل البرودة تصالب الجسم على قدر الضغط وصار جامدا ويعلل عن تدافع الاجزاء حينئذ بأنه متي كان تجاويفها ضيقة لاتدخل فيها النتوات بتمامها فتبقى خلايا بين الاجزاء وهى المسام الموجودة في كل جسم وهذا التعليل لتماسك اجزاء الاجسام المتحدة الجنس وهو ان ذلك لوجود نتوات وخلايا فى الاجزاء الفردة يظهر هو أيضا للعقل فى تلاصق الاجسام المختلفة الجنس كما بين الورق والصمغ فان التعليل به أقرب للعقل من تعليلكم ذلك التلاصق بقوة تسمى قوة الالتصاق تكون بين الاجسام المختلفة الجنس كما قدمنا ولما كانت الاجزاء الفردة عندكم ذات اشكال متغيرة وان لم تقبل القسمة فعلا فهى تقبلها عقلا كما في كتبكم صح لنا الزامكم بفرض النتوات والخلايا

بخلاف الاجزاء الفردة عند اتباع محمد عليه السلام فانها لا يصح فيها ذلك ولا تظنوا
انى أقول بوجود النتوءات والخلايا في هذه الاجزاء الفردة وابنى عليه ذلك
التعليل لانى لا آمن من ورود اشكالات عليه ولكنى ذكرته على سبيل
الاحتمال لاريكم تعليلكم فى أى منزلة من الثبوت وان غيره اقرب منه
والملخص ان أتباع محمد عليه السلام لايقولون ان ما تقدم من الصفات العامة
وامثاله مفقودة من الاجسام وينكرون وجودها فيها ويحوجونكم الى حشد
البراهين عليها ليس الامر كذلك وانما يقولون انها بعد ثبوتها ليست واجبة
عقلا بل هى جائزة الوجود ها وجائزة العدم عنها اذا العقل لايحيل وجودها
ولا عدمها وما دامت كذلك فهى تحت تصرف قدرة الله تعالى القادر على
جميع الجائزات العقلية كما تقدم فكما اوجدها يقدر على اعدامها مع وجود
الاجسام حتى جاذبية الملاصقة فانها ليست بضرورية لتكون الاجسام كما يلوح
من كلامكم بل يقدر سبحانه وتعالى على جمع اجزائها الفردة بدونها بسبب
أو بدون سبب وان كانوا يقولون بالاول قياسا على عادته سبحانه فى هذا
العالم من ربط كل شئ بسبب عادى أى جرت عادته بايجاده عنده

واما الصفات الخاصة فاتباع محمد عليه السلام يقولون مثل قولكم انها
ليست واجبة لموصوفاتها بل جائزة الانفكاك عنها لكن انتم تقولون ان تلك
الصفات تفارق موصوفاتها لتغير وضع اجزائها الفردة بسبب طبيعى موجب
لذلك ومفارقتها لها تحتاج الى زمن كاف لها قد يكون قصيرا وقد يكون ممتدا
بالسنين أو بالوفها واما اتباع محمد عليه السلام فهم يقولون ان تلك المفارقة
يحتمل ان تكون لتغير وضع الاجزاء الفردة للجسم ويحتمل ان تكون لامر
آخر ما دام الواقع لم يتبرهن عندهم حقيقته واذا قام عندهم برهان على شئ

قالوا به وايا كان فهو بخلق الله تعالى والاسباب التى قلتم انها موجبة لذلك
يقولون انها اسباب عادية أى انه جرت عادة الله تعالى بايجاد مسببها عندها
وليست موجبة له ولا مؤثرة فيه وان سمعتموهم ينسبون الامر الى سببه فليس
اعتقادهم انه يؤثر فى وجوده بطبعه بل مرادهم بتلك النسبة ان الله تعالى
يخلق ذلك المسبب عند وجود ذلك السبب على طريق عادته فى هذا العالم
ولو اراد ان يخلق السبب ولا يخلق المسبب أو يخلق المسبب بدون السبب لفعل
وما دامت تلك الاسباب غير مؤثرة ووجود المسببات بخلقه تعالى فهم يقولون
فى الزمان الذى قلتم انه يلزم لمفارقة الصفات لموصوفاتها ما هو الا بطريق
العادة له تعالى ولو اراد ان يحدث المفارقة بلحظة لفعل ولا يحتاج الى زمن
ممتد مثلا اذا قلتم ان الحديد اذا نقع في السائل الفلانى تفارقه صفة الانطراق
وتخلفها صفة الانقصاف لتغير وضع اجزائه الفردة بسبب النقع ويحتاج ذلك
لزمن كاف وذلك السائل مؤثر بطبعه فى ذلك التبدل موجب له وذلك
الزمان لازم لايتم الامر بدونه قال اتباع محمد عليه السلام ان ذلك التبدل
حصل بفعل الله تعالى بان اعدم صفة الانطراق واوجد صفة الانقصاف سواء
كان ذلك لتغير وضع الاجزاء ام لامر اخر لم نعلمه وذلك المحلول ليس مؤثرا
بطبعه في ذلك التبدل ولا موجبا له وانما جرت عادة الله تعالى باحداث
التبدل عند النقع فيه والزمان الذي يتم فيه التبدل ليس شرطا واجبا بل الله
تعالى يقدر على احداث التبدل بلحظة كما يقدر على احداثه بدون نقع الحديد
فى ذلك السائل وهكذا القول بان النار تحرق الجسم الفلانى والماء يروى
العطش وامثال ذلك يقول اتباع محمد عليه السلام لاشئ من ذلك مؤثر بطبعه
بل الله تعالى يخلق الاثار التى تنشأ عن هذه الاشياء عندها بشروط واحوال

عادية وهو قادر على خلق تلك الاثار بدون وجود شيء مما تنشأ عنه كما هو قادر على اعدامها مع وجود ما تنشأ عنه ومع توفر الشروط ودفع الموانع والذي حمل اتباع محمد عليه السلام على القول بما تقدم من عدم تاثير الاشياء بطبعها بل بخلق الله تعالى هو اولا ما قام عندهم من الادلة على تفرد الله تعالى بخلق جميع ما يحدث فى هذا الكون فلو كانت الاشياء مؤثرة بطبعها فى وجود الآثار التى تنشأ عنها لكانت خالقة لها وقد قام الدليل على استحالة الخلق لغير اله العالم وهو الله تعالى ولا سيما ان بعض تلك الاثار تكون متقنة محكمة يحكم العقل بان حصولها على هذا الاحكام لا بد ان يكون عن روية وعلم وادراك تام للذى احدثها واثبات هذه الصفات لتلك الاشياء الجمادية مما لا يقول به عاقل مثال هذا النبات المحتوى على التكونات العجيبة من جزور وساق واغصان واوراق وازهار واثمار واعضاء تناسل وبزور باشكال والوان وطعوم وخواص تحتار عندها الافكار وينشأ جميع ذلك عن التراب والماء والهواء فعقول اتباع محمد عليه السلام بل سائر العقول السليمة لا تقبل ان هذه التكونات المحتاجة للعلم والقدرة والتدبير قد احدثها التراب والماء والهواء الخالية عن هذه الصفات فلذلك يحيلون احداثها وخلقها على القادر العليم سبحانه الذى قام الدليل عندهم على انه هو الذى اوجد اصل المادة من العدم قابلة تلك التطورات وثانيا على فرض غض النظر عما تقدم من تفرد الله تعالى بالخلق قد نظروا الى هذه الاشياء التى تنشأ عنها الاثار وتاملوا فى حقيقتها فوجدوا انها ليست مقتضية لتلك الاثار اذ لا شيء فيها يلزم العقل باعتقاد انها مقتضية لها مثلا الحرارة تذيب الثلج والبرودة تجمد الماء واذا نظر الى حقيقتهما لم يظهر للعقل وجه اقتضائهما لذينك الاثرين كما يظهر وجه اقتضاء الجسم

للتحيز ووجه اقتضاء الحقيقين ان لا يتدا خلا ويحلا فى حيز واحد مثلا فاذا
قالوا لكم ولم لم يكن الحال فى الحرارة والبرودة بالعكس ماذا يكون جوابكم
اتقولون هذا طبع كل منهما فيقولون لكم ولم لم يكن طبع كل منهما بالعكس
اتقولون لان الحرارة تضعف قوة الملاصقة والبرودة تقويها فيقولون لكم ولم
لم يكن الامر بالعكس وهلم جرا فما يسعكم بعد ذلك الا ان تقولوا ما كان
اختصاص كل منهما بخاصته الا بتخصيص مخصص فيقولون لكم ان ذلك
المخصص هو الله تعالى الذى اوجد المادة وهو الفاعل المختار الذى خص
ما شاء بما شاء و بعد ذلك كله يقولون ما دام ان الاشياء ليست موثرة بطبعها
والتاثير بخالق الله تعالى فالزمان المفروض لحصول الآثار ليس شرطا ضروريا
بل هو شرط عادى فالله قادر على خلق الاثر بلحظة كلمح البصر أو اقرب
لانه قد ثبت بالدليل ان قدرته تامة ولا تشابه قوى الحوادث فلا يحتاج الى
الزمان في اعماله كما تحتاج قوى الحوادث التى كلما اشتدت قصر زمن عملها
وكلما ضعفت طال زمنه وأيضا لو كانت قدرته تحتاج الى الزمان في اعماله كما
تحتاج سائر القوى لكنا نرى المصنوع الذي يشتمل على العظم ودقة الصنعة
وكثرة الاشكال والتراكيب والخواص لا يحصل دائما تكونه الا فى زمان
اطول من زمان تكون المصنوع الذى لا يشتمل على شئ من ذلك والحال ان الامر
ليس كذلك لانا نرى النبات الفلانى من النوع الاول يبرز للوجود فى مدة
قصيرة والنبات الفلانى من النوع الثانى قد يبرز للوجود فى مدة طويلة اضعاف
مدة بروز الاول فهذا يدل على ان امتداد الزمان ليس شرطا فى ايجاد الله
للمخلوقات والا لكان الامر بالعكس فيما مثلنا ثم لا تظنوا من قول اتباع محمد عليه
السلام ان هذه الاشياء ذات الآثار لم يكن تسبب تلك الآثار عنها الا عاديا وان

الزمان لتكون تلك الآثار هو شرط عادي ايضا انهم يقولون بكثرة انخراق العادة فى ذلك حتى تطالبوهم بذكر الشواهد الكثيرة على انخراقها فانهم لا يقولون بهذا أصلا انما يقولون التسبب عادي والزمان شرط عادي والله قادر على خرق العادة فيهما وليس ذلك بمحال ولكن خرق العادة فى ذلك لم يعهد منه تعالى الا لنحو معجزة لنبي أو كرامة لولي على حسب مانقل لهم متواترا او شاهدوه من رسولهم محمد عليه السلام عندما ادعى الرسالة وظهرت على يده المعجزات بخرق العادات فاذا تقرر ماتقدم من هذه المقدمة ووعيتموه بأفئدتكم فاقول تعالوا حتى ننظر فى مادة هذا العالم وانواعها وما اشتملت عليه من الصور الغريبة وما تتطور به من الاطوار العجيبة لنعلم ان قيام ذلك فيها من صنع المادة وحركة أجزائها ام من تأثيرات بعضها ببعض ام من صنع اله عليم مريد قادر حكيم يخصصها بما يشاء ويطورها كيف أراد اعمالا بغاية العظمة ونهاية الاحكام والتدبير مما يدل على ان عظمته وعظمة صفاته لا تحد ولا تدركها العقول ولا تحيط بها الافكار وكل عمل بعدها من جائزات العقل مهما بلغ فى العظمة وتسامى فى الدقة وتعالى فى الاحكام فهو في جانب عظمة ذات هذا الاله وكمال صفاته حقير هين واضح بين سبحانه ما أعظم شانه وما أكمل سلطانه بيده الخلق والتدبير وهو على كل شئ قدير

لننظر الى عالم الكواكب فنجد على ما نصت عليه كتب الهيئة عندكم ان كلا منها اختص بخاصية لم توجد فى سواه فالبعض منها صغير جدا والبعض منها كبير جدا حتى ان ارضنا بالنسبة اليه كحبة رمل بالنسبة الى كرة قطرها ذراع أو اكثر فان كان قطر ارضنا سبعة آلاف وتسعماية واثنى عشر ميلا ومحيطها الاستوائى أربعة وعشرين الفا وثمانماية وتسعة وتسعين ميلا فقطر الشمس ثمانماية واثنان وخمسون الفا وخمسماية وثمانون ميلا ومحيطها مليونان وستماية وثمانية وسبعون الفا وخمسماية ميل وجرمها

مثل جرم ارضنا بمليون ومايتين وتسع وخمسين الفا وسبعماية مرة ومنها القريب الينا والبعيد عنا بملايين من الاميال ومنها ما يومه وسنته دون يومنا وسنتنا ومنها ما هو اكثر من ذلك بكثير حتى ان سنة زحل تسع وعشرون سنة من سنينا وسنة أورانوس اربع وثمانون وسنة نبتون ماية وأربعة وستون وكسور ومنها ما هو بطيء السير في فلكه ومنها ما هو سريع السير حتى ان المشتري يجري ثلاثين الف ميل في الساعة فيجري تسعة اميال كلما تنفس الانسان مرة وسرعة اجزائه الاستوائية في دورانه على محوره اربعماية وسبعة وستون ميلا ومنها ما نوره أحمر ومنها ما نوره اصفر ومنها ما نوره أبيض ومنها غير ذلك ومنها ما نوره أصلي كالشمس والثوابت ومنها ما نوره مكتسب من نور غيره كالقمر وبقية السيارات ومنها ما يخلو عن الحرارة ومنها ما فيه حرارة تبلغ قدرا عظيما فشمسنا على قول بعضكم لو جمعت حرارتها لكانت كافية لان تذيب في يوم واحد مقدارا من الجليد يغطي كل وجه الارض وسمكه احد عشر ميلا والذي يصل من حرها الى الارض هو جزء من الفي مليون وثلثماية وواحد وثمانين مليونا ومنها الثوابت وهي شموس اضواؤها ذاتية كشمسنا تضيء على عوالم تتعلق بها وهي ليست ثابتة كما يتوهم من اسمها بل هي متحركة لكن لفرط بعدها عنا لا تظهر لنا حركاتها الا بعد قرون كثيرة فتبقى على نسبة بعضها الى بعض وضعا ومنها ما هو ناء عن الشمس يبعد عنها على توالي الايام ومنها ما هو دان اليها كذلك ومنها المتغير يزيد ضوءه تارة وينقص أخرى ومنها الوقتي اي الذي يظهر زمانا قد يكون ممتدا ثم يختفي ولا يعود أصلا ومنها ما نوره لا يصل الينا الا بعد سنين أو ميئات من السنين مع ان نور شمسنا يصل الينا بمدة ثماني دقائق وبعض ثوان مع ان الشمس تبعد عنا ما ينوف عن تسعين مليون ميل ومنها ما تظنون ان فيه سكانا ومنها ما لا تظنون فيه ذلك ومنها الشمالي ومنها الجنوبي ومنها المتوسط ومنها الليلي والنهاري ومنها

ما يتسع وجهه المنير تارة و يضيق أخرى و منها ما ليس كذلك و منها الكاسف ومنها المكسوف ومنها ومنها وهى قائمة في الفضاء بناموس الجاذبية العامة كما تقولون ولعلها بناموس آخر من نواميس الكون التى اجراها خالقه فيه سائرة في ابراجها ومنازلها على غاية الضبط والاحكام بحركات مختلفة ودورات متنوعة تضبط بها الاوقات و يعلم منها السنون والاشهر والايام والساعات وتمتاز الفصول بترتيب تحتار فيه العقول والمرجع فى الجميع الى الفاعل القادر معما فيه من منافع المخلوقات من نبات وحيوان ومعدن تربو بحرارة أنوارها وتتهيأ لها الاغذية على قدر حاجاتها الى غير ذلك مما يعجز عن احصائه اللسان وتكل لديه الفكر و يخسأ البصر فاذا كانت متساوية فى أصل المادة وليست مادتها تقتضى تخصيص كل منها بما اختص به عن سواه فيقال بعد ذلك ان الذى خص كل منها بما اختص به و رتبها على نظامها العجيب مشتملة على المنافع حسب مصلحة المخلوقات مع ذلك الاتقان هو حركة اجزائها الفردة الخالية عن كل معرفة وارادة وتدبير أم يقال ان الذى ابدعها كذلك هو العليم المريد القادر الحكيم لننظر الى الجو وما يحتوى عليه من الكائنات فنرى فيه الهواء الجوى الذى فيه حياة النبات بما يمتص منه وحياة الحيوان بتطهير دمه بالأستنشاق ودخوله الى رئته ولما كان الاحتياج اليه أشد من جميع ماسواه كان كثيرا وافرا سهل المأخذ مهيئة الآت تناوله على أكمل ما يكون لقبول سرعة العمل وهكذا نرى الحكمة جارية فى ان الشئ كلما اشتدت الحاجة اليه كان أوفر وأسهل يظهر ذلك بالتأمل فى هذا الهواء ثم الماء ثم الغذاء ثم عقاقير الدواء ثم أحجار الزينة والبهاء ثم وثم ونجد

فيه الرياح وتصريفها ومنافعها واختلافها وما اختص به كل منها من الخصائص فمنها الشرقي والغربى والشمالى والجنوبى وما بين ذلك ومنها الرطب واليابس والحار والبارد والشديد والضعيف والليلى والنهارى والمنتظم فى أوقات مخصوصة وغير المنتظم والبطىء فى سيره والسريع فيه من سبعة أميال فى الساعة الى واحد وتسعين وقد تبلغ سرعته فى الساعة مائة وعشرين ميلا أو أكثر لكنه نادر ومنها الزوبعة والاعصار قائمة بمنافع سكان الارض فتسوق السحاب الى مواقع مطره وتلقح الاثمار بنقل مادة التلقيح اعضاء التذكير الى أعضاء التأنيث وتروح الارواح وتلطف الحرارة وتسوق السفن فى البحار وتنشر بزور النباتات على سطح الارض الى غير ذلك مما يعجز الحاسب ويوهن الكاتب ونجد فيه السحاب وما اشتملت عليه من من الصنع العجيب والتكون الغريب حتى استطاع الهواء حملها ونقلتها الرياح الى الامكنة المحتاجة الى وبلها ويصحبها البرق والرعد اللذان يظن ان من حكمتهما تحليل مياهها بسبب حرارة النور وحركاته التموجية وحركات الرعد الارتجاجية معما فيهما من دلالة سكان البوادى على مواقع سقوط المطر ونرى الثلج ينعقد بسبب البرد ويقع أكثره على الجبال ليقيم مدة يتحلب ماؤه الى بواطنها ومخازنها التى فى جوفها فتخزنه لمنافع المخلوقات وتخرجه من منافذها فيجرى ينابيع وانهارا ترتوى بمائها الارض والحيوان فى مدة الصيف وتنشأ عنه الرياض والجنان اذ لو كان السحاب لا يلقى على الارض الا المطر لانحدر بسرعة من رؤس الجبال (والسيل حرب للمكان العالى) قبل أن تمتلى مخازنها بمقدار ما يكفى لجرى الينابيع والانهار الى غير ذلك من كائنات الجو التى ألف في علمها مجلدات ولنذكر هنا النور

لانه لما كان امتداده انما هو فى الفضاء جاز لنا ان نذكره فى كائنات الجو
فنرى ما اشتمل عليه من النواميس العجيبة التي احتملت علما مستقلا وذلك
كانعكاسه وانحلاله الى سبعة ألوان وغير ذلك مما فيه من منافع الحيوان
والنبات من النمو والصحة وقتل الجراثيم السامة وكشف المرئيات وثمرات
أخرى لاتحصى ثم انه مع ظهوره بنفسه للبصر واظهاره لغيره فقد خفيت
حقيقته عليكم واضطربتم فى تفسيره قال أكبر مشاهيركم انه ذرات صغيرة
جدا تنتشر عن الجسم المنير ورد عليه متاخروكم بادلة واضحة وقالوا
انه اهتزاز أجزاء المادة الاثيرية السارية في الكون فهو عبارة عندهم عن حركة
الاجزاء المذكورة واعتمد جمهوركم الآن على هذا التفسير وبنيتم عليه الصروح
ولقائل أن يقول ما بال تلك الاجزاء الاثيرية تخرق حركتها لوح بلور بسماكة
كثير من الاذرع واذا طلى أحد وجهيه بطبقة رقيقة من الحبر الاسود
مثلا عجزت تلك الحركة عن خرقها كأنها صدت باسوار خاقانية أو جبال
حلايا هلا خرقت تلك الطبقة الرقيقة غير الصلبة كما خرقت اللوح السميك
الصلب وان قلتم ان اللون قد أبطل تلك الحركة بطبعه قلنا لامانع ان يكون
ذلك بخلق الله تعالى ولكن بينوا لنا على تفسيركم هذا كيف قويت تلك
الحركة على خرق اللوح السميك الصلب وعجزت عن تلك الطبقة الرقيقة
غير الصلبة وان قلتم ان اللون يتشرب النور قلنا لكم بينوا لنا مامعنى تشرب
اللون للنور الذى هو حركة اجزاء بعبارة واضحة يقبلها العقل وأيضا ان
صناعكم قد اخترعوا دهانا اذا عرض لنور الشمس بعض دقائق اضاء فى
الظلام طول الليل فعلى تفسيركم للنور ان قلتم ان تلك الحركة المنبعثة عن
الدهان فى الظلام من انعكاس النور قلنا بينوا كيف دامت تلك الحركة ناشئة

عن الدهان مع ان الحركة الاصلية المنبعثة عن الشمس قد انقطعت عنه وفارقته من ساعات وهذا خلاف مايعهد من ناموس الانعكاس وان كان خلاف ذلك فبينوه وبعد ذلك كله لسنا جازمين ببطلان تفسيركم هذا بل هو جائز الصحة ويكون من جملة مخلوقات الله تعالى وتحت تصرفه ولكن القصد تنبيهكم على ان من أعظم ما تجزمون به مالبس قطعيا وبعد جميع ماتقدم تقول ما الذى خصص كلا من كائنات الجو بما خصصه واحكم فيها المنافع على أكمل صنع واتم ابداع فاحيا بها الارض بعد موتها وانمى سكانها واظهر لابصارهم مرئياتها أيقال هى حركة اجزاء المادة ام الصدفه أم الضرورة أم غير ذلك من الكلمات المبهمة المعنى الغامضة التفسير أم العليم الخبير المريد القدير

ولننظر الى الارض وما اشتملت عليه جغرافيتها الطبيعية وكائناتها الجمادية والنباتية والحيوانية فنرى البحر الذى تبلغ مساحته ثلاثة أرباع سطح الارض أى مائة وأربعة وأربعين مليونا وسبعماية واثنى عشر ألف ميل مربع وهو مسكن الامم المائية ومصدر الجواهر البحرية من كل ما يكون غذاء ودواء وزينة وقد اشتمل على ماتشتمل عليه اليابسة من جبال وأودية ووعور وسهول وأكام وتلال وهضاب وبطاح واجام وحدائق مختلفة الاشجار وحيوانات صغار وكبار تنمو وتسكن في اماكن مخصوصة حسب أجناسها وأنواعها وصنوفها وللبحر اعماق تفوق التصديق ولم تعلموا تحقيقا اعمق مكان فيه غاية ماوصلتم اليه قياس عميق منه بلغ نحو تسعة أميال ولم تعرفوا له قرارا ومن عجائبه المد والجزر والتيارات السطحية والتيارات السفلية والامواج التي كالجبال والجبال التى تعوم على وجهه من الجليد عند القطب الشمالى وملوحته التى هي من أحكم التدبير اذ لولاها لانتن ماؤه فاهلك

الحرث والنسل وقد سخر للبشر يركبون متنه ويخوضون لجته ويتواصلون في طرائقه ورياحه المختلفة

ونرى اليابسة ومانكونت هي منهـا فاولها الجبال التي هي مخازن المياه التي تروى النبات والحيوان وهي مأوى الطيور والوحوش ومنبت الاشجار الصلبة الشامخة التي هي مادة الاخشاب والوقود وهي الحواجز للبقاع المسكونة تحفظها من الرياح الباردة والحارة ثم منها ذو المناظر البهجة والنباتات المزهرة ومنها الاجرد الوعر التي سلبت الامطار أتربته وبقيت صخوره تشبه هيكل عظام جرد عنها اللحم فكانت تلك الصخور مادة العمران من الدور والحصون ومنها الجبل الناري الذي يقذف الحمم وينير الافاق فى الظلم ومنها ومنها مما يقضي على الانسان بالعجب

وثانيها الاودية وهي منبت أحسن الاشجار ومجنى الازهار والاثمار ومنشأ السرور وانشراح الصدور ومع ان منها مايعد جنة نعيم لاترى فيها الا ظلا ظليلا وماء سلسبيلا ولا تسمع الا صفير بلبل وهديل حمام وبغام ظباء وسجع يمام حول تلك الرياض المزهرة والاشجار المثمرة والجداول المنحدرة من كل مايجلب المسرة ويهدى للعين قرة فمنها ما هو كدار الجحيم ليس فيه الا الموت الزؤام وباليات العظام وذلك كوادى الموت الذي هو قرب جاوا فهو واد بطنه رمضاء محرقة وقفر بلقع لانبات فيه ولا حيوان فلا يحله طائر ولا تدب فيه دابة ولا يمكن فيه وحش الا ويعالجه الموت الاحمر ولا يرى فيه الا الرمم البالية من عظام الحيوانات وهوالك الحشرات وقد نسب ذلك فيه الى شجرة سامة لايوجد فيه سواها من النبات والذي صح عندكم ان ذلك لانه فى جوار جبل نارى فيصعد من منافسه هواء سام بكمية زائدة تقتل الحيوان وتفتك بالنبات

فمن جعل بعض وديان الارض دار النعيم وجعل بعضها دار الجحيم أحركة أجزاء المادة أم المريد العليم الذى يخص ماشاء بما يشاء انه خبير حكيم

وثالثها الكهوف التى هى مأوي الحيوانات ومتنفس الجبال من البخارات التي فى بواطنها ومن غرائبها الكهوف التى تبرد في الصيف حتى تجمد المياه التي داخلها وتسخن في الشتاء فيأوي اليها كثير من الحيوانات التى لاتقوى على برد الشتاء فسبحان اللطيف الخبير ومن غرائبها كهوف الموت التي لايدخلها حيوان الا مات فى الحال لانها متنفس جبل ناري قدخمد وبقى من متنفسه هواء سام يقتل من يستنشقه فمن الكهوف حصون ومنها منون فسبحان الفاعل المختار

ورابعها السهول التى هى جامعة غالب المادة التى تقوم بها النباتات لغذاء الحيوان ثم هي متنوعة التربة يناسب كل منها التنمية نبات لايناسب سواه فلوكانت نوعاواحدا لنقصنا نباتات كثيرة ونراها بين الصلابة والرخاوة فلوكانت صلبة كالصخر لما صلحت لذلك ولوكانت رخوة جدا لغاصت فيها أقدام الحيوانات وماصلحت لمسعاها ولالسكناها فمن خصص الصخور بالصلابة فكانت مادة العمران وخصص غيرها بالتوسط بين الصلابة والرخاوة فصلحت لزرع غذاء الحيوان أليس هو الحكيم الخبير والمدبر العليم

ونرى من كائنات الارض المعادن التى تولدت فى أحشائها مختلفة الخواص متباينة الانواع والاصناف صالحة مع اختلافها وتباينها لمنافع سكان الارض فمنها الجامد والسائل والصلب وغير الصلب وقابل الانطراق وغير قابله وقابل الذوبان وغير قابله والثقيل والخفيف والاصفر والابيض والاحمر والاسود وغير

ذلك وكم فيها من مصالح للبشر باتخاذها الات لطعامهم وشرابهم وأسلحتهم وبيوتهم وفلاحتهم وزراعتهم وأدويتهم (ولما كان الحديد من أنفعها وهو أشدها خفاء في الارض لايشابهه معدن في الخفاء كما في كتب المعادن خصه الله تعالى في القرأن بذكر المنة به والاشارة الى نعمة الهداية اليه فقال تعالى وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ولم يذكر معدنا سواه بذلك) ونرى من خواصها غرائب تعجز عقولنا عن تعليلها تعليلا يقينيا بل غاية مايوصلنا اليه البحث فيها أن نقول هكذا خاصيتها وان قلتم نحن لانقول ذلك بل لابدان نقف على التعليل اليقيني قلنا لكم هذا المغناطيس المعدن الغريب صاحب خاصية الجذب لمثله وللحديد والفولاذ أنتم تقولون ان سبب جذبه لما ذكره ومن حركة أجزائه الفردة وترتيب أوضاعها وأقول ان هذا التعليل وان جاز أن يكون هو الواقع بخلق الله تعالى ولكنكم أتيتم به مبهما غير مقنع للعقل اذا وردت عليكم السؤلات الآتية وهي أولا لما نتج عن تلك الحركة والوضع جذب ماذكر ولم ينتج عن ذلك جذب بقية المعادن من نحو الذهب والنحاس أوضحوا لنا توجيه ذلك وثانيا كيف ان المغناطيس اذا التصق بقضيب من حديد وجذبه أكسبه خاصية ذلك الجذب من دون أن يخسر من قوته شيئا فيصير ذلك القضيب يجذب كجذب المغناطيس مادام ملتصقا به واذا انفصل عنه بطلت منه تلك الخاصية وتقولون لتلك الحالة التي طرأت على الحديد تمغنط موقت واما اذا التصق المغناطيس بقضيب من الفولاذ اكتسب ذلك خاصية ذلك الجذب ودامت فيه ولو انفصل عن المغناطيس وكذلك اذا دلك قضيب الفولاذ بالمغناطيس اكتسب تلك الخاصية دائمة ويقال لذلك تمغنط صناعي فاوضحوا لنا كيف حصل ذلك الاكتساب بمجرد ملامسة المغناطيس

القضيب الحديد والفولاذ اتغيرت اوضاع اجزائهما ولو كانا بطول ممتد واذا كان الامر كذلك فهل رجع الوضع لاصله فى قضيب الحديد ولوفي لحظة من الزمان وبقى فى قضيب الفولاذ ام الحال غير ذلك واوضحوا لنا هذا الفرق بين الحديد والفولاذ بل والحديد الصلب فانه بحكم الفولاذ يكتسب خاصية الجذب وتدوم معه بعد الانفصال ثالثا انكم تقولون ان قوة الجذب في المغناطيس فى طرفى القطعة منه وكلما اقتربنا لوسطها نجد ان القوة قد ضعفت حتي تكاد تغيب عند الوسط تماما واذا قسمت تلك القطعة من عند وسطها رجع الطرف الذى عند القطع ذا قوة قوية كما في الطرف الاصلى فاوضحوا لنا كيف ضعفت القوة عند الوسط وقويت فى الطرفين وكيف قويت فى الطرف المفصول بعد القطع أبالقطع تغير وضع الاجزاء مع ان وضعها لايتغير باقوى العوامل الخارجية ام الامر كان لغير ذلك وأيضا اذا لمس المغناطيس قضيب الحديد أو الفولاذ من طرفه وتمغنط القضيب فلابد ان تكون القوة في الطرف الاخر من ذلك القضيب تامة واما القوة فى وسطه فهى قريبة التلاشى فماذا تقولون ان الحركة وتغير وضع الاجزاء قد وصلا الى ذلك الطرف عن طريق غير الوسط ام مرا على الوسط فضعفا عنده ثم قويا بعد مجاوزته وما الذى اعادلهما تلك القوة بعد الضعف ورابعا تقولون ان المغناطيس يفقد قوة الجذب عند حصول الزلزلة ثم تعود اليه بعد مضيها وعلى ذلك عملت الآلة التى تنبه على قرب حصول الزلزلة فيحترس منها فاوضحوا السبب لتغير وضع الاجزاء وتبدل الحركة عند الزلزلة وكيف كان ذلك ولم كان ذلك والذى اراه انكم لاتقدرون على اجوبة شافية عن تلك الاسئلة التي تقدمت بل غاية ما تنتهون اليه ان تقولوا هكذا خاصة المغناطيس لها تلك الاعمال واقول لكم ان اتباع

تلك الجوار بزهرة الطير و بعضهم بزهرة النحلة وقد وجدت بعضكم يعلل لتكون تلك الازهار على صورة الحيوانات بتعاليل واهية فاطلب منهم تعليل تكون هذه الزهرة بما يقنع العقل ولا أراكم تقدرون على ذلك ولا أرى مقنعا للعقل الا احالة تكوينها على صنع القادر المريد الحكيم العليم لا على حركة اجزاء المادة ولا على ناموس التباينات ولا على امثال ذلك من الامور العمياء الصماء البكماء و بينما نرى ان بعض النبات لا يحس باشد الملامسات ونحكم بان من جملة الفوارق بينه وبين الحيوان الاحساس في الحيوان دونه اذ نرى النباتات الحساسة ومنها السنط الحساس الذى اذا لمس أوحرك أحس وانضمت وريقاته وتشنج سائر اوراقة ومنه البنات المفترس للحيوان الذى تقدم ذكره فانه يحس بوقع الذباب عليه فيمسكه ويمتصه وبينما نرى ان النبات لا يتحرك الا بفاعل خارجي كالهواء والحيوان اذ نرى النبات المتحرك بنفسه لغير قاسر ظاهر فهذا النبات يتحرك بنفسه حركات يرسم بها فى الهواء مخاريط هندسية فورقته مؤلفة من ثلاث وريقات أكبرها العلياء فى الوسط والصغريان تحتها على الجانبين تتحركان مدة حياتهما ليلا ونهارا في الحر والبرد والشمس والظل والصحو والمطر لا تنقطع حركتهما ترتفع الواحدة منهما وتنخفض الاخرى على التوالى بحركة مستديرة ومنه مالا تتحرك ورقته الوسطى الا صباحا ومساء بخلاف الجانبيتين فان احداهما ترتفع والاخرى تنخفض طول النهار وقلتم انهم وجدوا على جانب نهر الكنج فى الهند نبتا تتحرك وريقاته كذلك ستين حركة فى الدقيقة فهو ساعة حية نامية لا تقف ولا تكلف صاحبها شيئا من النفقة ومشركو الهند يقدسون هذا النبات وينسبون اليه قوة آلهية وما هو الا شاهد على انفراد

خالقه بالربوبية ومنه ما يتحرك زهره مع حركة الشمس في قبة الفلك وهو
كثير فى بلادنا ويسمونه بالفلك و بعابد الشمس لان زهرته المستديرة
المؤلفة من دوائر بديعة الاصباغ محكمة الصنع محاطة باهداب كخيوط الحرير
وفى وسط نوع منه شئ كعقرب الساعة تستقبل تلك الزهرة الشمس فى
أول شروقها ولا تزال تتحرك لاستقبالها كلما ارتفعت الشمس لقبة الفلك
حتى تبلغ الهاجرة فتكون تلك الزهرة حينئذ سطحية الوضع ثم كلما مالت
الشمس الى المغرب مالت معها حتى تفارقها في المغيب فسبحان المبدع الخبير
ثم فى تباينات النبات ما يحير الافكار و يشهد بان مبدعه فاعل مختار لا يحكم
عليه ناموس ولا تدخل قدرته تحت تحديد ينبئ عن الاضطرار وعدم الاختيار
وذلك انا نرى منه ما يبلغ من الكبر والارتفاع مبلغا يفوق الحد كما فى أرز
لبنان وأم الاجمة التى توجد فى أميركا طولها ثلاثمائة قدم أو أربعمائة قدم
وقطر بعضها عند الارض ثلاثة عشر قدما وسمك قشرها ثمانية عشر قيراطا
ومن أشجارها ما جوف ساقها وطرحت فكان الفارس يدخل جوفها
منتصبا على صهوة حصانه فلا يمسها و بعض الاشجار فى اسكتلندا بلغ محيطها
تسعين قدما وحسب عمرها بمقابلتها بأصغر أشجار نوعها فكان خمسة ألاف
سنة وفى كاليفورنيا شجرة صنوبر طولها ثلاثمائة قدم ومحيطها ثلاثون قدما
وعمرها ستة آلاف سنة واغرب من ذلك كله شجرة عندم فى احدى جزائر
كاريا فى الاقيانوس الاتلنتيك لا يحيط بساقها عشرة رجال يمدون أيديهم
حولها يمس كل منهم أنامل مجاوره بأنامله وقدم على اكتشاف تلك
الجزيرة ما يقرب من أربعمائة سنة ولم يتغير منظر تلك الشجرة فان
نمو هذا النبت بطئ كما يشاهد من نمو صغاره فكم مر عليها من القرون

قال بعضهم انى أقول انها كانت تنمو منذقرون كثيرة قبل خلق الانسان
ونرى من النبات عالما على غاية الصغر قد أظهره المكرسكوب وذلك كالطحلب
الذى يعلو وجه الماء والعفونة التى تلتصق بالجدران وغيرها فكل ذلك يظهر
تحت المكرسكوب كانه بستان أو امرج أوغابة كثيفة تحمل مع صغرها
ودناءتها زهرا و بزورا ينتشر مع الهواء من جملة الهباء ويقع على الجدران
وغيرها فاذا وافقته الاحوال استفرخ ونما وازهر و بزر و العين المجردة
لاتراه الاكالغبار الاخضر ونرى من النبات ما يتقابل فيه الاضداد فى
اختلاف اشكاله واشكال أوراقه وازهاره وأثماره و بزوره وروائحه
وطعومه وألوانه ومنافعه ومضاره ما يفوق الاحصاء فمنه الشجر والنجم
والعشب والصفى والشتوى والربيعى والخريفى والسهلى والجبلى والمكتفى
بماء المطر والمحتاج الى سواه والمختص باقليم والذى يعيش بكل الأقاليم
ومن أوراقه المستدير والمستطيل والمسنن والعريض والرفيع ومع اشتراكها
في لون الخضرة فخضرتها مختلفة لانجد خضرة نوع تشبه خضرة نوع آخر
وازهاره أكثر اختلافا وأوفر تباينا في الأشكال والالوان فمنها المستدير
والمستطيل والمفرد والمضاعف واشكال شتى لاتحصى ومنها الابيض والاحمر
والاصفر والازرق والاخضر والمقنش بأبدع النقوش والمجتمع فيه الضدان
أو الاضداد من الالوان وروائحه من ابدع الخواص فمنها المستطابة التى
تنعش القلوب والمستكرهة التى تميت النفوس ويكفى بالتنبيه على اختلافها
انا لا نجد رائحة زهرة من نوع تشبه رائحة زهرة من نوع آخر تمام الشبه
واختلاف أثماره باشكالها وألوانها وروائحها وطعومها وأقدارها مما يتيه العقل
في تيهانه فمنها الكبير والصغير والعريض والمستدير والكروى والمحدب والمسنن

وغير ذلك ومنها الاحمر والاصفر والابيض والاسود والازرق والمنقش وغير ذلك ومنها ذو الرائحة التي لم توجد في زهره ولا ورقه من كل رائحة زكية وأخرى على الانوف يليه ومنها الحلو والحامض والمز والمر ونحو ذلك من الطعوم التي لاتستقصى ومن غريب أمر الاثمار انك ترى قشرها بطعم ولون ورائحة لاتوجد في اللب وفي اللب من ذلك مالا يوجد في البزر وفي البزر من ذلك مالا يوجد في كامل أجزاء الشجرة ومن الاثمار مايحتوى على البزور المختلفة الاشكال والروائح والطعوم والالوان ومنها مايخلو عن البزور ومنها ماهو مغلف بغلاف أو أكثر ومنها ماليس كذلك ومنها صغير وأصله شجر كبير كالجميز ومنها ماهو كبيرا وأصله من الاعشاب كالبطيخ ومن النبات مايعطى ثمرته بشهر أو أقل ومنه مالا يعطى ثمرته الا بعد سنين ومنه ماينتفع بعروقه أو أصوله أو ورقه أو زهره أو ثمره أو بزره أو قشره أو عصاره وما ينتفع منه بشيئين أو أكثر من ذلك وما ينتفع منه بجميع ذلك ومنه ما أصله نافع وثمره ضار أو ورقه أو زهره ومنه بالعكس فيجتمع في النبات الواحد الداء والدواء وبالاختصار نرى الشجرة الواحدة قد تتخالف خواص عروقها وساقها وقشرها وورقها وزهرها وثمرها وبزورها فلا تجد خاصة من تلك الخواص تنطبق تماما على خاصة اخرى منه وكل أنواع النبات تسقى بماء واحد وقد تتغذى بتربة واحدة وتمتص مايلزمها من هواء واحد وأعضاؤها انما هي قسمان أعضاء النمو وهي الجذور والسوق والورق وأعضاء التناسل وهي الزهر والثمر والبزر ثم انه من هذه الاعضاء البسيطة القليله العدد تتألف الالوف من النباتات البالغة بحسب ماوصل اليـه احصاء النباتيين ماينوف عن

ثمانين الف نوع وهي التي تكسو جبالنا وتلولنا وأوديتنا وحدائقنا خضرة وتزينها بازهارها وتملاء مخازنتا فواكه وحبوبا وتلبس أجسادنا وتعمر بيوتنا وسفننا وتعالج أمراضنا وتشعل نيراننا تحفظ أمتعتنا وتفعل وتفعل الى مايكبو في مضمار احصائه القلم ويرتمى !اللسان بالبكم أكل تلك الصور وجميع تلك الاطوار وترتب تلك المنافع وظهور هاتيك الاسرار مع اتحاد أصل المادة واتفاق جميع الاسباب الجوهرية تكون مصدرها حركة أجزاء المادة مع الضرورة العمياء أو الصدفة الصماء أوالنواميس التى لا تعلم ولا تشاء أم ذلك كله من ابداع مبدع قادر وحكيم قاهر وعليم يعلم بما صار وبما هو صائر نعم ان جميع تلك الغرائب وعموم هاتيك العجائب ترفع أعلام الشهادة بأن للعالم الها عليما وصانعا حكيما يخلق مايشاء ويفعل مايريد ثم ان النبات وان كان كل نوع منه نعمة أنعم بها الخالق سبحانه على خلقه ولكن بعضه تعظم فيه النعمة وتسمو فيه المنة وان يكن كل فرد منه غريبا ولكن قد يكون بعضه أعرق فى الغرابة فلنذكر من ذلك طرفا بالتفصيل فنقول من النعم المستغربة فى عالم النبات شجرة الخبز فى جزائر الباسفيك تحمل ثمرات كروية قطر اصغرها أربعة قراريط وقطر أكبرها سبعة وثقلها أربعمايه وعشرون درهما وهى تجنى مدة ثمانية أشهر متوالية من كل سنة وهى خبز لاهل تلك الجزاير يقتاتون به كما نقتات بالخبز الصناعى وهو جل طعامهم أعده لهم البارى تعالى من دون عناء مانكابده فى تدبير خبزنا وفى هذه الشجرة منافع أخرى فمو ائدهم من أخشابها وثيابهم من قشورها وقواربهم من سوقها ومن ذلك شجرة الحليب وهى شجرة يوجد منها فى الهند مايسمى هياهيا يخرق ساقها فيخرج منه حليب جيدا خثر من حليب البقر وفى برازيل شجرة منها تسمى (ماساراندوبا) تزهر

فى شباط وتثمر ثمرا طعمه كشراب الليمون ويستخرج من ساقها لبن أبيض شهى أفخر من حليب الماشية يتغذى منه السكان ويتخذونه جل قوام حياتهم ومن ذلك شجرة القشدة وهى شجرة هندية وأفريقية تحمل ثمرا لبه كالقشدة قواما وطعما يبقى شهورا فى البلاد الحارة فى الانية ولا يتغير لونه ولا طعمه ومن ذلك شجرة النارنجيل أى الجوز الهندى فان منافعها قل أن تحويها شجرة فقد قيل انه يتخذ من جوزها قبل نضجه شراب وبعد نضجه ما يحكى الحليب وتطبخ أوراقها كالخضر ويتخذ من عصارة أزهارها سكر ومن أخشابها وقشر جوزها أوان وصحون وجفان وتشاد من أخشابها أيضا البيوت وتنسج من أوراقها حصر ومظلات ويتخذ من خيوط اليافها ثياب ومناخل وقلوع وحبال ومن دهن جوزها زيت ومن نشارة أخشابها حبر للكتابة ومن ورقها قراطيس للكتابة أيضا وشجرة النخل لا تقصر كثيرا عنها فى وفرة المنافع فترى ثمرها يؤكل زهرا وبسرا ومذنبا ورطبا وتمرا وهو فاكهة وقوت وذخيرة وينتفع بأخشابها وجريدها وعراجينها واليافها حتى بنواها فيطحن ويجعل قوتا للجمال فسبحان المنعم المتفضل على عباده بغرائب نعمه وعجائب منته القادر على تنويع الانواع وتطوير الاطوار وخاتمة الكلام فى عالم النبات أن نقول ان أحق الناس بالاستدلال بشؤن النبات على وجود الصانع القادر العليم الحكيم أهم العلماء النباتيون الذين ملؤا المجلدات فى شرح أحواله وشؤونه فتراهم قد خاضوا فى البحث عن كيفية استفراخه ونموه والتغيرات التى تطرأ عليه من أول زرعه الى أن يبلغ غايته وعن كيفية تناسله وتلقيحه جنينه بمادة اللقاح التى هي كمنى الحيوان وعن تشريح ابنية جذوره وسوقه وأغصانه وأوراقه وبراعمه وأزهاره وأثماره وبزوره وعن أعضاء

كل منها ونظامات قيامها فيه وخواصها ووظائفها ومنافعها وتقلباتها وعن مدد حياته واختلاف أنواعها وعن انقسامه الى صفوف وعيال واسباط واجناس وأنواع وتباينات وافراد الى غير ذلك مما يحير العقول ويدل على عظمة قدرة خالقه وحكمة مصوره جل وعلا فتبارك الله رب العالمين فهؤلاء العلماء يكاد العقل لا يصدق بوجود طبعيين منهم منكرين للخالق سبحانه كيف وقد اطلعوا على تفاصيل هذا العالم ودقائق صنعه المحتاجة الى صانع قادر ومدبر حكيم عليم

ثم نري العالم الحيواني من سكان هذه الارض ذلك المصنوع الذى بلغ أعلى منازل الغرابة واسمى درجات الاحكام والاتقان بينما نرى النبات الذى مثل بالغذاء والنمو المواد الجمادية الى بنيته النباتية ناميا على وجه الارض اذ نرى الحيوان قد التقمه وسلمه لآلة فمه فسحقته وهضمته بالسحق ومزجه باللعاب ليحصل به بعض الهضم ثم ازدرده الى معدته وامعائه فهضمته أتم الهضم بسبب الحرارة والعصارات المفرزة هناك واستخلصت منه المادة المغذية وجرت هناك اعمال تحتار عندها العقول ثم انتقلت تلك المادة المغذية الى أعضاء سوى المعدة والامعاء وأخذت تتطور باطوار بسبب اعمال تلك الاعضاء فلبست صورة الدم ثم بعد تنظيفها بالدورة الدموية أخذت تتوزع على جسد الحيوان فدخلت أقسامها فى بنية كل عضو منه عوضا عما يتحلل من ذلك العضو ولبست حصة منها صورة منى الحيوان و بزوره ثم بعد التلقيح لبست صورة علقية ثم مضغية ثم أخذت تتصور وتتشكل وتنمو لها أعضاء يقوم كل منها بوظيفة الى أن يكمل تكوينها كالحيوان الذى تطورت تلك الاطوار داخل بنيته وحلت فيها الحياة الحيوانية الحساسة فكانت حيوانا طبق أصله سميعا بصيرا

شاما ذائقا لامسا ثم ينفصــل عن أصله و يأخذ فى السعى على رزقه حسب
نوعه وقد تنمو فيه قوة الادراك على قدر ما يحتاج اليه فى تدبير معيشته وقد
تزيد عن ذلك بمراتب حتى يصـير ذلك الحيوان عاقلا عالما وحكيما مدققا
يجول فكره فى كل شئ ويتصرف في كثير من الكائنات فى هذا العالم فتبارك
الخلاق العظيم الذى ينشئ هذا المصنوع من الماء والطين وهذا المخلوق العجيب
مع اشتراكه مع النبات فى بعض الخواص كالنمو والاغتذاء والتوالد قد فارقه
في ان له ادراكا واحساسا بحواس ظاهرة و باطنة ليست فى النبـات وفيما هو
أعظم من ذلك كله وهو القوة العاقلة التى يستدل بها و يستنبط ثم هو ينقسم
الى أجناس و أنواع وأصناف متفاوتة أشد التفاوت في صفاته فمنه ما بلغ غاية
عظيمة فى الكبر كالفيل الذى علو الكبير منه اثنتا عشرة قدما ومنه الصغير جدا
حتى لا يرى الا بالمكرسكوب الذى أظهر عوالمه المتوغلة في الصغر فتلك المخلوقات
الخفية تسمى النقاعيات لانها اكتشفت أولا فى نقاعة الاعشــاب ومع ان
الوفا وربوات منها تسبح فى قطرة من الماء دون ان تزدحم أو تتصادم فلها
الحياة وكل آلاتها وهى أجناس وأنواع وصنوف وصور مختلفة فمنها النقاعيات
الفصفورية التى يجتمع منها خلق كثير لا يحصى على وجـه البحر فتلمع
وتتوقد من نار وكلها لا تنام ليلا ولا نهارا ولم ترقط فى حال السكون الاقبل
خروجها من جرائيمها وقد تبين من بحث علماء الحيوان ان مائة وستين
مليونا من صغارها لم تبلغ ثقل قمحة واحدة وان فى قطرة واحدة من الماء
ما يزيد عن كل اهل الارض من البشر وراقبوا بعضهــا فرؤا الواحدة منهــا قد
تلد ألوف الالوف في زمن قصير ثم ان لتلك النقاعيات اعضاء كثيرة مختلفة
وعندها معرفة في طلب معاشها وميل الى مايلائم ونفور عما يضر ونباهة تتقى

بها الاخطار ولايصدم واحدها صاحبه أو يزاحمه مع ان الوفا وملايين
وربوات تسبح فى قطرة واحدة من الماء كما قدمنا وهي سريعة الحركة جدا
والغاية فى صغرها ما ذكره بعضهم ان نوعا منها لايزيد الواحدة منه على جزء
من الشعرة ولكل منها أعضاء خادمة لحياتها فتبارك الخلاق القدير ومن
الحيوان ما يعيش عمرا طويلا وما يعيش عمرا قصيرا وقد تخالف فى مدد
اعماره تخالفا غريبا واختص كل منه بمدة لا يصل العقل الى علة ثبوتها له
على وجه قطعي فترى الحيونات الجماء تعمر أكثر من القرناء والجرئية
أكثر من الجبانة والمائية والبرية أكثر من الهوائية لكن الرخمة والنسر
والببغاء والغراب تعيش قدر ما يعيش الانسان ومما اشتهر ان النسر الذهبي
يعيش مئتى سنة والسلحفاة مايتان وعشرين والفيل أكثر من ماية سنة
والضفادع البرية والمائية أطول حياة من سائر الحيوانات التى تعدلها في الحجم
وقد راقب بعضهم ضفدعا ستاوثلاثين سنة ولم يظهر شئ من علامات الكبر
فيه والفرس يعيش غالبا ثلاثين سنة ولم يعلم ان فرسا بلغ الستين وان معدل
عمر الغنم خمس عشرة سنة ومعدل عمر الكلب عشرون وهكذا لكل
حيوان من كبير وصغير عمر يخصه ولم يتوقف طول اعمارها وقصرها على
المسكن والمعيشة أو كبر الجسم أوصغره ولاعلى غير ذلك كما رأيت فاذن لا بد
لها من مخصص خصص كل منها بعمره الذى جعله له وهو الخالق
الذى ابرزها من العدم وخصصها من القدم يفعل مايشاء ويحكم
مايريد ومن الحيوان مايعيش فى الهواء وما يعيش فى الماء وما يعيش على
سطح الغبراء ومايعيش فى اثنين من ذلك ومنه ما يمشى على قدميه
ويداه آلتان لاعماله وتناوله غذاءه أو هما جناحان

يركب بهما متن الهواء ومنه مايمشي على أربع ومنه مايمشي على أكثر من ذلك حتى يبلغ عدد العشرات كالحشرة المسماة أم أربع وأربعين ومنه مايمشي على بطنه بواسطة الفلوس التى عليها و يتسلق الاشجار والجدران وذلك كالحية ومنه مايتناول غذاءه بيديه وما يتناوله بفمه وما يتناوله بمنقاره وما يتناوله بأنفه كالفيل ومايتناوله بلسانه كالحرباء التى تمد لسانها الطويل المبتل بمادة لزجة تخطف به الذباب وامثاله من الهواء ومنه ماتنقف بيوضه فى داخل جسده عن جنينه و يتم خلقه فيه ثم يلده كاكثر الحيوانات اللبونية ومنه ماتخرج بيوضه منه ثم يتخلق جنينه فيها مهيأ له داخلها جميع مايلزم له من الغذاء وذلك كالطير و بعض الحيات والحرذون ومنه مالا يتم تلقيح بيوضه بمنى ذكره الا اذا وصل المني اليها داخله محفوظا من الهواء وان لحقه الهواء فسد ومنه مايلقى ذكره منيه على بيوضه بعد أن تلقيها أنثاه خارج جسدها وذلك كبعض الاسماك فلا يفسد منيه بالهواء ولا بالماء ومنه مايرضع أولاده بما يمده الخالق من الحليب فى نديه او انديته التى تكون على عدد أولاده غالبا ومنه مايزق أولاده زقا كالحمام ومنه مايسعى بأولاده ويدلهم على أقواتهم كالدجاج ومنه مايشترك فى تربيتهم الذكر والانثى منه وذلك عند ماتكون أولاده غير قادرة على السعى فى أول ولادتها وذلك كالعصافير والحمام والانسان لان انفراد الواحد بالتربية مع سعيه لرزقه أيضا يكلفه فوق طاقته ومنه ماتنفرد أنثاه بالتربية وذلك عند ماتكون أولاده قادرة على السعى مع امها كالدجاج والحجل ومنه مايبنى الاعشاش لاولاده بكيفيات غريبة اما نقرا فى الاشجار واما عمارة بالطين واما غير ذلك ومنه مايحملهم على ظهره كالحيوان الآكل النمل في أميركا أو يحملهم في جراب عند بطنه يخرجهم منه وقت

حاجة السعى على القوت و يدخلهم فيه عند المنام وهو حيوان فى أوستراليا
ومنه ذوالمخرج الواحد تشترك فيه فضلاته و بيوضه ومنه ماليس كذلك و منه
ماسفاده فى وقت معين لايعدوه ومنه ماسفاده لايعين فى وقت ومنه مايعلو
انثاه عند السفاد ومنه مايدابرها ومنـه مايلصق جنبه بجنبها و يحا ككها حتى
تلقى بيوضهاوهو يلقى منيه على تلك البيوض فيلقحها وذلك كبعض الاسماك
ومنه مابيوضه تحاكى بنقوشها الوانه كالحجل و بعض الدجاج الهندى المسمى
بين الناس بدجاج فرعون فان بيوضه مخططة بألوان تحاكى ريشـه ومنه ما
بيوضه بيضاء او بلون اخر غير مشوب بغيره لاتحاكى ريشـه فى شئ ثم ان
بيوضه مختلفة الاشكال والهيئات والمقادير فمنها الكروى والمستطيل والكبير
والصغير وغير ذلك ومنه مايلد الواحد ومنـه مايلد الكثير حتى يبلغ عددا
عظيما ومنه مايكسى جسده بالريش الذى يحفظه من الحر والقر و يناسبه
فى طيرانه بتكوينه المحكم لننظر الى ريش الجناحين للطائر حيث لا بد من
امتداده مقدارا كافيا لحمل جسده فى الطيران فقد جعلت أوائله الثخينة مفرغة
لتخف عليه فى الطيران ولكن مع تفرغها قد جعلت مادتها صلبة لدنة تتحمل
الفواعل ولا تنقصـف بسهولة وجعلت أواخر هذا الريش مملوءة بمادة لينة
خفيفة لايثقل حملها ذلك تدبير عجيب تجزم عند مشاهدته العقول بحكمة
صانعه سبحانه ومع ذلك فقد اعطى الطيران غـير ذى الريش وهو حيوان
مكسو بالوبر و يطير بجناحين مكونين من جلد رقيق و يخالف بقية الطيور
ايضا بأنه ذوفم بأسنان واكف صـغيرة نابتة على جناحيه وذلك هو الخفاش
الذى له خواص الحيوانات اللبونية فيشابهها فى هيكله ومنيه وتوالده وارضاعه
و يخالفها بأنه يطير فى الهواء كسائر الطيور فسبحان من لايحكم عليه فى مصنوعاته

ناموس ولم تقصر قدرته على طريقة واحدة من طرق العمل فيلزمها ولا
يتجاوزها الى غيرها بل يفعل مايشاء وينوع مخلوقاته على مايريد ومنه
ماهو مكسو بالصوف او بالشعر او بالوبر او بالعظم كالسلحفاة او بالقشور
الغضر وفيه ومنه ماليس عليه الا الجلد والبشرة ثم في اختلاف هيآته واشكاله
مايدهش العقول فمنه الطويل والمستدير ونصف الكره ومنه طويل اليدين
قصير الرجلين كالظرافة ومنه بالعكس كالارنب ومنه قصير العنق ومنه طويله
حتى ان بعضه يلف عنقه كما يطوق الحبل وذلك كطائر أكبر من العصفور
يوجد في بلادنا ومنه ذو العينين ومنه ذو العيون كبعض العناكب ومنه ذو
الذنب ومنه ذو الالية ومنه مستطيل الاذنين ومنه مستديرهما ومنه ذو الحافر
وذو الظلف وذو الخف وذو القدم وذو البراثن ومنه ذو الكرش لخزن كمية من
الطعام النباتى الذى يحتاج الى كمية كثيرة منه لكفاية الغذاء وذلك فى اكلة
النبات ومنه ماليس له الا المعدة لان غذاء الحيوانى يكفى منه لتغذيته كمية
قليلة ومنه ذو الاسنان الصالحة لتمزيق اللحم الذى يكون غذاءه ومنه ذو
الاسنان التى تصلح لقضم النبات الذى هو غذاؤه وان فى تكوين الاسنان لاسيما
فى الانسان وترتيب وضعها لعبرة لاولى الابصار فقد وضعت القواطع منها في
مقدم الفم محددة صالحة القطع مايحتاج لقطعه ويكتنفها الانياب مرأسة
تصلح للكسر والتفتيت بحسب شكلها الذى يحكى شكل المعاول وقد اكتنفتها
الاضراس مستورة عن النظر مكونة على شكل تصلح به للسحق والطحن وانظر
لو خولف هذا الترتيب فوضعت الاضراس في مقدم الفم وأخرت القواطع
ماذا كان ينشأ من عسر تناول الغذاء وما ذا كان فى منظر الفم من
البشاعة فسبحان الحكيم الخبير ثم في اختلاف سلاح الحيوان مايبهر الالباب

فمنه المخالب والانياب والقرون والخرطوم والذبان والسم الناقع والفساء الكريه كما في الظربان وفي اختلاف تحصيله رزقه واحتياله عليه لاسيما الحيوان الاعجم عبرة لمن يعتبر فمنه ما يخرج من جسده مادة ويحيكها شبكة ينصبها لمثل الذباب ليعلق بها فيفترسه وذلك كالعنكبوت ومنه مايحفر قليبا فى الرمل ويستتر في اسفله فاذا وقع فيه حيوان من نوع صيده أفترسه واذا وقع فيه ما لا يصلح لغذائه دفعه بحركة عجيبة تخرجه الى خارج لقلب وذلك لحيوان صغير يوجد فى الرمول يسميه البعض باسد النمل ومنه ما يخطف الحيوانات الصغيرة الطائرة فى الهواء مثل الذباب وذلك كالخطاف ومنه مايحفر الارض للوصول الى رزقه ومنه ما يتسلق الاشجار ومنه مايغوص البحار ومنه مايطوف فى القفار ومنه ما يقف فى باب وكر صيده ويفسو فساء كريها حتى يميته بذلك ثم يا كله وذلك كالظربان مع الضب واختلاف اقواته وكيفية تناوله لها وادخاره اياها امر فى الغرابة عريق فمنه ما يقتات بالحبوب ومنه بالاوراق ومنه بالاثمار ومنه باللحوم ومنه بالحشرات ومنه بانفس القوت ومنه باخبثه وأقذره وأنجسه وذلك كالخنزير الاهلى ومنه مايبلغ قوته بها ومنه مايمضغه مضغا ومنه ما لايدخر قوتا ومنه ما يدخر قوته في الصيف لاوقات الشتاء وله تدبير عجيب فى الدخاره وذلك كالنحل والنمل وهذا الاخير اذا لحق ذخيرته رطوبة الارض اخرجها في الصحو الى نور الشمس حتى تنشف ثم يخرق الحبة التى يدخرها حتى لا تنبت من الرطوبة وقد يخرق بعض الحبوب اكثر من خرق لادراكه ان الخرق الواحد لايمنع نباتها وذلك كحبة الكزبرة فسبحان الهادي المبين ثم فى اختلاف الوانه ما يبهج النظر ويحير الفكر فمنه الابيض والاحمر والاصفر والازرق والاسود والمنقش بالالوان المختلفة ثم

نرى النوع الواحد منه متساوى الافراد فى لون واحد أو متساويها في نقش واحد وذلك كالغراب والحجل وانواع من العصافير ونرى نوعا اخر مختلف الافراد فى الالوان كالخيل أو فى النقوش كالدجاج ومنه مانقوشه منتظمة بكيفية واحدة كالنمر والطاووس ومنه ما ليس كذلك كالدجاج والحمام والقطط والشئ بالشئ يذكر قد سمعت عن بعضكم ايها الماديون يعلل انتقاش جلد النمر بانه فى القرون الغابرة كان يجلس تحت الاشجار المظلة قليلا فتصل اليه اشعة الشمس من بين خلال اغصانها فانتقش جلده بذلك النقش فارجو هذا المعلل أن يعلل لنا عن انتقاش ريش الطاووس باللون الذهبي والاخضر والازرق والعسلى والاسود والكحلى وغير ذلك باشكال منتظمة وتخاطيط محكمة وعن انتقاش ريش الديكة التى لايرى واحد منها الا بانتقاش غريب عن كثير من افراد نوعه وعن انتقاش ريش الورور والحسون وامثال ذلك كثير ولست اجزم ببطلان تعليل المعلل لانتقاش جلد النمر اذ ربما يكون السبب هو ما قاله بخلق الله تعالى كما جرت عادته سبحانه بترتيب المسببات على سباب ولكنى اريد منه ان لايجعل الامر طبيعيا محضا بل يرد كل تعليل الى فعل الخالق سبحانه وتعالى والا فاني استعجزه بطلب تلك التعليلات ثم اقول ومما يقضى منه العجب فى الحيوان اختلاف اصواته ومناظره فمنه المطرب الذي يهيج بصوته القلوب ومنه ذو الصوت المنكر الذى يصم الاذان ومنه الجميل الذى يستوقف الطرف كالطاووس والظرافة وبعض الديكة وابداع الجميع جمالا واظرفها مثالا الحسان من نوع الانسان فهناك دهشة النظار وحيرة الفكر والاخذ بمجامع القلوب والسطوة على ألباب ذوى الاحلام والسلطة على ابهة الجبابرة والحكام فهل عند القرود من ذلك عين أو اثر لا وحق من زين

العيون بالحور والجياه بالطرر ومنه ما تقشعر منه الجلود وترجف القلوب
كالرتيلاء والثعبان والخنزير والسعدان ثم منه مايختص بانثى ومنه ما ليس
كذلك ومنه الذى يسعى لرزقه منفردا ومنه مايسعى اليه متجمعا اسرابا وهذا
منه ما يكون اجتماعه على نظام الجمهورية ومنه ما يكون على نظام الملكية
ويقيم الحرس ويقدم الدليل والرائد للماء والكلأ واختلاف اخلاقه
امر عجيب قد الفت فيه الكتب فمنه الجرىء والجبان وقريب الالفة للانسان
وبعيدها وغير ذلك وكذلك اختلافه في القوة والضعف والصبر على عدم
القوت وضد ذلك ومقاومة الفواعل الخارجية وعدم مقاومتها فمنه مالو نخس
بابرة فى نخاعه الشوكى لمات في الحال وبطلت حياته كما قيل فى الانسان ومنه
مالو قطعته ثلاث قطع رأسه ووسطه وذنبه وتركته بعض ايام لرايت الراس
قد نبت له بدن وذنب والوسط قد نبت له راس وذنب والذنب قد نبت له راس
ووسط وكل منها قد رجع حيوانا والراس يصير كذلك قبل سواه وذلك
لحيوان يسمى الهيدرا من الحيوانات الصغيرة جدا فكل هاتيك الاختلافات
دلائل شاهدة بان صانع هذا العالم الحيوانى لايحكم عليه فى صنعه ناموس
ولا تلجئه ضرورة الى التزام طريقة واحدة في ابداعه بل هو واسع القدرة
والعلم والتدبير ينشئ نوعا على كيفية تكون كافية له فى معاشه وقيام نظام حياته
كاملة في زينة مرآه وينشئ نوعا اخر منه بكيفية هى بالضد من الكيفية الاولى
وتكون كافية تلك الكفاية وكاملة ذلك الكمال تنبيها للعقول وايقاظا للافهام
انه فاعل مختار لايعجزه شئ ولا يعزب عن علمه غيب سبحانه وتعالى عما
يقوله الجاهلون ثم ما فى الحيوان من التركيب العجيب وتكون الاعضاء والحواس
الظاهرة والباطنة ووظيفة كل عضو منها واختلافات أبنيتها ودقائق صنعها

وانطوائها على الفوائد الجمة والمصالح التي بنيت على الحكمة أمور تدهش الالباب وتحير الافهام وترشد كل لبيب على ان لهذا العالم صانعا عليما ومدبرا حكيما قادرا على مايشاء مبدعا ما يريد ولنذكر بالاجمال بعضا مما اطلع عليه علماء التشريح والفاسلوجيا الباحثين عن حقائق اعضاء الحيوانات وابنيتها ووظائفها ومنافعها والمقصود منها فنقول اذا نظرنا الى الحواس الخمس في الحيوان لاسيما الانسان نجد انها فى اعلى طبقات الاتقان واسمى درجات الاحكام ما وضعت الا لحكم باهرة وفوائد ظاهرة ولم يكن حصولها بالصدفة ولا على وجه الضرورة شاهدة بان واهبها واسع الاحسان على مخلوقاته

فالبصر هو القوة المودعة فى العصبة المجوفة فى العين المتصلة بالدماغ لتؤدى اليه صور المرئيات فتدركها النفس ثم العين هى آلة رسم الصور بواسطة النور وهى اكمل الآلات البصرية اتقانا لانه قلما يعتريها الخطأ الذى يعترى سواها من الآلات البصرية وتحكم نفسها بنفسها لتحصيل الابصار جليا وهي موضوعة في تجويف من العظم يسمى الحجاج ومؤلفة من ثلاث طبقات وثلاث رطوبات معما يلزم لها من الرباطات والاوردة والشرايين والاغشية والعضلات فالطبقات اولاها الصلبة وهى غشاء لدن متين ظليل أى لاينفذه النور ولا يرى ما وراءه محيط بباقي الصبغات وجميع الرطوبات لوقايتها وحفظ نظام ترتيبها واوضاعها الا ان في مقدمة قطعة شفافة كزجاجة الساعة فى شكلها فى التحدب من الخارج والتقعر من الداخل ونازلة فيه كما تنزل زجاجة الساعة في حلقتها النحاسية وهذه القطعة تسمى القرنية وثانيتها المشيمية وهى ناعمة كالمخمل سوداء اللون ومتوسطة بين الصلبة والشبكية وثالثتها الشبكية وهى مكونة من انبساط العصبة البصرية التى تنشأ من الدماغ

وتدخل العين من مؤخرها والرطوبات اولاها المائية وهي سائل صاف شفاف موضوع فى غرفة وراء القرنية ويحد هذه الغرفة من ورائها حجاب مثقوب من وسطه يسمى القزحية ولونها اسود أو ازرق أو اشهل أو غير ذلك ويسمى الثقب الذى في وسطها البؤبؤ وثانيتها البلورية وهى جسم لدن املس شفاف كالعدسة المحدبة من وجهيها وهى اكثف فى الوسط منها فى الجوانب وموضوعة وراء القزحية وثالثتها الرطوبة الزجاجية وهي جسم شفاف لزج كبياض البيض النيء وتشغل ما بقى من الخلاء وراء البلورية داخل العين حتي تصل الى الشبكية ثم ان العامل برسم صور المرئيات فى العين هو النور الواقع على المرئيات والمنعكس عنها الى داخل العين والنور له نواميس قد فطر عليها بها ينقل الصور ويرسمها ولكن من مقتضى بعضها انه لولم تدبر له الحكمة الالهية تدابير في تركيب العين لما تم الابصار ولكانت تتشوش على العين صور المرئيات وبيان ذلك ان النور اذا وقع على جسم كثيف خشن انعكس عنه ورسم صورته على ما يقابله خصوصا اذا كان المقابل صقيلا ولكن اذا وصل النور الى المقابل على خطوط مستقية يرسم عليه الصورة واضحة لان اشعته كلما امتدت انتشرت وتباعدت خطوطها فيحتاج في رسمه الصورة واضحة على الجسم الصقيل المقابل ان تكون الخطوط عند وصولها اليه منجمعة ثم ان خطوط النور انما تتجمع اذا مرت فى جسم شفاف عدسى الشكل أى محدب الوجهين كالعدسة أو محدب الوجه الواحد ومستوى الوجه الاخر أو محدب الوجه الواحد ومقعر الاخر ثم الخطوط المتجمعة بسبب مرورها فى هذه الاشكال انما يكون معظم تجمعها فى الوسط ولاتساويه اطراف هذه الاشكال فى الجمع لاسيما اذا كان الوسط اكثف منها وكذلك

تتجمع خطوط النور اذا مرت على جسم شفاف كثيف بعد مروره فى
جسم الطف منه بخلاف ما اذا مرت فى جسم كثيف ثم مرت فى جسم
أقل منه كثافة فانها تتباعد وتأخذ بالانتشار ثم ان النور ينعكس عن كل
الالوان الا اللون الاسود فانه يتشربه فلا ينعكس عنه كما انه لا ينفذ الجسم
الملون بالاسود وما يقاربه وكل هذه الالوان تمتصه وتخففه واكملها فى
امتصاصه اللون الاسود ثم انما يرسم النور الصورة واضحة بعد تجمع خطوطه
اذا كان الجسم المرسوم عليه على بعد مخصوص من الجسم الذى انعكس
عنه النور او من الجسم الذى نفذ منه النور اذا تقرر جميع ذلك وعلمت ما
ذكر من نواميس النور فلنشرح كيفية الابصار فنقول اذا وقع النور على
المرئيات انعكس عنها ودخلت خطوطه العين ورسمت على الشبكية صور
المرئيات وهى تؤديها باحساسها الى الدماغ لكن بانعكاسه عن المرئى تكون
خطوطه مستقيمة ولو بقيت سائرة بدون تجمع حتى وصلت للشبكية لكانت
وصلت اليها منتشرة متباعدة فترسم الصورة غير واضحة فدبرت الحكمة
الالهية انه فى أول ما يدخل النور العين يلاقى القرنية وينفذها وهى لتحدب
وجهها الخارج وتقعر وجهها الداخل تجمع خطوطه بعض الجمع ثم ينفذ
الرطوبة المائية وهى لكثافتها تجمع خطوطه أيضا زيادة تجمع وتلاصق
بينها لتقوى على رسم الصورة ولكن لما كانت الشبكية التى ترسم الصورة عليها
مقعرة فلو وصلت اليها جميع الخطوط التى تمر فى المائية على هذا المقدار من
التجمع لرسمت الصورة على وسطها وجانبيها فتكون حينئذ منبسطة مشوشة
ولاسيما اذا كان النور كثيرا مجهرا للبصر بكثرته فدبر الحكيم سبحانه هذا الامر
ووضع غشاء القزحية خلف الرطوبة المائية مثقوبا من وسطه ثقبا حاقيا وهو البؤبؤ

وجعل توسعه وتضيقه تحت ارادة الناظر بسبب العضلات التى ربط بها ذلك
الغشاء حتى يدخل الناظر ما يحتاج اليه من كمية النور النافذ من الرطوبة المائية
فيوسعه اذا كان النور قليلا لتدخل كمية كافية و يضيقه اذا كان كثيرا لئلا
تتشوش الصورة ثم صبغ أطراف القزحية المذكورة بلون أسود أوأزرق
أو اشهل أوغير ذلك مما يمنع نفوذ النور ويخففه بالامتصاص حتى لا تنفذ
الخطوط الواقعة على أطراف القزحية حول البؤبؤ وتصل الى أطراف
الشبكية فتتشوش الصورة كما قلنا ثم تنفذ الخطوط الرطوبة البلورية التى هى
محدبة الوجهين فتتجمع أيضا زيادة عما تجمعت أولا ولا سيما فى الوسط
لان وسط البلورية أكثف من أطرافها وقد جعل الحكيم الخبير تلك البلورية
تحت أرادة الناظر أيضا بأن يزيد تحدبها أو ينقصه لان الخطوط النورية
يزداد تجمعها كلما زاد تحدب الجسم النافذة هى منه وينقص كلما قل تحدبه
فالناظر يتصرف بها بحسب احتياجه فيزيد تحدبها أو يقلله ثم تنفذ الخطوط
فى الرطوبة الزجاجية فتتجمع أيضا زيادة تجمع على ما قالوا حتى يكون
التجمع كافيا للرسم الواضح وحجم هذه الرطوبة هو بمقدار كاف لمسافة
امتداد النور من أول دخوله القزحية ونفوذه منها ومما بعدها حتى يصل
الى الشبكية ثم لما تصل الخطوط الى الشبكية بعد تلك التجمعات وترسم
عليها الصورة تنفذ منها لشفافتها كمية من الخطوط وتقع على الصلبة ولئلا
تنعكس عنها وتصادم الاشعة الواردة من الخارج فتتشوش الصورة جعل
الحكيم جلت قدرته لون باطن الصلبة أسود حتى يتشرب تلك الكمية
من الخطوط النافذة اليه من الشبكية ولا تنعكس ثم ان هذه الاوساط
التى جمعت الخطوط النورية جمعا بعد جمع ولخصتها ذلك التلخيص

الكافى لرسم الصورة واضحة بسبب الكثافة والشكل المحدب وتعيين المسافة بين الجسم النافذ منه النور والشبكية وتسلط الارادة على توسيع طريق مرور الاشعة وتضييقه وعلى زيادة التحدب وتقليله مع منع التشويش أيضا بواسطة الالوان فقد كان تعدد تلك الاوساط لحكمة أخرى باهرة كما قال بعضهم وهى ان النور اذا نفذ من جسم شفاف محدب انحل لالوانه المعروفة فى فن الطبيعيات وهى ألوان قوس السماء فتظهر الصورة التى ينقلها بنفوذه من الجسم المحدب ملونة بتلك الالوان وهذا يسمى الخطأ اللونى وصناع الالات البصرية يرفعون هذا الخطأ بضم جسم شفاف محدب الى الجسم الاول يحل النور عكس حل الاول فيعود الى لونه الابيض ويوصل الصورة غير ملونة و يرتفع الخطأ اللونى فعلى ما يقول ذلك البعض ان من جملة حكمة البارى تعالى فى تعدد تلك الاوساط المذكورة وعدم الاكتفاء بامر واحد منها يجمع الاشعة دفعة واحدة دفع ذلك الخطأ اللونى فاذا نفذ النور من القرنية مثلا وانحل لالوانه تحله بقية الاوساط الجامعة لخطوطه من المائية والبلورية والزجاجية عكس ما احلته القرنية فيعود الى لونه الابيض و يرفع ذلك الخطأ هكذا يظن البعض وهو قريب من الصحة أقول انهم قالوا ان مقتضى التجمعات التى تتجمعها خطوط النور بواسطة ما مرت فيه من القرنية والمائية والبلوريه والزجاجية ان لا تصل الى الشبكية الا وقد تقاطعت وصارت الاشعة المنعكسة من أعلى المرئ واقعة على الطرف الاسفل من الشبكية والاشعة المنعكسة من أسفل المرئ

يقع على الطرف الاعلى من الشبكية وحينئذ تكون صورة المرئ مقلوبة وقد احتاروا في التعليل عن كون العقل يدرك صورة المرىء قائمة وهي قد رسمت فى الشبكية مقلوبة وأشهر ما عللوا فيه ان العقل اعتاد على رؤية الاشياء المرئية قائمة حيث انها قد استوى جميعها فى هذا الانقلاب وشرحوا ذلك التعليل بكلام ركيك فالذى يخطر لى ان أشعة النور بعد نفوذها من الهواء فى القرنية والمائية والبلورية التى هي شديدة الكثافة في الوسط تتجمع تجمعا كافيا لرسم الصورة واضحة قبل أن تتقاطع ثم اذا نفذت فى الزجاجية فلعل الزجاجية هى أقل كثافة من البلورية فتأخذ تلك الاشعة في الافتراق فى مسافة سيرها في الزجاجية كما تقدم ان النور تنتشر أشعته اذا مر فى جسم الطف مما مر فيه قبله حتى تصل الى الشبكية فترسم عليها الصورة قائمة لانها وصلت اليها على الكيفية التى كانت عليها في أول ما نفذت فى القرنية أى ان الاشعة المنعكسة من أعلى المرىء وقعت على الطرف الاعلى من الشبكية والاشعة المنعكسة من أسفل المرىء وقعت على الطرف الاسفل منها وحيث لم تتقاطع الاشعة فيلزم ان ترسم حينئذ الصورة على الشبكية قائمة هذا ما أراه على وجه الاحتمال وبه يرتفع الاشكال ويظهر للزجاجية فائدة لم تخطر قبل هذا في بال وما قيل ان البعض قد شاهد من فتحة فى مؤخر العين الصورة على الشبكية مقلوبة فهو كلام لم أحقق صحته وان ثبت عندى فيكون لى عند ذلك مقال

هذا والى هنا وصل الباحثون في كيفية الابصار فغاية ما عندهم انهم أوصلوا رسم صور المرئيات الى الشبكية وقالوا انها تؤدى الصور الى الدماغ

ولكن في كيفية ادراك النفس أو العقل أو الدماغ على رأى من ينكر النفس لتلك الصور فلم نجد لهم كلاما شافيا بل نجد الكثيرين منهم واقفين حيارى عند محاولة الكشف عن حقيقة ذلك فاذا تأملنا في جميع ما تقدم من تراكيب العين والتدبيرات التي وضعت لها لاعام أبصارها أفيكون لادنى العقول مجال أن يصدق بأن ذلك الصنع العجيب الغريب في العين قد حدث عن غير قصد وبدون حكمة بل الضرورة اقتضته والصدفة أوجدته والانتخاب الطبيعي أبقاه كلا ثم كلا لا يصدق بهذا الا كل ذى عقل سخيف وما من صاحب رؤية الا ويعتقد عند الاطلاع على ذلك الصنع البديع ان له صانعا مبدا حكيما عليما مدبر الامر وفق الاحكام والاتقان سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون علوا كبيرا ولو نظرنا الى أن قطر العين أقصر من قيراط ومع ذلك يرسم على شبكيتها صورة أرض واسعة بكل مافيها من السهول والجبال والاودية والصخور والمياه والاشجار والابنية والحيوانات مستوفية التفاصيل فكأن الشبكية شاطئ بحر وأمواج النور تجرى اليه من كل النواحى وتنفقش عنده الوف الوف على الوف الوف لحارت أفكارنا فى دقة تلك الصورة التى رسمت على الشبكية وفى صغر حجمها محاكية لتلك الارض الواسعة وجميع ما اشتملت عليه لم نغادر منه شيئا فما اسمى قدرة من أبدع ذلك ودبره بحكمته سبحانه ما أعظم شانه واذا راجعنا تشريح العين واطلعنا على ما احتوت عليه من العضلات والاعصاب القائمة بوظيفة حركتها والشرايين والاوردة الخادمة فى تغذيتها وغير ذلك من الرباطات و الرطوبات لزاد بنا العجب والحيرة ثم اذا انتقلنا الى خارج العين نجد من تدابير البارى تعالى فى محافظتها وتسهيل طريق أداء وظيفتها أحكم صنع وأتقن وضع وذلك ان العين لما كانت

لطيفة يخشى عليها من مصادمات الاجسام ولو صغيرة جدا وضعها خالقها
داخل الحجاج محفوظة به من كل جانب الا الجهة التى يدخلها النور لرسم
الصور وجعل الطبقة الاولى منها وهي الصلبة مع القرنية لدنة حتى تقوى
على المصادمة بعض القوة وسترها أيضا بالاجفان لوقايتها لاسيما عند المنام
وللزينة أيضا ثم أنبت على أطراف الاجفان الاهداب شعرا أسود ثخينا لدنا
منتصبا مع ميل الاعلى منها الى فوق قليلا والاسفل الى تحت كذلك اما
سواده فليتشرب بعض النور الوارد على العين لاسيما اذا كان قويا كما أن
الحاجبين فوق العينين بلون السواد أو نحوه لاجل الزينة ولهذه الحكمة
وهو تشرب بعض النور الوارد على العين ولذلك نرى من كان لون حاجبيه
وأهدابه أبيض يجهر بصره ويتخازر وانما لم يحصل الاكتفاء بتقليل كمية
النور وتخفيفها بتضيق بؤبؤ القزحية لان ادامة تضيقه يلزم منه دوام تخازر
العينين وبشاعة المنظر واما ثخن شعر الاهداب وانتصابه مع لدونته فلمقاومة
الاجسام الصغيرة الواردة على العين فانها اذا ورد عليها حبة تراب مثلا
وقعت غالبا على الهدب فصادفت شعراته كالحراب المشرعة تمنعها من الوصول
الى الداخل وتدفعها بلدونتها الى بعيد واما كون شعر الهدب الاعلى مائلا
الى فوق قليلا والاسفل الى تحت كذلك فلتسهيل افتراقهما عند ارادة فتح
الاجفان لانهما لوكانا متوازيين فى الانتصاب لانطبقا على بعضهما عند
انطباق الاجفان وبسبب رطوبة الدمع يتلاصقان فيعسر افتراقهما ولوكانا
متقابلين فى الانتصاب بحيث تتداخل شعراتهما عند الانطباق لكان عسر افتراقهما
مع الرطوبة الدمعية أشد وأيضا هذه الكيفية تجعلهما في طريق النور فينقل صورتهما
الى الشبكية فتتشوش صور المرئيات فوضعهما فى تلك الكيفية من الميل القايل الى

فوق وتحت هو عين الاتقان والاحكام لا يابق سواء وفضلا عن هذه الفوائد فى الاهداب فالزينة بها لا ينكرها الا كل معدوم الذوق السليم ثم لما كان الغبار لا يندفع عن العين لا بالحجاج ولا بالاجفان للاحتياج الى فتحها عند النظر ولا بالاهداب وهو يذهب بصقالة القرنية ويعطل وظيفة شفافتها اذا وقع عليها ومع ذلك فتركه على العين يجلب عليها الضرر دبر الحكيم سبحانه وتعالى لجلائه عنها افراز الدمع من الغدد الدمعية حول المقلة داخل الاجفان وجعل الاجفان متابعة الحركة بالانطباق والانفتاح على غاية من السرعة التي يضرب بها المثل حتى لا يتعطل الابصار ويتشوش فالدمع يغسل الغبار الذى يقع على المقلة والاجفان بحركتها تصقلها وتزيح الدمع الممتزج بالغبار عنها ثم ذلك الدمع الذى صار قذرا بالغبار لابد من خروجه عن المقلة على وجه مناسب فلو انه كان يخرج دائما الى ظاهر الاجفان ويسيل على الخدين لرأينا هناك منظرا بشيعا ومسيلين من أقذر المسيلات فدبر الحكيم سبحانه لتسهيل انفصال ذلك الدمع عن المقلة تكوين أطراف الاجفان من الداخل بشكل يصلح لجريانه الى الموق أى الطرف الذى يجاور الانف ثم جعل هناك ثقبا رفيعا نافذا الى داخل الانف يسمى القناة الدمعية يخرج الدمع منه ويصل الى داخل الانف ويختلط برطوبته ويتجمد هناك معها فيخرجه الحيوان بالاستنثار ونحوه أقول ان هذه القناة الدمعية لا يصدق عقل انها حصلت للحيوان بوجه الصدفة والضرورة فضلا عن جميع تلك التدابير واى ضرورة اقتضتها فسبحان الحكيم الخبير

ولو نظرنا الى منافع البصر للحيوان وفوائده باهتدائه به الى طرق معاشه ونجاته من مخاوفه ورؤيته مباهجه وكشفه به ما يبعد عنه ملايين من الاميال

كما يكشف به مايقرب منه لجرمنا بان واهبه جزيل الاحسان واسع العطاء متفضل على مخلوقاته باتم النعم واكمل المنن تعالى شأنه وتقدس سلطانه

ثم ان اتباع محمد عليه السلام عند اطلاعهم على تدابير كيفية الابصار بتلك الاوضاع وهاتيك النواميس يقولون ويعتقدون بان الابصار ماهو الا بمحض خلق الله تعالى وتلك الاوضاع وهاتيك النواميس المشروطة لحصوله ماهي الا شروط عادية أي ان الله سبحانه وتعالى اجرى عادته بان يخلق عندها الابصار ولو أراد أن يخلقه بدونها لفعل كما انه لولم يرد خلقه مع توفر حصولها ورفع الموانع لما كان ولاحصل ولهم على ذلك ادلة قاطعة مذكورة في كتبهم يطول الكلام بسردها هنا وقد تقدم لكم في اثبات صفات الله العالم ما يفيد انه لا أثر في العالم الا بخلقه سبحانه وايجاده والابصار عن جملة الاثار ومما يناسب مشربكم أيها الماديون في طرق الاستدلال ويدل على ان تلك الامور شروط عادية للابصار وانه يوجد مع انعدام أقوى أركان شروط وجوده وهو النور قصة مشهورة محققة ذكرها كثيرون من كبار علماء الفلاسفة كما نقله بعض المؤلفين الباحثين في هذا العصر وهي ان فتاة في أميركا أصابها مرض كانت تقوم به ليلا وهي نائمة وتتكلم وتعمل اعمال المستيقظ ثم اشتد بها الامر الى ان صار يعتريها نهارا وليلا وكان بصرها يتغير عند حدوث هذا الحال تغيرا لم يعهد اغرب منه فتقرأ أدق الحروف في الظلام الحالك وعيناها مغمضتان وهذه القصة وفق ما يعتقده اتباع محمد عليه السلام من ان الابصار بمحض خلق الله تعالى كما ان بقية الاحساسات كذلك وان الشروط التي للابصار وغيره انما هي شروط عادية

كماذكرنا هذا واذا أردنا ايراد جميع شروح الباحثين لاعضاء السمع والشم والذوق واللمس وما اشتملت عليه من التراكيب الغريبة وكيفية الاحساس بها وتدبيرات اتمامه على نواميس طبيعية ومنافع هـذه الحواس للحيوان وهبتها له على قدر احتياجه والقيام بحفظه وهدايته لوجـدنا ماهو عظيم المنزلة فى المصنوعات ولشـهدنا من صميم الفؤاد بان الواهب لتلك الحواس تام القدرة واسع العلم سامى الحكمة جزيل العطاء سبحانه وتعالى عمايصف الضالون ولكن ايراد تلك المباحث يطيل الكلام وربما يوقع في الملال ولو تأملنا فى بقية اعضاء الجسد وأبنيتهاووظائفها وماشتمل عليه الجسد الحيوانى من السوائل الجوامد ومنافع كل منها لرأينا هناك ما يشهد بأن لجميع ذلك خالقا حكيما ومدبرا عليما ولنتشر لبعض ذلك فنقول الايكون للناظرين عبرة وللباحثين تدبرا وامعان واذعان بوجود خالق للاكوان اذا نظروا لما احتوى عليه الجسم الحيوانى من مخ ومخيخ ومجموع عصبى وقلب ورايتين وكبد وطحال وكليتين ومعدة وامعاء واوردة وشرايين وأوتار وعضلات وغدد وغضاريف وعظام وأنسجة وسوايل من دم وصفراء ولعاب وعصار المعدة والامعاء والبنكرياس وغازات وعرفوا ابنية هذه المذكورات ووظائفها وحركاتها واعمالها فى الجسد من الهضم والتغذية والتنفس والافراز ونظروا الى أعضاء التناسل وعمالها واتقانهـا وكيفية التوالد والتدابير التى هيئت لحصوله ولحفظ الولد ونموه وتغذيته وغير ذلك مما يحتمل شرحه مجلدات نعم ان العلماء الذين يطلعون على تفاصيل هذه المباحث وتظهر لهم أسرارها ودقايقها وحكمها هم الجديرون بان يكونوا من أقوى الناس ايمانا بوجود اله العالم الخالق الحكيم المدبر العليم ولو قيل انهم جديرون بذلك اكثر من بعض علماء الكلام الذين يقيمون الادلة الاجمالية

على ذلك لما بعد عن التصديق فان أولئك القوم المطلعون على تفاصيل أعجب العجائب في مصنوعات البارى تعالى وهل لنا دليل عقلى عليه سبحانه الا بمصنوعاته وغرائبها فاذا تأملها المتأمل واطلع على تفاصيلها وظهر له اتقانها والقصد والحكمة فى تكوينها وسقطت من اليين الضرورة والصدفة تجد الايمان قد رسخ في قلبه رسوخ الجبال وتسامي فوق الافلاك عن أن تطاوله يد الضلال

ولو قال قائل انا نرى بعض أناس ممن يدخلون فى المدارس التى تدرس فيها علوم الكائنات لاسيما علم النبات والحيوان للتوصل الى علم الطب ونحوه يخرجون بعد درسها ومعرفة أسهامارقين من الدين الاسلامى مروق السهم من الرمية فنراهم قد رفضوا الاعتقاد بوجد العالم واحالوا وجود الكائنات واثار هذه الموجودات على المادة وحركة أجزائها والطبيعة والنواميس وأمثال هذه المسميات ومتى هدم عندهم هذا الركن فأى اعتقاد لهم فى الدين الاسلامى يبقى وأى عبادة لهم فيه تقصد وأي أدب من آدابهم يحمد ولا سيما اذا درسوا فن الطبيعيات واطلعوا على نواميس الكائنات وكيفية تأثيرها فى المتفاعلات فأين القول حينئذ بان الذين يطلعون على تفاصيل تلك العلوم هم الجديرون بقوة الايمان والاعتقاد بوجود خالق الاكوان فاقول انى أجيب ان شاء الله تعالى عن هذا الاشكال الجواب الكافي الشافى وأرغب الى أهل ملتنا المحمدية ان ينتبهوا من جوابى لما حل فى بعض أبنائهم من البلاء العظيم والمصاب فى الدين الجسيم وليتداركوا هذا الامر قبل أن يعظم الخطب فليعلم ان هذه العلوم التى تقدم ذكرها من علم النبات والحيوان ومثلها علم الفلكيات والجويات و باقي العلوم الطبيعية التى تبحث عن نواميس الكائنات من نحو نواميس النور والماء والهواء والكهربائية وغير ذلك

لاشك ولا ريب ان مباحثها تدل بأقوى الادلة على وجود الخالق لهذه الكائنات المبحوث عنها فى تلك العلوم وانه تام القدرة وسامى الحكمة اذ هى اثاره وانما يستدل على المؤثر بالاثار لانه فى مباحثها تنكشف للعقول أسرارها وحكمها وتظهر انها مصنوعة لقصد وموضوعة بتدبير ولكن طريق الاستدلال على المؤثر يوجد فيها عقبة كؤد هي مزلقة أقدام ومزلة افهام وذلك ان العقل البشرى عند مايرى الاثار و يشرع في البحث عن مصدرها تراه اذ لم يدقق النظر فقد يصل الى مصدر لها ظاهرى فيظنه هو المصدر الحقيقى فيقف عنده فبعض من خاضوا فى تلك العلوم واطلعوا على تلك الاثار التى يبحث عنها فيها أخذوا يبحثون عن مصدرها بغير دقة نظر ولا تعمق في البحث ولم يكن عندهم مايوقظ افكارهم و يرشدهم الى المصدر الحقيقى من نحو الاعتقاد بشرع صحيح فوصلوا الى مصادر لها ظاهرة من نحو المادة ونواميسها وقدروا ايضا ان حركة اجزائها الفردة هي المصدر الفعال فاعتقدوا بوجودها ولقصور تدقيق نظرهم لم تتنبه عقولهم الى ان تلك الحركة والنواميس هل تصلح أن تكون مصدرا لتلك الغرائب والعجائب أم لا ولا الى ان الماده هل تصلح ان تكون مصدرا غير صادر عن شئ آخر أم لابد من صدورها عن غيرها لوجوب حدوثها فوقفوا عند ذلك الحد وأصبحوا معتقدين ان مصدر هذه الكائنات هو المادة ونواميسها وحركة أجزائها ومنكرين لوجود اله لهذا العالم ومرنوا على هذا الانكار وصاروا ينسبون كل أثر يظهر لهم الى المادة وحركتها والنواميس التى اكتشفتها ويعبرون عن ذلك بعبارات شتى تقتنع بها عقولهم القاصرة فتارة يقولون هذا الاثر فعل الطبيعة وتارة يقولون هذا الاثر فعل النواميس وأمثال ذلك

فبالغوا الغاية في جود الاعداد ثم ان منهم من أهلتهم زخرفة تلك العلوم
بأن يقاموا معلمين فى المدارس التى تدرس فيها وجلبت بين أيديهم تلامذة
احداث أغرار لم يعلموا من الدين الاسلامى عقائده الحقة ولا مايجب أن
يعتقده المؤمن في كيفية حدوث هذه الآثار وتكون هذه الكائنات وانها
بخالق موجد الارض والسموات فأخذ أولئك المعلمون يبثون لاولئك
التلامذة فى غضون تعليمهم ماانطوت عليه ضمائرهم من المعتقدات الباطلة
وكلما اطلعوا على غريبة من غرائب الكائنات وسر من أسرار الموجودات
وحكمة من حكم المصنوعات فى أثناء درس تلك العلوم فعوضا عن أن يقولوا
لهم انظروا أيها التلامذة الى عجيب صنع الله وسامى حكمته فى ايجاد
هذا الاثر الغريب يقولون انظروا الى فعل الطبيعة واعجبوا من أثر الناموس
الفلانى وهلم جرا ولايزالون معهم على هذا النمط حتى ترسخ تلك الحالة
في قلوبهم وتنطبع تلك التخيلات على صحيفة أفكارهم فلا تنقضى مدة
اقامتهم فى المدارس الا وقد أشربت قلوبهم أن لا فاعل فى الاكوان الا
الطبيعة وحركة اجزاء المادة والنواميس و ينحل عقد اعتقادهم بأن للعالم الها
خالقا فيخرجون من تلك المدارس وقد فارقوا دين آبائهم وملة أسلافهم
وقد كان فى رجاء أهل الملة الاسلامية أن يكتسبوا بهم رجالا عارفين ينفعون
أهل دينهم و يحمون حوزة شريعتهم و يسعون فى نجاح أوطانهم فيخيب
رجاهم ويخفق مسعاهم ويخسرون من عدادهم جما غفيرا يحسبون منهم وهم
الاعداء الالداء للدين والدولة والوطن يخالفون أهليهم في الاعتقاد و يفارقونهم
في سلوك مناهجهم وعزائم مقاصدهم فانا لله وانا اليه راجعون فعلى أهل الحل والعقد
من حماة الدين الاسلامى أن يتداركوا هذا المصاب الآتى بالاوصاب فلا ينتخبون

معلمين لتلك المدارس الا كل من صحت عقيدته على المنهج الاسلامى وسلمت طويته من الزيغ والضلال وكان مؤمنا حقا وموقنا صدقا بل متحليا باداب الشريعة قائما بتكاليفها على قدر الامكان فان التلميذ مرآة شيخه تنطبع فيه صورته كيفما كانت وعليهم ان لايدخلوا التلامذة فى تلك المدارس حتى يقيموهم اولا مدة كافية فى مدارس دينية يصححون بها عقائدهم الاسلامية على اكمل الوجوه بحيث لاتزعزعهم الشبه ولا تهولهم الاغاليط وتصلح نفوسهم بالآداب وتألف القيام بالعبادات وان عسر ذلك لخوف فوت الوقت الذى يصلح لتعلم تلك العلوم الدنيوية فمن اللازم الضرورى ان يقام فى مدارسها معلمون للعقائد الاسلامية وبقية احكام الدين المحمدي يكونون كفأ لذلك يلازمون تعليمهم العقائد والاحكام الدينية مدة اقامتهم من اول دخولهم فى تلك المدارس الى حين الخروج ولوفي كل يوم ساعة من الزمان ويكونون محافظين على عقائدهم وادابهم وعباداتهم فى تلك المدة ويوفقون لهم بين احكام الدين وما ظاهره مخالف له من تلك العلوم العقلية ففى هذين الشرطين وهما انتخاب معلمين لتلك المدارس من أهل الدين والاعتقاد الصحيح وتعليم التلامذة لعقائدهم الاسلامية وبقية احكام ملتهم قبل الدخول فى تلك المدارس أو فى مدة اقامتهم فيها تحفظ عقائد أولئك التلامذة من الزيغ وتسلم ادابهم الدينية من الفساد وتصان عباداتهم من الاهمال بل تكون عقائدهم من القوة والمتانة فى مكان لما يكتنفها من مشاهدة تفاصيل مصنوعات الله تعالى وغرائب اعماله عند درسهم تلك العلوم اذ كلما شاهدوا صنعا عجيبا وسرا غريبا سمعوا معلمهم المؤمن يقول انظروا الى صنع الله وسامى حكمته فى اتقان هذا المصنوع البديع فيسبحون الخالق جل وعلا ويمجدونه وتربو فى قلوبهم

عظمته وتعظم في انفسهم قدرته فما تمضى مدة اقامتهم فى تلك المدارس الا وقد اصبحوا من خيار المؤمنين وافاضل الموحدين ترى منهم رجالا يحمون حوزة الدين الاسلامى ويقيمون بناصر الدولة والوطن نساله سبحانه وتعالى ان يوفق أولياء امورنا لما فيه الخير لهذه الامة المحمدية ويجعل مكافأتهم على فضل الله تعالى وشفاعة رسول الله عليه الصلاة والسلام

هذا ثم انى قول لكم ايها الماديون بعد جميع ماتقدم من النظر فى احوال المحسوسات لو خضنا في مبحث الحياة والروح والعقل وقوى النفس من الحافظة والذاكرة وغيرهما لتهنا فى تيهاء هذا البر الشاسع وغرقنا فى اعماق هذا البحر الواسع ولم نصل الى تصور ماهية هذه الحقائق حق التصور ومعرفة كيف تحفظ صور الاشياء عند الانسان وتذكر بعد ان تنسى وتزول عن صفحات الفكر وكيف تتصور المعقولات وتقوم كليات الاحكام وجزئياتها فى الاذهان وكيف وكيف من كل مسئلة فى هذا الباب لم تزل غامضة على افكار العلماء واذهان الحكماء لم يفتح معماها ولم تكشف خباياها وغاية المدعين لكشفها ان ياتوا بكلام غامض مجمل لايشفى الغليل ولايأسو الطرف الكليل فكأن ستر هذه الحقائق عن العقول البشرية اعجازا لهم من الله تعالى لينبههم بذلك الاعجاز على انه اذا قصرت افكارهم عن ادراك حقيقة انفسهم وعقولهم وقواها فانى لهم القدرة على ادراك حقيقة الذى خلق تلك الحقائق وابدعها والغرابة في ذلك ان الانسان الذى خاض في عقله بحار المعارف وعرف الافلاك والسيارات واطلع على عوالم الجمادات والنباتات والحيوانات هو عاجز عن معرفة نفسه وماهو القائم بادراكاته فسبحان من علم الانسان ما لم يعلم وحجب عنه معرفة نفسه وقواها فاصبح لدى ذلك اعمى اصم ابكم فيا ايها

الماديون ابعد جميع ما شرحته لكم من الدلائل على حدوث الكائنات ووجوب
وجود خالق الارض والسموات تصررن على قدم المادة وان حركة اجزائها
هى المكونة للاكوان وتنكرون اله العالم الذى نصب لكم الشواهد على
وجوده مما هو كالعيان انى اعيذ عقولكم من الاختلاط وافكاركم من
الاختباط امعنوا النظر وحرروا الفكر ولا تغتروا بالشبه الواهية والاغاليط التى
ترميكم بالداهية فمدة الحياة قصيرة سريعة الزوال وفى صحة ما يقول اتباع
محمد عليه الصلاة والسلام تلاقون بعد هذ الحياة عظائم الاهوال وهناك
لا ينفعكم الندم ولا تقال عثرات القدم والعاقل يتحرى الطريق الاحوط
ويحترس من الموهوم البعيد الحصول فضلا عن القريب المامول تاملوا فى حالكم
وحال اتباع محمد عليه السلام تجدوا مثالكم معهم مثال رجلين دخلا قصرا
مشيدا متقن البناء يشتمل على مخادع محكمة ومقاعد مزخرفة بابواب
وشبابيك ومدارج ومداخل على غاية الاحكام وقد زينت تلك المخادع بالفرش
الفاخر والسرر الرفيعة واقيمت فى ارجائه الاوانى الثمينة وزينت جدرانه
بالساعات وموازين الحرارة وموازين ثقل الهواء واحتوى على المرتفقات
اللازمة لسكناه واحيط باجمل المنزهات وابهج المناظر الزاهيات التى قامت
فيها الاشجار ورتبت فيها منابت الازهار وقد أجريت مياهه فى اقنيتها المتقنة
وملأت منها حياضه المحكمة وكمل كل شى فيه من لوازم المعيشة من كل ما
يقول ناظره انه وضع لحكمة وقصد وروية واحكام فقال احد الرجلين الداخلين
عن ماشاهد هذا القصر وما احتوى عليه ان هذا الصنع لم يكن من نفسه البتة فلا بد
ان صانعا صنعه واتقن جميع ما فيه وهذا الصانع لا شك انه قادر على صنعه
وعليم بطرق تاليفه ووضعه وقد أنشاه على غاية الحكمة وأتم الاتقان موفيا

لوازمه ومكملا أدواته ليكون صالحا للاقامة وقضاء حق المعيشة فى نواديه وهذا الصانع وان كان غائبا عن نظرى ولم أره ولم اتصور في فكرى حقيقته فانى لا أشك فى وجوده ولا ارتاب في صفاته التى تقتضيها صناعة هذا القصر من قدرته وعلمه وحكمته واتقانه ورؤية شخصه ليست شرطا فى اعتقادى بوجوده واتصافه بتلك الصفات لان أثره وهو هذا القصر وما اشتمل عليه يقنع عقلى في اعتقادى ذلك البتة ثم قال وان كان يشاهد في مشتملات هذا القصر بعض اشياء لم تظهر لى حكمة وضعها فلابد ان يكون وضعها لحكمة وان خفيت على لانى اقتنعت بما ظهر لى من الحكم فى هذه المشتملات ان واضعها حكيم فلا يضع شيئا بدون حكمة وقال الرجل الآخر انى لم أشاهد بنظرى الصانع الذى تعتقد انه صنع هذا القصر فانا لا اعتقد بوجوده ولا باتصافه بتلك الصفات ولكن وجود هذا القصر فى هذا الاتقان لابدله من مصدر صدر عنه فاخذ يتأمل يمينا وشمالا واماما وخلفا فنظر جبلا مطلا على هذا القصر وفى أصله نبع ماء منه تستمد المياه التي فى القصر فقال قد ظهر لفكرى المصدر الحقيقى لهذا القصر ولجميع ما فيه وذلك ان الريح تنحدر من رأس هذا الجبل من قديم الزمان الى البقعة التى فيها هذا القصر فمن الوف من السنين لم تزل الريح تنقل الاتربة والاحجار وتجمعها فى هذه البقعة على اشكال وتضعها على أوضاع تتخالف وتتوافق ومياه الامطار تتصرف باشكالها وتجمعها وتفرقها كذلك واستمر تبدل تلك الاوضاع والاشكال تارة بغير انتظام وتارة بانتظام باعمال الريح والمطر حتى بلغت مع كرور الدهور الى هذا الشكل المنتظم بمخادعه ومقاعده وأبوابه وشبابيكه ومدارجه وطرقه وحياضه واقنيتها

والتصقت اجزاؤه بخاصية الطين المبتل بماء المطر فأصبح قصرا مشيدا محكما بجميع ما فيه من الصنع وأما مياهه فانها انحدرت اليه من هذا النبع الذى هو في أصل الجبل ولم تزل تجرى فى ساحته على طرق مختلفة تارة بغير انتظام وتارة انتظام بسبب تحليلها الاتربة أرضه وبسبب فعل الريح والمطر فى طرقها حتى بلغت على كرور الزمان الحالة المنتظمة التى هي عليها الآن من سيرها في الاقنية وانصبابها فى الحياض التى صنعتها الريح والمطر وأما أوانيه وفرشه وساعاته وموازينه فهذه ربما وقعت من بعض المسافرين الذين ينزلون بقوافلهم في هذا الجبل أوفى هذه البرية فلم تزل الريح تلعب بها وتنقلها من حيز الى حيز وتخالف بين أوضاعها فتقارب بينها وتباعد وتدخلها فى مخادعه وتخرجها حتي آل الامر على كرور الزمان الى ان الفرش فرشت بانتظام والاوانى صفت باحكام والساعات والموزين علقت بالجدران وكذلك الاشجار والزهور التى منتزهات ذلك القصر وهي على أوضاع متقنة قد نقلت بزورها الرياح الى بقاعه فنمت وبزرت هناك ولم تزل تنقل بزورها وتخالف بين أوضاعها حتى انتظم وضعها وترتبت حدائقها على الحالة التي عليها الآن والحاصل ان كثرة حركات الريح وتصرفات المطر وكون كل حركة أو تصرف قد يوافق ماسبقه وقد يخالفه فينشأ عنه وضع غير الوضع السابق قد أوصلت هذا الصنع الى ما هو عليه وحيث وصل الى درجة متقنة محكمة فقد قوى على الثبات أمام فعل الريح والمطر ولم تتغير أوضاعه وأوضاع مشتملاته بعد بلوغ هذه الدرجة كما تغيرت الاوضاع السابقة وزال أثرها لان تلك الاوضاع لم تكن متقنة قوية على الثبات وانا لا استغرب صدور هذا القصر ومشتملاته عما ذكرته لان الريح والمطر وان كانا غير

عاقلين ولا عالمين ولا يفعلان عن ارادة وقصد لكن كثرة حركاتهما وتصرفاتهما والتباين فيها على مرو رالزمان أوصلت هذا القصر ومشتملاته الى هذا الاتقان ودليلى على ان صنع هذا القصر لم يصدر عن قصد ومراعاة حكمة انه يوجد في بعض مشتملاته مالم يظهر فيه أثر للقصد والحكمة فيا أيها الماديون ان أول هذين الرجلين هو مثال اتباع محمد عليه السلام القائلين بأن الذى أوجده هذه الكائنات هو اله مريد قادر عليم حكيم وان لم يصلوا الى رؤية ذاته فقد استدلوا بمصنوعاته على وجوده ووجود صفاته وان لم يظهر لهم حكمة بعض الكائنات فقد سلموا بأن لها حكمة خفيت عليهم لما شاهدوه من الحكم التى لاتحصى في بقية الكائنات وثانيهما هو مثالكم أيها القائلون بأن حركة المادة هى التى كونت هذه الاكوان على مرو رالزمان بكثرة ما أحدثته من تباين أوضاع اجزائها على صور شتى حتى افضى الامر الى ما هى عليه الكائنات الآن وبالانتخاب الطبيعى ثم بلوغها الى درجة تقوى فيها على الثبات وهو الذى حفظ نظامها وأبقى احسنها وتستدلون على عدم وجود الحكمة والقصد فى هذا العالم بأن بعض الاشياء منه لم يظهر فيها من القصد والحكمة أثر وغفلتم عن الالوف المؤلفة من الحكم التى تشهد بأن مصدر هذه الكائنات حكيم فتأملوا أى القلولين من هذين الرجلين أحق بأن تقبله العقول السليمة وتذعن له الافكار الحرة الخالية عن التعصبات النفسانية والاهواء الشيطانية وعارثم وعار على ذوي العقول ان يتركوا الحق بعد وضوحه ويكابروا فى المحسوس بعد ظهوره والله يتولى هدانا أجمعين

هذا وبعد جميع ما أوردته لكم من الدلائل على وجود صانع العالم سبحانه واتصافه بصفات الكمال وتنزهه عن صفات النقصان وانه هو الموجد للمادة والماديات وجميع الكائنات مما يقنع عقولكم ان شاء الله تعالى ويسلك بكم في سبيل الهداية فانى قد رأيت فى كتبكم شبها لربما تكون عقبة فى سبيل ايمانكم ان لم تعالجوا ازاحتها من امامكم بقواطع البراهين واما اذا تحريتم الوصول الى الصواب ومكنتم تلك الادلة التي أقمتها لكم فى قلوبكم وتصورتم عظمة ذلك الاله وسلمتم بعجزكم في سبيل المعرفة وقصور عقولكم عن الاحاطة به سبحانه وبجميع أعماله فتلك الشبهة تسقط من البين ويكون اعتقادكم بوجود ذلك الاله وباحداثه الكائنات أمرا سهلا عليكم لا يكلفكم أدنى مشقة وأنا أذكر هنا أشهر تلك الشبه المذكورة فى كتبكم وادحضها عنكم ان شاء الله تعالى بأوفى بيان فأقول الشبهة الاولى انكم تقولون لايمكن أن تتصور عقولنا وجود شيء ليس بجسم ولا مادة جسم ولا صورة جسم ولا مادة معقولة في صورة معقولة ولا له قسمة في الكم ولا فى الكيف فعله منه وليس متصلا به تعنون بذلك الاله سبحانه وتعالى الشبهة الثانية انكم تقولون لايمكن ان تتصور عقولنا وجود شيء من لاشيء تعنون بذلك انكم لاتعقلون حصول المادة من العدم الشبهة الثالثة انكم تقولون لو كان نظام الكائنات بقصد وحكمة لكانت علامة القصد والحكمة تامة في كل شيء مع اننا نرى أشياء لاتنطبق على القصد والحكمة بل هي بخلافهما فلا تنطبق الا على الضرورة فأقول قد علمتم من جميع ماتقدم ان اتباع محمد عليه السلام يستدلون على وجود اله العالم وصفاته بهذه الكائنات لان وجودها بنفسها غير ممكن مع قيام الدليل على حدوثها وهذه الكائنات قد بلغت من العظمة والصنع الغريب والاتقان

والاحكام درجة رفيعة جدا تعجز عن الاحاطة بجميعها العقول البشرية فهى اذن
تدل على عظمة مبدعها وعظمة صفاته وسمو حكمته جـدا جـدا الى درجة
لا تدخل تحت الحصر ولا تحيط بها الافـكار وهكذا شأن العقل البشرى أن
يستدل على مقدار عظمة المؤثر بمقدار عظمة الاثار ها أنتم ونحن نستدل على
عظم الامم السالفة وسمو مداركها بعظمة أثارها ثم اذا نظرتم الى منزلتكم
فى العلم وهي انكم فى غاية القصور فيه ولو انكم قابلتم كلما علمتموه من الحقائق
بما هو باق تحت حجاب جهلكم لكان نقطة من بحر وذرة من رمال بر
هذا الشيء لا تنكرونه البتة لنأخذ كتب الطب والكيمياء والتشريح والفاثلوجيا
والباثلوجيا والجولوجيا والفلكيات والجويات وبقية العلوم التي برعتم فيـها
والفتم المجلدات الضخمة وطولتم الشروح فما نفتح صفحة أو صفحات الا
ونجدكم تقولون الامر الفلاني لم تزل حقيقته مجهولة أو لم تصل العلماء الى شرح
حقيقته شرحا كافيا واختلفوا فيه ولم يقر قرارهم على شيء قطعي في شأنه أو ان
الشيء الفلانى لم تزل وظيفته مجهولة أو منفعته خفية الى غير ذلك من العبارات
التي تدل علي كثرة ماتجهلونه من حقائق هذه الاكوان ولا تزالون مجتهدين
فى كشف حقائق الكائنات وابداء أفكاركم فيها لدى المجامع العلمية وكثير منكم
من يظهر له خطؤه فيما اجتهد فى كشفه وصرف مقدارا من الزمان لاجله
هذا أمر مشاهد معلوم بينكم وبين جميع علماء هذا الزمان من غيركم الصارفين
أوقاتهم للاكتشافات العلميـة وأمثلتـه لاتدخل تحت الحصر وان كابرتم
فى ذلك ولم تقروا بكثرة جهلكم وقلة علمكم فجهلكم لحقيقة المادة التى
ترونها وتلمسونها وعدم اجماعكم على بيان ماهيتها وهي أم الكائنات عندكم
هو أكبر شاهد على ذلك ومثله عدم كشفكم لحقيقة ادراك الدماغ للمرئيات

والمسموعات والمذوقات والملموسات والمشمومات فغاية ماتقولون فى ذلك ان العصب ينقل صور الاشياء للدماغ وهو يدركها أما بيان حقيقة ذلك الادراك بيانا كافيا فلم يتم لكم (ولن يتم) ومثل ذلك حقيقة الحياة فانكم تقولون على مذهبكم فيها انها ظاهر من ظواهر تفاعل أجزاء المادة والعقل ظاهر من جملة تلك الظواهر وأما بيان حقيقة ذلك الظاهر بيانا شافيا كافيا فلم تظهروا عليه ومن ذلك مسئله جزئيه وهى انكم تحققتم ان النور بمقتضى سير أشعته ونفوذها فى طبقات العين يرسم صور المرئيات على الشبكية مقلوبة ولم تتحققوا كيف ان العقل يدركها منتصبة وقد قدمت لكم احتمالا في هذه المسئلة لعله يرتفع به الاشكال وهذا باب واسع يطول فيه الشرح ان أخذت بتعداد كل ماتجهلونه في مباحث علومكم ولكن الاختصار فيه البلاغ والقول الشافي ان جهلكم هو القسم الكبير وعلى هذا اذا تصورتم عظمة ذلك الاله بالاستدلال بآثاره ونظرتم الى منزلتكم فى جهل الحقائق كان من الانصاف والصواب ان لاتتطاولوا الي معرفة حقيقة ذلك الاله فان الذى بان عجزه عن ادراك حقيقة جميع أجزاء الساعة المصنوعة لايليق به أن يتطاول بمجرد رؤيتها التى تدل على ان لها صانعا الى معرفة حقيقة ذلك الصانع وصورته وشكله من أنه أبيض أو اسود أو طويل أو قصير أو سمين أو ضئيل الى غير ذلك فان من يراه يتطاول الى هذه المعرفة يقول له ان هذا الامر منك سخافة عقل ان رؤية هذه الساعة انما تدلك على ان لها صانعا قادرا على صنعها عالما به واما انها تدلك على حقيقته وشكله وصورته فليس من طبيعة رؤيتها الدلالة على ذلك كيف وانت لم تعلم جميع أجزائها على الوجه التام وهى بين يديك مشاهدة حاضرة

تكلف نفسك معرفة حقيقة صانعها الغائب عن نظرك فتكليفك نفسك بذلك تكليف شطط وسلوك سبيل غلط وان قلتم اننا لانروم فهم حقيقة ذلك الاله من مجرد النظر فى هذه للكائنات بل نعلم أن مجرد رؤيتنا اياها لايدلنا على حقيقته ولا يشرحها لنا ولكن نقول لايمكن لعقولنا ان تتصوره بتلك الخواص التى ذكرتموها له بل تجزم عقولنا بانه لايمكن وجود شئ متصف بهذه الخواص من انه ليس بجسم ولامادة جسم الى آخر ما مراد لانعلم شيأ موجودا من كل ما اطلعنا عليه متصفا بتلك الاوصاف المذكورة قلت عدم تمكن عقولكم من تصوره لايلزم منه عدم وجوده فى نفسه اذ كثير من الحقائق لم تتمكنوا من تصورها حق التصور ومع ذلك فهى موجودة فى نفس الامر لقيام الدليل على وجودها وهذا الجزم منكم بانه لايمكن وجود شىء متصف بتلك الخواص قد نشأ معكم من قياس التمثيل كما يظهر من قولكم (اذ لانعلم شيأ موجودا من كل ما اطلعنا عليه متصفا بتلك الخواص) فزعمتم ان كل موجود تلزمه اضداد تلك الخواص قياسا على ماشاهدتم وهذا القياس ليس دليلا قاطعا بل سماه أكبر رؤسائكم دليلاخادعا وهو كذلك لانه كثيرا ما يخدع الانسان ويوقعه فى الغلط حتى يحكم على الشئ باحكام غيره مع انه لم تكن له تلك الاحكام لفارق بينه و بين ذلك الغير لم يطلع عليه المستدل وحينئذ يقال لكم ما المانع من وجود ذلك الاله الذى ليس بجسم ولامادة جسم الى آخر ما تقدم وعدم اقتداركم على تصور حقيقته لايفيد استحالة وجوده وقياسكم اياه على ما شاهدتموه فى العالم المادى حتى جزمتم بانه لايمكن وجوده هو قياس مغلوط لوجود فارق بينهما وان قلتم ما الذى يدعو الى اعتقاد وجوده قلناهي

آثاره التي دلت عليه وان قلتم ما الذي يدعو الى تنزيهه عن كونه جسما أو مادة جسم الى آخره قلنا هو ما قام معنا من الدلائل على ان المادة وما يتبعها من الماديات وخواصها حادثة ولا يمكن أن تكون قديمة وهو سبحانه يجب ان يكون قديما ولو كان مادة أو ماديا أو له خواص المادة لكان حادثا مثلها وهو محال وقد تقدم لكم شرح هذا في صدر المذاكرة معكم وان قلتم اننا نروم دليلا يوصلنا الى تصور حقيقة ذلك الاله قلنا لكم ان اتباع محمد عليه السلام قد ظهر لهم بالبحث والتدقيق ان الوصول الى معرفة حقيقته وتصورها ليست بطاقة العقل البشري وكذلك جاء فى ظاهر نصوص الشريعة المحمدية وذلك لانه سبحانه عظيم جدا ومدارك العقول البشرية حقيرة جدا بالنسبة الى عظمته وحقير الادراك لا يصل بالمعرفة الى الحقيقة العظيمة العالية وقد أفهمتهم شريعتهم ان الذي يكلفون به من جانب ذلك الاله هو معرفتهم به المعرفة التي توصلهم اليها آثاره وهى الاذعان بانه موجود حى قادر مريد الى آخر ما مر من صفاته التي تقدمت فى صدر المذاكرة معكم وكلفتهم أيضا باعتقاد بعض صفات له تعالى ليس لاثباتها ولا لنفيها دليل عقلى فعرفتهم اياها فاعتقدوها وقد نهتهم عن الخوض والبحث فى حقيقة ذاته لاجل عجزهم عن ادراكها والخشية ان يتصوروها في عقولهم بخلاف ما هى عليه فيقعوا فى الجهل المذموم وقد حذر بعضهم من ذلك البحث فقال (كلما خطر ببالك فهو هالك والله بخلاف ذلك)

ثم كما ان ذلك الاله عظيم جدا فاعماله فى غاية العظمة يظهر ذلك من التامل فى هذه الاكوان وما اشتملت عليه من الغرائب التي مر لنا ذكر شيء قليل منها وانكم قد عجزتم عن ادراك كثير من مصنوعاته واكتشاف

حقائقها او أزيدكم على ذلك هنا انكم تقولون فى اكتشافاتكم الجديدة ان الحركة تتحول الى قوة كهربائية والقوة الكهربائية تتحول الى حرارة والحرارة تتحول الى نور فأسألكم هل فى وسعكم ان تتصوروا كيف تتحول بعض هذه المذكورات الى البعض الآخر ثم تعبروا عن تصوركم بعبارة تشرح لنا حقيقة هذه التحولات لا أخال ان فى وسعكم شيأ من ذلك غاية ما تقولون ان تلك التحولات ناشئة عن تغير حركات اجزاء المادة وأوضاعها وأما ايضاح ذلك التغير وكشف حقيقته للاذهان وبيان الفرق بين التحول الاول والثانى و بين التحول الثانى والثالث وهكذا فدون ذلك خرط القتاد وكثير من أمثال هذا تعجزون عن تصوره وايضاحه فاذا كان عجزكم فاشيا في كثير من اعمال هذا الاله في مصنوعاته فما هو استغرابكم لعدم تصوركم انه كيف احدث العالم من لاشىء مع ان عدم تصوركم لحقيقة الامر لايكون دليلا على عدمه فى نفسه كما تقدم وان قلتم ان عقولنا تحيل حصول شىء من لاشىء لان فى جميع ما شاهدناه ما رأينا شيأ حدث من لا شىء ولا استطاع أحد منا أن يحدث شيأ من لاشىء فلذلك حكمنا باستحالة ذلك قلت ان عدم مشاهدتكم حدوث شىء من لاشىء لا يلزم منه ان ذلك محال وعدم استطاعة أحد منكم لذلك لا يلزم منه أيضا عدم قدرة ذلك الاله فحكمكم هذا أيضا بامتناع هذا الامر قد جاءكم من قياس التمثيل الذى لايكون قطعى الدلالة بل كثيرا ما يوقع فى الغلط كما تقدم وقد قستم قدرة ذلك الاله على قدرتكم وعلمه على علمكم واعماله على اعمالكم وهذا مع سخافته هو ظاهر الفرق بين المقيس والمقيس عليه فشتان ما بينكم و بين ذلك الاله الذ أوجد هذه الاكوان على هذا الاتقان انتم الى الآن مع طنطنتكم ببراعتكم فى صناعة

الكميا لاتقدرون على تحليل العناصر ولا تركيب جسم حيوى يشتمل على
خواص الحياة والصورة الحيوية وعجزكم عن عمل هذين الامرين البسيطين وعن
اعمال كثيرة من أعماله تعالى لايحتاج الى تطويل فى تحرير البرهان وعليه الدليل
أفلاتخجلون بعد ذلك ان تقيسوا أنفسكم بذلك الاله سبحانه وأعمالكم باعماله على
انكم لو تأملتم في أعمالكم لاتجدون لانفسكم صنعا حقيقيا فانهم انظروا الى تحليلكم
المعدن الفلانى مثلا الى عناصره أو تركيبكم المركب الفلانى من عنصرين
أو أكثر يظهر لكم انكم ما أجريتم الا الاسباب في التحليل أو التركيب
التى اطلعتم على انها تكون سببا فى ذلك من نحو خلط كذا بكذا واحماء
كذا او تغطيسه بكذا حتي يحدث التحليل أو التركيب اما حقيقية تميز العناصر
وكيفية انفصالها عن بعضها أو حقيقة امتزاجها على أوضاع أجزائها التى ينشأ
عنها المطلوب فانتم في الحقيقة تعجزون عن تصور جميع ذلك حق التصور
وعن شرحه بالشرح الواضح فضلا عن انكم أنتم الذين عملتم ذلك كله
وخلصتم الاجزاء الفردة لكل عنصر من بين الاجزاء الفردة للآخر في
صورة التحليل وخلطتم الاجزاء لكل عنصر مع الاجزاء الفردة للآخر
على الاوضاع اللازمة في صورة التركيب وبهذا ظهر عجزكم فى الصناعة أيضا
كما ظهر عجزكم فى الادراك والمعرفة ابعد ذلك تتطاولون الى قياس اعمال ذلك
الاله على اعمالكم وقدرته على قدرتكم وتحكمون بانكم اذا عجزتم عن احداث
شىء من لاشىء انه سبحانه يكون عاجزا عن ذلك أعوذ بالله من الغرور
فمن الواجب عليكم أيها المغرورون العاجزون في العلم والعمل أن تسلكوا الطريق
التى سلكها اتباع محمد عليه السلام فانها المنهج العدل المستقيم الخالى عن كل عسف
وهم قد امتطوا فيه متن الاحتراس والحذر والاخذ بالاحوط وذلك انهم

قدقام عندهم الدليل القاطع على وجود اله العالم بمشاهدة اثاره الغريبة العظيمة الدالة
على عظمة ذاته سبحانه وظهر لهم عجزهم عن تصور حقيقته لقصور مداركهم
بالنسبة الى عظمة ذاته سبحانه وهذا العجز لا ينفي وجوده الثابت عندهم بدلالة
الآثار ولا ينافي ايمانهم بوجوده الثابت عن دليل قطعي ثم قام عندهم الدليل القاطع
على ان العالم حادث بعد ان لم يكن ولا بد من محدث احدثه من العدم وهو
الآله سبحانه ولكن عجزوا عن كيفية تصور ذلك الاحداث وهذا العجز
لا يوجب استحالته ولا ينافي الايمان به الحاصل عن دليل قاطع فقد ظهر هنا
سقوط قول بعضكم عند ما يذكر اعتقاد اتباع محمد عليه السلام بوجود
ذلك الآله الذي ليس بجسم ولا له صفات الاجسام واعتقادهم بانه احداث
العالم من لاشئ (ان هذا الاعتقاد يحتاج الى ايمان قوى ولا دخل له في
سبيل العلم) كان ذلك البعض يظن ان الايمان هو التصديق بالشيء تسليما
ساذجا وانقيادا اعمى بدون دليل جازم ولم يدرك ذلك الغر انه لا يكمل الايمان
في الشريعة المحمدية الا اذا كان عن دليل قاطع وان الايمان الكامل في
هذه الشريعة هو العلم الجازم عن دليل قاطع بجميع ما جاء به محمد عليه السلام
مما ثبت مجيئه به قطعيا مع اذعان النفس وخضوعها لذلك فهكذا ايمانهم
بوجود اله العالم سبحانه وبايجاده العالم من لاشيء ما كان الا عن دليل قاطع
كما مر شرحه ولكنهم يقرون بالعجز عن ادراك حقيقة ذاته وعن كيفية احداثه
للعالم من لاشيء والعجز عن تصور حقيقة الشيء الذي قام الدليل على وجوده
في نفس الامر لا ينافي الاعتقاد الجازم بوجوده عن دليل فما اسخف ظن
هذا البعض وما اجهله في تقرير الحق وما اسمج غلطه في فصله الايمان عن
العلم والحال ان الايمان اكمل انواع العلم فقاتل الله الجهل الفاضح

هذا ثم ان أتباع محمد عليه السلام قد شاهدوا من أسرار ذلك الاله في مصنوعاته الحكم الباهرة التي تفوق الاحصاء ولم تزل تظهر لهم حكمة بعد حكمة يوما بعد يوم بعد ماتخفى عليهم الاعوام فثبت عندهم انه سبحانه حكيم حكمة بالغة لاتحيط بحكمه العقول فاذا شاهدوا شيئا من الكائنات لم تظهر لهم فيه حكمة لم يعتقدوا انه وجد عبثا بدون حكمة بل يقولون ان الخالق سبحانه حكيم بدليل ماشاهدناه من حكمه التي لاتحد وكثير منها كان خفيا علينا ثم ظهر لنا فهذا الشيء الذي لم تظهر لنا حكمته نقول ان الحكمة فيه قد خفيت علينا لا انه وجد عبثا ومما يقنع عقولنا بذلك ان هذا الخالق عظيم جدا وانا نرى عظمة صفاته وأسراره وحكمه في خلقه والعقول البشرية مهما بلغت من السعة فهي بالنسبة لذلك حقيرة جدا وادراكها لايعد شيئا بالقياس الى ذلك فكان من الصواب في شأنكم أيها الماديون أن تسلكوا أيضا هذه الطريقة العادلة التي سلكها أتباع محمد عليه السلام فتذعن عقولكم فيما ظهر لديكم من حكم الكائنات التي تفوق الاحصاء والتي لاتزال تظهر لكم حينا بعد حين بعد ماتخفى عليكم سنين بان الكون مبني على الحكمة وانه لاشيء بدون حكمة ومن هنا تتوصلون الى أنه لابد للكون من صانع حكيم ولا شيء فيه حاصل بالضرورة العمياء وبدون قصد واذا رأيتم شيئا لم تظهر لكم حكمته فعوضا عن أن تجعلوه دليلا على انه لاحكمة ولا قصد في حصول الكائنات وتتوصلوا بذلك الى انكار الخالق تعالى ان تقولوا ان هذا الشيء له حكمة خفيت علينا قياسا على جميع ماظهر لنا من الحكم التي لاتحصى والذي يقنع عقولكم في ذلك ان تتصوروا عظمة ذلك الاله وعظمة أعماله في الكائنات وسمو حكمه التي اطلعتم عليها ثم تتصوروا ان العقول البشرية بالنسبة اليه تعالى والى أعماله وحكمه

قاصرة جدا وادراكها لا يعد شيئا بالنسبه الى ذلك

هذا وانى بعد ما قدمته لكم فى دحض شبهكم الثلاث أريد ان أضرب لكم مثالا يظهر لكم فيه خطؤكم فى الالتفات اليها فاقول تأملوا أيها الماديون فى الحيوانات المكرسكوبية التي يوجد منها فى نقطة الماء الصغيرة الوف وملايين فهل تقدر بما لها من الادراك الذى معها على قدر احتياجها فى معيشتها ان تتصور حقيقة الانسان وتتصور تفاصيل أعضائه ووظائفها وكيفية سمعه وأبصاره وشمه وذوقه ولمسه وكيفية تغذيه وأعمال أعضاء التغذية والدورة الدموية فيه وأعمال دماغه فى تصوراته وأفكاره وان تعلم أعمال الانسان ومصنوعاته من الآلات البخارية والمنسوجات والمطعومات والادوية والتآليف والمطبوعات والآلات التلغرافية والفونغرافية والتلفونية والفوطغرافية وكذا وكذا وان تعلم كيف اخترعها ومن أي أنشاها وكيف استخلص الحديد وبقية المعادن من بطون الارض واصطنع تلك الادوات الغريبة وان تعلم حكمة كل جزء من الآلات المصنوعة ولاى شئ صنعه هكذا مثلا اذا نظرت الى عمد التلغراف منصوبا عليها اسلاكها فهل تقدران تعلم حكمة ذلك ولاي غاية فعل هذا وما وراءه من المكينات التلغرافية وهى لم تشاهد الا العمد وعليها الاسلاك فاذا فرض اطلاعها على أعمال الانسان العظيمة واستدلت بها على وجوده وعظمته وخفى عليها كثير من أعماله وكيفية عملها وفرض اطلاعها على حكم كثيرة فى مصنوعاته واستدلت بذلك على انه حكيم تام الحكمة فلا يكون من الواجب عليها ان تقول انى بهذا المقدار الذى معي من الادراك الذى لا يذكر بالنسبة

لعظمة ذلك الانسان وعظمة أعماله وواسع حكمه أقر بالعجز عن معرفة
حقيقة ذاته العظيمة بل غاية ما عندي ان أذعن بوجوده وقدرته وحكمته
لما شهدت من أعماله وأقر بالعجز عن ادراك الكثير من كيفية عمله
لمصنوعاته ولا انكرها لعدم ادراك فكرى العاجز لها واذا شاهدت شيئا من
مصنوعاته لم تظهر لى حكمته فعلى ان أقر بعجزى عن ادراك حكمته
حيث ان كثير حكمه فى أعماله دلت على انه حكيم وأقول ان حكمة ذلك
قد خفيت على فهمى القاصر فهى حينئذ اذا شاهدت عمد التلغراف مثلا
وعليها اسلاكها لا تقول انها وضعت فى الطرقات تحت الامطار وحر
الشمس للتلف وبدون حكمة وفائدة بل تقول لابد لها من حكمة وان
خفيت على فكذلك أنتم أيها الماديون ما علومكم وادراكاتكم
بالنسبة الى عظمة ذلك الاله وعظمة أعماله وسعة علمه وسمو حكمته
الا كادراك تلك الحيوانات بالنسبة الى عظمة الانسان وقدرته وعلمه وحكمته
في أعماله بل بفرق أكثر بكثير من ذلك فبعد ذلك ما هو استعظامكم
لانفسكم واستكثاركم لمعارفكم لا أرى لكم شبيها الا طائفة من مبتدعى
الامة الاسلامية قد استعظموا أنفسهم بالنسبة لله تعالى فاخذوا يشرطون
عليه الشروط فى معاملة الخلق ويوجبون عليه الاحكام فقالوا انه يجب عليه
تعالى ان لا يفعل الا الصالح فى حق الانسان وقد غفلوا عن انهم بالنسبة
اليه سبحانه كتلك الحيوانات المكرسكوبية بالنسبة الى الانسان بل احقر
بكثير بما لا يحد وغفلوا عن انه سبحانه هو الذى أوجدهم من العدم
وهو المالك المطلق لهم ولارواحهم وهو الفاعل المختار المتصرف في
ملكه بما يشاء لا ينسب اليه الظلم كيفما تصرف فيه الا يرى لو أن ملكا

عظيما أخذ نقطة من الماء الذى هو ملكه وهى محتوية على الالوف من تلك الحيوانات المكرسكوبية والقاها فى النار حتى تلاشت وتلاشى جميع ما اشتملت عليه من تلك الحيوانات التي ربما تبلغ عدد البشر على وجه الارض هل يخطر فى البال ان ذلك الملك فعل محظورا عليه وظلم بفعله تلك الحيوانات الحقيرة وهل لاحد منازعته في ذلك وهو المالك المطلق لتلك النقطة ولجميع ما حوته لا ينازعه الا كل موسوس متعرض لما لا يساعده عليه مساعد نعم ان ذلك الاله سبحانه قد تفضل برحمته وفضله على جميع الخلق بالنعم التى لا تحصى ولكن لم يعطها لهم بطريق الوجوب عليه تعالى بل بطريق التفضل والاحسان ولو لم يعطها لهم وسلط عليهم جميع البلايا لما كان ذلك منه الا حسنا لانه متصرف فى ملكه لاحق لاحد فى منازعته يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد فبعد ظهور الحق لديكم أيها الماديون وسقوط شبهكم الواهية فعليكم اذا نازعتكم أنفسكم وطلبت منكم التعرض لمعرفة حقيقة ذلك الاله سبحانه أن تقولوا لها ان عقولنا البشرية تقصر عن ذلك ويكفينا من معرفته ما دلتنا عليه آثاره من انه موجود ومتصف بالصفات التى تدل عليها تلك الآثار واذا طلبت منكم معرفة كيف أوجد العالم من لا شىء فقولوا لها انا لم ندر جميع أعماله وكيف يعملها فليكن هذا من جملة ما لا ندركه وعدم تصورنا له لا يقتضى ان ننكره واذا عرض لكم شىء ولم تعرفوا حكمته ان تقولوا ان صانع العالم حكيم بدليل ما ظهر من كثير حكمه فى مصنوعاته وعدم ادراك حكمة هذا الامر لا يقتضى عدم وجود حكمة له ولا يلزمنا انكار الحكم فى الكائنات ونلتجئ الى الضرورة العمياء هدانا الله واياكم لما فيه النجاة في العقبى اللهم آمين

والى هنا انتهى الكلام معكم أيها الماديون فى اثبات حدوث العالم وتنوعاته واقامة البرهان على وجود الاله الذى أوجده من العدم واتصافه سبحانه بصفاته اللائقة به تعالى ودفع أشهر شبهكم فى ذلك وبقى الكلام في بقية ما ذكرتموه لى من مذهبكم وهو يشتمل على أربع مسائل مهمة الاولى ان طريق حدوث تنوعات العالم من سماويات وأرضيات هو النشوء أى ان أجزاء الاثير تكون منها السديم ثم الشمس ثم انفصلت عنها الكواكب ومنها أرضنا ثم تكونت فيها العناصر ثم المعادن والمكون الاول البورتو بلاسم وأخذ هذا بالترقي والتوالد حتي بلغ أدني نبات أو حيوان ولم يزل هذان بما اكتنفهما من ناموس التباينات ووراثتها وتنازع البقاء والانتخاب الطبيعى يترقيان و يتنوعان ويشتق من الانواع أنواع حتى بلغا ما هما عليه الآن من الانواع كل ذلك بحركة أجزاء المادة الاضطرارية والجرى على هذه النواميس

الثانية ان الانسان ماهو الا حيوان من جملة الحيوانات حادث بطريق النشو ترقي في التحسين بالانتخاب الطبيعى حتى بلغ ما هو عليه الآن وبمقتضى مشابهته للقرد لا يمتنع ان يكون قد اشتق هو واياه من أصل واحد وأخذ هو بالترقي عنه حتى فاق عليه

الثالثة ان الحياة وعقل الانسان ما هما الا ظاهر من ظواهر تفاعل أجزاء المادة المتحركة وعناصرها الممتزجة وان يكن أصل المادة خاليا عن الحياة والادراك وان عقل الانسان لايخالف عقول بقية الحيوانات الا بالكم ولا يخالفها فى الذات والحقيقة

الرابعة انكاركم لبقية المسائل التى وجدتموها فى الشريعة المحمدية من

نحو البعث بعد الموت والسموات الى آخر ما مر وزعمتم ان ذلك لادليل عليه في علومكم بل البعض منه ترفضه وتدل على استحالته فاقول وبالله التوفيق اعلموا ان الكلام معكم في هذه المسائل يحتاج الى تقديم مقدمتين

المقدمة الاولى ان النصوص التى ترد في الشريعة المحمدية ويعتمد عليها فى الاعتقاد كما يعتمد عليها فى الاعمال والاحكام تنقسم الى قسمين متواتر ومشهور فالمتواتر ماثبت قطعيا وروده فى هذه الشريعة لما توفر فيه من الاسباب الموجبة للعلم اليقينى بوروده فيها والمشهور هو ما ثبت وروده فيها ثبوتا قريبا من القطعى لما توفر فيه من الاسباب الموجبة لطمأنينة القلب بوروده وهى فوق الظن ودون اليقين ثم ان كلا من المتواتر والمشهور اما ان يدل على معنى لايحتمل الدلالة على سواه فلايقبل الصرف والتأويل الى معنى آخر وهذا لا يوجد فى جميع ما ورد منه فى الشريعة المحمدية ما يناقض معناه الدليل العقلى القاطع ولنسم هذا القسم بمتعين المعنى واما ان يدل كل من المتواتر والمشهور على معنى ظاهر متبادر منه ويحتمل الدلالة على معنى آخر وان كان بعيدا وهذا قد يوجد فيما ورد منه فى الشريعة المحمدية ما يناقض معناه الظاهر الدليل العقلى القاطع ولنسم هذا القسم بظاهر المعنى ثم ان حكم النص المتعين المعنى فى الشريعة المحمدية انه ان كان متواترا يجب التصديق بوروده وبمعناه المتعين وانكار وروده أو تكذيب معناه يوجب الكفر أى الخروج عن الدين الاسلامى ولايجوز تاويله وصرفه الى معنى اخر اذ هو لايحتمل التاويل ولا يناقض شيء منه الدليل العقلى القاطع حتى يحتاج لتاويله وان كان مشهورا فيجب أيضا التصديق بوروده وبمعناه وانكار وروده أو تكذيب معناه يعد ضلالا وفسقا ولايجوز تاويله وصرفه الى معنى اخر لما مر فى

المتواتر وحكم النص الظاهر المعنى انه ان كان متواترا يجب التصديق بوروده وبمعناه المتبادر وانكار وروده أو تكذيب معناه بدون تأويل يكون كفرا أيضا ولايجوز تاويله الا اذا قام دليل عقلى قاطع يدل على ما يناقض معناه المتبادر منـه فحينئذ يؤل ويصرف الى معنى غير معناه المتبادر على سبيل الاحتمال بحيث يصح التوفيق بينه وبين ما دل عليه الدليل العقلى القاطع وأن كان مشهورا فحكمه حكم المتواتر الظاهر المعنى الا ان انكار وروده أو تكذيب معناه لايوجب الكفر بل الضلال والفسق والملخص ان النص المتعين المعنى من المتواتر والمشهور لايوجد فى العقل مايناقضه ولايسوغ تاويله والنص الظاهر المعنى منهما لايجوز تاويله وصرفه عن معناه المتبادر منه الا اذا قام في العقل دليل قاطع على ما يناقض معناه الظاهر وانما جاز حينئذ تاويله لان الجمود على اعتقاد المعنى المتبادر منه ورفض مايدل عليه الدليل العقلى القاطع يقتضى هدم الاصل وهو العقل الذى ثبت به رسالة الرسول المتكلم بتلك النصوص الشرعية اذ لولا العقل لما وصلنا الى الاستدلال على صدقه فى دعواه الرسالة فاذا هدم الاصل هدم الفرع لامحالة فرفض الدلائل العقلية رجوع على الدلائل النقلية بالنقض وهو خلاف المطلوب هكذا الحكم فى كل نص ظاهر المعنى ناقضه الدليل العقلى القاطع يرجع فيه الى التاويل وذلك قاعدة كلية عند اتباع محمد عليه السلام (كذا فى كثير من الكتب كتفسير الرازى فى قوله تعالى لايكلف الله نفسا ومثله فى المقاصد والمواقف) مثلا قد ورد فى القرآن الكريم في قصة ذى القرنين قوله تعالى حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة فالمعنى الظاهر من هذا النص المتواتر ان الشمس تغرب فى عين من عيون الارض فلولم يقم الدليل العقلى القاطع على مايخالف

هذا المعنى الظاهر ويناقضه لكان من الواجب فى الشريعة المحمدية اعتقاد
هـذا المعنى المتبادر يجوز تاويله ويقال حينئذ ان خبر الصادق دل بمعناه
الظاهر على ان الشمس تغرب فى عين من عيون الارض فيجب الاعتقاد
بذلك لكن قد قام الدليل العقلى القاطع على ان الشمس اكبر من الارض
بكثير ودخول الجسم الكبير فى الصغير مع البقاء على مقدارهما من المحال
وقام الدليل العقلى القاطع أيضا على ان الشمس لاتغرب فى نفس الارض
فحينئذ وجب تاويل هذا النص احتمالا وصرفه الى معنى غير ما يتبادر منه
فيقال مثلا والله اعلم بمراده يحتمل انه تعالى اراد ان ذا القرنين لما بلغ ذلك
المكان من بلاد المغرب وجد الشمس بحسب رؤية الرآى تغرب فى عين
حمئة لان الناظر الى الشمس فى سواحل البلاد الغربية يتخيل اليه ان
الشمس تغيب فى بحرها الغربى المحيط بها وذلك البحر كثير الحمأة السوداء
والظلمة وذو سخونة وذلك اشارة الي ان الجانب الغربى من الارض قد
احاط به البحر سواء قلنا ذلك الجانب هو ساحل افريقيا الغربى أو ساحل
اميركا الغربى وليس المراد ان الشمس تغرب فى عين من عيون الارض فى
نفس الامر (يؤخذ هذا التاويل من الرازي والجلالين وتفسير الكواشي
كما نقله الشيخ مرعى الحنبلى فى كتاب عجائب المخلوقات وماقاله أهل الاخبار
من ان الشمس حقيقة تغرب فى العين كلام على خلاف اليقين وكلام الله
تعالى مبرأ عن هذه التهمة فلم يبق الا ان يصار الى التاويل كذا فى الرازى)
وهكذا يقول الواحد منا انى من المكان الفلانى وجدت الشمس تغرب فى
البحر ومن المكان الفلاني وجدتها غربت خلف الجبل أو في الوادى الفلانى
والحال ان اعتقاده أنها لم تغرب فى واحد من تلك المذكورات وانما حكى

صورة رؤيته هذا واما اذا قام الدليل العقلي غير القطعي بل الظني مناقضا للمعنى المتبادر من نص الشريعة فلا يسوغ تاويل ذلك النص وصرفه الى معنى اخر غير متبادر منه بل يجب البقاء على الاعتقاد بمعناه الظاهر ومن المعلوم ان الدليل العقلي القاطع هو الذي يدل على مدلوله دلالة يقينية لاتحتمل النقيض وأما الدليل العقلي الظني فهو الذي يدل على مدلوله دلالة راجحة تحتمل النقيض ولو احتمالا بعيدا فبذلك الاحتمال ينزل عن درجة اليقين ولا يعتمد عليه في المعتقدات الاسلامية فلا يكون معارضا للمعنى الذي يظهر من نص الشريعة المتواتر أو المشهور ولا يسوغ عنده تأويل ذلك الظاهر البتة ثم قد يوجد فى الشريعة المحمدية نص لاتتوفر له الشروط التى يبلغ بها درجة المتواتر أو المشهور فلا يكون ثبوت وروده يقينيا ويسمى بالاحاد وهو ينقسم أيضا الى متعين المعنى وظاهر المعنى وحكمه فى الشريعة الاسلامية أن يعتمد عليه فى الاعمال الشرعية اذ يكفي فى حقها الظن ولا يعتمد عليه اسـتقلالا في المعتقدات الاسلامية حيث ان ثبوت وروده ظني لايقيني فلا يكفر منكر وروده أو معناه (كما هو منصوص فى كتب الاصول ولـكن الاحاد اذا نقلها العدول وصارت معتمد الفقهاء في الفروع فلا يجوز انكارها حيث لم يعارضها معارض عقلي قاطع لئلا يجر ذلك الى انكار المتواتر والمشهور والعياذ بالله تعالى) نعم اذا اكتنف الاحاد مايقويه و يجعله مفيدا لليقين فيعتمد عليه حينئذ في المعتقدات أيضا كما يعتمد على المتواتر والمشهور فيها

المقدمة الثانية ان الشريعة المحمدية بل وسائر الشرائع انما يقصد منها بيان مايرشد الخلق الى معرفة الله تعالى باعتقاد وجوده واتصافه بصفات الكمال والى كيفية عبادته واداء شكره والى الاحكام التى توصلهم الى انتظام

المعاش وحسن المعاد واما تعريفهم بمباحث العلوم الكونية من كيفيه خلق العالم وما هى النواميس القائمة في السماويات أو فى الارضيات وأمثال ذلك فليس شىء من نحو ذلك من مقاصد الشرائع بل هذه المباحث هى معارف تتوصل الناس اليها بعقولهم فربما ينتفعون بها فى دنياهم وربما يكون حظهم منها مجرد الاطلاع والشرائع لاتلتفت اليها ولا بالذات ولاتعتني بتفاصيلها نعم قد تذكر شيئا منها مجملا على قدر مايكون له دخل فى مقاصدها فتذكر مثلا خلق السموات والارضين وابرازها من العدم واختلاف أنواع المخلوقات في التنوعات وكيفية تدبير الاكوان وأعطاء كل منها نظامه على سبيل الاجمال لاجل أن يكون ذلك دليلا عقليا للناس على وجود الله للعالم وعلى اتصافه بالعلم والقدرة والحكمة الى غيرذلك وقد تفصل بعض تلك المباحث لداع يدعو الى ذلك يكون مرجعه الى مقاصدها اذا فهمتم هاتين المقدمتين فاعلموا ان الذى ورد فى الشريعة المحمدية من النصوص المتواترة أو المشهورة التي يعتمد عليها في الاعتقاد في خصوص خلق الاكوان وتنوع الانواع انما هي نصوص لم يبين فيها تفاصيل الخلق وكيفياته لما قلنا ان ذلك ليس من مقاصد الشرائع لكن ورد منها ان الله تعالى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام وانه تعالى استوى الى السماء وهي دخان فسواهن سبع سموات (أى قصد اليها وهي بخار ماء كما فى الجلالين) وقد اختلف أتباع محمد عليه السلام فى تفسير هذه الايام الستة مستندا كل قائل الى دليل من دلائل الشريعة فأكثرهم قال انها كأيامنا أى مقدرة بها لانه حينئذ لم تكن شمس ولا فلك وقال بعضهم انها أيام من أيام الآخرة لانه قد ورد فى أصطلاح شريعتهم ان يوم الاخرة الف سنة من سنينا (تفسير اليوم بألف سنة مروى عن ابن عباس

كما فى مباهج الفكر للوراق) وقال بعضهم انه يطلق على خمسين الف سنه ومع ذلك فهم متفقون على ان الله تعالى قادر على خلق السموات والارض ومابينهما فى أقل من لحظة لما قام لديهم من دلائل عظمة قدرته سبحانه وانما خلق ذلك فى ستة أيام لحكمة هو يعلمها وقد قيل ان من حكمة ذلك تعليم عباده بعد ابلاغهم كيفية ما أجراه فى خلقه ذلك على لسان الرسل ان طريق التأنى خير من طريق العجلة ولو علم العالم من نفسه العصمة عن الخطأ في العجلة وورد أيضا من تلك النصوص ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقهما الله تعالى وفسر هذا النص بعض أتباع محمد عليه السلام بأنهما كانتا شيئا واحدا ملتصقا احداهما بالاخرى ففصل الله تعالى بينهما ورفع السماء حيث هي واقر الارض كما هي (رواه عكرمه عن ابن عباس ومثله عن عطاء والضحاك والحسن وهو قول سعيد ابن جبير وقتادة كما يؤخذ من الجمل على الجلالين والرازى وجعله الرازى أولى وجوه التأويل كما فى سورة الانبياء) وفسره بعضهم بتفسير أخر وقد فهم بعض أتباع محمد عليه السلام من نصوص الشريعة ان الارض خلقت قبل السموات لكنها غير مدحوة أى مبسوطة صالحة للسكنى ثم استوى الله تعالى أى قصد الى السماء وهي دخان (أى كان خلقه قبل ذلك) فسواها سبع سموات ثم دحا الارض أى بسطها وجعلها تصلح للسكنى ومن قال بهذا تاول النص الذى ظاهره يخالفه وفهم بعضهم ان السموات خلقت قبل الارض وتاول ماظاهره يخالفه (نقل هذا الجمل عن الخطيب عن الرازى فى فصلت ثم رأيته فيه) ولكل وجه يستند اليه موافق لاصول الشريعة المحمدية وورد من نصوصها المذكورة ان الله تعالى خلق الكواكب وجعلها زينة السماء

الدنيا أى القربى من الارض فقال بعضهم هى مركوزة في نفس السماء
(هو قول جمهور المفسرين كما نقله فى مباهج الفكر للوراق) وقال
بعضهم هي دون السماء بينها و بين الارض (نقله فى كنز الاسرار للقاضى
الصنهاجى عن مكي فى تفسير سورة التكوير وان صاحب بهجة النفس نقله
عن وهب و نقله في مختصر الهيئه السنية للقرمانى عن كثير من المفسرين
وغيرهم وذكر مثله الشيخ مرعى الحنبلى المقدسى في عجائب المخلوقات
ونقل حديثا أحديا يدل عليه وكذلك نقل هذا الحديث أبو جعفر محمد بن
عبد الله الكسائى فى كتاب الملكوت ونقل الرازى اثرا عن كعب فى تفسير
سورة القدر صريحا فى ان الشمس دون السماء الدنيا) أى وكونها زينة
السماء الدنيا لا يلزم أن تكون مركوزة فيها لجوازان يراد زينتها بحسب
مرآنا وان كانت تحتها أقول ولعلهم يتاولون قوله وجعل القمر فيهن نورا
أى فى السموات نظير هذا التأويل ثم الفلك الذى ورد ان الكواكب
تسبح فيه قيل هو جسم يحملها وقيل هو مدارها أى الحيز الذى تسير فيه
من الفراغ (وهذا قول الضحاك كما فى الرازى) والنصوص تدل على
وجود السموات وانها غير الكواكب كما يفهم مما مر وسيأتى بيان ذلك
عند الكلام معكم على ما استنكرتموه مما ورد فى الشريعة المحمدية والذى
عليه جمهور اتباع محمد عليه السلام ان السماء مرئية لنا وقال بعضهم انها غير
مرئية وانما المرئى الهواء نقله فى عجائب المخلوقات عن القاضى أبى بكر بن
العربى ولعله يؤول النص الذى يدل ظاهره انها ترى بتأويل مناسب) فهذا
ملخص ماورد من نصوص الشريعة المحمدية التى تعتمد فى الاعتقاد فى خلق
السموات والارض والكواكب مع بيان ماورد لعلماء تلك الشريعة من

الاقوال في فهم تلك النصوص وأما تفصيل خلقها و كيفيات تكونها وتكون الشمس والكواكب والارض كما تزعمون من أن أصلها السديم ثم تكونت منه الشمس ثم انفصلت عنها الكواكب ومنها الارض بناء على النواميس التي تذكرونها في كتبكم أو على طريقة أخرى فلم تنص الشريعة المحمدية على شئ من ذلك ولم يرد من نصوصها ما يثبته أو ينفيه لكن قد ورد في القرآن الشريف ما يشير الى ذم التعرض للبحث عن ذلك اذ قال تعالى ماأشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم واذا نظرنا الى هذه التفاصيل التي تذكرونها في تكون الشمس والكواكب والأرض بعين الانصاف ظهر انها فروض وتخمينات كما يظهر من التأمل في شرحكم لها في كتبكم فيجوز أن يكون الله تعالى قد كونها على تلك الطريقة التي تقولون بها ويجوز أن يكون الحال بخلاف ذلك فما دامت تلك الفروض في درجة الظن فاتباع محمد عليه السلام لايجزمون بها في اعتقادهم ويكفيهم فيه ما قد ورد في شريعتهم على أحد الاوجه التي فهمها وقال بها علماؤهم نعم اذا ثبتت تلك الفروض بالدلائل القاطعة التي لاتحتمل النقيض ولامجال للعقل في رفضها (وهيهات ذلك) واقتنعت عقولهم بها فهم حينئذ يقولون بها أي مع اعتقاد ان الله تعالى أوجد الشمس وكونها وفصل منها الكواكب والارض على الكيفية التي تذكرونها والنواميس التي قلتم بها في ذلك التكوين تكون عندهم أسبابا عادية لا تاثير لها في نفسها كالنواميس التي وضعها الله تعالى في تكون بقية العوالم فالنبات مثلا يتكون بواسطة الماء والنور والتراب وليس لذلك تاثير في ايجاد النبات وانما المؤثر الحقيقي هو الله تعالي لكن جرت عادته في وضع تلك الاسباب وايجاد مسبباتها عندها ومن الواضح حينئذان

لاشيء من النصوص المتقدمة ينافي القول بهذا التكون الذي تقولون به كما
لايخفى على المتأمل وعلى كل فالمقصود وهو الاستدلال بالآثار على مؤثرها
حاصل ويمكنكم ايها الماديون اذا اعتنقتم الدين الاسلامي واعتقدتم حدوث
مادة العالم بخلق الله تعالى كما أقمت لكم الدليل عليه فيما تقدم واعتقدتم بوجود
سبع سموات كما سيأتي لكم بيانه وثبت لديكم بالادلة القاطعة تكون الشمس
وانفصال الكواكب والارض عنها على الطريقة التي تقولون بها ان تقرروا
اعتقادكم على وفق ما ورد من نصوص الشريعة المحمدية التي يعتمد عليها
في الاعتقاد وعلى وفق ما فهمه بعض علمائها فتقولون حينئذ هكذا ان الله
تعالى خلق أولا مادة العالم شيأ واحدا وقد سماه الله تعالى عند ذكر مادة
السماء دخانا وفسروه ببخار الماء وهو السديم المنتشر في الخلاء ثم فتق الله
السموات والارض أي انه ميز مادة السماء عن المادة التي يريد أن يكون
منها مادة الشمس والكواكب والارض (ويجرى هذا على ما روى عن
ابن عباس ومن معه في تفسير الرتق والفتق كما تقدم قريبا) ثم رفع مادة
السماء فوق مادة المذكورات ثم كون الشمس وفصل عنها الكواكب
والارض (وهذا يجرى على قول من يقول ان الفلك هو مدار الكواكب
أي حيزها من الفراغ كما تقدم) ولكن الارض كانت بعد فصلها غير مدحوة
أي بصورة لاتصلح للسكنى ثم قصد سبحانه الى السماء وهي دخان أي بخار
ماء وهو السديم فسواها سبع سموات والسماء لاترى وانما المرئي هو الجلد
(ويجري هذا على قول أبي بكر بن العربي كما تقدم) ثم دحا الارض بعد ذلك
وكل ذلك أجراه الله تعالى على نواميس مخصوصة وهي أسباب عادية وفي
أزمنة مستطيلة هي التي سماها ستة أيام وهو قادر سبحانه على تكوين جميع

ذلك بدون تلك النواميس وفي أقل من لحظة وعلى هذا فالشمس والكواكب والارض تكون قائمة تحت السماء بناموس الجاذبية الذي وضعه الله تعالى فيها وهو سبب عادى والفاعل الحقيقى هو الله تعالى ففى هذا التقرير يكون مذهبكم قد انطبق على ما ورد فى نصوص الشريعة المحمدية المتقدمة وعلى ما قال به بعض علمائها من تكون السماء والكواكب والارض وفى مواقعها وعليه فلا مخالفة بين مذهبكم وبين الدين الاسلامى توجب اخراجكم من عداد اهله ولكن اتباع محمد عليه السلام لا يلتزمون القول بهذا التفصيل الذى مرحتى تقوم عندهم الادلة القاطعة على ثبوت الكيفية التى قلتم بها فى تكون الشمس وانفصال الكواكب والارض عنها والا فهم يقتصرون فى الاعتقاد على ماتقدم ذكره من النصوص التي وردت فى شريعتهم ويتبعون رأى جمهور علمائهم على ما فى ذلك من الاجمال ويفوضون علم تفصيل ذلك الى الله تعالى لانهم لم يكلفوا بالبحث عن تفصيل ذلك واذا سئلوا عنه أو عن امثاله من كل مالم يرد في شريعتهم تصريح فيه ولم تقم الادلة القاطعة عليه بل كانت ادلته ظنية فان كان ينافى نصوص شريعتهم رفضوه وامتنعوا عن القول به وان لم يناف تلك النصوص قالوا يحتمل الصحة ويحتمل خلافها اذ هو امر مظنون

هذا ثم المدار في اعتقاد اتباع محمد عليه السلام في شان عوالم الكون ان يعلموا علما جازما انها حادثة فلابد لها من محدث وهو الله تعالى احدثها واوجدها من العدم ونوعها الى انواعها التى تشاهد الآن وان جميع ذلك لم يكن بتأثير طبيعة أو ناموس والنواميس التى تشاهد فى تكوين بعض الكائنات انما هى اسباب عادية وضعها الله تعالى لذلك وهو غنى عنها قادر على احداث تلك الكائنات بدونها وهذا القدر من العلم الجازم يكفيهم فى الاستدلال على

وجود الله تعالى واتصافه بالقدرة والعلم وسائر الصفات التى تدل عليها تلك الاثار فعلى موجب هذا الاعتقاد عند ما يكون التفاتهم الى خصوص تكون عوالم الارض من معدن ونبات وحيوان كان من الواضح انه لا فرق عندهم بين ان يعتقدوا ان الله تعالى اوجد انواع هذه العوالم الثلاثة بطريق الخلق أى انه اوجد كل نوع منها ابتداء مستقلا عن غيره ليس مشتقا عن سواه سواء اوجده دفعة واحدة أو اوجده بتكوين متمهل بان رقاه من ابسط مادة على تطورات عديدة حتى بلغ به ما هو عليه وكل من التكوين الدفعى والمتمهل من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى وهو سبحانه فاعل مختار لا حجر عليه فى سلوك أى طريق إراد وبين ان يعتقدوا ان الله تعالى اوجد انواع هذه العوالم بطريق النشو أى انه اوجد المادة البسيطة ثم رقاها الى عناصر ثم الى معادن أو الى ابسط جسم حي (البرتو بلاسم) ثم الى ادنى النبات أو الحيوان ثم فرع من ذلك بقية الانواع واشتق بعضها من بعض ويختار ابقاء البعض ويبيد البعض واجرى جميع ذلك على نواميس وضعها فى المادة يتسبب عنها ذلك الارتقاء والتنوع الى ان بلغت تلك العوالم انواعها التي عليها الان فكل من هذين الاعتقادين أي اعتقاد طريق الخلق واعتقاد طريق النشو فى ايجاد العوالم المذكورة ما دام مستندا الى خلق الله تعالى وانه ليس لسواه تاثير كان من حقه ان يكفى اتباع محمد عليه السلام لاستدلالهم على وجود الله تعالى واتصافه بالصفات التى تدل عليها تلك الاثار وبعبارة اخرى ان كلا من اعتقاد ان الله تعالى اوجد كل نوع من انواع هذه العوالم مستقلا عن غيره ابتداء اما بدفعة واحدة واما بتمهل وتكون الاجناس بعد ذلك منتزعة فى العقول ومتصورة من تلك الانواع وليس لها وجود الا فى

الصور الذهنية ومن اعتقاد انه شبحانه اوجد فى الخارج مادة الاجناس اولا ولم يزل يرقيها وينوع منها الانواع ويشتق الانواع من بعضها حتى بلغت ما هى عليه الآن هو كاف للاستدلال على وجود الله تعالى واتصافه بالصفات المذكورة لكن النصوص المعتمدة فى الاعتقاد التى وردت في الشريعة المحمدية فى شان خلق عوالم الارض هذه خلاصتها ورد ان الله تعالى جعل من الماء كل شيء حى وانه خلق كل دابة من ماء وانه بث أى فرق فى الارض الدواب وانه خلق من كل زوجين اثنين وانه خلق من الانعام ازواجا (أى ذكورا واناثا كما فى التفسير) وانه خلق الازواج كلها (أى الاصناف كلها كما فى التفسير أيضا) وانه خلق الزوجين (أى الصنفين كما في التفسير أيضا) الذكر والانثى وانه جعل فى الارض من كل الثمرات زوجين اثنين (أى من كل نوع كما في التفسير أيضا) فالنصوص الثلاثة الاولى يحتمل ان يجرى في تفسيرها بحد ذاتها على مذهب الخلق أو مذهب النشو والنصان الاولان يوافقهما القول الحديث لكم ايها الماديون ان تكون المادة الحيوية من الماء واما بقية النصوص المذكورة فالمعنى الظاهر المتبادر منها هو ان الله تعالى اوجد انواع العوالم بطريق الخلق أي انه اوجد كل نوع منها مستقلا عن غيره ليس مشتقا من سواه اعم من ان يكون بايجاد دفعى أو متمهل كما لا يخفى على من يدرى اساليب الكلام العربى لان من يقول مثلا قدمت لضيفانى من الاطعمة انواعا يتبادر من كلامه انه اصطنع كل نوع مستقلا عن البقية وقدمه اليهم واما كونه اصطنع جملة الطعام جنسا واحدا ثم فرع منه الانواع بترقيه في صناعة الطبخ واشتقاق نوع من نوع فهو معنى بعيد عن الارادة لايخطر فى البال وان كان جائز الوقوع وربما يوجد في النصوص الاحادية التى هى ليست

مدار الاعتقاد ما يؤيد هذا المعنى الظاهر الذى تفيده تلك النصوص التى عليها المدار ولكن مع ذلك كله لم يرد نص يفيد ان كل نوع اوجده الله تعالى مستقلا قد اوجده دفعة واحدة أو بتمهل نعم قد ورد في بعض النصوص الاحادية (فى حديث مسلم) ان الله تعالى خالق الشجر في يوم كذا من الايام الستة التى اوجد الله تعالى فيها السموات والارض ثم خالق بعده الحيوانات في يوم كذا منها لكن هذا لايفيد الا ان الحيوان تاخر عن الشجر فى الخلق واما ان كل نوع منهما كان ايجاد دفعيا أو بتمهل فلا يفيد شيئا من ذلك فبلى ما تقدم من ظاهر تلك النصوص وبحسب القاعدة المتقدمة من ان الواجب في الشريعة المحمدية ان يعتقد اتباعها المعانى المتعينة او المعانى الظاهرة من نصوصها المتواترة أو المشهورة مالم يعارض المعانى الظاهرة دليل عقلى قاطع يلجىء الى تاويلها يجب ان يكون اعتقاد اتباع محمد عليه السلام ان الله خالق كل نوع من عوالم الارض مستقلا ابتداء عن البقية ولم يخلقها بطريق النشوء ويشتق نوعا من نوع وان كان قادرا على كلتا الصورتين واما ان كل نوع خلقه دفعة واحدة أو بتمهل وترق بسبب نواميس وضعها الله له فهذا سبيله عندهم التوقف حيث لم يرد فى شريعتهم ما يفيد القطع باحد الامرين ولا يسوغ لهم بمقتضى حكم شريعتهم كما تقدم ان يعدلوا عن اعتقاد هذا الظاهر الى الاعتقاد بخلافه من نحو النشوء واشتقاق بعض من بعض كما تقولون ايها الماديون لان هذا خلاف ظاهر النصوص المتقدمة ولم يقم عليه دليل قاطع يضطرهم الى تاويلها والادلة التى تذكرونهـا فى كتبكم على النشوء ما هى الا ظنون وفروض لم تخرج عن دائرة الاحتمال الذى يسقط به الاستدلال كما يظهر من الاطلاع عليها مع خلو الغرض وما دام الحال كذلك فاتباع محمد لا يصرفون تلك النصوص عن ظواهرها ولو

مع اعتقادهم بان ذلك النشو بخلق الله تعالى بل لايسوغ لهم الصرف ما دام الحال كذلك نعم لوقام الدليل العقلي القاطع على خلاف ظاهر تلك النصوص كان عليهم حينئذ ان يؤلوها للتوفيق بينها وبين ما قام عليه ذلك الدليل جريا على القاعدة المتقدمة (واخال ان دون ذلك خرط القتاد) فانتم أيها الماديون لو فرض ان أدلتكم على النشو بلغت درجة اليقين وهديتم الى اعتقاد دين محمد عليه السلام الذى اساسه ان لا خالق لشيء الا الله تعالى فلا حجر عليكم فى تأويل تلك النصوص وصرفها عن ظاهرها وتطبيقها على ما قامت عليه الادلة القاطعة من النشو مع اعتقاد انه بخلق الله تعالى ولا ينافى ذلك والحالة هذه ان تحسبوا من أهل الدين الاسلامى ولايفوتكم شيء من الاستدلال بهذه الكائنات على وجود الله تعالى وكمال قدرته وعلمه وحكمته ولكن احذركم من الغلط وتوهم الدليل الظنى الذى يقوم عندكم انه دليل يقيني فعليكم بالتدقيق والله الهادى هذا وجميع ما حررت هنا هو في شأن تكون عوالم الارض بقطع النظر عن الانسان واما هذا فالكلام فى تكونه أذكر بيانه مستقلا

فاقول قد ورد من نصوص الشريعة المحمدية التى عليها مدار الاعتقاد فى خلق الانسان ان الله تعالى بدأ خلقه من طين وانه خلقه من تراب ومن طين لازب ومن سلالة من طين ومن حمأ مسنون ومن صلصال كالفخار وورد انه خلقه من ماء قال بعض اتباع محمد عليه السلام (هو الامام الرازى) ان التراب والماء أصلان للانسان أى انه خلق منهما فتارة تذكر النصوص هذا وتارة تذكر ذاك وورد ان الله تعالى خلقه بيديه وهذه العبارة تدل على ان خلقه كان بصورة ممتازة عن بقية العوالم وورد انه

سبحانه خلق البشر من نفس واحدة (أدم) وخلق منها زوجها (حوا) وبث منهما رجالا كثيرا ونساء فهذه النصوص تفيد ظواهرها ان الله تعالى خلق الانسان نوعا مستقلا لا بطريق النشو ولم يشتقه من نوع آخر كما تقولون لا سيما النص الذي يقول بدأ خلق الانسان من طين وقد جاء في بعض النصوص الاحادية ماهو بين الصراحة جدا بأن خلق الانسان كان مستقلا وليس هو مشتقا من غيره ولاشك ان هذه النصوص وان لم يكن عليها مدار الاعتقاد بانفرادها فلا أقل من انها تقوى ظواهر تلك التي عليها المدار وتعضدها وأيضا يبعد كل البعد ان يكون أصل الانسان المادة البسيطة ثم ترقى الى العناصر ثم الى المادة الحيوية وهى البرتوبلاسم ثم الى أدنى حيوان ثم ترقى حتى بلغ القرد ثم الى القرد الانسان ثم الى الانسان كما تقولون ومع ذلك يهمل الله تعالى بيان جميع ذلك ويقتصر على قوله بدأ خلق الانسان من طين بل كان من حكمته ان يشرح تلك التطورات والترقيات ويفصلها حسبما جرى عليه في تفصيل خلق ذرية الانسان فانه فصله في نصوص الشريعة بانه خلقهم من تراب (أي لان غذاء آبائهم الذي يستحيل منيا كان أصله التراب كذا يؤخذ من الرازى وفي تفسير آخر ان معنى خلقهم من تراب خلق أبيهم آدم) ثم من نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم أخرجهم طفلا فان ذلك التفصيل له وقع فى النفس فى الدلالة على قدرة الخالق سبحانه لما فيه من نقل المادة من طور الى طور فسكوت النصوص المذكورة عن بيان النشو واشتقاق الانسان من نوع سواه واقتصارها على ما تقدم من البيان هو ظاهر في ان الانسان خلق نوعا مستقلا ليس مشتقا كما تقولون وان كان كلا الامرين من الجائز

العقلى الداخل تحت تصرف قدرة الله تعالى نعم ليس فى تلك النصوص
صراحة بأن الله خالق الانسان الاول من تراب دفعة واحدة أو بتكوين
متمهل على انفراده فسبيل هذا التوقف وعدم الجزم بأحد الامرين حسب
النصوص التى عليها مدار الاعتقاد وان كان قد يظهر من بعض النصوص
الاحادية ان تكون ذلك الانسان (وهو آدم) كان بتمهل ومرت
عليه مدة من الزمان والله قادر على كلا الطريقين وقد صرح بعض علما
أتباع محمد عليه السلام (هو الامام الرازى) فى تفسير قوله تعالى خلقكم
من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون بأن خلق الانسان كان مبتدأ مستقلا
ليس مترقيا من الادنى حتى بلغ ما هو عليه وهذا ما قال ان اذا للمفاجأة
يقال خرجت فاذا الاسد بالباب وهو اشارة الى ان الله تعالى خلقه يعنى
الانسان من تراب بكن فكان لا انه صار معدنا ثم نباتا ثم حيوانا ثم انسانا
وهذا اشارة الى مسئلة حكمية وهى ان الله تعالى يخلق أولا انسانا فينبهه
انه يحيى انسانا وناميا وغير ذلك لانه خلق أولا حيوانا ثم يجعله انسانا
فخلق الانواع هو المراد الاول ثم تكون الانواع فيها الاجناس بتلك
الارادة فالله تعالى جعل المرتبة الاخيرة فى الشىء البعيد عنها غاية من غير
انتقال من مرتبة الى مرتبة من المراتب التي ذكرها انتهى فهذا تصريح
بأن ذلك النص يفيد ان الانسان كان تكوينه بطريق الخلق مستقلا ابتداء
لا بطريق النشو كما تزعمون وطريق الخلق هو الذى تعطيه ظواهر بقية
النصوص فاعتماد اتباع محمد عليه السلام في الاعتقاد عليه لا على النشو ولا
يجوز لهم تأويل تلك الظواهر وصرفها عن معناها الظاهر الا اذا قام دليل
عقلى قاطع يدل على ان الله تعالى خالق الانسان بطريق النشو كما تزعمون

(هيهات هيهات) فعند ذلك يضطرون الى تأويل ظواهر تلك النصوص كما هو القاعدة عندهم فى التوفيق بين الدليل النقلى والدليل العقلى المتعارضين وبعد ذلك لا يخفى ان النشوعندهم لو ثبت هو غير النشو عندكم لانه لو ثبت عندهم كانوا يقولون هو بخلق الله تعالى لما قام عندهم من الدليل على انه لا خالق ولا مؤثر سواه والنواميس التي ترافقه ماهى الا أسباب عادية لا تأثير لها البتة واما النشو عندكم فهو على زعمكم بتاثير تلك النواميس فشتان مابين المعنيين ثم لتعلموا ان الادلة التي تذكرونها فى كتبكم على النشو يظهر للناظر بعين الانصاف انها لا تضطر اتباع محمد عليه السلام الى تاويل ظواهر تلك النصوص والقول بالنشو لانها أدلة ظنية مبناها الفروض وهم لا يضطرون الى التاويل الا بمعارضة اليقين كما علمتم فانتم لو فرض وصولكم الى أدلة يقينية قاطعة على وجود الانسان بطريق النشو واعتقدتم بالدين الاسلامى الذى أساسه ان الله تعالى هو الخالق للا كوان ولا تاثير لسواه فيها فلا مانع يمنعكم من تاويل تلك النصوص وصرفها عن ظاهرها للتوفيق بينها وبين ماقام لديكم حينئذ من الادلة اليقينية ولا تخرجون بهذه الطريقة عن الدين الاسلامى وأعيد تحذيركم من الوقوع فى الغلط بظن الادلة الظنية انها يقينية فحرروا الدليل واستوضحوا السبيل وربما يعارضكم حينئذ ماقاله جمهور اتباع محمد عليه السلام من ان الانسان الاول (آدم) قد خلق في جنة عدن التى هى غير أرضنا أوما قاله بعضهم (هو السدى كما في كنز الاسرار) انه خلق فى السماء الدنيا فان هذين القولين لا يوافقان النشو الذي مبناه انه حصل في الارض فلكم مناص عن ذلك بالجرى على ماقاله بعضهم (هو منذر بن سعيد البلاطى وجماعة كما في كنز الاسرار أيضا) انه

خلق فى جنة من جنان الدنيا وبذلك تكونون قد وافقتم قولا لاتباع محمد عليه السلام يدفع عنكم مضادة الدين الاسلامى وربما يعارضكم أيضا ان الله تعالى بعد ما خلق الانسان الاول (آدم) خلق زوجته منه وأسكنهما الجنة وتلك الجنة هي دار الثواب التي وعدها الله تعالى عباده المؤمنين بعد الموت والبعث وهي غير أرضنا وهو قول جمهور اتباع محمد عليه السلام فلكم مناص عن ذلك أيضا بالجرى على قول بعضهم (هو أبو قاسم البلخى وأبو مسلم الاصفهانى مفسر كبير كما نقله عنهما الرازى) ان تلك الجنة كانت فى الارض ويحمل اهباطهما منها على الانتقال من بقعة الى بقعة كما في قوله اهبطوا مصرا وان اشكل عليكم أيضا ما يقوله الاكثرون من اتباع محمد عليه السلام (وهو غير مشكل اذ هو من الجائز العقلى الداخل تحت تصرف القدرة الالهية هذا الحيوان الهيدرا يقسم ثلاثة أقسام ثم يعود كل قسم حيوانا مستقلا كما تقدم ولكن جارينا الخصم لتسهيل الامر عليه) من ان الله تعالى بعد ما خلق الانسان الاول (آدم) خلق منه زوجته (حواء) أى من ضلع من أضلاعه اليسرى لما ورد فى شريعتهم من النصوص الاحادية ان المرأة خلقت من ضلع أعوج فان ذهبت تقيمها كسرتها وان تركتها وفيها عوج استمتعت بها ولتصريح بعض اجلاء اتباعه بذلك (هم ابن مسعود وابن عباس وبعض الصحابة كما في تفسير أبى السعود) فلكم مخلص عن ذلك أيضا بالجرى على ما اختاره بعضهم (هو أبو مسلم الاصفهانى كما فى الرازى) مؤولا النص الذى ورد فى الشريعة من أن الله تعالى خلق من الانسان الاول زوجته بان المراد بخلقها منه انها من جنسه كما قال في نص آخر جعل لكم من انفسكم أزواجا وبهذه الطريقة أيضا تكونون قد وفقتم بعضا من علماء اتباع محمد عليه

الســلام بنوع من التاويل وبهذا لا تصادمون الدين الاســلامى مصادمة تخرجكم من عداد اتباعه اذ لم تكذبوا نصا معتمدا فى الاعتقاد ولم تخالفوا اجماع اتباع محمد عليه الســلام على أمر معــلوم من الدين بالضرورة غاية ماأجريتم انكم خالفتم الاكثر ووافقتم البعض وتأولتم النصوص بتأويل يوفق بين الادلة النقلية والعقلية والله الهادى الى سواء السبيل

ثم تلخص مما قررناه من ان اتباع محمد عليــه الســلام يعتمدون فى الاعتقاد ظواهر نصوص شريعتهم التى عليها مدار الاعتقاد لثبوت ورودها قطعيا ولا يؤلونها ويصرفونها الى غير الظاهر اذا عارضتها ادلة عقلية ظنية بل اذا عارضتها أدلة عقلية يقينية فقد يخطر في البال ان لكم أيها الماديون مجالا ان تقولوا اسامنا ان اتباع محمد عليه السلام لا يسوغ لهم ترك اعتقاد معنى النصوص المتعينة المعنى ولكن النصوص التى هي ظاهرة المعنى مادامت تحتمل معنى غــير ظاهر وان كان بعيدا فهى ظنية الدلالة على المعنى الظاهر وان كانت يقينية الورود فقد تساوت فى الدلالة مع مايقوم عندنا من الادلة الظنية فما الحامل لهم على ترجيح تلك الظواهر على أدلتنا فاقول فى الجواب ان النصوص الظاهرة المعنى وان كانت ظنيــة الدلالة على المعنى الظاهر منها فى حد ذاتها اذ يحتمل ان يراد منهــا المعنى البعيد غير الظاهر ولكن الاصــل فى التخاطب ارادة المعنى الظاهر دون خلافه الا لداع يدعو اليه فارادة المعنى البعيد من غير داع يكون خللا في الافادة والاستفادة وخروجا عن الاصــل وفي ذلك من المفاسد مالا يخفى فلذلك اجمع اتباع محمد عليه السلام على اعتماد المعنى الظاهر وعدم الالتفات الى المعنى غير المتبادر الا لداع يدعو اليه وهو معارضة الدليل العقلى القاطع ويكون ذلك الداعى كالقرينة على ارادة المعنى غير المتبادر من اللفظ ويصير

هذا المعنى بسبب ذلك الداعى هو الظاهر وهكذا كلفوا من جانب شريعتهم ان
ان يعتمدوا المعنى الظاهر ولا يلتفتوا الى خلافه الا عند الداعى فلو فرض
انهم اعتقدوا الظاهر من اللفظ قبل ظهور الداعى الذى يدعوهم للانصراف
عنه يكونون قد أتوا بما كلفوا ولا اثم عليهم فى ذلك ولو فرض انه ظهر
لهم الداعى الى الانصراف عن الظاهر بعد ذلك وانصرفوا به يكونون
أيضا قد أتوا بما كلفوا به ولا اثم عليهم فى ذلك اذ هو حكم شريعتهم وانما
انحصر الداعى الى ترك الظاهر بمعارضة الدليل العقلى القاطع لان رفض
هذا الدليل رفض للاصل الذى ثبت به صدق الرسول وهو العقل كما تقدم
ورفض العقل يوجب رفض الشرع وأما معارضة الدليل الظنى فلا يكون
داعيا لترك الظاهر لان رفض الدليل الظنى لايوجب رفض العقل كما هو
ظاهر الاحتمال انه فاسد فلو تركوا الظاهر واعتقدوا مايدل عليه الدليل
الظنى لكانوا فى معرض أن يكون اعتقادهم خطأ وحينئذ لا تعذرهم
الشريعة فى ذلك اذ لا ضرورة تدعوهم اليه كما تدعوهم الضرورة عند معارضة
الدليل القاطع على ان اتباع الادلة الظنية وترك الظواهر يوجب اختباطا
واختلاطا في الاعتقاد لايحدفان الظنون كثيرة كل يظن ظنا ويخمن تخمينا
والاعتقاد يعتمد فيه اليقين فكان من الصواب أن يتمسك اتباع محمد
عليه السلام بظواهر نصوص شريعتهم اليقينية الورود ولا يتحولون عنها الى
خلافها لمجرد الظنون والله الهادى

وقد آن ان أبين لكم أن أدلتكم التى ذكرتموها فى كتبكم على النشو
وتوجيها تكم له كل ذلك ظنى لايضطر اتباع محمد عليه السلام الى تأويل
نصوص شريعتهم الظاهرة المعنى بان وجود العوالم بطريق الخلق ولا أريد

أن أتصدي لمناظرتكم في ابطال ذلك والرد عليكم في كل ماقررتموه في اثبات تلك الدعوى لان ذلك يحتمل كلاما كثيرا نخرج به عن موضوع بحثنا الذي نحن بصدده ومن حقه افراد كتاب لذلك أعانني الله على جمعه ولكن أريد أبين لكم أن معتمد أدلتكم على النشو وتوجيهكم له لم يتجاوز الظن والتخمين و بذلك كفاية لما هو غرضنا فاقول ان معظم ما استندتم عليه في الاستدلال على نشو الانواع من أصل واحد انكم شاهدتم الاعضاء الاثرية في بعض الحيوانات لافي كلها ولافي غالبها وهي آثار اعضاء توجد في الحيوان كاثار أرجل مثلا غير كاملة بل الذي يظهر منها مبدأ تكونها فقلتم انه لو كان كل نوع مخلوقا مستقلا كما هو مذهب الخلق لما كان بهذه الآثار فائدة لان مذهب الخلق يقتضي ان يكون في كل نوع اعضاؤه اللازمة له ذات الفائدة لاأقل ولا أكثر وهذه الاعضاء الاثرية لافائدة لها الآن فيظهر انها آثار أعضاء في نوع قديم وقد كانت لازمة له ثم لما طرأ على هذا النوع تغيرات تقتضي استغناءه عنها أخذت تتلاشى حتى لم يبق الآن الا اثرها أو ان هذا النوع كان خاليا عن تلك الاعضاء فطرأت عليه تغيرات تؤهله لان ينقلب الى نوع آخر يحتاج الى تلك الاعضاء التي ظهرت آثارها فابتدأت تظهر فيه الآثار والخلاصة ان تلك الآثار اما آثار أعضاء كانت قديمة وأخذت تتلاشى وأما مبادي أعضاء سوف تكمل وعلى كل فقد ثبت صحة التغير للانواع وانتقال النوع الى نوع آخر وذلك يدلنا على صحة النشو والارتقاء والا فماهذه الآثار ومما استندتم عليه بالاستدلال على النشو والارتقاء انكم وجدتم في اكتشافاتكم الجيليوجية ان الاسبق في طبقات الارض هو أدنى النبات و أدنى الحيوان ثم بعده الاوقى فالارقى حتى كان أرقى الجميع هو المتأخر

في زمن وجوده ومكانه من طبقات الارض العليا والادنى قد تلاشى بعد ماوجد الذى هو أرقى منه فلو كان مذهب الخلق هو الصحيح لكان يوجد من كل نوع من الارقى والادنى فى الازمنة الجيلوجية المتقدمة والمتوسطة والمتأخره وكان يشاهد ذلك فى الطبقات السفلى والوسطى والعليا من الارض ولكن ذلك لم يكن فلولا ان الانواع مترقية عن بعضها البعض فاصل الموجودات هى الدنيا ثم أخذت تترقى حتى بلغت ماهى عليه الآن وكان الارقى يلاشى الادنى بتنازع البقاء لما كان الحال كما اكتشفنا ثم احلتم ذلك الارتقاء وتحول الانواع لبعضها وملاشاة الادنى بالارقى على أربعة نواميس الاول ناموس الوراثة اى ان الفرع يرث صفات الاصل الثانى ناموس التباينات أى ان كل فرع مع ارثه لصفات كانت فى أصله لابد أن يباينة في صفات أخرى الثالث ناموس تنازع البقاء أى ان الانواع تنازع بعضها فى التسابق الى أسباب المعيشة ويطرء عليها كوارث خارجية كالحر والقر ويهلك الضعيف بتغلب القوى أو بالكوارث ويبقى القوى المتحمل لها الرابع ناموس الانتخاب الطبيعى أى ان القوى والانسب هو الباقى والضعيف وغير الانسب هو المتلاشى فنتج عن ذلك انتخاب الطبيعة للانواع الحاضره وتقررون النشو والارتقاء على وجود هذه النواميس هكذا تقولون ان أول موجود من الاجسام الحيوية هو المكون الاول البرتوبلاسم تكون من اجتماع بعض العناصر بسبب حركة أجزاء المادة ثم أخذ ذلك المكون في التوالد فصارت فروعه ترث صفات منه وتباينه فى صفات أخرى وهكذا جرت الفروع مع الاصول ويحدث الترقى بسبب ذلك الى ان بلغت رتبة أدنى الحيوان والنبات ودام الحال على ذلك فنشأ من ارث الفروع لصفات الاصول ومباينتها لها فى صفات أخرى

على كرور السنين وكثرة التباينات الموروثة ان صار الحال الى تنوع الانواع
واشتقاق بعضها من بعض ونشأ من تنازع البقاء هلاك الضعيف وبقاء القوى
ونتيجة ذلك على طول الزمان حصول الانتخاب الطبيعى ومن ذلك كله
وصلت الانواع الى ما هى عليه الآن وأصلها واحد ولما رأيتم الانسان يشبه القرد
ويقاربه فى صورته وبعض أعماله قلتم لامانع أن يكونا اشتقا من أصل واحد
وبتلك النواميس ترقى الانسان عنه حتى وصل الى ماوصل اليه هذا وانى
رأيت بعض أخصامكم فى مذهبكم هذا قد حاولوا أبطال مستنداتكم بتطويلات
تورث السآمة بلا نتيجة كافية وأنتم تروغون منهم وتحشدون الادلة لاثبات
مذهبكم وطالت فى ذلك بينكم المناظرة والفت فيها كتب ورسائل بتطويل
من دون طائل ولست متصديا الآن لما تصدى اليه أولئك الاخصام ولكن
اريد أن أبين لكم ان ماتعتمدون عليه فى الاستدلال على الارتقاء والنشو
أمور ظنية لايعتمد عليها فى الاعتقاد عند أتباع محمد عليه السلام ولا تعارض
ظواهر نصوص شريعتهم فتضطرهم الى تأويلها اذ لا يضطرهم الى ذلك الا
معارضة اليقين كما قدمنا

فأقول اعلموا ان الدليل متى طرأ عليه الاحتمال ولو كان احتمالا بعيدا سقط
به الاستدلال على اليقين وهذا حكم لاينكر عند كل العقلاء ولا أخال انكم تنكرونه
اذا تقرر ذلك فاعلموا ان استدلالكم بالاعضاء الاثرية على النشو بانها تدل على
تغيير الانواع فتوافق مذهب النشو ولا توافق مذهب الخلق هو استدلال لا نتيجة له
الا الظن وليس من اليقين فى شىء لتطرق الاحتمال فيه اذ لقائل أن يقول ما المانع
ان تلك الاعضاء الاثرية لها فائدة وفيها حكمة قد خفيت عليكم كما خفى
عليكم فوائد أشياء كثيرة توجد فى أجسام النباتات والحيوانات كما يظهر من

مراجعة كتب الفاثولوجية مثلا هذه المادة الملونة في جسد الحيوان مجهولة الفائدة في أكثر أجزاء الجسد الا في المقلة فالحكمة منها في المقلة امتصاص أشعة النور الزائدة وأمثال ذلك كثيرة فأنتم لم تحيطوا علما بفائدة كل شئ حتى تجزموا بأن تلك الاعضاء الاثرية لافائدة لها البتة سلمنا انها لافائدة لها وانها تدل على تغيير النوع الذي هو فيه لكن نقول انها لم توجد الا في بعض الانواع ولم توجد في كلها بل ولا في غالبها وعلى ذلك فما المانع من ان التغير قد يوجد في بعض الانواع وهي التي وجدت فيها تلك الاعضاء فيتحول نوع الى نوع آخر باسباب وضعها الله لذلك وأما باقي الانواع التي لم توجد فيها تلك الاعضاء فقد خلقت مستقله ولم يطرء عليها ذلك التغير فلم يثبت مذهب النشو الذي قائم بعمومه في كل الانواع مثلا يمكن أن يكون قد حصل تغير في نوع من الحيات التي وجدتم فيها الاعضاء الاثرية فكانت أولا مثل الحرذون ذات أرجل ثم لما اشتشعر الانسان أوغيره من الحيوان باذيتها تسلط عليها بالقتل فصارت تحذره وتسلك في أوكار الارض وتنسل في التراب وتهمل استعمال أرجلها لاستغنائها عنها فعلى طول الزمان غير الله خلقها بذلك السبب العادي وأخذت تتلاشى أرجلها بخلق الله تعالى وينتقل ذلك التغير الى فروعها ويورث ذلك التلاشي حتى بلغت الى ماهي عليه الآن ولم يبق الا أثار تلك الارجل (هنا مجال لما ورد في بعض الآثار الاحادية عن ابن عباس وابن وهب وغيرهما من المفسرين ان الحية كانت من حيوانات الجنة فتوسطت لابليس بدخولها ليوسوس لآدم عليه السلام فأهبطها الله تعالى الى الارض ومسخ صورتها وقد كانت حسنة الصورة ذات قوائم أربع نقله في كنز الاسرار) وهكذا يقال في بقية ماشوهد فيه الاعضاء

الاثرية وأما بقية الانواع وهى الا كثر فنقول انها لم يحصل لها أدنى تغير بل هى كما خلقت فعلى هذا التقرير يكون حكمكم على جميع الانواع بالتغير وباستنتاج النشو منه حكما مبنيا على الظن الذى نتج معكم من الاستقراء الناقص الذى لايفيد اليقين ألا ترون أنه لو فرض أن أناسا كانوا يسكنون البرارى البعيدة عن البحار والانهار ولم يشاهدوا الاحيوانات البراتي لاتعيش في الماء وحكموا بما استقروه من تلك الحيوانات بان الحيوان لايعيش فى الماء يكون استقراؤهم ناقصا وحكمهم خطأ واذا وردوا شطوط البحار والانهار وشاهدوا حيواناتها ظهر لهم خطؤهم فى حكمهم السابق هذا ثم ان مشاهدتكم في اكتشافاتكم الجيلوجية ان الاسبق فى طبقات الارض هو أدنى النبات وأدنى الحيوان ثم بعده الارقى فالارقى حتى كان أرقى الجميع هو المتأخر فى زمن وجوده ومكانه من طبقات الارض وانه قد تلاشى الادنى فالادنى الي آخر ماتقدم من تقريركم واستدلالكم بذلك على الترقى والنشو وان ذلك لايوافق مذهب الخلق فأقول دلالة هذا الحال فى الاكتشافات بعد تسليمه على الترقى والنشو مظنونة أيضا اذ يقال ما المانع من ان أول ماوجد فى طبقات الارض أدنى النبات وأدنى الحيوان ثم أوجد الله تعالى ماهو أرقى منهما مستقلا كل نوع منه اليس ناشئا عن نوع من أنواع ذلك الادنى ثم أباد الادنى لاسباب كونية من نحو ان الدور الزماني لم يبق مناسبا له وانما يناسب ماوجد بعده أو ان الارقى تغلب عليه أو غيرذلك من الاسباب ثم بعد دور آخر أوجد ماهو أرقى من الثانى مستقلا كل نوع منه أيضا غير ناشىء عما قبله ثم أباد الثانى لاسباب أخرى كونية كما تقدم ثم بعد دور آخر أوجد ماهو أرقى من الثالث مستقلا كل نوع منه أيضا ثم أباد الثالث وهكذا الحال حتى

وصل الدور الى أنواع النبات والحيوان الموجوده الآن مستقلة أنواعها غير ناشئة عما قبلها وقد أباد ماقبلها بمثل تلك الاسباب فبقيت احافيرها واثارها فى طبقات الارض واذا كان هذا الاحتمال قائما فاين اليقين فى استدلالكم على الترقي والنشو فيما اظهرته اكتشافاتكم الجيلوجية وبهذا الاحتمال لاتخالف تلك الاكتشافات مذهب الخالق ونظير وجود نباتات وحيوانات تلك الادوار الجيلوجية مستقلة غير ناشئة عن بعضها بل كان وجود كل رتبة منها لمناسبة دورها الزماني ما نشاهده كل عام فى توالد كثير من النبتات والحيوانات عند انقضاء فصل الشتاء وقدوم الربيع والصيف فان أول ما ينبت عند ذلك النبات الدنى مثل الطحالب والاعشاب ثم يتدرج الامر الى الارقى فالارقى من النبات كلما تزايد الحر وهلم جرا وأول ما يتولد أو تنفرج عنه بيوضه الحيوان الدنى مثل البكتوريا والحيوانات المتولدة في العفونة والبراغيث والذباب ثم يتدرج الامر كذلك الى الارقى فالارقى حتى يصل الدور الى بروز النباتات والحيوانات العلياء وليس شيء من تلك الانواع ناشئا عن نوع اخر ومتحولا عنه ونرى والانواع التى تنشأ اولا في اول تلك المدة كلما تقدم زمن الحر يهلك كثير منها لاسباب كونية من نحو تاثير الحر بها أو سطوة الانواع التى توجد بعدها ارقى منها ونحو ذلك وعند انتهاء مدة الصيف لايبقى غالبا الا الانواع العليا التى هى منتخبات جميع ما تولد فى تلك المدة والتى هلكت تبقى لها بقايا فى الارض كبقايا الاحافير فهذا الحال السنوى يكون حاكيا وممثلا للحالة الجيلوجية التى اطلعتكم عليها اكتشافاتكم من انّ اول ما وجد الادنى ثم الارقى فالارقى حتى وصل الحال الى الانواع الحاضرة وهلك ما قبلها فقد سقط استدلالكم باكتشافاتكم على النشو كما هو ظاهر للمنصف ثم النواميس الاربعة التى

احلتم الارتقاء والنشو عليها ليست هي ادلة تقوم عليهما بل هي لكم بمنزلة
واسطة توجيه كيفية جريان الترقى والنشو فى عالم النبات والحيوان فانا لا اسلك
معكم مسلك اخصامكم الذين اخذوا في محاولة ابطال تلك النواميس واخذتم
في محاولة اثباتها ولكنى ابين لكم منزلتها من الثبوت ومقدار ما ينتج عنها متى
ثبتت فاقول اما ارث الفروع الصفات الاصول فهذا امر مشاهد لا ينكره
اتباع محمد عليه السلام ويقولون انه جائز الحصول بخلق الله تعالى سواء كان
لاسباب عادية ام لا وكذلك تنازع البقاء لامانع من حصوله وانه ينتج عنه ان
بعض الانواع تبقى وبعضها تهلك والمرجع في ذلك الى الله ونحن الى الآن لم
نزل نشاهد هذا الناموس بين الخلق حتى في أصناف البشر ولكن
هذان الناموسان يصح ان يحصلا مع النشو او مع الخلق فاى مانع من كون
الانواع وجدت مستقلة ومع ذلك ترث الفروع صفات الاصول وتتنازع
الانوع البقاء فيبقى القوى ويهلك الضعيف مع ان كل نوع منها مستقل ليس
ناشئا عن سواه من الانواع واما ناموس التباينات وهو ان كل فرع مع ارثه
صفات اصله لا بد ان يباينه فى صفات اخرى فهذا الناموس قد نازعكم فيه
اخصامكم بان التباينات التي تحدث فى الفروع هى عرضية ليست جوهرية
حتى توجب تغير النوع وانتقاله الى نوع آخر وانتم قلتم انها على مرور الملايين
من الزمان وتكرر تلك التباينات وتتابعها تصير جوهرية وتوجب تغير
القوع وتحوله الى نو آخر وخصتم معهم بهذا المبحث وبنيتم المبانى الشاهقة
تطول بدون طائل واقول ان ناموس التباينات أى ان الفرع يباين اصله فى
صفات ليست فيه هو مشاهد في النبات والحيوان واقول ان الله تعالى قد جعله
فى المخلوقات لاجل التمايز اذ لو كانت افراد الانواع على صورة واحدة فى

كل نوع لحصل من ذلك شتباه بينها ونشأ عنه اخلال فى نظام العالم لاتدرى نهايته فكان الرجل لايعلم ابنه ولا زوجته ولا هما يعلمانه ولا يعلم فرسه وفى ذلك من فساد المعاملات وضياع الحقوق مالا يخفى وليس هذا الناموس خاصا فى النبات والحيوان ولافى الفروع مع الاصول بل هو عام فى كل الموجودات فلاترى شيئا يشابه شيئا آخر تمام المشابهة سواء كان فرعه املا حتى فى صنائع البشر فلاترى كتابا يشابه كتابا آخر تمام المشابهة ولو حصل كامل التحرى من صانعهما فى اكمال المشابهة باختيار اوراقهما وطبعهما بمطبعة واحدة ولاترى قد حايشبه قد حاولاحبة خردق تشابه حبة آخرى تمام المشابهة ولو تحرى الصانع كامل الاسباب المفضية الى تمام المشابهة بل لابد من تباين هناك ولو كان خفيا جدا يظهر عند تدقيق النظر وما ذلك الالطف من الله تعالى لاجل التمايز كما قلنا فالتباين في الموجودات هو ناموس وهي من الخالق سبحانه وليس بطبيعى كما تقولون والا فان نظر فيه طبيعيا بين الفروع والاصول فقد كان من حق الفرع ان يأتى طبق اصله ويرث جميع صفاته ولايباينه في شىء الا عند عروض سبب موجب ولكن مهما اتفق من توحد الاسباب للمشابهة لاتتم بين شيئين اصلا لا بين الفرع واصله ولا بين الفرعين المتحدين في جميع اسباب التكون كمثل التوأمين اللذين يولدان في كيس واحد ومشيمة واحدة ثم يتحرى في تو بيتهما توحيد الاسباب التكوينية على غاية الدقة فلا بد من التباين بينهما والتماس اسباب وهمية للتباين حينئذ كما نسمعه عن بعضكم ما هو الا تعسف بارد وخارج عن دائرة الانصاف اذا علمتم ذلك فنقول ما المانع من ان تباين الفروع للاصول الذى اعتمدتم عليه في تغير النوع وتحوله الى غيره على

طول الزمان يكون محدوداً بمقدار لايخرج النوع الى نوع آخر وبذلك المقدار تتم فائدة التمايز بين الافراد فيمكن ان الله قد جعل فروع الفرد الاول من النوع تباينه فى صفات وفروع الفروع تباين أصولها أيضا وهكذا الى حد محدود من سلسلة النسب يجرى فى ملايين من الافراد والصور الى درجة لايخرج بها النوع الى نوع آخر ثم يكر سبحانه على الفروع فيعطيها صور اجدادها السابقة وهكذا حتى يتم الدور الثانى لاستيفاء الفروع صور الجدود ثم يعيد ذلك العمل فى الفروع التي تجيء بعد ذلك وهكذا حتى ينقضى هذا النوع أو ينقضى هذا العالم وربما يتبرهن هـذا الحال للاجيال الآتيه بعدنا اذ وصلت لايديهم صور من صور الشمسية لاهل هذا الزمان ثم قابلوا بينها وبين فروعها التى تكون في أيامهم فيظهر لهم تكرار صور الاجداد الظاهرة للنظر فى فروعهم ثم نقول اذا تصورنا ما يحدث من تكاثر الصور والاشكال بسبب أدنى تغير بين الفروع وأصولها نجد ان الصور تتكاثر كثيرا فى تلك الكيفيـة التي قررناها ولا تخرج النوع ولا تحيـله الى نوع آخـر لانها محدودة كما فرضنا أنظروا للنوع الانسانى وما يوجد منه على الارض من الملايين وما بين أفراده من التباين الواسع كما بين الزنجى والرومى هـل أخرج ذلك التباين صـنفا منه عن النوع وأدخله فى نوع آخر كلا ولا تستغربوا رجعة الفروع الى صور الاجداد القديمة فأنكم قد قلتم بمثل هذا الناموس وهو ناموس (الا تافيسم) أي الرجوع الى الجد ويسـميه بعضكم بالدور الوراثى أو الرجعة فقلتم ان الصـفات قد تمكن فى أجيال ثم تظهر فى الاولاد بعـد ذلك كمثل ما اذا تزوج زنجى برومية فقد تأتى أولادها بيضا مثلها ثم بعد اجيال ربما يظهر فى بعض نسلها بعض أولادهم

ما كان فى جدهم الزنجى من الصفات والتكوين وكذلك يجرى هذا الناموس فى الزوائد والاخلاق والامراض والملخص ان ما فرضناه من تحدد التباينات بين الفروع والاصول وتكرارها هو امر جائز الوقوع لا ترفضه العقول وقد ورد في الشريعة المحمدية ما يشير الى رجوع صور الاجداد فى الفروع اذ قد نقل عن صاحب الشريعة عليه السلام فى تفسير قوله تعالى فى القرآن في خطاب الانسان (فى أى صورة ماشاء ركبك) ان النطفة اذا استقرت فى الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها و بين آدم وصورها فى أى شبيه شاء (كذا فى تفسير روح البيان) فما دام الاحتمال قائما فى ناموس التباينات فى ان يكون محدودا فى كل نوع الى درجة لا تخرج النوع الى نوع آخر وتمادى تباينات الاصول فى الفروع وهلم جرا فبلوغه الى درجة يصير بها التغير جوهريا حتى يحيل النوع الى نوع آخر هو أمر مظنون فلا يعتمد عليه فقد سقطت أبهتكم في تقرير هذا الناموس واحالة تغير الانواع به على الملايين من السنين والملخص ان هذا الناموس وهو التباين غير المحدود على زعمكم وان كان جائزا عقلا والتغير به جائزا أيضا وكل داخل تحت تصرف القدرة الالهية ولكن وقوع ذلك الناموس مظنون غير يقيني فحصول نتيجته وهو تغير الانواع الى بعضها يكون مظنونا فاتباع محمد عليه السلام لا يعبؤن بهذا الناموس ولا يعتبرونه منتجا للنشو فلا يضطرون الى تأويل ظواهر نصوص شريعتهم الدالة على الخلق و وجود الانواع مستقلة بل يدومون على اعتقادهم بأنها وجدت بالخلق الا اذا فرض قيام دليل يقيني قاطع يدل على خلافه (وهيهات هيهات) فحينئذ يجرون على القاعدة المتقدمة فى التأويل للتوفيق بين الدليل العقلى والنقلى واما ناموس

الا نتخاب الطبيعى فهو عنـدكم بمنزلة نتيجة للنواميس الثلاثة المتقـدمة فنتاجه عنها يكون مظنونا و بعد تسليم حصوله يقال يمكن ان يكون هـذا مع وجود الا نواع بطريق الخلق بأن يكون قد وجـد أولا الادنى منها ثم وجد الا رقي مسـتقلا غير ناشىء عن الا دنى فتنازع البقاء مـع الا دنى وأباده ثم وجد أرقى من الثانى مستقلا ونازعه وأباده وهلم جرا الى ان وصل الحال الى الا نواع الموجودةالآن بدون ان يكون نوع ناشئا عن نوع فقد ظهر ان وجود الاحسن والانسب الآن ليس لازماخاصاللنشو بل يمكن ان يكون مع الخلق واستقلال الا نواع فحصوله لا يدل على النشو والملخص انه يمكن تقرير هذه النواميس الا ربعة مع القول بالخلق واستقلال الا نواع بأن يقال يمكن ان الله تعالى خلق أولا الا نواع الدنيا ثم خلق أنواعا أرقى منها مستقلة ليست ناشـئة عنها ثم أباد الاولى بأسباب كونية وتنازع البقاء مع الثانيـة ثم وثم حتى بلغ الحال الى هـذه الانواع الموجودة الآن وهي أحسن وأنسب من جميع ما مر من الا نواع فهذه الحال تضمنت ناموس التنازع وبقاء الاحسـن والا نسب ومع ذلك أيضا قد أجرى سـبحانه أرث الفروع لصفات الاصول ومباينة الفروع للاصول فى صفات أخرى ولكن ذلك التباين الى حـد محـدود بحيث لا يحول النوع الى نوع آخر وحكمته التمايز كما قلنا وهذه الحال قد تضمنت الناموسـين الباقين وهما الا رث والتباين المشاهدان مع ان الا نواع قد وجدت بالخلق والاستقلال عن بعضها واكتشافاتكم الجيلوجيـة لا تنافى شيئا من هـذا التوجيه فهل عندكم دليـل على امتناعه كلا ثم كلا و بعد جميع ما تقـدم لا يكون النشو راجحا على الخلق فى نظر العقل بل هما على حد سواء فكل منهما محتمل

جائز داخل تحت تصرف القدرة الالهية وبهذا تبين ان النشو ليس مظنونا
أيضا في نظر العقل بل هو مشكوك ولكن اتباع محمد عليه السلام يرجحون
عليه القول بالخلق واستقلال الانواع ويجزمون به لظواهر نصوص
شريعتهم وأنتم لا دعى لكم الى ترجيح النشو والجزم به بعد ما أظهرت
لكم منزلته من الثبوت هذا و بعد ما تقدم اذ لم يثبت النشو فلا يبنى عليه
اشتقاق الانسان والقرد من أصل واحد كما تزعمون وقولكم انه بمقتضى
مشابهته للقرد لا يمتنع ان يكون قد اشتق هو واياه من أصل واحد شبهة
في غاية السقوط لان المشابهة الصورية لاتوجب هذا الامر ولا تقتضيه كما
هو ظاهر وان قلتم نعم هى لاتوجبه ولكن لا أقل من انها تحدث الظن به
قلت ان اتباع محمد عليه السلام لا يعتمدون الظن في باب الاعتقاد ولا
يعتبرونه معارضا لظواهر نصوص شريعتهم على ان تلك المشابهة يعارضها
أمر يدفع ما أحدثته من الظن وهو اننا نرى الانسان في أول ولادته في
غاية من الضعف عقلا وجسدا لا يقدر على مشى ولا جلوس بنفسه ولا
أدنى حركة جسدية تكون منتظمة وهو في غاية البلادة والبله لا يدرى ما
هو محيط به ولا يعرف الارض من السماء ولا النار من الماء فلا يتجنب
مؤذيا ولا يختار نافعا حتى لا يدرى كيف ياخذ ثدى أمه فتعالجه الايام حتى
يهتدى اليه ثم بعد كل ذلك الضعف وجميع تلك البلادة نراه قد أخذ
يترقى في القوة والادراك حتى بلغ درجة فيهما لم تكن منتظرة منه فيما لو قيس
على بقية الحيوانات التي تكون عند ولادتها أقوى منه حالا جسدا وادراكا وهذه
الحالة فيه من أعجب أعمال الخالق سبحانه وتعالى ودليل ساطع على عظمة قدرته
ترقية أضعف حيوان وابلده الى درجة لم يلحقه فيها لاحق فيغدو قويا جبارا يقتلع

الصخور ويشيد المباني الهائلة بعد ان كان في غاية الضعف والعجز ويصبح عالما مدققا وفيلسوفا محققا بعد ما كان مغموسا فى تلك البلادة الصماء ويتسلط بقوته وادراكه ويقهر حيوانات البحار ووحوش القفار ومحلقات الاطيار ويضبط نظامات الشموس والاقمار وهو امامقر بخالقه الواحد القهار واما منكر له أشد الانكار واما القرد فهو مثل غالب الحيوانات يولد على نوع من القوة تؤهله للحركة الكافية حينئذ في مساعدة أمه البهيمة على تربيته وعنده من الادراك مقدار ليس عند طفل الانسان منه أثر فيهتدى الى غذائه المعدله فيلتقم ثدى أمه بدون تلك المعالجة التى تعالجها أم الانسان ويجتنب المؤذى ويختار النافع وفى أقرب مدة لايتأهل فيها طفل الانسان للجلوس على اليتيه يقوى هو على السعى فى جلب رزقه ويتم ادراكه لاعمال حياته بمقدار يجعله بمنزلة الكبير من بنى نوعه وهو لم يزل (قشة) أى جروا صغيرا فشتان ما بينه و بين الانسان فلو كان الانسان مشتقا هو والقرد من أصل واحد ومترقيا عنه لكان من حقه أن لايكون في تلك الحالة التى ذكرناها فيه فلا يكون عند ولادته دون القرد الذى ترقي هو عنه اذ يقال ما السبب فى ذلك الانحطاط فى القوة والادراك فى طفل الانسان مع ان شريكه فى الاشتقاق من أصل واحد الذي ترقي هو عنه نراه أكمل منه فيهما ولو قيل انه ترقى عن شريكه في حسن الصورة وانحط عنه في القوة والادراك لاسباب أوجبت ذلك قلنا فما الذى أكملهما له عند الكبر ورقاه فيهما على القرد بكثير فالحق ان هذا مما يوهن كل الوهن قولكم باشتقاق الانسان والقرد من أصل واحد اذا لم نقل انه يبطله فاذا تأملتم أيها المديون بعين الانصاف ظهر لكم ان المشابهة الصورية بين الانسان والقرد لاتقاوم هذا الفرق العظيم الذي شرحناه لكم

بينهما هدانا الله تعالى واياكم لما فيه الصواب فهذا ما أردت الآن ايراده عليكم وهو كاف في بيان ان دلائلكم ومعتمداتكم في النشو ظنية لاتعارض نصوص الشريعة المحمدية وقد رأيت أخصائكم قد خاضوا معكم في ابحاث لاحاجة لنافيها فانكروا عليكم تغير الانواع وقمتم تبرهنونه حتى بتغيرها الصناعى وأنكروا وجود الحلقات بين نوع ونوع آخر تزعمون انه نشأ عنه فقلتم ان الحلقات قد وجدت فى البعض ومنيتم أنفسكم بانها سوف توجد بالاكتشافات الجيلوجية فى الباقى وكل ذلك خبر يحتمل الصدق والكذب فمن منا رافق الجيلوجيين في اكتشافاتهم وشاهد تلك الحلقات فسبحان العليم بحقيقة الامر على انه لو ثبت فلا يزال الاحتمال حاصلا في انها أنواع مستقلة كما قدمنا فبقيت أدلتكم مظنونة فبالاختصار لا داعى لنا الى الخوض معكم فيما خاضت فيه أخصائكم و يكفينا ما قررناه لاعتماد ظواهر النصوص الشرعية ولو أردنا الخوض معكم في ذلك لارأيناكم قيمة تلك الادلة التى اعتمدتموها وأظهرنا لكم ان أساسها الوهم و أركانها الفروض وان وفق الله تعالى كتبت في ذلك الموضوع مايشفى الغليل

هذا ثم قولكم ان الحياة وعقل الانسان ماهما الا ظاهر من ظواهر تفاعل أجزاء المادة المتحركة وعناصرها الممتزجة وان يكن أصل المادة خاليا عن الحياة والادراك وان عقل الانسان لايخالف عقول بقية الحيوانات الا بالكم ولا يخالفها فى الذات والحقيقة فجميع ذلك يمكن انطباقه على مافي الشريعة الاسلامية اما الحياة فقد عرفها اتباع محمد عليه السلام بانها صفة وجودية زائدة على نفس الذات مغايرة للعلم والقدرة مصححة لاتصاف الذات بهما (كذا في روح البيان ومثله في الرازى) فهم اذا عرض عليهم كلامكم

هذا فى الحياة من انها ظاهر من ظواهر تفاعل أجزاء المادة الى آخره يقولون
ان الحياة عندنا صفة عرضية لامادة فهذا الظاهر الذي تقولون بانه الحياة
صفة عرضية فلا مانع من أن تكون الحياة هى هذا الظاهر ولكن أتباع
محمد عليه السلام يقولون حدوثها فى الحيوان بخلق الله تعالى لا كما تقولون
بأنها حدثت بحركة أجزاء المادة التى تزعمونها بلا دليل كما تقدم وان كان
من الجائز ان تكون تلك الحركة موجودة أيضا بمحض خلق الله تعالى
وتسبب عنها ذلك الظاهر الذى هو الحياة كعادته تعالى في انتاج المسببات
عن الاسباب

وأما العقل فقد اختلف فيه أتباع محمد عليه السلام فبعضهم اختار الوقف
عن شرح حقيقته لانه قال هو من المغيبات التى لم يشرحها لنا الشرع فالاولى
والادب الكف عن الخوض فيه وعلى هذا فمهما قلتم في تفسيره مما لا ينافي
شيئا من نصوص الشريعة المحمدية فاتباع محمد عليه السلام يقولون لكم ان
تفسيركم محتمل الصحة لامانع ان يكون هو الصواب فقولكم انه ظاهر من
طواهر تفاعل أجزاء المادة يمكن أن يكون صوابا ولكن ذلك الظاهر
حدث بخلق الله تعالى لا كما تقولون من انه حدث بمحض تلك الحركة
وبعضهم خاض في تفسير العقل وأقوال جلهم متطابقة على كونه عرضا
وجلها انه من قبيل العلوم أى ملكة تدرك بها العلوم النظرية وقول بعضهم انه
نور وكذا ورد في بعض الاثار الاحادية (كما في أدب الدين للماوردى)
يريد انه نور معنوى فلا يخالف انه من جنس العلوم ومنهم من قال انه جوهر
وقد رد هذا القول (كذا يؤخذ من عبد السلام وحاشية الامير عليه)
هذا كله في العقل الغريزى أما العقل المكتسب الذى هو نتيجة العقل

الغريزى فهو نهاية المعرفة وصحة السياسة واصابة الفكرة (كذا في أدب الدين للماوردى) فعلى هذا فمن الواضح انه لامنافاة بين قول جل من خاضوا في تفسير العقل الغريزي وبين قولكم اذان القوابن متفقان على انه عرض فاذا قيل لاتباع محمد عليه السلام عندجريهم على هذا القول ان ذلك العرض هو ظاهر من ظواهر تفاعل أجزاء المادةفلا مانع يمنعهم أن يقولوا يمكن أن يكون هو هو وذلك الظاهر الذى هو يحصل به الادراك للعلوم لكن وجوده ووجود الادراك به بمحض خلق الله تعالى فلا ينافي ذلك عقائدنا وأنتم حينئذ ماينكم وبينهم الا أن تقولوا ان ذلك الظاهر حدث بخلق الله تعالى وأما قولكم ان عقل الانسان لايخالف عقول الحيوانات الا بالكم ولا يخالفها في الذات والحقيقة فهو أيضا لايصادم شيئا من نصوص الشريعة المحمدية المعتمدة في الاعتقاد اذغاية ماتفيده تلك النصوص ان الانسان قد خص بالعقل عن سائر الحيوانات وبه كلف بالشرائع دونها واما كونه مغايرا لادراكها في الذات والحقيقة أم لا فلم يرد في تلك النصوص ماهو تصريح بشئ منهما فاتباع محمد عليه السلام اذا سئلوا عن هذا يقولون لامانع أن يكون ادراك الحيوانات الذى أعطيته لتدبير معيشتها وعقل الانسان هما من مقولة واحدة هي عرض من الاعراض يحصل بخلق الله تعالى ولكنه قد زادحتى بلغ في الانسان درجة تؤهله لاستنباط العلوم والتمييز بين الاخلاق الحميدة وغيرها والاستحصال على بقية ماتميز به الانسان عن الحيوان وهذه الدرجة هي التى تجعله أهلا للتكليف الشرعى وسميت عقلا لانها تعقله عن ارتكاب خلاف الصواب فالقول بأن العقل الانسانى لا يخالف ادراك الحيوانات الا بالكم لاينافي الدين الاسلامى وهو قابل للانطباق

عليه وعلى هذا فجميع مايرد في الشريعة من تعظيمات عقل الانسان من نحو انه نور ومدار التكليف وغير ذلك فانما هي تعظيمات لتلك الدرجة السامية من الادراك لا لشيء مغاير لادراك الحيوانات في أصل الحقيقة والله أعلم

وأما انكاركم لبقية المسائل التي وجدتموها في الشريعة المحمدية لادليل عليها في علومكم أوانها مرفوضة فيها فقدورد لنا معكم من المباحث ماقد أنجز الكلام في بعضها وأنا أنبه على ذلك فيما سيأتي والباقي منها سأبين لكم تحقيق الكلام فيه بعون الله تعالى وأريكم انه لايوجد منه ماترفضه العقول بل كل منطبق على قواعد العقل السليم فاستمعوا ماأقول اما ان مادة العالم حدثت بعد انكانت معدومة وان الذي أوجدها بعد العدم وكون منها أنواع الكائنات على هذا النظام هو الاله وانه قادر على ملاشاتها واعدامها من الوجود كما أوجدها بعد العدم وان الله تعالى خلق الانسان نوعا مستقلا عن بقية الحيوانات وخلق أنثاه وأسكنهما في دار تسمى الجنة ثم أهبطهما الى الارض لمخالفتهما مانهاهما عنه وان جميع مايحدث في هذا العالم فهو بقضاء الله تعالى وتقديره أي انه يعلمه ويريده ويبرزه الى الوجود بقدرته وان جميع مايقضيه فهو بخلقه يوجد ويكون لاخالق سواه وانه وان يكن قد ربط المسبباب بالاسباب وجعل الاولى تنشأ عن الثانية فهو الخالق للاثنين يخلق السبب ويعقبه بخلق المسبب وجميع الاشياء انما وجد تأثيرها المشاهد لنا بخلقه وإيجاده ولاشيء يؤثر بطبعه أو بقوة أودعت فيه وانه سبحانه موجود قديم دائم يستحيل عليه العدم واحد أحد في ذاته وصفاته غني عن كل ماسواه مفتقر اليه جميع ما عداه لايشبه شيئا من جميع الموجودات

ولا يشبهه شيء منها مريد اتم الاراده عالم اكمل العلم يعلم ما كان ومايكون وما هو كائن لايعزب عن عامه شيء قادر على كل شيء من الجائز العقلي مهما كان عظيما جسيما حي متصف بصفات الكمال التي تليق به منزه عن صفات النقصان فهذه المسائل قد تقدم في المباحث التي بسطتها لكم فيه الكفاية في الكلام عليها الان منها ما اقمت لكم برهانا على تحققه وثبوته وذلك كحدوث المادة ووجود الاله سبحانه واتصافه بصفاته ومنها ما وفقت بينه وبين ما يعارضه من علومكم وذكرت لذلك توجيها موافقا أو هديتكم الى الطريق الذي بسلوكه لاتصادمون الدين الاسلامي مصادمة توجب رفض اعتقاده والذي لم اصرح به من ذلك فقد يوخذ من المباحث المتقدمة بادنى تأمل ويوجد بسط الكلام عليه في كثير من الكتب الاسلامية فليرجع اليه من يريد

واما ان الله تعالى خلق سبع سموات فوقنا وخلق جسما كبيرا يسمى كرسيا فوق تلك السموات وجسما اكبر منه فوقه يسمى عرشا وان بيننا وبين تلك الاجسام مسافات عظيمة وانه خلق جسما كبيرا يسمى لوحا وجسما آخر يسمى قاما لاثبات ما يكون وتسطيره لا عن حاجة الى ذلك وانه يجرى نعيم الانسان في دار خلقها تسمى الجنة وعذابه في دار تسمى جهنم بدخلهما البشر بعد خراب عالم الارض والسموات وبعثهم بعد الموت فاقول انتم واتباع محمد عليه السلام تقولون بالخلاء الممتد وهو البعد الشاسع الذي تتيه الافكار في سعته ثم انتم تقولون ان الشمس والكواكب قائمة في الفراغ الشاسع بناموس الجاذبية وفي اقوال بعض اتباع محمد عليه السلام يوافق قولكم هذا في ان الشمس والكواكب ليست مركوزة في السماء بل هي قائمة في الفراغ وفلكها هو مدارها فيه كما تقدم فما المانع من ان يكون وراء تلك الكواكب في ذلك

البعد الشاسع قد خلق الله تعالى تلك الاجسام المذكورة وهى السموات السبع (وكونها غير مرئية يجرى على قول بعض اتباع محمد كما تقدم وهو ابو بكر بن العربى) والعرش والكرسى واللوح القلم والجنة وجهنم واقامها هناك بقدرته سبحانه سواء اقامها بناموس من النواميس التى يضعها في نظام مخلوقاته ام بغير ناموس اذ هو قادر على ذلك حسب اعتقاد اتباع محمد عليه السلام من ان النواميس اسباب اعادية كما اقام الشمس والكواكب فى الفراغ التى هى فيه ثم الجميع بعيد عنا بمسافات شاسعة كما بينها مسافات كذلك وما ادركناه من عظمة ذلك الآله وعظمة قدرته فى مصنوعاته التى نشاهدها لايبعد عنده شيء من ذلك عليه فكل ذلك جائز ممكن لايحيله العقل وقدرة الآله صالحة لتعلقها بايجاده وعدم وصولكم الى ادراكه بحواسكم أو بوسائط اخرى لايقتضى عدمه ومن تقرير هذا المقام يظهر انه لامانع أيضا من وجود سبع ارضين كما ورد في بعض نصوص الشريعة المحمدية وتكون الارضون الستة قائمة فى الفراغ الذى فيه ارضنا وسائر الكواكب ولا مانع من اشتمالها على عوالم كما تظنون انتم في اشتمال الكواكب على ذلك وان قلتم اننا لم نرها بالنظارات المكبرة قلت يحتمل انها ليست منيرة تصلح للرؤية بها ويحتمل انكم رايتموها وحسبتموها في عدد الكواكب القائمة فى الفراغ وان قلتم سلمنا ان جميع ذلك جائز الحصول ولكن ما الدليل على ان ذلك حاصل بالفعل وما الذى حمل اتباع محمد عليه السلام على القول به قلت الذى حملهم على ذلك وهو دليلهم عليه نصوص شريعتهم الصريحة في وجود تلك الاجسام وهى نصوص واردة ورودا قطعيا عن رسولهم عليه السلام وهو الصادق فى جميع ما يخبر به لانه معصوم عن الكذب لثبوت رسالته من عند الله تعالى بالبراهين

القاطعة التي قامت عند اتباعه وان قلتم ولم خلق الله تعالى هذه الاجسام قلت كما خلق الكواكب والارض وبقية العوالم التى تشاهد ونها فهو اعلم بحكمة خلق الجميع وهو فاعل مختار لا يسئل عما يفعل وقد قدمت لكم فيما سبق البرهان على قصور العقول عن الاحاطة بادراك جميع اسرار اعماله سبحانه فارجعوا اليه وقد ذكر اتباع محمد عليه السلام حكما واسرار الخلق تلك الاجسام يطول بنا الشرح اذا بسطناها فارجعوا الى كتبهم اذا شئتم

واما ان ذلك الاله خلق اجساما نورانية تسمى الملائكة قادرة على التشكل وانها تقطع المسافات التي بين السموات والارض فى مدة قصيرة جدا وانها تمر امامنا ولا نراها وانها تفعل افعالا تعجز عنها القوي البشرية وان السموات مملوءة بها كما انه اوجد اجساما اخرى تشابه الملائكة المذكورين في بعض خواصهم من نحو الاقتدار على التشكل والاحتجاب عن الابصار وقدرتها على افعال عظيمة ولكنها تخالفهم فى انها ليست نورانية مثلهم الى آخر مامر وتسمى هذه الاجسام جنا فاقول ما المانع ان الله تعالى خلق اجساما بتلك الخواص تسمى ملائكة واجساما اخرى نظيرها فيما تقدم تسمى جنا ويمكن ان تكون مادتها كمادة الاثير الذى تقولون بانه مالىء الكون ولم تروه أو كمادة الهواء كونها الله تعالى وجمع اجزاءها بكيفية تجعلها صالحة لتلك الخواص التى ذكرت لها كما كون الحيوان من العناصر الجمادية بكيفية اكسبته الحياة وجميع قواها من الادراك والحركة وغير ذلك بعد ان لم يكن للعناصر شيء مما ذكر فيحتمل ان عدم رؤيتنا اياها لشفافتها او لطافتها كالهواء والاثير على ان الامر ظاهر جدا على اعتقاد اتباع محمد عليه السلام بان الرؤية بمحض خلق الله تعالى كما مر تقريره لكم واقتدارها على التشكل مع انه

جائز عقلا داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى يمكن توجيهه بان الله تعالى كون تلك الاجسام على كيفية يقتدرون بها على تناول كمية من الهواء أو الاثير أو نظير ذلك وتكثيفها وتكوينها على الصورة التي يريدونها ثم يلبسونها كما يلبس أحدنا ثوبه فيظهرون للابصار بتلك الصورة وفي الاعمال الكيماوية التي أقدر الله البشر عليها من تحويلات الاجسام الى بعضها كتحويل الكثيف لطيفا وبالعكس ما يقرب فهم ما قررناه الى العقول وحيث ان تشكل تلك الاجسام كيف ما كان مسند الى عظمة قدرة الله تعالى الذى تدهش أعماله الافكار فيما أعطاه للحيوان والنبات من الخواص فلا غرابة فيه أصلا

واما انها تعمل أعمالا تعجز عنها القوى البشرية مع انها أجسام لطيفة فبعد النظر الى أعمال الرياح التي تقلع الاشجار العظيمة وأعمال قوة الكهربائية التي تجر الاثقال التي تعجز عنها الوف الرجال فلا غرابة في أعمال الملائكة والجن لاسيما ان الذى يقدرهم على ذلك هو الله تعالى الذى لا يعد ذلك بالنسبة الى عظمة قدرته شيئا صعبا واذا نظرنا الى ان بعض الناس يكسر بقوة ذراعه الحديد وما هي قوة ذراعه الا عمل اعصابه التي تنتهى أخيرا الى مخه اللطيف النحيف الذي هو مبدأ الحركة كما تقولون وهو لا يحتمل أدنى مصادمة من جسم غريب بل صعود نقطة دم زائدة على القدر اللازم اليه قد تعدمه وتعدم صاحبه الحياة ظهر لنا ان الله تعالى قادر على اعطاء اللطيف قوة لا توجد في الصلب الكثيف سبحانه من قادر قاهر

واما كون الملائكة يقطعون المسافات الشاسعة بين تلك الاجسام السماوية بمدة قصيرة جدا فأقول لا مانع منه عقلا لان سرعة الحركة ليست محصورة

بحد محدود وهذا النور تزعمون انه يصل الينا من الشمس التي بيننا وبينها
ماينوف عن تسعين مليون ميل في مقدار ثمان دقائق وكسور وان قلتم ان النور
عندنا حركة وعرض قلت في علومكم الطبيعية ان الجسم الساقط الى الارض
في أول ثانية من سقوطه تكون سرعته ستة عشر قدما وكسورا واذا كان سقوطه
الى الشمس تكون سرعته في تلك الثانية أربع مائة وخمسين قدما وكسورا
ثم ان الجسم يسقط في أي عدد كان من الثواني مايساوي مقدار مايسقط
في أول ثانية مضروبا في مربع ذلك العدد من الثواني فبالتأمل في هذا
الناموس يعلم ماتبلغه سرعة حركة الاجسام من العظمة التي يحتار فيها الفكر
وهذا نجم المشترى على مافي علوم الهيئة عندكم يجرى ثلاثين الف ميل في الساعة
أي أسرع من كلة مدفع ثمانين مرة فيجرى تسعة أميال كلما تنفس الانسان
وسرعة أجزائه الاستوائية في دورانه على محوره أربعماية وسبعة وستون
ميلا كل دقيقة وهو أكبر من أرضنا بالف وأربعماية مرة على مايقول الفلكيون
منكم ومن غيركم فالاله الذي جعل الجسم الكثيف العظيم يقطع تلك
المسافة الشاسعة في تلك المدة الجزئية لايبعد على قدرته ان يجعل الملك يقطع
تلك المسافات في مدة قليلة جدا وان كانت هذه المسافات أكثر بكثير من
المسافة التي يقطعها المشترى ولكن النظر الصحيح في سير ذلك الكوكب يقنع
العقل بان قدرة ذلك الاله الذي سيره ذلك السير صالحة لاعظم مايكون من
جنس هذا العمل لاسيما وناموس الاجسام الساقطة قد بين عظمة سرعة
حركة الاجسام وان قلتم ان سير المشترى بواسطة الجاذبية على ماهو
مفصل في علومنا وكذلك سرعة الاجسام الساقطة قلت وما هي تلك الجاذبيه التي
تطنطنون بها وتنسبون اليها أعمالا عظيمة في الكائنات وأنتم لاتعلمون حقيقتها

وما الموجب لقيامها في الاجسام ولا تقدرون على الافصاح عن ذلك غاية مايكون انكم قلتم بها لتعليل الحوادث التى حيرت عقولكم من نحو النظام الشمسي وغيره وعلى تسليم ثبوتها فمن الذي أوجدها وجعلها خاصة الاجسام وانشا عنها تلك الاعمال العظيمة في الكائنات أغير الاله الذى أبدع الخلق من العدم ووضعه على أتم نظام وأسمى حكم فاذا كان ذلك الاله قادرا على ايجاد مثل هذه الجاذبية واحداث تلك الاعمال عنها أفلا يعجز ان يجعل الملك يقطع تلك المسافات فى مدة وجيزة اما بناموس وضعه فيه واما بغير ناموس فالكل جائز عقلا وقدرته العظيمة صالحة لاى كان واما كون السماء مملوءة بالملائكة فلا استغراب في ذلك فهم خلق من جملة مخلوقات الله تعالى أسكنهم تلك السموات كما أسكن عوالم الارض فى الارض وكما أسكن الملايين من الحيوانات المكرسكوبية في نقطة من الماء لاحرج على قدرته فى أعظم عظيم وأدق دقيق وعلى زعمكم كثير من الفلكيين منكم ومن غيركم انه يوجد فى الكواكب عوالم ذات أعمال كالانسان يستدلون عليها بما يتخيلونه بنظاراتهم المكبرة من آثار أعمالها فى تلك الكواكب كفتح الطرق وحفر الترع وأمثال ذلك أمور تشحض لنا المثل الجارى ان رجلا وقف على المقابر وقال (كل هؤلاء الاموات كانوا عبيد أبى فقال له آخر مافيهم من يكذبك) فما استغرابكم من وجود الملائكة فى السموات وملئهم لها بعد هذا البيان وان قلتم أيضا مادليل أتباع محمد عليه السلام على جميع ماتقدم من ثبوت الملائكة والجن وثبوت تلك الخواص فيهم وملئ الملائكة للسماوات قلت أيضا دليلهم على جميع ذلك النصوص التى نطق بها الرسول عليه الصلاة والسلام وهو الصادق المصدق لثبوت رسالته بالبراهين القاطعة القائمة لديهم وهو

الذى حملهم على الاعتقاد بذلك وهو جائز عقلا لا يستلزم محالا فآمنوا به من دون تأويل

وأما ان للانسان نفسا تسمى روحا وهي غير جسده وان لها تعلقا بجسده ينشأ عنه حياته وعند ما تنفصل عنه يحله الموت وان تلك الروح باقية بعد انفكاكها عنه تدرك وتلتذ وتتألم وان الانسان بعد حلول الموت فيه وفنائه يعيده الآله سبحانه ويعيد تعلق الروح به ويثيبه على أعماله الخيرية التى عملها فى مدة حياته في الارض أو يعذبه على أعماله الشرية هناك وان الذى يقوم فيه اللذة والالم عند تعلق الروح بالجسد وقيام الحياة فيه هو مجموع الروح والجسد وان لبقية الحيوانات أرواحا مثل الانسان وعندها من الادراك ما يكفي لتعيشها اوليس عندها من الادراك والعقل مثل ما عند الانسان فلذلك كلف بعبادة الاله سبحانه دونها فاقول اذا أبيتم التصديق بما ذكر حيث لم توصلت علومكم الا الى هذا الهيكل الانسانى ولا تعلمون وراءه شيئا من نحو الروح وكذلك في بقية الحيوانات فاعلموا ان اتباع محمد عليه السلام قد اتفقوا على ان لكل انسان روحا لها تعلق بجسده ولكن اختلفوا في البحث عن حقيقتها فبعضهم ترك الخوض فيه حيث لم يرد عن الشارع دليل على ذلك وعلى طريقة هؤلاء يكفى فى تصديق النصوص الشرعية التى وردت في وجود الروح ان يعتقدان لكل انسان روحا وهو شيء موجود الله أعلم بحقيقته وليس في القول بوجوده ما يخالف العقل وعدم الاحساس به لا يقتضى عدمه اذ ربما لم نحس به للطافته كالاثير الذى تقولون به ولم تحسوا به أو لدقته جدا كالحيوانات المكروسكوبية أو لغير ذلك وبعضهم خاض في البحث عن حقيقتها قال

بعض محققيهم (هو الشيخ النووي كما في الامير على الجوهرة) وأصح ما قيل فيها ماقاله بعضهم (هو أمام الحرمين) انها جسم لطيف شفاف حي لذاته مشتبك بالاجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الاخضر ثم قال بعضهم انه لا يعلم مقرها من الجسد وقال بعضهم ان مقرها البطن وقيل بقرب القلب وقيل به ثم اختلفوا في نفس حقيقة الانسان فقال بعضهم (هم جمهور المتكلمين كما في الرازى وغيره) ان الانسان هو الجسد ولكن له روح كما تقدم تتعلق به وبتعلقها تحصل حياته بخلق الله تعالى وقال بعضهم ان الانسان هو مجموع الروح والجسد وقال بعضهم وهم القليل ان الانسان هو الروح فقط والجسد انما هو قالب لها ولكن بعد ذلك اتفقوا جميعا على ان الله تعالى بعد موت الناس وفناء أجسادهم لابد ان يبعثهم باعادة أجسادهم واعادة أرواحهم اليها ويحاسبهم ويدخل بعضهم الجنة دار الثواب وبعضهم جهنم دار العقاب وهذا البعث وما يتبعه هو من أصول دينهم القطعية قد انعقد اجماعهم عليه وهو من معلومات دينهم الضرورية بحيث ان انكار جوازه او وقوعه يكون خروجا عن الدين الاسلامى وكثيرا ما تصرح به نصوص شريعتهم وتنصب عليه الدلائل ويكفيهم للتصديق بتلك النصوص واعتقاد البعث المذكور ان يعتقدوا انه لا بد من البعث باعادة الاجساد بعد فنائها واعادة الارواح اليها للحساب وما يعقبه على وجه لا يستلزم محالا عقليا بل يكون فى دائرة الجواز العقلى وهو داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى ولا يلزمهم ان يعلموا تفصيل تلك الاعادة وبيان كيفيتها الجائزة عقلا لان شريعتهم لم تكلفهم بذلك ولكن لما ورد عليهم من اخصامهم المنكرين للبعث اشكالات تستلزم بظواهرها محالات عقلية في

اعادة الاجساد احتاجوا لاقناع عقول اخصامهم في تلك الاعادة و بيان جوازها عقلا الى الخوض في تفصيلها و بيان كيفيتها على وجه يقنع العقول ولا تضطرب عنده افكار الضعفاء في الدين ومن أشهر ما ورد عليهم من الاشكالات في البعث والاعادة من طرف اخصامهم قولهم ان الانسان ليس انسانا بمادته بل بصورته وانما تكون الافعال الانسانية صادرة عنه لوجود صورته فاذا بطلت صورته عن مادته وعادت المادة الى أصولها من العناصر فقد بطل الانسان بعينه ثم اذا خلقت في تلك المادة بعينها صورة انسان جديدة حدث منها انسان آخر لا ذلك الانسان الاول فان الموجود في الثاني من ذلك الاول مادته لا صورته ولا يكون هو محمودا ولا مذموما ولا مستحقا لثواب أو عقاب بمادته بل بصورته فيكون الانسان المثاب والمعاقب ليس الانسان المحسن والمسيء بل انسان آخر مشارك في مادته وقولهم أيضا اذا أكل انسان انسانا فصار بالاغتذاء واحدا فكيف يتعلق روحان بانسان واحد عند البعث وأيضا ان الغالب على ظاهر الارض اجزاء جثث الموتى القديمة وقد زرع فيها زروع كثيرة وغرس فيها أشجار واغتذى منها الناس وانعقد في أبدانهم ذلك لحما ودما فكيف يكون مادة واحدة وأصل واحد حاصلة لصور اناسي كثيرة انتهى وفي مقابلة هذه الاشكالات يصلح لاتباع محمد عليه السلام ان يقولوا في دفعها اجمالا ان سعة علم الله تعالى وعظمة قدرته المبرهن عليهما بمشاهدة عجائب مصنوعاته وغرائب أعماله ودقائق أفعاله لا يبعد عليهما أمر البعث على كيفية لا تستلزم تلك المحالات التي تضمنتها تلك الاشكالات ونحن يكفينا الايمان بالبعث والاعادة واعتقاد ان ذلك يحصل على وجه لا يستلزم محالا ولا يلزمنا

لصحة ايمانيا بيان الكيفية التي يجريها الله تعالى في ذلك ونفوض علمها الى الله تعالى ولكن لاقناع العقول بالتفصيل وللمحافظة على أفكار الضعفاء فى الدين من الاضطراب نقول ان المعاد من الجسم هو جميع أجزائه الاصلية أي الباقية من أول العمر الى آخره لا الاجزاء الفضلية (كذا نقل القول بالاجزاء الاصلية والاجزاء الفضلية فى اليواقيت عن جمع الجوامع وحاشية الكمال غليه فى الجواب عن شبهة أكل انسان انسانا وهو يصلح جوابا عن بقية الشبه كما سنقرره) أى فما المانع من ان الله تعالى الواسع العلم العظيم القدرة يحفظ تلك الاجزاء الاصلية للانسان من التفرق ومن زوال صورتها ومن الدخول في تركيب أجزاء أصلية لحيوان آخر وان دخلت في تركيب أجزاء فضلية فتنفصل عنها عند انحلال هذه ثم عند الاعادة والبعث يعيد الله تعالى تعلق الروح بها ويضم اليها أجزاء فضلية سواء كانت هذه عين ما كانت قبل الموت أو غيرها ويكون الاحساس بالتنعيم أو بالتعذيب انما هو للروح ولهذه الاجزاء الاصلية ويصدق على هذه الكيفية انها اعادة اذ قد أعيد تعلق الروح بالاجزاء الاصلية بعد ان فارقتها وأعيد لهذه الاجزاء الاصلية الحياة وأعيدت اليها أجزاء فضلية لا تتوقف صحة الاعادة على اعادتها بأعيانها فلا يقال ان الانسان المنعم أو المعذب غير الذى كان قبل الموت ولا ان الروحين تتعلقان بجسد واحد ولا ان مادة واحدة حاصلة لاناسى كثيرة بل الاجزاء الاصلية التى كانت مع الروح المتعلقة بها قبل الموت انسانا هى بعينها مع الروح المتعلقة بها عند البعث والاعادة ذلك الانسان بعينه وعلم الله تعالى وقدرته يصلحان لاجراء هذه الكيفية التى لا تتضمن محالا أصلا سواء كان ذلك بدون واسطة ناموس

أم بواسطة ذلك وعدم احساسنا بها لا يستلزم عدمها اذ يحتمل اننا نشاهد تفرق الاجزاء الفضلية ولا نشاهد الاجزاء لا صلية أما لدقتها واما للطافتها وأما لغير ذلك وكم من العوالم لم تزل فى حيز الخفاء محجوبة عن حواسنا ولا مانع ان تكون هـذه من هـذا القبل فالملخص ان نصوص شريعتنا نطقت بالاعادة والبعث فنحن نؤمن بذلك ونعتقد أنه سيكون على وجه لايستلزم محالا ولا يلزمنا بيان الكيفية على وجه التفصيل وان احتجنا الى هذا البيان نجد ان مثل تلك الكيفية التى قررناها كافية وافية فى اقناع العقول ودفع الاشكالات والله أعلم

أقول يمكن أيضاح هـذا المقام وتوجيهـه بمالا يخالف شيئاً من نصوص الشريعـة المحـمدية التي عليهـا مدار الاعتقاد بعون الله تعـالى وتوفيقـه وذلك يحتاج الى تقـديم جـملة من كلام علماء الامة المحمدية يظهر من التبصر بها قبول ما سنورده من التوجيه فاعلموا ان من أكبر علماء الشريعة المحمدية من اسـتدل على ان الانسان هو غير تلك البنية (هو الامام الرازى فى تفسيره الكبير) بقوله ان العلم البديهى حاصل بان أجزاء الجثة متبدلة بالزيادة والنقصان كما فى السمن والهزال والعـلم الضرورى حاصل بان المتبدل المتغير مغاير للثابت الباقي ويحصل من مجموع هذا الكلام العلم القطعي بان الانسان ليس عبارة عن مجموع هذه الجثة ثم قال وان الانسان قـد يكون حيا حال مايكون البـدن ميتاً فوجب كون الانسان مغايرا لهذا البدن والدليـل على صحة ما ذكرناه قوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فهذا النص صريح فى ان أولئك المقتولين أحياء والحس يدل على ان هـذا

الجسد ميت ثم قال على ان الانسان يحيى بعد الموت وكذلك قوله عليه السلام انبياء الله تعالى لا يموتون ولكن ينقلون من دار الى دار وكذلك قوله عليه السلام القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار كل هذه الصنوص تدل على ان الانسان يبقى بعد موت الجسد وبديهة العقل والفطرة شاهدان بان هذا الجسد ميت ولو جوزنا كونه حيا جاز مثله فى جميع الجمادات وذلك عين السفسطه واذا ثبت ان الانسان حى وكان الجسد ميتا لزم ان الانسان شيء غير هذا الجسد ثم قال ان الذين قد دلت النصوص الشرعية على مسخهم يقال ان الانسان هل بقى حال ذلك المسخ أو لم يبق فان لم يبق كان هذا أماتة لذلك الانسان وخلقا لذلك الحيوان الممسوخ اليه وليس هذا من المسخ في شيء وان قلنا ان ذلك الانسان حى حال حصول ذلك المسخ فنقول على ذلك التقدير ذلك الانسان باق وتلك البنية وذلك الهيكل غير باق فوجب ان يكون ذلك الانسان شيئا مغايرا لتلك البنية ثم قال إن الانسان يجب إن يكون عالما والعلم لا يحصل الا فى القلب فيلزم ان يكون الانسان عبارة عن الشيء الموجود في القلب واذا ثبت هذا بطل القول بان الانسان عبارة عن هذا الهيكل وهذه الجثة ثم استدل على ان للانسان علما وانه فى القلب بما يطول نقله ثم اعلموا انه قد ورد فى نصوص القرآن الشريف قوله تعالى ﴿ واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ وقد ورد تفسير هذا النص في الصحيح عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بان الله تعالى أخرج ذرية آدم من ظهره كلهم كهيئة الذر قال بعض العلماء من اتباع محمد عليه السلام (كما فى الجمل عن

الخازن) أخرج الله أولا ذرية آدم من ظهره ثم أخرج من هذ الذر الذى أخرجه من آدم ذريته ذرا ثم أخرج من الذر الآخر ذريته ذرا وهكذا الى آخر النوع الانسانى وخلق فيهم العقل والفهم والحركة والكلام وخاطب الجميع بقوله ألست بربكم فقال الجميع بلى أى انت ربنا ثم اعاد الجميع الى ظهر آدم وقال بعضهم وهل هذا الذر استحال منيا أو تخرج ذرة كل انسان فى منيه الذى يتخلق منه والله اعلم بحقيقة الحال (كذا فى الجمل باختصار) وقال بعضهم (كما فى الجمل عن الشعرانى) ان الاقرب كما قيل ان الله تعالى استخرجهم من مسام شعر ظهره يعنى آدم ثم قال انهم اجابوا بالنطق وهم احياء عقلاء اذ لا يستحيل فى العقل ان الله تعالى يعطيهم الحياة والعقل مع صغرهم (اقول ومن نظر الى الحيوانات المكرسكوبية وما عندها من الادراك الذى به تسعى على رزقها وتتوالد وتجتنب المؤذيات وتحيد عن طريق ملاقيها لا يستغرب ذاك ولا يستبعده على علم الله تعالى وقدرته) ويحتمل ان يكونوا مصورين بصورة الانسان لقوله تعالى من ظهورهم ذرياتهم ولم يقل ذراتهم ولفظ الذرية يقع على المصورين ثم قال والظاهر انه استخرجهم احياء لانه سماهم ذرية والذرية هم الاحياء فيحتمل ان الله تعالى ادخل فيهم الارواح وهم فى ظلمات ظهر ابيهم ويخلقها فيهم مرة اخرى فى ظلمات بطون امهاتهن ويخلقها مرة اخرى ثالثة فيهم وهم فى ظلمات بطون الارض خلقا بعد خلق فى ظلمات ثلاث هكذا جرت سنة الله تعالى ثم قال والظاهر انه لما ردهم الى ظهره قبض ارواحهم قياسا على ما يفعله اذا ردهم الى الارض بعد الموت فانه يقبض ارواحهم ويعيدهم فيها انتهى باختصار وقال بعض الائمة الاعلام (هو الامام ابو طاهر فى كتابه سراج العقول كما يؤخذ من اليواقيت للشعرانى) فى الجواب عن الشبه المتقدمة

الواردة على البعث ماملخصه ان الذرة التى قبضت من الارض اولا في كل انسان باقية لاتتبدل البتة وهي الجزء القائم الذى اخذ عليه الميثاق (يعنى كما فى اية خطاب الذر المتقدمة) ويتوجه عليه فى القبر السؤال ويتولى الجواب برد الروح اليه على ما دلت عليـه الاخبار ثم ينضم اليه سائر الاجزاء حيث كانت بقدرة الله تعالى حتى يقوم الشخص تماما كما كان في الدنيا هذا شيء لايخالفه عقل ولا شرع انتهى ببعض اختصار فاذا دققنا النظر وتفهمنا بامعان مانقلته من تلك الدلائل التى اقامها ذلك العالم (الرازى) على ان الانسان ليس هو هذه البنية وما نقلته من تفسير الاية المتقدمة التى تذكر اخذ العهد على ذرية آدم وما قيل فيها من جانب بعض العلماء المحمديين (الخازن والشعرني كما تقدم عن الجمل واقره) وما قرره ذلك العالم المحمدي (ابو طاهر) فى ردشبه البعث وذكر انه لايخالفه عقل ولا شرع ظهر جليا انه يسوغ لاتباع محمد عليه السلام ان يفسروا الاجزاء الاصلية التى تقدم لهم القول بها بتلك الذرات التى اخرجت من ظهر آدم واخذ عليها العهد فيقولوا ان هذه الذرات هى الاجزاء الاصلية لكل انسان وبقية البنية المشاهدة لنا هى الاجزاء الفضلية التى تذهب وتتبدل فيكون الانسان الحقيقي المخاطب المكلف المعاد المنعم المعذب هو تلك الذرات مع الروح التى تحل فيها والهيكل الانسانى المشاهد هو الاجزاء الفضلية ولا عبرة بها فى تحقق الاعادة سواء اعيدت باعيانها أو بامثالها بل العبرة فى تحقق الاعادة هو الاجزاء الاصلية التى لايطرأ عليها الا مفارقة الروح وانسلاخ الاجزاء الفضلية عنها وفي البعث تعاد اليها الروح وتعاد الاجزاء الفضلية وتنضم اليها وقد تقدم ان بعضهم يكتفى فى بيان الروح ان يقول انها شيء موجود الله اعلم بحقيقته وبعضهم يفسرها بانها جسم لطيف شفاف حى لذاته مشتبك

بالاجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الاخضر فعلى جميع ما قدمناه يمكن
تقرير المقام على ما ياتى وهو يدفع جميع الشبه التى ترد على البعث وسؤال القبر
وامثال ذلك ويحفظ افكار الضعفاء من الاضطراب فيقال ما المانع ان الله
تعالى كون الارواح من اجزاء فردة من مادة لطيفة كمادة الاثير الذى تقولون
بوجوده على ترتيب وكيفية ووضع يحصل بها جميع الخواص التى تذكر للروح
وتفهم من نصوص الشريعة من انها حية بنفسها أى لاتحتاج الى انضمام شىء
اخر تحيي به وانها ذات ادراك واذا حلت بالجسم اكسبته الحياة والادراك وبقية
صفات الحي (وهكذا المغناطيس بدلكه بالفولاذ يكسبه خاصية جذب
الحديد) وهى مع ذلك ذرة صغيرة جدا لاتدركها حواسنا ثم كون من اجزاء
فردة ذرات صغيرة جدا على كيفية تقبل عند تعلق الروح بها الحياة وبقية
خواصها من الادراك ونحوه وجعل لها اعضاء الانسان كما للحيوانات المكرسكوبية
اعضاء وهذه هى الاجزاء الاصلية التى تقدم ذكرها ثم كون هيكل آدم وهو
الاجزاء الفضلية وجعلت ذرته فى موضع من هيكله ويحتمل انه القلب لذلك
الهيكل وهو الاقرب (وسياتى نقل عبارة الفيسولوجيين التى تقرب ان القلب
هو مركز ذلك) ثم وضع ذرات جميع ذريته فى ظهر هيكله ولا غرابة في
اتساعه للملايين هذه الذرات فان نقطة الماء الصغيرة تحتوى على حيوانات
مكرسكوبية عدد البشر الموجودين على وجه الارض كما تقولون فلامانع من
اتساع ذلك الظهر لذرات بنى آدم الذين يوجدون فى مدة الدنيا ثم انه سبحانه
احل روح آدم في ذرته التى في داخل هيكله وكأن اليه الاشارة فى القرآن الشريف
بقوله (ونفخت فيه من روحي) أى من الروح التى انفردت بابداعها ومعرفة
حقيقتها وحقيقة تكوينها فعند حلولها فى تلك الذرة نشأ عنها حياتها وسرت الحياة

الى بقية الهيكل لانه سبحانه قد كون الهيكل عـلى هذا الاستعداد ثم انه أخرج جميع ذرات بني آدم من ظهره واحل أرواحها فيها فاصبحت حية مدركة فخاطبها وأخذ عليهـا العهد ثم فصل عنها أرواحها وأعادها الى ظهر آدم وأدخلها فيه من مسامه كما أخرجها منها وهكذا تدخل الحيوانات المرضية فى الاجساد وتخرج منها كما تقولون ثم حفظ تلك الارواح حيث شاء من السـكون ثم صار يخرج تلك الذرات فى مادة المنى الذى ينفصل من آدم الى الى رحم زوجته عند الجماع فتحل فى البزور التى تنفصل من مبيض زوجته فيكون هيا كلها من تلك البزور مع السائل المنوى ويطورها أطوارا حتى تبلغ صورة الهيـكل الانسانى وأول ذرة من أولاده نقلهـا الى بزرتها نقل معها عدد الذرات التى تكون أولادا لها ثم ينقل تلك الذرات فى المنى الذى ينفصل فيما بعد عن هيكل هذه الذرة الاولى وهكذا الحال في بقية أولاده وأولادهم يفعل تلك الـكيفية على هذا الترتيب الى آخر الدهر ولعل اليه الاشارة على ما قاله بعضهم فى تفسير قوله تعالى فى حق الرسول عليه السلام (وتقلبك فى الساجدين) أى تنقلك فى أصلاب الاباء وأرحام الامهات وعند بلوغ كل هيكل الى حد محدود يرسل الله تعالي الروح فتحل في ذرتها وتسرى فيها وفى هيكلها الحياة والحركة فكل انسان هو مجموع الروح والذرة وهذه الذرة هي الاجزاء الاصلية التى قال بها أتباع محمد عليه الصلاة والسلام وانها الباقية مدة العمر وهى المعادة باعادة الروح اليها بعد ان تفارقها بالموت والهيكل هو الاجزاء الفضلية التي تروح وتجىء وتزيد وتنقص فاذا أراد الله تعالى موت الانسـان فصل عن ذرته الروح ففارقتهـا الحياة وفارقت الهيكل أيضا الذى هو الاجـزاء

الفضلية وحلهما الموت فيأخذ الهيكل بالانحلال ويجرى عليه من التفرق والدخول في تركيب غيره مايجرى والذرة محفوظة بين أطباق الثرى كما تحفظ ذراة الذهب من البلى والانحلال وان دخلت فى تركيب حيوان فانما تدخل فى تركيب هيكله الذى هو الاجزاء الفضلية محفوظة أيضا غير منحلة فاذا انحل ذلك الهيكل عادت محفوظة في أطباق الثري ولا تدخل في تركيب الاجزاء الاصلية لذلك الحيوان التى هى حقيقته غاية مايطرأ عليها بالموت مفارقة الروح لها وانحلال هيكلها واذا أراد الله تعالى حياتها أعاد الروح اليها فتعود اليها الحياة وبقية خواصها وان كان هيكلها منحلا ومن هنا تنحل شبه سؤال القبر ونعيمه وعذابه وأمثال ذلك من أمور البرزخ التى وردت النصوص الشرعية بها وانها تكون قبل البعث ثم اذا أراد الله تعالى أن يبعث الخلق للحساب أعاد تكوين هياكل الذرات الانسانية التي هى الاجزاء الفضلية سواء كانت هى الاجزاء السابقة قبل الموت أو غيرها اذ المدار على عدم تبدل الذرات واحل الذرات فى تلك الهياكل ويتعلق الروح بها تقوم فيها وفى هياكلها الحياة ويقوم البشر فى النشأة الاخرة كما كانوا في هذه الدار وجميع ماتقدم يمكن أن يكون حاصلا فى بقية الحيوانات غير الانسان فى جميع تفصيله واذا تصورنا سعة علم الله تعالى وعظمة قدرته وآثارهما فى الكائنات لانستبعد شيئا من جميع ماتقدم سواء كان احراء ذلك بواسطة نواميس وضعها الله تعالى لذلك تجرى عليها جميع تلك الاتصالات والانفصالات والتكونات للاجزاء الفضلية أو بدون نواميس واذا تأملتم أيها الماديون فيما تقولونه باكتشافاتكم المكرسكوبية للحيوانات الصغيرة جدا وكثرتها في نقطة ماء وحياتها وحركتها وادراكها في أمر معيشتها واحتراسها على نفسها تبين لكم انه لاغرابة ولا استحالة

فى ان ذرات الانسان يمكن أن تحلها الحياة وجميع خواصها وان الارواح تكون بتلك الخواص التي ذكرت لها واذا تأملتم فى ان المسام فى الهيكل الانسانى كثيرة جدا حتى قلتم ان في الشبر المربع منه يوجد أربعة ملايين من المسام لم تستبعدوا خروج تلك الذرات من ظهر آدم ثم اعادتها اليه ويزيد ذلك تقريبا لعقولكم دخول الحيوانات المرضية مثل (الملاريا) فى الاجساد وانتقالها الى أجساد أخرى بالعدوى وسريانها في ذورة الدم وأمثال تلك الحقائق المذكورة فى كتب علومكم الطبية على ماتقولون

ثم انكم تقولون بوجود حيوانات منوية في السائل المنوى الذى ينفصل من خصيتى الذكر ويلقح بزور الانثى وهي حيوانات صغيرة جدا تشاهد بالمكرسكوب طول الواحد منها من جزء من خمسمائة جزء الى جزء من ستمائة جزء من القيراط وطول رأس الواحد من جزء من خمسة آلاف جزء الى جزء من ستة آلاف جزء ولها حركة فى السائل المنوي بواسطة تحريك أذنابها بحيث تندفع رؤسها الى جهات مختلفة ويظهر ان حركتها مستقلة لاتتعلق بالكيفيات الخارجية بشرط أن لاتتغير كثافة السائل المنوى الطبيعية وقد تدوم الحركة فى داخل جسد الانثي سبعة أيام أو ثمانية وخارجه نحو أربع وعشرين ساعة واتجاه سيرها غير معلوم وقال بعض الفيسيولوجيين انها تقطع قيراطا فى ثلاث عشرة دقيقة وغاية مايعلم من فائدتها هو انها تكاد توجد فى منى جميع الحيوانات وان ملامستها للبيضة أى بزرة الانثي ضرورى لاجل التلقيح كذا فى كتب الفيسيولوجيا فاى مانع ان تلك الحيوانات المنوية جعلها الخالق تعالى تحمل ذرات بني آدم التى هى أصغر منها وتسير بها في

السائل المنوى حتي تلقيها فى البزور المنفصلة من مبيض الام ويبتدأ عند ذلك تكون الهيكل الانسانى الذى هو الاجزاء الفضلية بنمو البزرة ويكون الانسان الحقيقي الذى تحله الروح وتسرى الحياة فيه ثم منه الى الهيكل هو ماحملته تلك الحيوانات وأدخلته فى البزرة وتدخل معه الذرات التى هى عدد ما يكون له من الذرية وتبقى هذه فى هيكله حتى تخرج فى منيه وتنتقل الى هيكل فروعه وهلم جرا واذا كان الحال على هذه الكيفية التي لا يمنع منها عقل ولا شرع يتحقق كلام اتباع محمد عليه السلام بل كلام كثير من العقلاء ان كل انسان فهو منتقل من أبيه الى رحم أمه خلاف ما تقولون أنتم ان الانسان هو من بزرة أمه وانما من أبيه لمجرد التقليح فانتم نظرتم الى الهيكل الانسانى ولم تعلموا سواه فلذلك قلتم بذلك وسوا كم وصل الى ماوراء الهيكل فقال ان الانسان منفصل من أبيه وليس لامه الا الهيكل وانفصاله من أبيه هو ما تذعن اليه عقول الجم الغفير ويستأنس له بعواطف الآباء على الاولاد

ثم ان الفيسيولوجيين اختلفوا فى سبب نظام عمل القلب أي حركته وعللوا ذلك بتعليلات واهية ثم رجعوا عليها بالنقض والذى استظهروه أخيرا ان سبب ذلك العمل مستقر فى القلب نفسه ثم قالوا انه يظهر ان نظام حركته هو ناشىء عن العقد العصبية الموجودة فيه فهي المراكز الحقيقية للعمل النظامى غير انه لا تعلم الى الآن لماذا تعمل هذه المراكز العصبية عملا منقطعا منتظما لا عملا دائما ثم قالوا قد ظهر من تجارب كثيرة ان القوة الدافعة الناشئة من انقباضات القلب هى وحدها كافية لدورة الدم انتهى فاذا تأملتم في هذا الكلام ظهر لكم وقرب في عقولكم ان يقال ان مركز

الذرة الانسانيـة هو القلب مـن الهيكل الانسانى واذا حلت فيها الروح أو رثتها الحياة وأخذت تتحرك تلك الحركة المنتظمة ونشأ عنها دورة الدم وسرت الحياة منها الى سائر الهيكل وصغرها وصـغر الروح لايمنع ان ينشأ عنها ذلك العمل الكافى لحياة الهيكل ولاعمال أعصابه وعضلاته فكم من آلة صغيرة جدا اذا حركها طفل صـغير يتولد عنها حركة تدير آلة كبيرة جدا وينشأ عنها أعمال عظيمة تحتاج مباشرة الى قوة عظيمة وهذا مشاهد فى عمل الانسان فما بالكم فى عمل الاله العليم القادر الذى ركب مصنوعاته على كيفيات تنشأ عنها خواص تحتار فيها الفكر وتذهل العقول وخلاصـة ماتقدم ان الانسان الحقيقى على هذا التقدير هو الذرة التى تحل فى القلب وتحل فيها الروح فتكسبها الحياة وتسرى الحياة الى الهيكل ثم الهيكل انما هو آلة لقضاء أعمال تلك الذرة في هذا الكون ولاكتساب معارفها بسببه وتلك الذرة مع الروح الحالة فيها هى المخاطب بالتكاليف والمعادوالمنعـم والمعذب الى آخر ما ورد في حق الانسان وعلى هذا التقرير نجدان الشبه التى وردت على ماجاء فى الشريعة المحمدية من البعث وسؤال القبرونعيمـه وعذابه وحياة بعض البشر فى قبورهم ونحو ذلك قد سقطت برمتها كما يظهر بالتأمل الصادق والله أعلم

فان قيـل انا نرى نصوصا في الشريعة المحمـدية تذكر اعادة نفس الهيكل الانسانى أو تنص على اعادة بعضـه كما فى قوله تعالى (من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة) فكيف ينطبق هذا مع التوجيه الذى ذكرته للبعث والاعادة قلت مقتضى ما قدمته من التوجيه ان البعث كما يكون للاجزاء الاصلية التي هى الذرات بالكيفية التي قدمتها

كذلك يكون للهيكل الانسانى الذى هو الاجزاء الفضلية ولكن الاشكالات المتقدمة على البعث تندفع بما ذكر فى اعادة الاجزاء الاصلية التى هى الذرات ثم ان اعادة الهيكل الذى هو الاجزاء الفضلية سواء كان باعادتها باعيانها أو بايجاد أمثالها لا يرد عليها تلك الاشكالات بعد اندفاعها بكيفية اعادة الاجزاء الاصلية على الوجه المتقدم وانما نصت تلك النصوص على اعادة الاجزاء الفضليه التى هى الهيكل لدفع اشكالات أخرى كانت تعرض لافكار أهل الجاهلية فى اعادتها اذ عند ذكر البعث لا تنصرف أفكارهم الا الى اعادة هذا الهيكل المشاهد لهم فيقولون كيف تعود الحياة للعظام بعد ان تصير رميما وكيف تجتمع تلك الاجزاء المتفرقة في أعماق الثرى فتدفع تلك النصوص اشكالاتهم هذه بان الله تعالى قادر عليم لا يعجزه ذلك فهو يحيى العظام كما بداها أول مرة وعلمه محيط بجميع الموجودات وقدرته شاملة لجميع الجائزات الى غير ذلك من الردود وهذا لا ينافى التوجيه الذى تقدم في اعادة الاجزاء الاصلية التى هي الذرات لتدفع به الاشكالات الاخرى التى تقدمت فليتأمل ولتعلموا بعد جميع ماتقدم بسطه لكم أيها القوم انى لست أقول ان ذلك التوجيه والتفسير للاجزاء الاصلية بالذرات والاجزاء الفضلية بالهيكل الى آخر ما حررته فى هذا المقام هو مصرح به فى كلام اتباع محمد عليه السلام كما شرحته أوانه يجب عليهم اعتقاده بهذا التفصيل والبيان كلا انما أقول ان علماءهم قرروا ان للانسان أجزاء أصلية وأجزاء فضلية ودفعوا بذلك الشبه التى وردت على البعث ونحوه وانا قلت لكم انه يؤخذ من كلام كثير من اجلاء علمائهم (كالامام الرازي وأبى طاهر صاحب سراج العقول والشعرانى والخازن وغيرهم) ان لا مانع ان

يراد بالاجزاء الاصلية التي ذكروها فى دفع الشبه هي الذرات المذكورة في تفسير الرسول عليه السلام للنص القرآنى الذى يذكر فيه أخذ العهد على ذرية آدم وان تكون الارواح مع تلك الذات هى افراد الانسان الحقيقى وان يراد بالاجزاء الفضلية الهياكل الانسانية ويؤخذ من كلام علمائهم أيضا ان مقر الانسان الحقيقى هو القلب من الهيكل فيكون ذلك الهيكل المتغير المتبدل آلة للانسان الحقيقى فى قضاء أعماله في هذا الكون واكتساب معارفه وهذا شيء يوضح لكم اندفاع الاشكالات المتقدمة على البعث ولا يمنع منه عقل ولا شرع ويسوغ لهم ان يقولوا به لدفع تلك الشبه والافيكفى فى صحة اعتقادهم ان يقولوا انا نعتقد ان لكل انسان روحا الله أعلم بحقيقتها وكذلك لجميع الحيوانات ولابد ان الله تعالى يعيد الانسان بعد الموت ويحاسبه وينعمه أويعذبه كل ذلك على كيفية لاتستلزم محالا ولا يلزمنا تفصيلها والله أعلم بها فان ذلك من الجائز العقلى وسعة علم الله وقدرته لايستحيل عليها ذلك فيا أيها الماديون تأملوا فى هذا المقام ودققوا النظر فيه فانكم لاتجدون لتفصيله مايمنعكم فى علومكم من تجويز جميع ماتقدم ان لكل انسان نفسا يسمى روحا الى آخر ماذكر في صدر هذا المبحث الا ان يكون المانع لكم هو العناد وان قلتم سلمنا جواز جميع ماتقدم عقلا ولكن ما الحامل لاتباع محمد عليه السلام على اعتقاد حصول ذلك بالفعل قلت الجواب ماتقدم نظيره هو ان الحامل لهم على ذلك ما ورد في نصوص شريعتهم على لسان رسولهم الصادق عليه السلام التي تصرح بحصول ذلك وبمجموعها لاتحتمل التأويل وما دام ذلك منطبقا على العقل وجائزا فى أحكامه فلا يسوغ لهم أن يتركوا ظواهر تلك النصوص ويميلوا الى التأويل

بوجه من الوجوه على ان البعث بخصوصه وان كان المشهور ان دليل جوازه عقلى نظير ما قدمنا ودليل وقوعه بالفعل نقلى هو نصوص الشريعة المحمدية ولكن اذا دقق النظر يتبين لوقوعه بالفعل أدلة عقلية ان لم تكن برهانية قاطعة فهى اقناعية تذعن لها العقول وتطمئن عندها القلوب و بتوارد مجموعها على الفكر يجزم العقل بوقوع البعث ولا يغير للشك فيه اذ نا صاغية فاستمعوا لما اتلوه عليكم من ذلك على ما أفاده بعض علماء الامة الاسلامية (الرازى) مع ما أزيده عليه من توضيح أو استحسن فيه من اختصاره

فاقول أنه بعد اقامة البراهن القاطعة على وجود اله العالم واتصافه بصفاته الكاملة وسمو حكمته وعدله فى خلقه ورحمته لهم لاشك ان كل معتقد لذلك يظهر له ان من حكمته تعالى وعدله بعد ان خلق الخلق واعطاهم عقولا يميزون بها بين الحسن والقبيح وقدرا بها يقدرون على الخير والشر ان ينهاهم عن ذكره بالسوء وعن الجهل والكذب وايذاء الصالحين من خلقه وغير ذلك من القبائح ويرغبهم بعمل الخير والاتصاف بالاخلاق الفاضلة التى ينتظم بها معاشهم ومن المعلوم ان هذين الامرين لا يتمان الا بربط عمل الخير بالثواب وعمل الشر بالعقاب وكل من الثواب والعقاب غير حاصل فى دار الدنيا فلابد من دار اخرى يحصل فيها ذلك ولا يقال انه يكتفى في الترهيب والترغيب بما اودع في العقول من تحسين الخيرات وتقبيح المنكرات لان الهوي والنفس يدعوان الانسان الى الانهماك في الشهوات الجسمانية واللذات الجسدية واذا حصل هذا التعارض فلابد من مرجح قوى ومعاضد كامل وما ذاك الا ترتيب الوعد والوعيد والثواب والعقاب على الفعل والترك

ثم ان صريح العقل يقضى ان من حكمة الحكيم أن يفرق بين المحسن

والمسيء وحصول هذه التفرقة ليس فى هذه الدار لانا نرى كثيرا من أهل الاساءة فى اعظم الراحة وكثيرا من أهل الاحسان بالضد من ذلك فلا بد انه بعد هذه الدار من دار اخرى تحصل فيها تلك التفرقة

ثم انه لولم يكن للناس زاجر من خوف المعاد لكثر الهرج والمرج ولعظمت الفتن وفسد نظام المعاش ولم يجد المكلف وقتا لاداء ما كلف به فلا بد من حصول دار الثواب والعقاب لتنتظم احوال العالم وتصان عن الفساد وان قيل يكفى فى ابقاء نظام العالم مهابة الملوك وسياستهم وأيضا فالاوباش يعلمون انهم لو حكموا بحسن الهرج والمرج لانقلب الامر عليهم ولقدر غيرهم على قتلهم واخذ اموالهم فلهذا المعنى يحترزون عن اثارة الفتن قلنا ان مجرد مهابة الملوك لا تكفى بذلك لان الملك اما ان يكون قد بلغ فى القدرة الى حيث لا يخاف من الرعية واما ان يكون خائفا منهم فان كان لا يخاف الرعية مع انه لاخوف له من المعاد أيضا فحينئذ يقدم على الظلم والايذاء على اقبح الوجوه لان الداعية النفسانية قائمة ولا رادع لها في الدنيا ولا فى الآخرة واما ان كان يخاف الرعية فحينئذ الرعية لا يخافون منه خوفا شديدا فلا يصير ذلك رادعا لهم من القبائح والظلم فثبت ان نظام العالم لا يتم ولا يكمل الا بالرغبة والرهبة فى المعاد

ثم ان السلطان العادل الحكيم الرحيم اذا كان له جمع من الرعية وكان بعضهم أقوياء و بعضهم ضعفاء كان من حكمته وعدله ورحمته ان ينتصف للمظلوم الضعيف من الظالم القوى والله سبحانه وتعالى سلطان حكيم عادل رحيم فمن حكمته وعدله ورحمته ان ينتصف لعبيده المظلومين من عبيده الظالمين وهذا الانتصاف لم يحصل في هذه الدار لاننا نرى المظلوم قد يبقى فيها

مهانا في غاية الذلة والقهر مسلوب المال مفضوح العرض مهدور الدم والظالم يبقى في غاية العزة والقدرة فلا بد من دار اخرى يظهر فيها هذا العدل وهذا الانصاف

ثم انه لولم يحصل للانسان معاد لكان الانسان اخس من جميع الحيوانات فى المنزلة والشرف وبيان ذلك ان مضار الانسان فى الدنيا اكثر من مضار جميع الحيوانات فان سائر الحيوانات قبل وقوعها في الآلام والاسقام تكون فارغة البال طيبة النفس لانه ليس لها فكر وتأمل اما الانسان فانه بسبب ما يحصل له من العقل يتفكر ابدا فى الاحوال الماضية والاحوال المستقبلة فيحصل له بسبب اكثر الاحوال الماضية انواع من الحزن والاسف ويحصل له بسبب اكثر الاحوال الاتية انواع من الخوف فثبت ان حصول العقل للانسان سبب لحصول المضار العظيمة فى الدنيا والآلام النفسانية الشايدة القوية اما اللذات الجسمانية فهى مشتركة بينه وبين سائر الحيوانات لان السرقين فى مذاق الجعل طيب كما ان افخر الحلويات فى مذاق الانسان طيب فلو لم يحصل للانسان معاد به تكمل حالته وتظهر سعادته لوجب ان يكون كمال العقل سببا لمزيد الهموم والغموم والاحزان من غير جابر يجبر ذلك ومعلوم ان كل ما يكون كذلك فانه يكون سببا لمزيد الخسة والدناءة والشقاء والتعب الخالية عن المنفعة فثبت انه لولا حصول السعادة الاخروية لكان الانسان اخس الحيوانات حتى الخنافس والديدان ولما كان ذلك باطلا قطعا علمنا انه لا بد من الدار الآخرة والانسان خلق للآخرة لا للدنيا نعم ان هذه الدار هي كالمميز بين الخيرى منه والشرير ليجزى الاول بالثواب والثانى بالعقاب لان كل من كان شريرا فالنار اولى به ويكون حظه من الوجود ما يحصله من من لذات هذه الدار فلذلك نراها موفورة

للاشرار منغصة على الاخيار

ومن هذا المقام تعلمون ايها الماديون انه يصدق فيكم قول اخصامكم أهل الشرائع والملل ان مذهبكم سيما فى انكار المعاد شر لا يماثله شر لانه يلزم عنه انه لا حلال ولا حرام ومع هذا يمتنع العمران وجوابكم بان نظام العالم يكمل بمعرفة الانسان ما له من الحقوق وما عليه من الواجبات فهذه المعرفة تكمل له بالعلم الصحيح التام العام فاقول قد غفلتم فى هذا الجواب عن ان الاهواء والشهوات وحب الذات لا يقاومها مجرد النواميس التي يقيمها العلم فلا بد من وازع آخر يزع النفوس عن المضار ومرجح يرجح اتباع طريق الخير وهجران سبيل الشر وهو الايمان بالمعاد والمكافئة على الاعمال ان خيرا فخير وان شرا فشر والا فليتأمل العاقل ان الانسان اذا كان يعتقد انه مثل نبات الارض ينبت ثم يزول لا الى رجعة وليس له حظ من وجوده الا لذاته الحيوانية التى ينالها مدة حياته فمهما سن له العلم من الضوابط لمعرفة ما له من الحقوق وما عليه من الواجبات فاذا قدر على قتل سواه واخذ ماله الذى يبلغ الملايين بدون ان يطلع عليه احد من الناس أو على هتك اشرف عرض وبلوغ اشهى لذة بدون اطلاع احد فهل يظن ان تلك القوانين التى سنها له العلم تردعه عن ارتكاب ذلك لا يقول بذلك الا مكابر ان الانسان مفطور على حب ذاته فمن يدرى به حق الدراية لا يأمن له فى شيء الا اذا وجده مرتبطا بالدين واعتقاد المعاد انا نرى بعض الامم تعتقد المعاد ويظهر فيها ما يظهر من الفساد فكيف يكون حالها لو نسخ هذا الاعتقاد منها فبلا شك ان فسادها بالدرهم يصير بالقناطير على انا نرى الامم التي انتشر بينها العلم فى هذه الازمان لا تزال آخذة في سبيل الشرور بل كلما ازداد علمها ازدادت شرورها وفشى فيها

الزنا الذى يضيع الانساب ويحل عقد التناصر وقتل النفس والانتحار وازالة العقول بالمسكرات والاحتيال بعلومها وصنائعها على سلب الاموال والغش والخديعة وكثير من الاخلاق المخلة بنظام الهيئة الاجتماعية وما ذلك الا لان علومها التى برعت فيها ليس لها فى اعتقاد المعاد نصيب وبظنى ان تلك الامم لولا بقية من اعتقاد المعاد قائمة بينها لوجدناها قدهوت للدمار واخذت تمحى من لوح الوجود ومما يضحك الثكلى انكم لما لاحظتم ان العلم لا يتكفل بنظام الهيئة الا اذا كان تاما عاما في جميع الافراد الانسانية اشترطتم في تكفله بذلك ان يكون تاما عاما ثم قلتم لا بد من ذلك يوما ما الا ان ذلك بعيد جدا وربما يلزم له الوف من الاجيال فانتم فى رفضكم لاعتقاد المعاد وتمنيكم فى العلم هذه الاماني الواهية مثل الطبيب الاحمق الذى يقول للمريض بالمرض القاتل اترك الحمية وكل ما شئت وانى بعد كذا وكذا من السنين آتيك بدواء يكون به شفاؤك فقد صدق هنا المثل الدارج (الى حينما يأتى الترياق من العراق يكون ملسوع الهوي فارق) على انه ليس من حسن التدبير وكياسة الرأى والاخذ بالحزم مع اعتقادكم لمذهبكم من انكار المعاد ان تجاهروا به بين العموم وتدرسوه للاحداث حتى تروا ان العلم الذى تزعمونه بمجرده متكفلا بحفظ نظام العالم قد تم وعم والا فانتم بمجاهرتكم بهذا المذهب الباطل قد فتحتم باب الدمار على العالم ونعوذ بالله ان يشيع هذا الفكر بين الامم ومعاذ الله ان يشيع والعقول السليمة تأباه هدانا الله واياكم لما فيه خير الانام

وانى أنصح لكم ان تأخذوا بالحزم والاحتياط. وتتصوروا انكم اذا صدقتم بالمعاد وتأهبتم له فان كان حقا نجوتم وان كان باطلا لم يضركم هذا الاعتقاد غاية ما في الباب أن يقال انه تفوتكم اللذات الجسمانية الا ان هذه اللذات

يجب على العاقل أن لا يبالى بها لامرين أحدهما انها في غاية الخساسة لانها مشترك فيهـا الخنافس والديدان والكلاب والثانى انها منقطعة سريعة الزوال والفناء فالحرص عليها لايساوى ترك الحزم والاحتياط في الامر الذي تخشى عواقبة

هذا وقد بقيت مسئلة من المسائل التي ذكرتم فيما تقدم انكم تنكرونهـا من النصوص التى في الشريعه المحمدية وهي مسئلة نزول المطر من السماء وذلك انكم تقولون ان اختباركم فى علومكم دل على ان الامطار تتولد من أبخرة ترتفع من الارض والبحار وتتصاعد الي الطبقـة الباردة من الهواء فتتجمع هناك بسبب البرد وتنزل بعـد اجتماعها وذلك هو المطر فأقول ان النصوص التى وردت في الشريعة المحمديه من المتواتر الذى عليـه الاعتماد في الاعتقاد بشأن المطر هي على قسمين منها مانصرح بأن المطر ينزل من السماء ومنها ماتصرح بأنه ينزل من السحاب ثم السماء تطلق في اللغة العربية التى وردت الشريعة المحمدية بها على عدة معان كما في قواميس تلك اللغة منها السماء التي هي مسكن الملائكة ومنهـا سقف كل شيء وكل بيت ومنها كل ماعلا الشيء فهو سماؤه ومنها السحاب ومنها المطر وقد تقدم لـكم ان القاعدة المقررة عند اتباع محمد عليه السلام أن يعتقدوا ظواهر النصوص الشرعية والمعانى المتبادرة منها مالم يقم دليل عقلى قاطع عـلى خلافها وان قام دليل كذلك أخذوا بتأويلها والتوفيق بينها وبين ذلك الدليل فعـلى هذا فهم يعتقـدون المعنى الظاهر المتبادر من لفظ السماء المذكور فى انزال المطر وهو الجسم الذى هو مسكن الملائـكة كما هو المراد فى كثير من الاستعمالات الشرعية ويوفقون بين النصوص التى تصرح بنزول المطر من

السماء والتي تصرح بنزوله من السحاب بان الله تعالى قادر على انزله من السماء على البخارات المجتمعة المسماة بالسحاب ثم ينزله منها الى الارض فتارة تذكر النصوص الشرعية محل نزوله الاول وتارة تذكر محل نزوله الثاني والله أصدق القائلين وان ثبت لديهم مانقولونه من ان المطر ليس الا بخارات الارض وبحارها وتحقق ذلك بالبرهان القاطع ساغ لهم على موجب القاعدة المتقدمة أن يؤولوا النصوص التى يتبادر من ظواهرها ان المطر ينزل من السماء التى هي مقر الملائكة بان المراد بالسماء في هذه النصوص هى ما علانا وصار سقفا لنا وهو السحاب (ذكر هذا التأويل الامام الرازى فى تفسير سورة البقرة وأشار اليه الشيخ الشرنبلالى في مراقى الفلاح) أو ان يقال انه لما كان نزول المطر باسباب سماوية من جملتها حرارة الشمس التى تثير وتصعد الاجزاء المائية من أعماق الارض أو من البحار والانهار الى جو الهواء فتنعقد سحابا فتمطر كان الانزال من السحاب حقيقة ومن السماء مجازا باعتبار السببية والله مسبب الاسباب (ذكر هذا حقى أفندي في تفسير سورة النباء) فبعد هذا البيان أى اشكال لكم أيها الماديون فى نصوص هذا المقام مادامت تنطبق على العقل باقرب تأويل وقد بقى كثير من نصوص الشريعة المحمدية أخال أنكم باطلاعكم عليها تنكرونها فى أول الامر لعدم معرفتكم توجيهها وبما قاله علماء الشريعة فى معانيها وكيفية اعتقادها ولكن اذا سألتم أهل الذكر والمعرفة من اتباع محمد عليه السلام لاتجدون شيئا منها الا له انطباق صحيح على قانون العقل لايخالفه بأدنى مخالفة ولكن المدار على المذاكرة مع علماء هذه الشريعة المتبحرين فيها العالمين بقواعدها المحيطين بما قاله أجلاؤها فى تفسير نصوصها

الذين شافهوا الرسول عليه السلام لا مع الضعفاء الذين لا يعرفون منها الا رسوم العبادات وأحكام المعاملات فظنونهم من أفاضل العلماء واساطين الحكماء فهؤلاء ربما يكونون عقبة فى سبيل ايمان أمثالكم لجهلهم بقواعد الدين المحمدى وعدم معرفتهم فى طرق التوفيق بين نصوصه والادلة العقلية ومتى يجب ذلك التوفيق فقد يسلكون بغفلتهم سبلا يقصدون فيها المحاماة عن الدين الاسلامى فيجلبون التنفير عنه عوضا عن التأليف اليه فهم بذلك أضر على الدين من أعدائه الالداء (قد سمعت عن بعض هؤلاء الضعفاء انه يقول لا يجوز في الدين الاسلامي الاعتقاد بوجود قارة أمريكا لان اعتقاد ذلك يستلزم اعتقاد ان الارض كرة وهو خلاف الاعتقاد الاسلامى انتهى فهذا المسكين قد كلف بجهله أهل الاسلام أن يكابروا بالمحسوس ويجعلوا دينهم سخرية بين الامم وحاشا الدين الاسلامى أن يكون بهذه المثابة وأن ينحط الى هذه الدرجة السافلة وهو أعظم الاديان متانة فى العقول وأبعدها عن الاعتقادات الباطلة والتصديق بما ترفضه العقول السليمة وقد كان لهذا المسكين مناص عن تعسفه فى هذا الطريق الحرج بأن لا ينكر وجود أمريكا الثابت وجودها بالعيان وبالتواتر واذا وجد كما زعم ان الاعتقاد بوجودها يستلزم قطعا الاعتقاد بان الارض كرة فله أن يأخذ بقول من قال من أجل علماء الملة الاسلامية بكروية الارض كالامام الرازى ويؤول الظاهر من النصوص الشرعية التي يتبادر منها ان الارض مبسوطة بتأويلات موافقة فيقول مثلا في النص القرآنى الذى يقول والارض بعد ذلك دحاها ان المراد بالدحو تسوية ظاهرها بجعلها صالحة للسكنى كما قاله بعض المفسرين ولا يضر حينئذ هذا الاعتقاد فى الشريعة

المحمدية مادام موافقا لقول من أقوال علمائها الذين تعتمد أقوالهم في الدين وفى فهم النصوص الشرعية وجاريا على وجه من أوجه التأويل الصحيحة ولكن من أين لهذا المسكين أن يدرك هذا المدرك وهو لا يعلم الا شقشقة اللسان ببعض الفاظ الاحكام فهو صديق للدين ولكن صديق أحمق سالك في سبيل عدو الد ذلك من وفور جهله وقلة عقله وفقنا الله جميعا للتحلى بالعلم الحق وسلوك منهج الصواب اللهم آمين

هذا ولما بلغ العالم المحمدى في كلامه مع هذه الطائفة الماديين الى هذا الحد من البيان الذى كشف كل شبهة قامت لهم فى الشريعة المحمدية وأراهم منزلة مذهبهم فى نظر العقل السليم استيقظوا من غفلتهم وانتبهوا من رقدتهم وبعثت الباباهم من لحود الاوهام وخلصت أفكارهم من قفار الظلام وقالوا له انا لك من الشاكرين أيها الناصح الامين والمرشد المبين فقد أزلت من امامنا صعوبات ومهدت عقبات ولكن انت أزلت المانع من تصديق محمد عليه السلام فبقى علينا المقتضى لتصديقه وهو يكون عندنا متى وجدنا الادلة التى قامت عند أتباعه صحيحة دالة على صدقه دلالة قاطعة فقال لهم ذلك العالم ان هذا الامر اليكم وسهل بمشيئة الله تعالى عليكم فشرعوا فى النظر فى تلك الادلة وتدقيق البحث فيها مفصلة وجملة فظهر لهم بعد امعان النظر واجالة الفكر انها من الصحة بمكان دالة على صدق محمد عليه السلام دلالة لا يعتريها الريب لاسيما مجموعها فان العقل السليم يحيل أن تتفق جميعها على صحة دعواه عليه السلام وهى تكون غير صحيحة واعتقاد الصدفة فى اتفاقها لا يذعن به العقل على ان منها ماليس لمحمد عليه السلام في اقامته دخل ولا يقول بحصول الصدفة والاتفاق فى ذلك الا مكابر (وتفصيل هذا قدم في صدر

كلام هذه الطائفة عندما أخذت تستوضح حال محمد عليه السلام وسيأتي في الردود على الطائفة التي تروم تشكيك اتباع محمد عليه السلام فى أدلتهم فارجع لكل فى مرجعه، ولا حاجة الى التكرار هنا) فعند ذلك صدقت هذه الطائفة محمدا عليه الصلاة والسلام في دعواه الرسالة من عندالله تعالى مقرين بوجوده سبحانه مصدقين برسله وكتبه والبعث وجميع ماجاء به و آمنوا بذلك ايمانا ثابتا عن بيان كاف وتوضيح شاف فأصبحوا من أكرم أشياعه عليه الصلاة والسلام وأثبت اتباعه والله على كل شيء قدير

هذا وقد كان يوجد من كل طائفة من الطوائف المتقدمة أناس لهم رآسة فى قومهم اما رآسة دينية واما رآسة أمارة وسياسة ولهم نفوذ كلمة وسطوة على القلوب فلا يعصى لهم أمر ولا يرد لهم رأى هم المتبوؤن فى الاقوال والافعال وسائر قومهم لهم اتباع وهم المسامحون اذا سطوا على الاموال والاعراض والدماء لمكان رآستهم وعزة عصبيتهم فعندما ادعى محمد عليه الصلاة والسلام الرسالة من عند الله تعالى وجرى ما جرى له مع الطوائف المتقدمة وآخر الامر صدقوا دعواه بما ثبت لديهم من الدلائل على صدقه قام فى نفوس أولئك الرؤساء المذكورين صدق دعواه أيضا وجزموا بذلك أكمل الجزم لوضوح دلائله ولكن حب الرآسة وما لهم من التميز بين أقوامهم حال بينهم وبين الاذعان والخضوع له عليه الصلاة والسلام والاقرار بتصديقه وذلك انه خطر لهم انهم اذا اتبعوه وخضعوا له سلبوا تلك الرآسة وحرموا ذلك التميز ولزمهم ان يكونوا اتباعا بعد ما كانوا متبوعين وتجرى عليهم أحكام شريعته لايميزون عن سواهم في شيء كما هو شأن تلك

الشريعة من التسوية بين جميع اتباعها وانهم لا ينالون شيئا من أموال قومهم التي تدخل تحت تصرفه عليه السلام الا اذا عملوا عملا يعود على اتباعه بالنفع وان من يسطو منهم على أحد في مال أو عرض أو دم لا يسامح بمثقال ذرة الا ان يعفو صاحب الحق فكتموا ما قام فى نفوسهم من صدقه عليه السلام وأخذوا يفتكرون فى أمر يعاكس شأنه ويفرق عنه اتباعه فرأوا ان الاقرب فى بلوغ ذلك المأرب ان يقلوا الشبه على الطوائف الذين اتبعوه ليوقعوا في نفوسهم الشك فحاولوا توهين الدلائل التى استدل بها أولئك الطوائف بتطريق الاحتمالات فيها وايراد التأويلات حتى تعود فى نظرهم غير يقينية فيقولون لهم حينئذ ان هذه الدلائل التى اعتمدتم عليها في تصديق محمد عليه السلام ماهى الادلائل ظنية ولا يليق بكم ان تتركوا عوائدكم المألوفة وما كان عليه آباؤكم من المعتقدات وما تلقيتموه من الاديان التي جاءت بها الرسل المتقدمون لمجرد دلائل ظنية والظن لا يعتمد عليه في مثل هذا الحال فرتبوا فى أفكارهم تلك الشبه الواهية والاحتمالات الباطله

وجاؤا للطائفة التى صدقت محمدا عليه السلام حينما تحدى بالقرآن وقال انه يستعجز الفصحاء والبلغاء بسورة منه وهم كانوا من أهل الفصاحة والبلاغة فعجزوا عن المعارضة وصدقوا بسبب ذلك دعواه بالرسالة فقالوا لهم يحتمل ان محمدا عليه السلام قد حصل له درجة من الفصاحة والبلاغة لم توجد فى أحد منكم فعجزتم عن معارضته وكثيرا ما يوجد بين أهل كل صناعة من يبلغ الدرجة القصوي فيها حتى يقرله سائر أهلها بأنه رئيسهم وهم عاجزون عن شق غباره فاجابتهم تلك الطائفة بان صناعة الفصاحة والبلاغة

وان كان أساسها استعداد صاحبها في أصل فطرته ولكن لا بد لكمالها
و بلوغها فيه درجة سامية من ممارسة وتدرج فى طرقها من نحو قول
الاشعار و روايتها ومعاناة الخطب ودراستها ومحاورة الفصحاء ومغالبة
البلغاء حتى تقوى فيه ملكتها و يصبح من زمرتها حسب استعداده الذى
فطر عليه وأيضا مهما بلغت درجتها من السمو فلابد لها من نظير من نوعها
ومثال من صنفها ولو كان دونها فى درجات ونحن نرى محمدا عليه السلام
وان كان فى أصل فطرته مستعدا لتلك الصناعة ولكننا لم نجده من أول
نشأته الى ان بلغ الاربعين سنة من عمره التى هى سن التحصيل والممارسة
قد مارس تلك الصناعة ممارسة تستلزم له بلوغ تلك الدرجة ولم يكن فى تلك
المدة له معاناة فى الاشعار لا قولا ولا رواية وكذلك الخطب والرسائل لم يكن
له فيهما عناية ولم نجده في تلك المدة ايضا مولعا بمحاورة الفصحاء ومغالبة
البلغاء وهو بين أظهرنا لا يخفى علينا حاله وكيف يخفى ومن يعانى تلك
الصناعة يشتهر بيننا كالشمس في رابعة النهار لانها من أعظم مفاخرنا فعند
مابلغ سن الاربعين وادعى الرسالة وتحدانا بالقرآن ما راعنا الا ما وجدناه
فى قرآنه من تلك الفصاحة البارعة والبلاغة الصادعة اللتين رمينا عندهما
بالعجز واصبنا بالوهن وأيضا قد انفرد ذلك القرآن فى منهجه الذى سلكه
في الفصاحة والبلاغة بمالا نجد له نظيرا فلا هو من الاشعار ولا الاراجيز
ولا من نوع الخطب والرسائل ولاله مثال يحتذى عليه وهذا يكون أعرق في
الغرابة فعلى من مارس محمد عليه السلام هذه الطريقة التى جاء بها فى قرآنه
وهى لم تعهد بين العرب أجمع أيكون هو أول مخترع لها ويبلغ فيها هذه
الدرجة التى لا تلحق ما هذه عادة المخترعين للاشياء بل عادة كل مخترع

ان يصدر عنه اختراعه كالطفل وسواه يربيه حتى يبلغ الغاية التى يمكن فيه وأما أن المخترع يبلغ باختراعه الغاية القصوى التى لا تستطاع وليس بعدها منزلة فهذا شيء لم يعهد فى المخترعين من البشر ولا يبعد ان يقال انه غير ممكن في قدرتهم حسب الاستقراء الا ان يكون الاختراع طفيفا جدا فعدم ممارسة محمد عليه السلام لتلك الصناعة فى الماضى من عمره بما يبلغه تلك الدرجة التى لا تلحق وانفراد قرآنه فى ذلك الاسلوب الذى بلغ الغاية فى الفصاحة والبلاغه حتى عجزنا عن معارضته هو مبطل للاحتمال الذى جوزتموه وأردتم ادخال الشك علينا به فنحن لا نزال مصدقين محمدا عليه السلام في دعواه بدون شك ولا ريب ونقول ان ذلك القرآن ليس الاتيان به فى قدرة البشر بل هو منزل من عند الله تعالى كما ادعاه محمد عليه السلام

فانعطف أولئك المشككون الى الطائفة الذين صدقوا محمدا عليه السلام بسبب انهم وجدوا القرآن الذى جاءبه مشتملا على الصفات الفاضلة التى لا يمكن اجتماعها في كلام الا أن يكون من عند الله تعالى والى الطائفة الذين صدقوه بسبب انتظام حال شريعته عليه السلام واحتوائها على كل فضيلة وتكفلها بانتظام حال متبعيها فقلوا لهاتين الطائفتين قد بلغنا ان محمدا قبل دعواه الرسالة قد سافر الى بلاد الروم فى تجارة مرتين وبلغنا انه اجتمع هنك ببعض رهبانهم (بحيرا الراهب الذى عند مارآه مع تجار قريش في طريق الشام تفرس به انه نبي آخرالزمان كما هو منقول فى السير النبوية) فلعله نقل هذا القرآن المشتمل على الفضائل عمن ذكر وتعلم منه تلك الشريعة وجاء بلاده وادعى الرسالة وعضد دعواه بذلك القرآن

وتلك الشريعة ولعدم وجود أحد في بلاده من أهل المعرفة الذين يمكنهم
معارضته بالاتيان بمثل ماجاء به توهمتم ان ما جاء به حصل له من جانب
الله تعالى دون صنيع البشر فاجابتهم الطائفتان المذكورتان بأن مثل ذلك
القرآن المحتوى على تلك الصفات الفاضلة التي مر شرحها في استدلالنا وبيان
ان أكبر العلماء والحكماء والسياسيين يعجزون عن جمعها فى مثل ذلك
الكتاب وان مثل تلك الشريعة المشتملة على ما تقدم شرحه أيضا فى استدلالنا
من العقائد الحقة والاخلاق الحسنة والعبادات المبنية على الحكم والاسرار
الباهرة والاحكام التى تتكفل بانتظام أحوال الانام وغير ذلك
مما سبق ان استيفاء عدده يحتاج الى مجلدات كل ذلك لو فرض جواز تعلمه
من الغير لاحتاج الى زمان مديد يبلغ العشرات من السنين ولو كان المعلم
من أبرع الحكماء والمتعلم من أعظم الاذكياء ومحمد عليه السلام انما غاب
عن بلده مكة في جميع عمره الذى عاشه بين أظهرنا مع تجار قريش الذين
كانوا يأتون البلاد الرومية للتجارة أياما معدودة هى مدة الذهاب والاياب
بين مكة وبلاد الروم وقضاء مصالح التجارة وهذه مدة لاتكفى لان يتعلم
فيها محمد عليه السلام بابا واحدا من أبواب شريعته التى جاء بها وكل
واحد منا يعلم صعوبة التعلم واحتياجه الى الزمان الكافي على ان تعلم ماجاء
به محمد عليه السلام للكاتب القارئ هو من الصعوبة والاحتياج الى الزمان
المديد بمكان فكيف ومحمد عليه السلام أمي لايقرأ ولا يكتب فكيف
يجيز العقل تعلمه جميع ذلك مع أميته وقصر زمان غيبته عن بلده واميته عليه
السلام التى طالما نسمعه يدعيها لنفسه ويذكر فى القرآن الذى يتلوه بين
العام والخاص انه النبي الامى ويذكر فيه أيضا فى الاحتجاج على ان ماجاء

به هو من عند الله تعالى ليس بتعلم من البشر قول ربه له (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون) هي أي تلك الامية ثابتة عندنا بلا ريب لانه عليه السلام قد نشأ بين أظهرنا ولم نعلم انه عانى صنعة القراءة والكتابة ولا رآه أحد منا أو نقل الينا انه خط سطرا واحدا يوما من الايام ولو انه كان يعرف تلك الصنعة بين قومه الذين لايوجد منهم من يعرفها الا الافراد القلائل لماخفي علينا حاله في تلك المدة ولو تقصد اخفاءها وكيف يتقصده ولا داعي يدعو اليه بل الداعي يدعو الى اظهار حاله لما فيه من الصفة الكمالية بين تلك الامة الامية والعقل لايصدق ان هذا الرجل من قبل تعلم تلك الصنعة صمم على انه يتعلمها ويخفى حاله ثم يستعين بها على تعلم ذلك القرآن وتلك الشريعة من بعض رهبان الروم ثم يدعي الرسالة من اين ضمن لنفسه تمام ذلك ثم تم له اخفاء حاله في تعلم تلك الصنعة وتم له تعلم ما جاء به وادعى تلك الدعوى لايقول بذلك الا كل مكابر أو منقاد للاوهام وبعد ذلك كله فان العقل لايصدق بوجود معلم قد حوي جميع تلك المعارف التي اشتمل عليها القرآن وتلك الشريعة واحاط باطراف تلك العوارف لافي بلاد الروم ولا في غيرها وقد ظهر لنا بعد مخالطتنا للروم ان ما جاء به محمد عليه السلام لايوجد عندعلمائهم اجمعين فضلا عن وجوده عند بعضهم بل رايناهم بعد المخالطة والاطلاع على ماجاء به محمد عليه السلام يعجبون من حسن انتظام الشريعة ويقتبسون منها ما يوافق سياسة بلادهم فكيف يكون ذلك عند علمائهم ولايشيعونه بينهم ويبقى خفيا حتى يظهره ويجاهر به محمد عليه السلام فيقتبسون منه مايقتبسون على انه يوجد فيما جاء به كثير مما يخالف دين الروم في العقائد والاعمال

والاخلاق ويذم ذلك منهم غاية الذم فكيف يقنع العقل ان بعض رهبان الروم علم محمدا ذلك وأى داع دعاه اليه على انه لوغض النظر عن جميع الموانع المتقدمة التى تمنع من تعلم محمد عليه السلام ما جاءبه من بعض رهبان الروم فانه يوجد مانع آخر قوى يمنع من ذلك البتة وهو ان محمدا عليه السلام ما جاء بالقرآن والشريعة دفعة واحدة واظهر ذلك للناس في أول دعواه بل جاء بذلك مفرقامنجما من أول دعواه الرسالة الى ان تم دينه وانتشر بين الطوائف الذين اتبعوه والامم الذين صدقوه فكان ياتى بالاية والايتين والسورة والسورتين من قرآنه على حسب الحوادث التى تحدث بينه وبين اخصامه أو فيما بين اتباعه مشتملا ذلك على ما يقتضيه الحال من استدلال أو دفع شبهة أوجواب سؤال أو غير ذلك وكذلك احكام الشريعة كان يبلغها للناس شيئا بعد شيء على حسب المصالح والحوادث والمشاكل والسؤالات فيأتى في مقابلة كل شيء من ذلك بطبق المرغوب والملخص انه كان ياتى في مقابلة كل حادث يحدث معه في مدة دعواه بما يناسبه ويوافقه من القرآن والشريعة وهذه الكيفية معلومة بالضرورة لنا ولمن نقل لهم خبره وسيرته بالتواتر الصحيح وحينئذ يقال ما الذى اعلم بعض رهبان الروم بجميع الحوادث المستقبلة التى سوف تقع وتتفق لمحمد عليه السلام بينه وبين اخصامه أوأتباعه فعلمه لكل منها ما يناسبه من القرآن ومن الشريعة فعرف جواب كل سؤال سوف يرد عليه ودفع كل شبهة وحكم كل حادثة يتفق حدوثها فى مدته وهو أو ردلكل شيء من ذلك ما يجب له في وقته مسددا مقنعا للافكار وانا نرى من تلك الحوادث ما لايخطر في بال احدانه سوف يقع أو يتفق وقوعه الى اخر الدهر ومن يطلع على جميع ماحدث من الحوادث

فى مدة دعواه عليه السلام يعلم ان احاطة بعض رهبان الروم الذى تزعمونه بجميع ما سوف يحدث في تلك المدة واستحضار ما يلزم له هو من المحال البتة لايقول به الا كل عنيد وان قلتم انه يوجد في اتباع محمد عليه السلام رجل (قيل هو سلمان الفارسى رضى الله عنه وقيل غيره) هو من امة شهيرة بالمعارف ونظامات الممالك فما المانع من ان محمدا عليه السلام يتعلم من ذلك الرجل احكام ما يرد عليه من الحوادث واجوبة ما يلقى عليه من المسائل ودفوع ما يعارض به من الشبه وغير ذلك كل شيء ياخذه عنه فى وقته فكلما ورد عليه امر من ذلك الجاء الى ذلك الرجل وساله عنه فيعلمه ما يقتضيه الحا ل قلنا ان توهم هذا الامر من السخافة بمكان أولا لايخفى ان امر التعلم لايتأتى فى جلسة واحدة ولا فى جلسات قليلة ولا يتم فى الخفية بل التعليم انما يتم اذا اختلف المتعلم الى المعلم ازمنة متطاولة ومددا متباعدة ولو كان الامر كذلك لاشتهر بين الخلق ان محمدا عليه السلام يتعلم العلوم من فلا ن والحال ليس كذلك وثانيا لو كان ذلك الرجل معلما لمحمد عليه السلام جميع تلك العلوم التى وجدت في قرآنه وشريعته لكان في غاية الفضل والتحقيق يشار اليه بالبنان والحال ان ذلك الرجل الذي تزعمونه ليس بهذه الدرجة السامية بل ولا هو من المشاهير بالمعرفة بين الناس ويوجد كثير من اتباع محمد عليه السلام يفوقونه فى الاحاطة باحكام الشريعة بدرجات وهو نفسه يكتسب منهم وممن دونهم ويتعلم ما يحتاج اليه ويخضع لديهم خضوع المتعلم للمعلم ولايصدق العقل ان يقتدر على اخفاء حاله بهذه الدرجة وثالثا لوكان هو المعلم لمحمد عليه السلام لاضطر محمد الى تقديمه في المرتبة والمقام بين اتباعه على جميعهم ولو لم يقمه محمد في تلك المنزلة لما صبر هو على ذلك ونحن

نراه بين أتباع محمد دون كثير منهم في الرتبة وهو راض بذلك غير متنكر منه ورابعا انا قد خالطنا فيما بعد امة ذلك الرجل فلم نجد عندها جميع ما جاء محمد عليه السلام من العلوم والاحكام والشريعة الجامعة لكل خير وكثير منها لم يوجد عندهم منه شيء ولا اثر بل وجدناهم يقتبسون من شريعته ما يرونه مناسبا لسياسة بلادهم فمن اين جاء ذلك الرجل جميع تلك المعارف وامته محرومة منها فكل ذلك يبطل هذه الاحتمالات التي اوردتموها علينا ايها المشككون ويلقيها في حيز الاهمال فنحن لا نزال مصدقين بدعوى محمد عليه الصلاة والسلام بدون شك ولا ريب

فما أولئك المشككون الى الطائفة الذين استدلوا على صدق محمد عليه السلام باقرار أهل الفصاحة والبلاغة بالعجز عن معارضة قرآنه وبشهادة أهل المعرفة في فضائل الكلام باشتمال القرآن على الصفات الفاضلة التي يعجز عن جمعها في مثله كل أحد من البشر وبعجز بعض أهل الفصاحة والبلاغة عن معارضة قرآنه أيضا بدليل عدم التعرض لها بل انحازوا الى محاربته التي سببت قتل أنفسهم وسبي ذراريهم وتخريب ديارهم وجلائهم عن أوطانهم فتركوا الطريق السهل وهو المعارضة لو تمكنهم وسلكوا سبيل المحاربة التي هي أصعب السبل فقالوا لهم وما يدريكم ان الطائفتين اللتين احداهما أقرت بالعجز عن المعارضة والاخرى أقرت باشتمال القرآن على الفضائل التي لا تلحق واتبعوا جميعا محمدا (عليه السلام) كان ذلك منهم لغرض من الاغراض وغاية يبلغونها في ذلك الاتباع فاقروا بذلك الاقرار واتوا بتلك الشهادة ليكون ذلك حجة لهم على من يلومهم وأما الطائفة الذين تركوا المعارضة وانحازوا الى المحاربة التي سببت لهم تلك الاضرار فربما يكون محمد (عليه السلام)

هو الذى ابتداهم بالمحاربة و بسبب استمرار نار الحرب لم تبق لهم فرصة للمعارضة ولم يمكنهم محمد (عليه السلام) من ذلك و بهذا السبب تركوا الطريق السهل وسلكوا السبيل الصعب فهم قد الجؤا لذلك الجاء فاجابتهم هذه الطائفة بأن قولكم فى حق الطائفتين الاولين انه يحتمل ان يكون ما حصل منهم من الاقرار والشهادة والاتباع لغرض من الاغراض وغاية ينالونها في ذلك فهو قول مسربل بالمجازفة ومجرد عن كل روية لانه لايخفى ان أصعب شيء على العاقل مفارقة دينه الذى يرجو فيه النجاة فى الدنيا والآخرة وأصعب شيء بعد ذلك عليه مفارقة عوائده التى مرن عليها وتلقاها عن اسلافه حتي ان البعض وان استشعر برداءة عوائده يصعب عليه مفارقتها وتحكم عليه نفسه بملازمتها وعلى هذا فالعاقل لايفارق دينه الا اذا تيقن النجاة في دين سواه ولا يهجر عوائده لاسيما الموروثة الا لسبب قوى قاهر فهاتان الطائفتان نراهم قد فارقو دينهم الذى يرجون به نجاتهم وعوائدهم التى مرنوا عليها وصاروا يذمون جميع ذلك أشد الذم وأقروا بالعجز عن المعاضة وشهدوا بفضل القرآن بمجرد اطلاعهم عليه بدون أدنى خوف من جانب محمد عليه السلام لما هم من العصبية القوية بدون احتياج الى أموال في يده بل قبل ان تقوم له عصبية وان يحصل فى يده شيء من الاموال وبدون سبب من الاسباب الملجئة لذلك يعلم ذلك من استقصاء حالهم وحاله والاطلاع على كيفية اتباعهم له فلولا انهم جزموا بالعجز عن المعارضة وباحتواء القرآن على تلك الفضائل التي يعجز عن جمعها البشر لما أقروا وشهدوا بذلك ولما كان منهم ذلك الاتباع الذى فارقوا به دينهم الذى يعتقدون به نجاتهم وكابدوا مشقة هجر عوائدهم وهم عقلاء فطناء آمنون

وأما قولكم في حق الفصحاء البلغاء الذى ظهر عجزهم عن المعارضة بتركهم اياها وسلوكهم سبيل المحاربة التي جاءتهم بالاضرار انه ربما ابتدأهم محمد عليه السلام بالمحاربة ولم يجدوا فرصة للمعارضة ولم يمكنهم محمد منها فنقول لو كان ما حصل بينهم وبين محمد عليه السلام من دعوته لهم وامتناعهم قد حدث في واقعة واحدة وفي مدة وجيزة لربما كان العقل يصدق بذلك الاحتمال الذي قلتم به ولكن الحال ليس كذلك فانهم ما تحاربوا معه عليه السلام حتى تحداهم بالقرآن مرارا ونادى على رؤس الاشهاد بعجز البشر عن معارضته ومضى على ذلك مدة من الزمان ليست بقليلة وهو في قسم كبير من أولها لم يكن عليه السلام ذا اتباع يصلح عددهم للمحاربة ثم بعد ما استعرت نار الحرب بينه وبين هذه الطائفة لم يزل متحديا بذلك ويدعوهم الى المعارضة كلما وجد فرصة لها وقد كان يحصل بينه و بينهم هدن كثيرة ويجتمع هو وأصحابه معهم فى أوقاتها فكان يمكنهم في اثناء تلك الهدن والفرص ان يأتوا بالمعارضة لو امكنتهم ويرسلوا اليه ما يعارضون به وينشروه بين أحياء العرب ولا يعدمون نصيرا ولكن لم نجدهم حاولوا ذلك لا فى أول دعواه ولا في وقت الحرب ولا في زمن السلم وما التجؤا الى فصاحتهم وبلاغتهم الا في هجائه وهجاء اتباعه وأما المعارضة فما تفوهوا في جانبها ببنت شفة ولو حصل منهم شيء منها لما خفي علينا ولكانت نقلته الرواة الى المشارق والمغارب فهذه الاحتمالات التي أردتم تشكيكنا بها باطلة زاهقة لا يجوزها الا كل عديم التدقيق غبي عن حقيقة أحوال أولئك الطوائف مع محمد عليه السلام فنحن نرفض جميع تلك الاحتمالات الواهية ولا نزال مقرين مصدقين بدعوى محمد عليه الصلاة والسلام معتمدين على

دليلنا المتقدم بدون ارتياب

فانعطف أولئك المشككون الى الطائفة الذين صدقوا دعوى محمد عليه السلام لماشاهدوه من خوارق العادات ومخالفة النواميس الطبيعية التى ظهرت على يديه فقالوا انهم يحتمل ان جميع ما أظهره محمد (عليه السلام) من الخوارق كان من نوع السحر فسحر أعينكم حتى تخيلتم وقوع ذلك فاجابتهم تلك الطائفة بأن حالة محمد عليه السلام ليست حالة ساحر فانه يامر بالخير و ينهى عن الشر والذى يعهد من السحرة انهم أشرار شهوانيون يأتون بأعمال السحر لنوال مآربهم الخسيسة ومحمد عليه السلام لا يظهر شيئا من الاعمال الخارقة للعادات لاجل غرض خسيس ولا يأتى بذلك الا ليقنع العقول باتباع ماجاء به من الشريعة التى تحتوى على مكارم الاخلاق وتأمر بالتخلى عن الشرور والتحلى بالخيرات فحالته حالة الرسل الذين تقدموه من كمال الصفات وسلوك سبيل الاستقامة وهداية الخلق الى الحق والسير فى منهج النجاح وهو مؤيد دعواه بمثل ما أيدوا دعواهم من خرق النواميس الكونية التى لا يقدر على خرقها الا الله تعالى وذلك يكون كالتصديق منه تعالى لدعوى ذلك الرسول كانه تعالى يقول صدق عبدى فيما يبلغ عنى وخرقي للنواميس الكونية على يديه هو تصديقى له فى دعواه (وقد تقدم توضيح ذلك باوفي بيان فارجع اليه ان شئت) على ان بعض تلك الخوارق التى ظهرت على يدى محمد عليه السلام لا يصدق العقل ان للسحرة قدرة عليها وذلك كانشقاق القمر الذى شاهده الحاضر والبادي فانه كما رآه الحاضرون عند محمد عليه السلام الذين طلبوه منه فقدشاهدوه واخبروا به المسافرون الواردون من أمكنة بعيدة تساوى افقهم مع أفق الحاضرين

فهب ان محمدا عليه السلام سحر أعين الحاضرين عنده حتى شاهدوا ان القمر قد انشق فهل في قدرته ان يسحر أولئك المسافرين الذين كان كل فريق منهم في مكان من البادية لا يقول بذلك الا كل مكابر أو جاهل بمقدار قدرة السحرة في أعمالهم على اننا بعد ماصدقنا محمدا عليه السلام بسبب تلك الخوارق وأطلعنا على شريعته أتم الاطلاع وخالطناه أشد المخالطة ودققنا النظر فى أحواله عليه السلام لم نجد في شريعته الا كل استقامة وكل مايؤول على العامل بها بجلب الخير ودفع الضير كشرائع الرسل المتقدمين فى أصل الاستقامة فائقة عليها باستيفاء أبواب الكمالات ولم نجد فيه عليه السلام ما ينكره العقل أو يرتاب فيه الفكر وليس شأنه شأن السحرة ولا حاله حال المحتالين على تحصيل حطام الدنيا ونوال شهواتها بل دأبه هداية الناس الى منهج الاستقامة وأداء شكر المولى تعالى وصلة الارحام واطعام الطعام للمساكين والايتام مع شفقة منه على اتباعه كشفقة الوالد الحنون لاطمع له في أموالهم ولا ميل فيه الى ملذاتهم بل هو يتفضل عليهم بالاحسان شأن الرسل قبله عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام فعلى جميع ماقدمنا لم يبق لنا ريب فى صدق دعواه وهذا التشكيك منكم ذاهب أدراج الرياح وساقط فى نظر كل منصف فنحن لا نزال مصدقين محمدا عليه السلام في دعواه مؤمنين بكل ماجاء به من عند الله تعالى والله ولىّ التوفيق

فانعطف أولئك المشككون الى الطائفة الذين استدلوا على صدق محمد عليه السلام بسبب ان العلامات التى وردت فى الكتب المنسوبة للرسل المتقدمين التى تكون فى رسول يرسله الله تعالى بعدهم قد انطبقت عليه فقالوا لهم وما أدراكم ان تلك العلامات قد انطبقت على رسول قد مضى

قبل ان قام محمد (عليه السلام) بدعواه فاجابتهم تلك الطائفة بانا قد بحثنا فى تاريخ أحوال الرسل الذين تقدموا محمدا عليه السلام وجاؤا بعد ورود تلك العلامات في تلك الكتب فلم نجد واحدا منهم قد انطبقت عليه جميع تلك العلامات ولو كان واحد منهم كذلك لما خلا ذكره من جميع تواريخ الرسل ولكانت اخباره تنقل الينا ولو في بعض لاقاصيص لان مثله لايندرس ذكره هذا الاندراس نعم قد وجد من وجدت فيه بعض تلك العلامات ولكن لم يوجد من توفرت فيه باجمعها وقد أوضحنا هذا فى تقرير استدلالنا (فليراجع هناك) فقالوا لهم وما أدرا كم انه قد ياتى في الزمن المستقبل رسول من طرف الله تعالى تنطبق عليه جميع تلك العلامات ويكون هو المراد فى تلك الكتب وانطباق العلامات الآن على محمد (عليه الصلاة والسلام) كان بطريق الصدفة والاتفاق وان كان وجود تلك العلامات وتوفرها في شخصين بعيدا جدا ولكن العقل لايحيله فاجابتهم تلك الطائفة بان نعتقد ان الله تعالى الذى ينسب اليه ارسال اولئك الرسل الذين جاؤا بتلك الكتب وايحاؤها اليهم هو عليم حكيم فلا بد أن يعلم كل مستقبل ياتى فاذا كان يعلم انه سوف يأتى محمد عليه الصلاة والسلام ويدعى الرسالة وتنطبق عليه جميع تلك العلامات والحال انه غير مراد وانما المراد من يأتى بعده فلا بد بمقتضى حكمته سبحانه انه كان ينبهنا على ذلك ولو بعبارة واحدة بان يقول فى تلك الكتب انه يأتى واحد يدعى الرسالة وتنطبق عليه جميع تلك العلامات التى تذكر في كتب رسلى ولكنه غير المراد لى وانما المراد من يأتى بعده وحيث لم يرد منه سبحانه شيء من ذلك فوجب أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام هو المراد قطعا واحتمال وجود العلامات في شخصين الذى قلتم

ان العقـل لايحيله قد تبين بهذا التقرير انه محال لانه يقتضى اماجهل الله تعالى في حوادث المستقبل أو اجراء أعماله سبحانه على خلاف الحكمة ووقوع التلبيس منه تعالى عـلى عباده وكل ذلك محال فما أدى اليه يكون محالا فاذا وجود تلك العلامات في شخصين لايجيزه العقل فمحمد عليـه الصلاة والسلام الذى وجدت فيه باجمعها هو المراد البتة وقد شرحنا ذلك في تقرير استدلالنا بأكمل بيان (فليراجع هناك) فنحن لانزال مصدقين بدعوى محمد عليه الصلاة والسلام بلاشك ولاريب

فمال أولئك المشككون الى الطائفة الذين استدلوا على صدق محمـد عليه الصلاة والسلام بانه لو لم يكن صادقا فى دعواه لما اتفق عـلى تصديقه أولئك الطوائف العقلاء بعد ما كانوا مخالفين له أشد المخالفة ومكذبين أشد التكذيب ومتعصبين لعقائدهم وعوائدهم ولما توفرت لهم تلك الادلة لـكن قد اتفقوا وتوفرت لهم تلك الادلة فيكون صادقا فقالوا لهم يحتمل أن يكون كل دليل من أدلة أولئك الطوائف دليـلا ظنيا لايفيد اليقين واذا كان الحال كذلك فمجموع الادلة يكون ظنيا اذ ليس حقيقة المجمـوع الا تلك الافراد فكيف يعتمد على ذلك في الاعتقاد ومفارقة الدين ويحتمل ان محمدا بقوة حجته وحدة خاطره التى فطر عليهـا قد صور لـكل طائفة من تلك الطوائف دليلا ظنيا وحلاه بحلية اليقين فاجابتهم تلك الطائفة بأن كل طائفة من تلك الطوائف المستدلة بتلك الادلة اذا تأمل العاقل في شأنهم من انهم عقلاء متعصبون لما هم عليه من العقائد والعادات لايصـدق عقله بانهم يعتمدون في مفارقة دينهم وعوائدهم على دليل ظنى ويتساهلون فى تحرير دليلهم واعتماد اليقين فيه لان اقدامهم على ما أقدموا عليه ليس أمرا طفيفا

حتى يهملوا التحقيق والتدقيق فيه فالذى يقنع به العقل السليم ان كل طائفة منهم لم تعتمد في أتباعها محمـدا عليه الصلاة والسلام الاعـلى دليل يقيني يفيد الجزم وعلى فرض ان هذا التقرير لا يفيد القطع بأن كل دليل من تلك الادله هو يقيني فاتفاق تلك الادلة على نتيجة واحدة وهي صدق محمد عليه الصلاة والسلام مما يفيد صحة دعواه ويكون ذلك دليلا لنا مستقلا يوجب لنا الجزم بذلك وقولكم اذا كان كل دليل على حدته ظنيا فمجموع الادله يكون كذلك اذ ليس المجموع الا تلك الافراد هو قول ممنوع لانه وان يكن المجموع ليس الا الافراد ولـكن حكم كل فرد غير حكم المجموع في المحسوسات والمعقولات كما لا يخفى (قد مر بسط الـكلام فى هذا المقام في الرد على المؤولين لادلة الطوائف الذين صدقوا الرجل المرسل من عند الملك ويزاد هنا على ذلك بعض البيان) ألا ترون ان الحبل الثخين هو مجموع خيوط كل منها على حدته يستقل بقطعه الولد الصغير وأما مجمـوع تلك الخيوط وهو الحبل فيعجز عن قطعه أقوى الرجال وكذلك الحال فيما لو خرج جماعة كثيرون من مجتمع حضروا فيه خطيبا خطب بينهـم وأخبر كل واحد منهم ان الخطيب في أثناء خطبته سقط عن منبر الخطبة وشج رأسه فخبر كل واحد منهم على حدته وان كان ظنيا يحتمل انه كذب ولـكن مجموع أخبارهـم تفيد اليقين ويحيل العقل ان هؤلاء الجماعة الـكثيرين قد تواطؤا عـلى الـكذب وهم مختلفون في الافكار ولا جامع يجمعهم عـلى اختلاف ذلك الخبر وكذلك اذا قال جماعة ان الامير قد حضر من سفره الى البلدة فأحدهم قال لاني رأيت اليوم ثيابه قد حضرت مع بعض خدمه والآخر قال لانى رأيت خدامه الخاصة بخدمته قد حضروا والآخر قال لانى رأيت ولده العزيز

الذى من عادته أن لايفارقه لاسفرا ولا حضرا قد حضر والآخر قال لانى
سمعت أصوات المدافع قد ضربت فسالت عن ذلك بعض المدفعيين فقال
لى ان الامير قد حضر والآخر قال لانى رأيت أرباب الوظائف في الحكومة
مسرعين لملاقاته والسلام عليه عند خروجه من السفينة وهم أخبرونى
بذلك والآخر قال كذا والآخر قال كذا وكل منهم أتى بدليل اذا نظر
اليه بحد ذاته يكون ظنيا فان العقل لاينظر الى كل دليل على حدته بل يعتبر
مجموع تلك الادلة ويقول ان اتفاقها لايكون بطريق الصدفة ويجزم
بسببها بحضور الامير البتة فقد ظهر ان الافراد من الادلة وان كان كل منها
ظنيا ولكن مجموعها قد صار يقينيا بالاجتماع يفيد الجزم واما قولكم
يحتمل ان محمدا عليه الصلاة والسلام بقوة حجته وحدة خاطره التى فطر
عليها قد صور لكل طائفة دليلا ظنيا وحلاه بحلية اليقين فهذا كلام من لم
يعرف حقيقة الادله التى اعتمد عليها أولئك الطوائف فان أكثرها لم
يتحصل بصنع من محمد عليه الصلاء السلام فكيف يقال انه هو الذى صوره
وحلاه تاملوا كيف يمكن لمحمد عليه الصلاة والسلام أن يحدث في الفصحاء
والبلغاء العجز عن معارضة قرآنه اذا لم يكن نفس القرآن معجزا (وقدم
رد الشبه الواردة على هذا فى أول الكلام مع الماديين فليراجع هناك) هب
أن محمدا الزم نفسه بالعلامات المذكورة في الكتب المنسوبة للرسل المتقدمين
التى هي من نوع الاخلاق والافعال الاختيارية على زعم انه المطلع على تلك
الكتب مثل انه يحب البر ويبغض الاثم ويحكم بالعدل ويحارب ونحو ذلك
فهل يمكنه أن يحدث فى نفسه العلامات الجسدية مثل ان علامة ملكه
بين كتفيه وكونه قويا وهل يمكنه أن يحدث العلامات التى ليست اختيارية

بل هي من قبيل الحظوظ فى العالم مثل كون الشعب تحته وكون الهدايا ترد اليه من الملوك وكون الاغنياء تنقاد له وان البرية ترفع صوتها بذكره وهي الديار التي يسكنها قيدار وكونه الحجر الذي رفضه البناؤن وصار رأس الزاوية وانه أعطى سلطانا على الامم وان الحبشة تجثو له وان ملوك اليمن تاتيه بالقرابين وهذه الامم تخضع له وتدين له بالطاعة وكونه يعطى من ذهب سبا وهو وأتباعه مثل الزرع الكثير على وجه الارض وان سلطانه يكثر يوما فيوما وانه بعد ظهوره تكسرت الاصنام والقيت الى الارض وان الطيور تاكل لحم الملوك الذين يحاربونه وان اتباعه يقودون الملوك ويسوقونهم بالسلاسل والاغلال وان الله أغاريهم شعب اسرائيل أغارهم وأغضبهم بشعب جاهل) قدمر تطبيق هذه العلامات فى كلام الطائفة الذين استدلوا بها فليراجع هناك) فقد ثبت بما قررناه ان كل احتمال أوردتموه لتشكيكنا هو غير جائز لا يصدقه العقل السليم الخالي عن التعصب فنحن لا نزال مصدقين دعوى محمد عليه الصلاة والسلام بدون ارتياب

فانعطف أولئك المشككون الى الطائفة الذين كانوا ماديين طبيعيين ثم صدقوا محمدا واتبعوه بما شرح لهم العالم المحمدى وبانه من الدلائل التي تدل على بطلان مذهبهم في انكار اله العالم والوحي وتدل على صحة دين محمد عليه السلام وموافقته للعقل واحكامه اليقينية مع دفع الشبه التي كانت عقابا في سبيل تصديقهم فرأى أولئك المشككون بعد اطلاعهم على ماجرى بين هذه الطائفة وبين ذلك العالم المحمدى من المذاكرات والمباحثات ان كل شبهة يرجون بها ادخال الشك على هذه الطائفة قد دفعها ذلك العالم فى مباحثاته واظهر بطلانها فسقط فى ايديهم وقالوا لم يبق لنا مطمع هذه الطائفة

الا اننا نشككم في كلام هذا العالم الذى كان كلامه سبب اقناعهم في اتباع محمد (عليه السلام) فقالوا لهم لعل هذا العالم يكون قوى الحجة كثير الاطلاع متضلعا في اساليب المباحثات فسحر عقولكم بسحر بيانه حتى خيل لكم بطلان ما يخالف شريعته من مذهبكم وصحة دين محمد (عليه السلام) فكان عليكم ان تتثبتوا ولا تتركوا اعتقادكم المبنى على علومكم الطويلة العريضة لمجرد مذاكرة ذلك العالم ومباحثته فاجابتهم تلك الطائفة بانا قوم اصحاب عقول ولنا باع طويل فى المناظرات وفطنة تامة في تلقاء من يناظرنا فلا نخال ان ذلك العالم المحمدى أو اعظم منه بكثير يقدر على تمويه الحجج علينا واقناع عقولنا بغير الصواب وكل ما نظرنا فيه واقنع به عقولنا قد سلك فيه سبيل البيان العقلى الواضح وجرى في ذلك على مقتضى صريح العقل فاثبت لنا أولا حدوث مادة العالم بدليل واضح مبنى على اكتشافات تنافى حقائق الكائنات ثم اقام لنا الدليل على وجوب وجود اله محدث للعالم ووجوب اتصافه بالصفات التى تدل عليها آثاره فى هذه الاكوان ودفع عنا شبها كانت مانعة لنا من التصديق بوجود ذلك الاله وضرب لنا الامثلة على ذلك باوضح بيان وايقظ عقولنا للاستدلال على وجود ذلك الاله سبحانه وعظمة صفاته ووفور حكمته بما ذكرنا به من تفاصيل الكائنات واسرارها المنطوية في مباحثنا المدونة فى كتب علومنا على اكمل تبيان ثم وفق لنا بين ما ورد فى شريعة محمد عليه السلام وبين ما جاء فى علومنا مما ظاهره المخالفة لها حتى زال نفورنا عما ورد فى تلك الشريعة ثم ابان لنا الاضرار التي تنشأ فى العالم البشرى من الاعتماد على اعتقاداتنا لاسيما من انكار البعث للانسان ثم بعد ذلك تاملنا فى الادلة التى اعتمدها الطوائف الذين اتبعوا محمدا عليه السلام وصدقوه بسببها

فظهر لنا انها صحيحة دالة على صدقه يقينية الدلالة لا سيما مجموعها الذي لا يحتمل توفره بوجه الصدفة والاتفاق فعند ذلك ظهر لنا الحق وليس بعد الحق الا الضلال ونحن دائما بين الانام نطنطن باننا احرار الافكار نذعن للحق اينما كان فكيف بعد ذلك كله نكابر ونخالف الصواب ولا سيما مكابرة تعود علينا بالشقاء الابدي وخسارة انفسنا فلم يسعنا بعد ذلك الا تصديق محمد عليه السلام واتباعه فصدقناه واتبعناه باكمل ايمان واحكم ايقان فايرادكم هذا التشكيك في كلام ذلك العالم المحمدى لا يجديكم نفعا فكفوا عنا بسلام فعند ذلك رجع أولئك المشككون عن أولئك الطوائف صفر الايدي بخفى حنين والله لا يصلح عمل المفسدين

هذا وقد كانت طائفة من أولئك الجماهير الذين قام بينهم محمد عليه السلام بدعواه خامدة الافكار جامدة في تعصبها جمود الاحجار فعند ما سمعوا بدعوى محمد عليه السلام وشاهدوا الطوائف الذين اتبعوه رأوا بسوء اختيارهم ان يلتزموا التعصب الاعمى لمعتقداتهم وعاداتهم ويكذبوا دعواه عليه السلام بدون استناد الى شيء سوى قولهم انا وجدنا آباءنا على هذه الاعتقادات والعادات فلا نترك شيأ منها لدعوى محمد (عليه السلام) وكيف نترك شيئا من ذلك وقد مضى عليه اسلافنا وعملنا سنين عديدة فاصروا على هذا الجمود البارد والفكر الخامد فهؤلاء القوم قد بقوا فى ضلالهم مع اتباع خطة دنيئة وخلة وبية لم يتبعوا الصواب ولم يناضلوا عن مختارهم مناضلة ذوى الالباب فسقطوا فى مهاوى الخسران وانحطوا في دركات الهوان والله سبحانه وتعالى لا يعذرهم فى ذلك العناد ولا بد ان ينتقم منهم فى يوم التناد وان قيل ان هؤلاء القوم كما ذكرت عنهم أفكارهم خامدة

فلعل ذلك يكون لهم عند الله تعالى عذرا فيقولون ياربنا لم يكن عندنا من
الفكر عند ما ادعى محمد عليه السلام الرسالة ما يوصلنا الى استيضاح
دعواه فلذلك بقينا مصرين على تكذيبه قلت ان خمود أفكارهم ليس
لنقص في أصل خلقتهم وضعف فطرى في عقولهم وجبلتهم ينزل بهم
الى درجة المجانين أو الحيوانات العجم حتى يعذروا عند الله تعالى في
جمودهم على تكذيب دعوى محمد عليه السلام وعدم استيضاحهم لها
ويسقط بذلك عنهم التكليف الالهى الذى كلف الله تعالى به عباده على
ألسنة رسله عليهم السلام بل ذلك الخمود فيهم قد نشأ من انغماسهم في
الشهوات والتفاتهم الى اللذات وانهماكهم فى تحصيل رغائبهم الدنيوية
وبلوغ أهوائهم الدنية فاستثقلوا لاجل ذلك سلوك سبيل الاستبصار وركنوا
الى الذلة والصغار والدليل على ذلك اننا نراهم فى تحصيل رغائبهم ومجادلة
أخصامهم فى مقاصدهم أصحاب أفكار وأنظار واستدلالات ذات أخطار
يدققون النظر لبلوغ الوطر ويعملون الفكر فى تحصيل الارب فاى مانع منعهم
من الاستبصار فى دعوى محمد عليه السلام بعد ما سمعوا بها ما هو الا
البطر وهوى النفس والاخلاد الى هذه الدنيا الفانية فهم يستحقون من
الله تعالى الانتقام يوم الزحام على قانون العدل لايظلمون فتيلا (وهكذا
ترى كثيرا من المنهمكين في اللذات وتحصيل الرغائب الفانية يهملون أنفسهم
من تصحيح عقائدهم وتعلم عباداتهم ومعاملاتهم واذا قيل لهم أن الشريعة
تكلفكم بتعلم ذلك يقولون ان عقولنا لاتطيق فهمه ولا تستطيع علمه ومن
أين لنا أفكار تبلغ هذه الانظار وأنت تراهم فى تحصيل رغائبهم الدنيوية
ومخاصمة أخصامهم فى أدنى أمنية فلاسفة مدققين وحكماء محققين فلو

وجهوا عقولهم التي وهبها الله تعالى لهم الى تعلم ذلك القدر الذى فرضه الله تعالى عليهم لوجدوا فيها قبولا للتعلم واستعدادا لانفهم ولكن استهواهم الكسل والانهماك في الشهوات والسعي لتحصيل حطام الدنيا فى جميع الاوقات يزينون ظواهرهم بالملابس وبطونهم بالمطاعم وعقولهم عطلى من حلى المعارف الحقة فهم بذلك غير معذورين في نظر الشريعة المحمدية وسوف يسئلون عما كلفوا به من التعلم في يوم الحساب ويستحقون هنالك على تفريطهم أنواع العقاب)

هذا ولم يزل محمد عليه الصلاة والسلام مع الطوائف الذين أصروا على انكار رسالته عنادا وجهلا وضلالا يقيم لهم البراهين على صدق دعواه ويورد لهم المواعظ ويؤلف قلوبهم بكل ممكن ويرشدهم الى منهج الحق ومعالم الصدق ومضت له مدة من قيامه بدعوى الرسالة وهو لم يؤمر الا بوعظتهم البالغة ومجادلتهم بالتي هي أحسن لكن لما ظهر وتبرهن للعقول السليمة والانظار القويمة ان أولئك القوم لايعمل معهم البرهان ولاتنفع فيهم الموعظة ولا يثمر لديهم الارشاد بل هم فضلا عن ضلالهم وغشهم لانفسهم بعدم قبول الدين الحق وسلوك سبيل الاستقامة لايفترون عن أذاه عليه السلام وأذى تباعه كلما سنحت لهم الفرصة ينصبون لهم المكائد ويقيمون في سبيل دينهم العاثر ويخترعون لهم بدائع الاضرار ويعاملونهم معاملة الاشرار أذن الله تعالى له عند ذلك بجهاد أولئك الاعداء والاخصام الالداء والاغرار البلداء استبدالا للترغيب بالترهيب ودفعا للاذي والفساد وقطع جرثومة العناد وقد يسمح بالاشرار لسلامة الاخيار ويقطع العضو المريض لوقاية صاحبه من البوار ولكن شرع الله تعالى ذلك الجهاد على حدود تبقى

للرفق مجالا وللشفقة والعدل منالا وذلك ان يدعى المخالفون للدين أولا بالموعظة الحسنة الى الاسلام وتوحيد الملك العلام والتصديق بجميع ما جاء به عليه الصلاة والسلام فان قبلوا فبها ونعمت ويكونون مثل سائر المسلمين وان لم يقبلوا فان كانوا من مشركي العرب الذين جاء الشرع المحمدى بلغتهم وليس لهم شبهة كتاب أو شرع سماوي بل هم عبدة أصنام أو نيران أو نحو ذلك فحكمهم القتل (كما كان هذا الحكم في الشريعة الموسوية فى حق الامم السبعة وهم الحيثيون ومن ذكر معهم كما فى سفر الاستثناء وفى حق المرتد والذابح للاوثان والداعى الى عبادتها) وان كانوا من غير مشركى العرب يدعون الى الصلح بقبول الجزية والاطاعة فان قبلوا صارت دماؤهم كدماء المسلمين وأموالهم كاموالهم وأعراضهم كاعراضهم لا يسامح أحد بشىء من ذلك ولو مثقال ذرة حتي لا تجوز غيبتهم أو شتمهم أو أذيتهم بأدنى مكدر الا بما يجوز مثله على المسلمين بوجه شرعى من نحو التأديب مثلا وان لم يقبلوا بدفع الجزية والاطاعة فيحاربون وتباح دماؤهم وأموالهم للمسلمين واسترقاقهم كما كان مثل ذلك فى الشريعة الموسوية فى حق الامم غير السبعة ولذلك حدود لا يجوز تعديها فلا يقتل صغير ولا امرأة ولا من يتخلى لما اتخذه عبادة الا ان يكون أحد هؤلاء له نكاية فى المسلمين ولو باعطاء الرأى فى تدبير الحروب وقد كان بعض من اتبعوا محمدا عليه السلام من أهل الشرائع المتقدمة انكروا أمر الجهاد في أول الامر لما فيه من ازهاق الانفس وسلب الاموال واسترقاق البشر ولكن بعد ما حكموا الانصاف وقابلوا بين شريعة محمد عليه السلام وبين الشرائع المتقدمة لم يجدوا فى الشريعة المحمدية ما يعاب عليها من تلك الامور ويشذ عن الذى يعهد فى

الشرائع بل وجدوا فيها تخفيفات قد خلت عنها الشرائع المتقدمة فان السريعة المحمدية مع حكمها بقتل مشركى العرب اذا لم يؤمنوا قد حرمت قتل صغارهم ونسائهم بخلاف الشريعة الموسوية في حق الحيثيين وبقية الامم السبعة المذكورين في سفر الاستثناء فانها حكمت بقتل كل ذى حياة منهم ذكورهم واناثهم وأطفالهم وذكر هناك ان هؤلاء الامم أكثر من بنى اسرائيل عددا فسمح الله تعالى بهم لسلام بنى اسرائيل المؤمنين وشدد فى اهلاكهم تشديدا بليغا فقال فى سفر العدد فابيدوا كل سكان تلك الارض ثم أنتم ان لم تبيدوا سكان الارض فالذين يبقون منهم يكونون لكم كاوتاد في أعينكم ورماح في أجنابكم ويعسفون عليكم في الارض التى تسكنونها وما كنت عزمت ان أفعله بهم سافعله بكم وأما حكم الشريعة الموسوية في حق غير الامم السبعة فهو كحكم الشريعة المحمدية بان يدعى المخالفون أولا الى الصلح فان رضوا به وقبلوا الاطاعة بالايمان أو أداء الجزية فبها وان لم يرضوا بحاربوا فاذا حصل الظفر عليهم يقتل الذكور منهم ويسبى نساؤهم واطفالهم وينهب دوابهم واموالهم وتقسم على المجاهدين كما فى السفر المذكور (المشهور في الكتب الاسلامية أن الغنائم ما كانت تحل للامم السابقة بل كان يجب عليهم حرقها فليتامل) ثم ان يوشع عليه السلام بعد موت موسى عليه السلام جرى على الاحكام المندرجة فى التوراة فقتل الملبونات الكثيرة كما يوخذ من كتابه من الباب الاول الى الباب الحادى عشر وقد صرح في الباب الثانى عشر من كتابه انه قتل احدا وثلاثين سلطانا من سلاطين الكفار وتسلط بنواسرائيل على مملكتهم ويوخذ من سفر صموئيل ان داود عليه السلام كان يخرب كل الارض وما كان يبقى رجلا ولا امرأة من أهل جاسور وجزر وعمالق وينهب

دوابهم وامتعتهم وفي السفر المذكور ان الموابيين صاروا عبيدا لداود يودون اليه الخراج وانه ضرب هدر عازار واخذ منه الف وسبعماية فارس ومن رجاله عشرين الفا وضرب من ارام اثنين وعشرين الفا وانه قتل من السريانيين سبعمائة مركب واربعين الف فارس وانه اخذ الشعب الذين كانوا في قرية راية اخذهم ونشرهم بالمناشير وداسهم بموارج حديد وقطعهم بالسكاكين وكذلك صنع بجميع قرى بني عمون ويوخذ من سفر الملوك الاول ان ايليا عليه السلام ذبح اربعماية وخمسين رجلا من الذين يدعون انهم انبياء بعل ثم ان داود قد عد اعماله من الحسنات ومن جملتها جهاداته اذ قال فى الزبور الثامن عشر ويجازيني الرب مثل بري ومثل طهارة يدي يكافئني لاني حفظت طرق الرب ولم اكفر بالهي لان جميع احكامه قدامي وعدله لم ابعده عني واكون معه بلا عيب لانه حفظني من اثمي وقد شهد الله تعالى ان جهاداته وسائر افعاله الحسنة كانت مقبولة عنده تعالى حيث قال في سفر الملوك الاول هكذا داود عبدي الذي حفظ وصاياي وتبعني من كل قلبه وعمل بما حسن امامي وقد شهد بولص لاولئك الانبياء بان اعمالهم فى الجهاد للكفار كانت من جنس البر لا من جنس الاثم وكان منشؤها قوة الايمان ونيل مواعد الرحمن لا قساوة القلب والظلم وان كان افعال بعضهم فى صورة اشد انواع الظلم سيما قتل الصغار غير المتدنسين بذنب اذ قال فى الرسالة العبرانية هكذا وماذا اقول أيضا لانى يعوزنى الوقت ان اخبرت عن جدعون وباراق وشمسون ويفتاح وداود وصموئيل والانبياء الذين بالايمان قهروا الممالك صنعوا برا نالوا مواعيد سدوا افواه اسود اطفؤا قوة النار نجوا من حد السيف تقوا من ضعف صاروا اشداء في الحرب هزموا جيوش

غرباء وان قال قائل متجرى ان جهادات داود كانت لاجل سلطنته ومملكته قلنا هذا القول من قلة الدين لان قتله لاولئك البشر لاسيما النساء والاطفال لايخلو اما ان يكون مرضيا لله تعالى وحلالا له أو مبغوضا عند الله تعالى ومحرما عليه فان كان الاول فقد ثبت ان الجهاد مشروع من الله تعالى فى الشرائع المتقدمة وان كان الثانى لزم والعياذ بالله تعالى كذب شهادة الله تعالى فى حقه التى مرنقلها عن سفر الملوك وكذب قوله هو فى حق نفسه وكذب شهادة بولس في حقه وهذا شيء لايسلم به كل من يعتقد تلك الكتب التى تقدم نقل هذه الاقوال عنها ولزم ان يكون دماء الوف من المعصومين وغير واجبى القتل في ذمته ودم البري الواحد يكفى للهلاك فكيف تحصل له النجاة الاخروية وبالاختصار اذا لم يكن لنا دليل على مشروعية الجهاد عند الله تعالى وقتل المخالف لشرائع الله تعالى الا ان عيسى عليه السلام يقتل الدجال وعسكره عند نزوله كما هو مصرح به فى الباب الثاني من الرسالة الثانية الى أهل نسالونيقى والباب التاسع من المشاهدات لكان ذلك دليلا كافيا واذا نظرنا الى عادة الله تعالى الفاعل المختار الذى لاتوصف افعاله بالظلم بل كل اعماله عدل وحكمة وجدنا ان من عادته سبحانه ان يبغض الكفر ويجازى عليه فى الآخرة يقينا وكذا يبغض العصيان وقد يعاقب الكفار والعصاة في الدنيا أيضا فيعاقب الكفار تارة بالاغراق عموما كما في عهد نوح عليه السلام فلم ينج حينئذ الا أهل السفينة وبالاغراق خصوصا كما اغرق فرعون وجنوده وبالاهلاك مفاجاة كما أهلك اكبر اولاد كل انسان وبهيمة من أهل مصر فى ليلة خروج بنى اسرائيل من مصر كما فى سفر الخروج وتارة بامطار الكبريت والنار وقلب المدن كما فى

عهد لوط عليه السلام فانه أهلك أهل سادوم وعاموره ونواحيهما بذلك وتارة بالامراض كما أهلك الاسدوديين بالبواسير كما فى سفر صموئيل الاول وتارة بارسال الملك كما فعل بعسكر الاشوريين اذ قتل منه الملك فى ليلة واحدة ماية وخمسة وثمانين الفا كما في سفر الملوك الثانى وكذا يعاقب العصاة أيضا تارة بالخسف والنار كما أهلك قورح وداثان وابيرم وغيرهم لما خالفوا موسى عليه السلام فانفلقت الارض وابتلعت قورح وداثان وابيرم ونساءهم واولادهم واثقالهم ثم خرجت نار فاكلت ماتين وخمسين رجلا كما فى سفر العدد وتارة بالاهلاك مفاجاة كما أهلك أربعة عشر الفا وسبعماية لما خالف بنو اسرائيل فى غد هلاك قورح وغيره ولو لم يقم هارون عليه السلام بين الموتى والاحياء ولم يستغفر للقوم لهلك الكل بغضب الرب فى هذا اليوم كما يؤخذ من السفر المذكور وكما أهلك خمسين الفا وسبعين رجلا من أهل بيت شمس على انهم رأوا تابوت الله تعالى كما يؤخذ من سفر صموئيل الاول وتارة بارسال الحيات المؤذية كما ان بنى اسرائيل لما خالفوا موسى عليه السلام مرة اخرى أرسل عليهم الحيات المؤذية فجعلت تلدغهم فمات منهم كثير كما يؤخذ من سفر العدد فقال أولئك القوم بعد ما تاملوا فى جميع ما تقدم من احكام الشرائع المتقدمة في الجهاد واعمال الانبياء فى الكفار وعادة الله تعالى مع الكفار والعصاة ان محمدا عليه السلام ما دام رسولا بشريعة من عند الله تعالى وثبت ذلك بالادلة القاطعة فاى شيء يعاب عليه في مشروعية الجهاد فى شريعته وفي قتله لمن يخالفونه ونهب اموالهم واسترقاقهم لاسيما وقد وجدنا الجهاد فيها اخف من الجهاد فى الشرائع السابقة فشريعته لم تخالف تلك الشرائع ولم تكن ضدا لعادة الله تعالى مع المخالف لشرائع انبيائه بالكفر

أو بالعصيان فعلى كل من يصدق بالوحي ويؤ من بتنزيل الشرائع من عند الله تعالى على الانبياء ان لا يلقى بالا لهذه الشبهة والطعن فى الشريعة المحمدية من خصوص مشروعية الجهاد فيها واما من لم يؤ من بوجود اله العالم ولا بتنزيل الشرائع فهذا يقدم له اولا الاستدلال على وجودا لله تعالى آله العالم واثبات الوحى (كما تقدم ذلك مع مناظرة الماديين) فبعد ان تقام عايه الحجة ويلتزم التصديق بالشرائع يبقى بمنزلة المليين المصدقين بها فنلزمه استحسان ماشرعه الله تعالى فيها وعند ذلك يجد ان شريعة محمد عليه السلام لم تخالف الشرائع المتقدمة فى شأن الجهاد بل انها اشتملت على تخفيفات فيه لم تكن فى تلك الشرائع كما تقدم بيانه

ثم ان طائفة اخرى بعد ما شاع دين محمد عليه السلام وشرع الجهاد فيه توهموا ان هذا الدين ما قام وانتشر الا بالسيف واذا كان الحال كذلك فهذا شيء يوقع في النفس ريبا وشكا ويجعل للانسان مجالا ان يقول ان هؤلاء الاتباع لمحمد عليه السلام قداجروا على الدخول في دينه اجبارا خوفا من القتل ولكن تلك الطائفة التزمت الانصاف واستقصت عن أول نشأة دين محمد عليه السلام فتحقق عندها بعد الفحص والتدقيق ومراجعة تاريخ أول تلك النشأة ان محمدا عليه السلام أول ما قام بدعوى الرسالة كان وحيدا فريدا ليس صاحب سلطان ولا متمكنا بعصبية عشيرة قادرة بل انه عند قيامه بتلك الدعوى بين جماهير الامم فضلا عن ان عشيرته ليست ذات سطوة على بقية الامم وليس عندها كفاية لمقاومتها فهى كانت أول من كذبه فى دعواه وعاداه أشد المعاداة وتسلطت عليه أشرارها بالاذى وتسفيه الرأي ولكن هو عليه السلام لم يزل مقبلا

على دعواه صابرا على أذى من أذاه يدعو الخلق الى الحق ويقيم لهم البراهين ويظهر لهم محاسن دينه ويوضح لهم معايب ماهم عليه حتي وضح الحق لمن أراد الله تعالى هدايته فاخذت العقول السليمة تقبل دينه وتستحسن شريعته ويتبعه الافراد والجماعات وهو حينئذ لم يؤمر باراقة قطرة من دم أحد ويتلو قرآنه المتضمن قوله تعالى (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى) وقوله تعالى فى خطاب من اتبعه (ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل اذا اهتديتم) وقوله تعالى (ومن كفر فعليه كفره) وأمثال ذلك من الآيات وقد تبعه في زمن التزامه هذه الطريقة وقبل مشروعية الجهاد الجم الغفير كما يعلم من مراجعة تاريخ سيرته فاسلم أبو ذر وانيس أخوه وأمهما رضى الله تعالى عنهم في أول ذلك العصر فلما رجعوا الى قبيلتهم أسلم نصف قبيلة غفار بدعوة أبي ذر رضى الله تعالى عنه وفى السنة السابعة من بعثته قبل ان يهاجر الى المدينة ويشرع الجهاد هاجر من أتباعه من مكة الى الحبشة ثلاثة وثمانون رجلا وثمانى عشرة امرأة لما كانوا يجدون من أذى المشركين وقد بقى فى مكة أناس أيضا من المسلمين وقد أسلم نحو عشرين رجلا من نصارى نجاران وكذا أسلم ضماد الازدى قبل السنة العاشرة من البعثة وأسلم الطفيل بن عمر والدوسى قبل الهجرة وكان شريفا مطاعا فى قومه وأسلم أبوه وأمه بدعوته بعد ما رجع الى قومه وقد أسلم قبل الهجرة قبيلة بنى الاشهل في المدينة المنورة في يوم واحد ببركة وعظ مصعب بن عمير رضى الله تعالى عنه فما بقى منها رجل ولا امرأة الا أسلم غير عمرو بن ثابت فانه تاخر اسلامه وبعد اسلامهم كان مصعب رضى الله تعالى عنه يدعوا الناس الى الاسلام حتي لم يبق دار من دور

الانصار الا فيها رجال ونساء مسلمون الاما كان من سكان عوالي المدينة أى قراها من جهة نجد ولما هاجر محمد عليه السلام الى المدينة أسلم بريدة الاسلمى مع سبعين رجلا من قومه فى طريق المدينة طائعين وقد أسلم النجاشى ملك الحبشة قبل الهجرة أيضا ووفد قبل الهجرة أبو هند وتميم ونعيم وأربعة آخرون من الشام وأسلموا وهكذا أسلم آخرون واسلام أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ونحوهما من مشاهير أتباعه عليه السلام قبل الهجرة أمر مشهور (كما يعلم جميع ماذكر من كتب سيرته عليه السلام الصحيحة فليرجع اليها) فبالتأمل المنصف نجد ان دين محمد عليه السلام قد شاع قبل هجرته من مكة الى المدينة وقبل مشروعية الجهاد فيها وقبلته العقول السليمة واستحسنته الطباع الصحيحه ولا خوف هنالك ولا ترهيب فاين التهمة بأن دينه قام بالسيف وشريعته شاعت بالاجبار لايقول بذلك منصف ومن نظر الى ماكان يحدث فى بقية مدته عليه السلام وبعدها من دخول الناس في دينه أفواجا أفواجا حتى الى هذا الزمان بدون أدنى خوف بل مع الخوف من الدخول من أذية أعداء دينه انمحت من مخيلته هذه التهمة اللهم اذا كان منصفا حر الفكر نعم لما توفرت كثرة أتباعه عليه السلام وظهر ان الموعظة وقوة البرهان ليس لهما تأثير مع من بقى من المخالفين وان مداومة المعاملة للمخالفين بالرفق والتؤدة يزيد طغيانهم ويشوش أمر الدين على اتباعه ويجرؤهم عليهم بالاذى فلذلك شرع في دينه الجهاد على مافيه من الحدود العادلة التى تتكفل بدفع اذى المؤذين ولاتبلغ حد القسوة ويكتفى ممن لم يتبع الدين المحمدى أن يخضع لسلطانه ويدفع من ماله ما يكون عونا لاهل الدين فى قيام دولته ودفع ضرورات أهله الدنوية وهو أيضا يكون

في مقابلة حماية أهله لاولئك الدافعين الخاضعين لسلطان الدين وأمرهم في الآخرة مفوض لرب العالمين أو يوضع على من لم يتبع حكم الرق ليكون دافعا لشوكة أذاهم وعونا لاهل الدين فى قضاء مصالحهم فى دار الدنيا وقد كان بعض من اتباع الشرائع السابقة نفروا من جوازالاسترقاق ومشروعيته فى الدين المحمدى نظرا لما ينشأ عنه من دخول الرقيق تحت الحجر ولاسيما وقد شاهدوا الرقيق فى بعض الممالك يكابد أنواع الظلم (كما كان جاريا من زمن ليس ببعيد فى أوربا والى الآن فى بعض ممالك أميركا) فيضرب الرقيق فيها ويهان ويذوق الجوع والعرى ويقيد كالبهائم ويحمل من مشاق الخدمة مالا يطاق ويعد كأنه ليس من النوع الانسانى لاسيما اذا كان أسود اللون ولايعد تحريره من مثوبات الدين ولا يحرر الافى نادر الاحوال وحالته هناك أتعس من حالة أدنى الحيوانات فظن هؤلاء القوم ان الدين المحمدى يبيح الاسترقاق مع اباحة تلك الفظائع ومعاملة الرقيق بها وسهوا أيضا عن مشروعية الاسترقاق فى الشرائع السابقة ولكنهم عادوا فدققوا النظر فى كيفية مشروعيته فى الدين المحمدي وما اشتملت عليه تلك الكيفية من اعانة أهل ذلك الدين على ضرورات دنياهم وما فيها من كف أذى أعدائه بوضع الرق عليهم وكسر شوكتهم به باستخدام مخاليفم مع وصايا كثيرة تحفظ راحة الرقيق وتتكفل بمساواة معيشته لمعيشة سيده وبذلك يحصل تهذيبه وتمدنه ان كان وحشيا والشريعة المحمدية تنهى أشدالنهى عن اجراء أدنى شىء من الفظائع التى تجريها بعض الامم مع الرقيق وتوعدعليها بالعقاب الاخروى ومع ذلك ترغب في تحريره بحصول الثواب الجزيل فيه وشرعت وسائط تقتضى كثرة التحرير وشيوعه وتقصير مدة الاسترقاق

وجعلت للرقيق وصلة بينه وبين سيده ولو بعد التحرير كوصلة النسب لا فرق في ذلك بين الابيض والاسود ووجدوا ان أهل هذا الدين نظرا لما وجدوه من ترغيب الشريعة بالاحسان الى الرقيق قد سلكوا طرائق عديدة ترجع عليه بالبر والاحسان وكثيرا ما تخوله نعمة لا يمكنه نوالها لولا دخوله تحت الرق ثم لاحظوا نصوص الشرائع المتقدمة فوجدوا ان الرق مشروع فيها مصرح به في الكتب المنسوبة اليها فعند ذلك رجعوا عن اعتراضهم على مشروعية الاسترقاق فى الدين المحمدي وقالوا ما دام ان أهل هذا الدين يعلمون بالبراهين القاطعة عندهم انهم على دين مشروع من عند الله تعالى ودينهم أباح لهم استرقاق مخالفيهم لنفعهم بخدمتهم ولكسر شوكة أذاهم عنهم وقد شرط عليهم شروطا تتكفل براحة ارقائهم ومساواتهم لهم في المعيشة وفتح لهم أبوابا مرغبة في تحريرهم وتقصير مدة استرقاقهم ونتج عن ذلك تهذيب كثير من الارقاء وتحسين معيشتهم وايصال احسانات اليهم ما كانوا ينالونها لولا استرقاق وحجر على أسيادهم ظلمهم واذاهم ووجد فى الشرائع المتقدمة مشروعية الاسترقاق فهو ليس أمرا مبتدعا فلا شيء يعاب على الدين المحمدى وأهله فى الاسترقاق البتة

أما الوصايا التى تحفظ راحة الرقيق وتتكفل بمساواة معيشته لمعيشة سيده فهى فى الشريعة المحمدية كثيرة جدا ولنقتصر على ما يأتى منها قال الله تعالى فى القرآن الكريم (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيأ وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامي والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا) فقد قرن الله تعالى الوصية بالمماليك مع الامر باخلاص العبادة له تعالى التى هي

أساس الايمان ومع الاحسان للوالدين اللذين نعمتهما على الانسان بعد نعمة الرحمن ومع الاحسان الى من تقتضى الشفقة والمرحمة والانسانية والاحسان اليهم وطلب الاحسان للمماليك يشمل كل احسان ممكن ورفع كل أذى يناقض الاحسان وقد يؤخذ شرح ذلك من قول الرسول عليه السلام (عبيدكم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم اطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تعذبوا عباد الله) وقال عليه السلام في التحذير من احتقار الارقاء والتحاشى عن الكبرياء (ولا يقل أحدكم عبدى وليقل فتاى وفتاتى وغلامى) وقد كان من آخر كلامه عليه الصلاة والسلام من الدنيا قوله (الصلاة وما ملكت أيمانكم) فليتأمل المنصف قرنه عليه السلام بين الوصية بالصلاة التى هي عماد الدين المحمدى وفيها قرة عينه من الدنيا كما قال (وجعلت قرة عينى فى الصلاة) وبين الوصية بما تملكه ايمان أتباعه وكون ذلك الكلام كان من آخر كلامه لاصحابه فان ذلك كفاية فى الدلالة على استكمال الوصية بالارقاء لا يحتاج معها الى زيادة بيان فى ذلك والنهى عن أذى الارقاء شهير فى نصوص الشريعة المحمدية حتى ورد انه عليه السلام اعتق عبد رجل قد مثل به حيث وجده مع جاريته وجعل ولاءه لله ورسوله وأوصى به المسلمين وجعلت بعد ذلك نفقته في بيت مال المسلمين وأعتق خليفته (عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه) جارية رجل أقعدها فى مقلى حار فاحرق عجزها وأوجعه ضربا وأمثال ذلك كثير والوعيد على أذى الرقيق في يوم الحشر شهير

وأما الترغيب في تحرير الرقيق فنصوصه الشرعية أكثر من أن تذكر فتحصر ولنقتصر أيضا على ما يأتى كان من حاله عليه الصلاة والسلام انه يحث

على عتق الرقاب وفى نصوص شريعته من أعتق نسمة أعتق الله بكل عضو منها عضو منه من النار حتى كان الرجل يستحب أن يعتق الرجل لكمال أعضائه والمرأة تعتق المرأة لكمال أعضائها (كذا في عقود الجواهر المنيفة عن حماد عن ابراهيم قال وهذا حكمه حكم المرفوع) وفى لفظ آخر من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوا من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه وروي فى تفسير قوله تعالى (فك رقبة) ان اعرابيا جاء الى الرسول عليه الصلاة والسلام فقال يارسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة (قال عتق النسمة وفك الرقبة قال يارسول الله أوليسا واحدا قال لاعتق النسمة ان تنفرد بعتقها وفك الرقبة ان تعين في ثمنها (كذا فى الرازى) والنصوص فى ذلك كثيرة وافرة

واما بيان ان الشريعة المحمدية شرعت وسايط تقتضى كثرة التحرير وشيوعه وتقصير مدة الاسترقاق فهى انها جعلت العتق كفارة للجنايات فى الشرع مثل القتل خطأ والافطار فى رمضان والحنث فى اليمين وفكالبعض مايخطر على الانسان مثل كفارة الظهار فان المظاهر من زوجته لايجوز له قربانها ودواعيه حتى يكفر وأول مايطالب به للكفارة عتق رقبة ثم مع ندبها للعتق والوعد عليه بالثواب لاحظت حال من لم يسمح بذهاب ماله بعتق رقيقه فشرعت المكاتبة وهي أن يتفق السيد مع رقيقة على انه ان أدى اليه كذا من المال صار حرا فعند ذلك يملك الرقيق حرية السعى على تحصيل المال فاذا أدى المشروط عليه صار حرا وشرعت العتق على جعل بان يقول السيد لرقيقه أنت حر على ألف درهم فاذا قبل العبد عتق وكان عليه أداء ماشرط عليه ولاحظت حال من لايستغنى عن خدمة رقيقه مدة حياته

فشرعث باب التدبير وهو ان يعتق السيد عبده عن دبر منه بان يقول له انت حر بعد موتى فعند ذلك يمتنع بيعه وهبته والتصدق به ورهنه وبعد موت السيد يصير العبد حرا وشرعت باب الوصية بالعتق ولاحظت ان بعض المالكين للرقيق ربما لا يتفق لهم شيء مما مر من دواعي العتق ولا يوفقون لرغبة الثواب فيه ولكن ربما عند رغبتهم فى منفعة أو رهبتهم من مضرة تسمح نفوسهم بعمل الخير الذى يرجون من الله تعالى بسببه بلوغ مآربهم فشرعت نذر العتق عسي أن يأتوا به عند حصول أحد هذين الداعيين أو ربما عند ارادتهم الزام أنفسهم بعمل أو كفها عن عمل يشرطون عليها مايصعب عليهم الاتيان به لاجل وفائهم بما التزموا فشرعت لهم الحلف بالعتق عسي ان يخالفوا ما لتزموه فيحصل العتق فاذا تامل المتأمل في جميع ماتقدم يجد ان المقصود منه الوصول الى العتق المرضى فى الشريعة بسبب من تلك الاسباب وأنعم بتلك الوسائط لتكثير العتق وشيوعه وتقصير مدة الاستقرار ثم حيث ان الشريعة المحمدية جعلت للسيد ملك رقبة الرقيقة فقد جعلت له ملك بضعها وأباحت له التسرى بها حرصا على عدم تعطيل تناسلها وكونها تحت كنف سيدها يحفظها من اختلاط نسب ذريتها فهي اذن كالزوجة محفوظ نسب أولادها خلافا لما يحصل فى الزنا ثم من جملة المراعاة التي جعلتها لها فى مقابلة اباحة بضعها لسيدها ومن جملة الوسائط الموصلة للعتق ان حكمت للرقيقة التي تلد من سيدها ولو سقطا مستبين الخلق بانها تصير مستولدة أى انه عند ذلك يحظر على سيدها بيعها وهبتها ورهنها وأمثال ذلك من التصرف وبعد موته تصير حرة صرفة فالتأمل في هذا الحكم يبرهن ما للشريعة المحمدية من مراعاة الرقيقات والنظر فى شؤنهن ومن وسائط تكثير التحرير

فى الشريعة المحمدية وفيه صلة رحم ودفع الوحشة بين الارحام ماشرعته تلك الشريعـة من ان من ملك ذا رحم محرما منه عتق عليه ومن مراعاة المرحمة والشفقة للارقاء ان الشريعة كرهت التفرقة بين الام وولدها الصغير بنحو بيعه لآخر أو بينه و بين أبيه أو بين كبير وصغير بينهما محرمية أو بين صغيرين كذلك والملخص ان هذه الشريعة العادلة ماتركت شيئا من مرغبات العتق وتقصير مدة الاسترقاق وموجبات المرحمة للرقيق الاحثت عليه وفتحت له أبوابا فبالتأمل الصادق فى سياستها في الاسترقاق نجد انها انما شرعته على قدر الضرورة وقدرت الضرورة بقدرها باسلوب تكسر به شوكة مخالفيها وتنفع اتباعها وتحفظ على الرقيق راحته وتمنع عنـه الاضرار وتعجل عليه الفرج وتدفع عنه بقدر الامكان الحرج

واما ان الشريعة المحمـدية جعلت للرقيق وصلة بينه وبين سيده فانها قد حكمت بالولاء بينهما بعد عتق الرقيق ومن احكام ذلك الولاء انه اذا جـنى العتيق جناية خطأ توجب الدية توزع تلك الدية عـلى مولاه وعاقلته كأنه ابنه أو اخوه وناهيك بذلك من مراعاة لشأن ذلك العتيق أبعد جميع ماتقدم يجوز أن يقال ان المسلمين يعتبرون الرقيق لاسيما الاسود منه منحطا عن درجة البشر كلاثم كلا لاتعتبره شريعتهم الامن أولاد آدم وحواء ولـكنها تعامله بمايدفع شره ولا يحرمه حقوق الشفقة والمرحمة وتخفيف مدة الحجر عليه

وأما كون أهل الشريعة المحمدية نظرا لما وجـدوه من ترغيبها في الاحسان الى الرقيق قد سلـكوا طرائق عديدة ترجع عليه بالبر والاحسان وكثيرا ماتخوله نعمة لايمكنه نوالها لولادخوله تحت الرق فذلك ظاهر بمايشاهد بين أهل

الاسلام من وقف الاوقاف على أرقائهم وعتقائهم والوصية لهم بالميراث وكثير منهم صار بسبب تلك المبرات أغنى من ذرية سيده وكثير منهم من تزوج من بنات سيده بل كثير من الاسياد من يتبنى رقيقه بعد عتقه بل يكون عنده أعز من ولده أو يزوجه بنته وكثير من الارقاء من صار أميرا او سلطانا (كما في ملوك مصر المشهورين وسلطنة كافور الاخشيدى معلومة عند الجميع) وما بلغ كثير من العتقاء من مراتب الجاه والمناصب العاليـة كالقضاء والافتاء بل مرتبة الاجتهاد (وناهيك حال عطاء بن ابى رياح الامام الجليـل فى الفقه الذى كان الخليفة يتمنى زيارته ويتلقاه للباب ويجلسه بجانبـه) هو كاف واف ببيان ما يناله الارقاء من النعمة التي ما كانوا ينالونها لولا دخولهم تحت الرق بل كانوا يبقون فى بلادهم الوحشية على حالتهم الحشونية أبعد ذلك كله يقال ان الشريعة المحمدية تعتبر الارقاء دون مرتبة البشر ولا تعطيهم حقوق الانسان نعوذ بالله من الافتراء

وان قيل انا نجد بعض أهل الاسلام يعامل الارقاء تلك المعاملة القاسية قيل نعم وقد يوجد من الحمقاء الذين لا يتمسكون باحكام الشريعة العادلة الراحمة من يعامل اولاده بمعاملة لا ترضاها الشريعة ولا تقبلها المرحمة وهؤلاء من الندرة بمكان ايقال عند النظر لهؤلاء القساة ان عموم المسلمين يعاملون اولادهم بتلك الفظاظة وتكون النتيجة انه على المسلمين ان لا يستولدوا اولادا انها لنتيجة خرافية ناشئة عن دليل هذيان من المعلوم عند كل عاقل ان الاحكام لا تبنى الا على الفعل العام الشائع لا على القليل النادر ان القسوة التي نسمع عنها انها موجودة فى بعض الممالك المتمدنة تجرى على الخدمة والارقاء بما تقشعر منه الجلود شائعة بين أولئك المتمدنين

الذين يدعون الحرص على رحمة البشر لو كانت موجودة بين المسلمين على ارقائهم شائعة بين عمومهم مجازة من جانب شريعتهم لكان لاستقباح الاسترقاق فى الشريعة المحمدية وجه ظاهر ولكن ذلك لم يكن البتة يعلم ذلك من الاستقراء والاستقصاء ومراجعة تاريخ الامة الاسلامية ومن يقل خلاف ذلك من دون اقامة البرهان بل لمجرد اشاعات اصحاب الغايات السيئة والاعتماد على اخبار غير المدققين فهو رجل مفتر على المسلمين وشريعتهم بالتهمة الباطلة والظنة السافلة أعاذنا الله تعالى من الافتراء والبهتان والكذب المحط بشرف الانسان

واما كون الرق مشروعا في الشرائع السابقة على شريعة محمد عليه السلام ومصرحا به فى الكتب المنسوبة اليها فيكفى فى بيانه مافي كثير من ايات التوراة التى تدل على اتخاذ المخالفين عبيدا ومن ذلك مافي كتاب الاستثناء واذا دنوت من قرية لتقاتلها ادعهم اولا الى الصلح فان قبلت وفتحت لك الابواب فكل الشعب الذى بها يخاص ويكونون لك عبيدا يعطونك الجزية ويؤخذ من سفر العدد ان موسى عليه السلام لما ارسل اثنى عشر الف رجل لمحاربة أهل مديان فانتصروا عليهم وقتلوا كل ذكر منهم وخمسة ملوكهم وسبوا نساءهم واولادهم ومواشيهم كلها واحرقوا القرى والدساكر والمداين بالنار فلما رجعوا غضب موسى عليه السلام وقال لم استحييتم النساء ثم أمر بقتل كل طفل مذكر وكل امرأة ثيبة وابقاء الابكار ففعلوا كما أمر وكانت الغنيمة من الغنم ستماية وخمسة وسبعين الفا ومن البقر اثنين وسبعين الفا ومن الحمير احدا وستين الفا ومن الابكار اثنتين وثلاثين الفا فهذا مع دلالته على جواز قتل الاعداء فى تلك الشريعة حتى الاطفال

والنساء الثيبات يدل على جواز استرقاق النساء الابكار وفى سفر صموئيل وكان المواييبن عبيدا لداود يؤدون اليه الخراج وفي الاصحاح السادس من رسالة بولس الاولى الى تيموتاوس مانصـه جميع الذين هم عبيد تحت نير فليحسبوا سادتهم مستحقين كل اكرام لئلا يفترى على اسم الله وتعليمه والذين لهم سادة مؤمنون لايستهينوا بهم لانهم اخوة بل ليخدموهم أكثر لان الذين يتشاركون فى الفائدة هم مؤمنون ومحبوبون عـلم وعظ بذلك انتهى وهـذا النص يفهم منه تقرير الاسترقاق فى الشريعة العيسوية وان الارقاء مكلفون باطاعة اسيادهم بكل اكرام ولولا ان استرقاق ساداتهم لهم مشروع في تلك الشريعة لما مروا بطاعتهم وخدمتهم اذلا يؤمر المكلف حسبما يعهد من الشرائع بان يأتي بما هو ممقوت عند الله تعالى ويفهم منه ان اطاعة ساداتهم واجبة عليهم وان كانوا غيرمؤمنين حيث عمم اولا ثم خصص السادات المؤمنين بحكم عدم الاستهانة وبالخدمة اكثر ولو كان الاسترقاق غير مباح في تلك الشريعة لما قررت المؤمنين على الاسترقاق بالزام ارقا ئهم بمراعاتهم واكثرية خدمتهم وكل ذلك ظاهر وفي رسالة بولس الى تيطس في الاصحاح الثانى ما نصه والعبيد ان يخضعوا لساداتهم ويرضوهم في كل شيء غير مناقضين غير مختلسين بل مقدمين كل امانة صالحة لكى يزينوا تعليم مخلصنا الله في كل شيء انتهى وهذا النص قريب من الاول في الافادة ويزيد عليه بحسب ظاهر عموم قوله في كل شيء ان العبيد يجب عليهم اطاعة ساداتهم حتى في الامر الذي يكون معصية لله تعالى كما اذا امر السيد عبده ان يزنى لكن فى الشريعة المحمدية غير واجب على العبد ان يطيع مولاه فى ذلك لان القاعدة فيها ان لاطاعة لمخلوق مع معصية الخالق فعلى العبد ان

يطيع مولاه في غير معصية لله تعالى الا ان يجبر ويهدد بمثل القتل فحينئذ حكمه حكم غير المملوك فيما لواجبر بذلك فبعض المعاصى تباح له بالاجبار وبعضها لايباح كما هو مفصل فى تلك الشريعة اللهم الا ان يقال ان ذلك العموم المفهوم من نص رسالة بولس فى قوله فى كل شيء مخصص بنصوص آخرى مذكورة في غير هذا الموضع من الكتب المنسوبة للشريعة العيسوية وفي رسالة بطرس الاولى في الاصحاح الثانى ايها الخدام كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة ليس للصالحين المترفقين فقط بل للعنفاء أيضاء انتهي وهذا النص وان لم يذكر العبيد بل ذكر الخدام ولكن قرينة قوله للسادة تعين ان المراد بالخدم العبيد وفيه قد جعل الاطاعة واجبة حتى للعنفاء وان لم تعتبر هذه القرينة عنادا فيكفى فى اثبات المطلوب النصان السابقان فنعد ماظهر لاولئك القوم المعترضين على الشريعة المحمدية بالاسترقاق ماتقدم شرحه من حكمة مشروعيته في هذه الشريعة ومن حدوده وتلطيفاته التى تحفظ راحة الرقيق بل قد تجلب له النعمة وتقصر عليه مدة الاسترقاق وتاملوا هذه النصوص التى في الشريعة الموسوية والشريعة العيسوية التى تدل على مشروعية الاسترقاق وتقريره في هاتين الشريعتين قالوا لااعتراض على الشريعة المحمدية في هذا الامر فهو حكم عادل مرتكب فيه اخف الضررين وهو القاعدة المعقولة ومراعى فيه جانب الشفقة والمرحمة والانسانية على قدر الامكان فيه ومقدرة فيه الضرورة بقدرها فكل منصف ومصدق بالوحى والشرائع لاوجه له فى الاعتراض بعد هذا البيان

هذا واما سلب اموال الاعداء ووضع الخراج عليهم فيقال فيه نظير ما قيل في الاسترقاق اعتراضا وجوابا فلا حاجة للتطويل بل قدمر فى مسئلة

الاسترقاق والجهاد من الحجج ونصوص الشرائع المتقدمة ما هو مغن عن التصدى للكلام فيه استقلالا يظهر ذلك بالتأمل الصادق والله ولى التوفيق

ثم بعد مشروعية الجهاد فى الشريعة المحمدية وشروع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى محاربة مخالفيه ومعاملتهم بما شرعه الله تعالى فى ذلك كان يقتل بعضهم دفعا لاذاهم وحماية لاتباعه ونصرة لدينه لان ذلك كله لا يتم الا بقتلهم ويسترق بعضهم ويضع على البعض الآخر الخراج ويجعله صاحب ذمة وعهد بحيث يكون له ما للمسلمين وعليه ما عليهم وتجب حمايته ومراعاة حقوقه وتحرم اذيته فى النفس والعرض والمال ويشترط عليه الخضوع لاحكام من شريعته تكفى فى السلامة من تعديه وافترائه على حقوق سواه ويتركه وما يدين من الاتيان بطقوس ما يعتقده على وجه يحفظ ابهة الدين المحمدى ولا يصدع افكار اتباعه ويفوض امره لله تعالى فى يوم البعث والنشور ويجرى كلا من الاسترقاق ووضع الخراج على الصورة المتقدمة عند ما يجد ان ذلك كاف في دفع اذى المسترقين والمرضوع عليهم مع عود النفع فى ذلك على اتباعه وقد كان حاله صلى الله تعالى وسلم فى محاربته لاعدائه سجالا فتارة ينتصر عليهم وتارة لا وكذلك سنة الله تعالى فى رسله ولكن آخر الامر كان النصر لا يتم الا له (والعاقبة للمتقين) حتي استولى على بلاد كثيرة وخضعت له قبائل عديدة واظهر الله دينه على الدين كله ولا يزال ظاهرا ولن يزال ان لم يكن بالسيف فبالحجة والبرهان واستحسان المقول الرزان

ثم ان البعض من اعداء دينه التجأ واللحصون والمعاقل فلم يزل يترقب

بهم الفرص ويراسلهم بالحجج حريصا على هدايتهم موصيا اتباعه بان لا يهملوا دعوتهم الى دينه على المنهج الذى شرعه فى معاملتهم كلما وجدوا لذلك فرصة من الزمان هذا حكم ماض الى يوم القيامة

ثم ان البعض من الاعداء اظهروا الخضوع لدينه عليه السلام والانخراط في سلك اتباعه وانصاره وهم يضمرون التكذيب والحامل لهم على ذلك اما الخوف واما الطمع فيما فتحه الله على يديه وايدى اتباعه من الغنائم فكان صلى الله تعالى عليه وسلم في أول الامر يعدهم في جملة اتباعه مع علمه بحقيقة حالهم وسوء طويتهم ولا يفضح سرائرهم ولا يبيح اضرارهم خشية اشاعة الاعداء ان محمدا عليه السلام يكذب اتباعه فى تصديقهم ويرتاب في اخلاصهم ويقتلهم لاغراض سيئة وهو امر يوجب التنفير وينفى عزم المقبلين لاسيما والدين في أول نشأته ولكن لما قويت شوكة الشريعة وكثرت انصارها وسطع نورها وظهرت معاملته لاصحابه عليه السلام بمحض النصيحه وخالص الشفقة ولم يبق لتلك الاشاعات الباطلة مجال أذنه صلى الله عليه وسلم مولاه بفضيحة أولئك المنافقين وتقريعهم وتبكيتهم وتحذير اتباعه المخلصين منهم وهم بعد ذلك انقسموا فرقتين فبعضهم لما خالط أهل الدين وأطلع على حقيقة تلك الشريعة الظاهرة العادلة وقابل بينها وبين ما كانوا عليه من الاعتقادات الباطله والعادات السافلة خلصت نيته وصفت سريرته وعاد مؤمنا بعد ان كان منافقا وأصبح من خيار الاتباع وأكابر الانصار والله الهادى الى سواء السبيل وبعضهم بقى على نفاقه متجرعا الغصص فى أشفاقه فهذا ان حمى نفسه من طائلة السيف فله في الآخرة عذاب أليم وقد جعل صلى الله تعالى عليه وسلم لهذا القسم علامة

هي عنوان نفاقه ودليل الهوان وهي انه اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان نسأل الله تعالى الحماية والسلامة فى الدين والدنيا والآخرة

هذا وقد خرج صلى الله تعالى عليه وسلم من الدنيا واختار الرفيق الاعلا بعد ان أتم الله تعالى على يديه الدين (جزاه الله تعالى عنا أحسن الجزاء بما هوا هله) بما أنزله من القرآن الكريم وما أوحاه اليه من هديه القويم وقد أمتن علينا سبحانه بتلك المنة العظمى والكرامة الكبرى فانزل على رسوله الكامل قوله تعالى جل من قائل فى يوم كان لنا العيد الاكبر (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى و رضيت لكم الاسلام دينا) فيالذلك من نعمة كاملة ومنة فاضلة فله سبحانه وتعالى والحمد والشكر كما هو أهله والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله وقد كان نزول هذه الآية الكريمة نعيا لنفسه عليه الصلاة والسلام كما فهم ذلك صديقه الاكبر عليه الرضوان عند ما سمعها فبكى رضى الله تعالى عنه لانه وضح له بنور بصيرته والمؤمن ينظر بنور الله تعالى ان أرساله عليه الصلاة والسلام و وجوده الشريف في الدنيا لحكمة تبليغ الدين فما دام ان الدين قد كمل. فما بقى بعد ذلك الا انتقال رسوله عليه السلام من دار الفناء الى دار البقاء التى هى دار القرار فخرج صلى الله تعالى عليه وسلم من الدنيا راضيا مرضيا وهاديا صراطا سويا مبلغا جميع ما جاء به من عند الله تعالى ناصحا للامة تاركا لهم على المحجة البيضاء التى ليلها كنهارها مودعا فى قلوبهم محبة لا تبلى ووددا لا يفنى مفديا عندهم بالارواح محمودا مشكورا مثنى عليه بكل لسان ثناء مبرورا فجزاه الله تعالى عن الامة أحسن

الجزاء وأعطاه الوسيلة والدرجة العالية الرفيعة فى دار البقاء وعليه من مولاه سبحانه أشرف الصلوات وأزكى التحيات وعلى آله الكرام أنوار الهدي وأصحابه العظام مصابيح الدجى ماتعاقب الملوان وكرا الجديدان اللهم آمين

واذ قد انتهي بنا الكلام الى هنا وبلغنا الله تعالى على قدر الامكان فى بيان حقيقة وحقية الملة الاسلامية المنى فلنجعل نهاية الكلام خاتمة وتنبيها وبالله سبحانه وتعالى التوفيق

أما الخاتمة فهى ان يعلم حقا ان الدين المحمدى بعقائده التى هي الاصول وأحكامه التى هى الفروع مأخوذ من القرآن الشريف والاحاديث النبويه التي ثبتت عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام لم يشذ شيء من تلك الاصول أو الفروع عن هذين المأخذين الكريمين وهما المتكفلان به البتة بدليل الآية المصرحة باكمال الدين المحمدى في حياته عليه الصلاة والسلام ولكن العقائد وان كانت تدخل تحت عدد يمكن للالفاظ ان تعبر عنه صراحة أو قريبا من الصراحة ولكن الفروع لو أريد افادتها بالالفاظ صراحة أو قريبا منها لاحتاجت الى الالفاظ تستغرق المجلدات وناهيك انها تتجدد بتجدد الحوادث الزمانية فالقرآن الشريف والاحاديث الكريمة قد صرحا بالكفاية من العقائد وكثير من الفروع وجا آ بقواعد وضوابط تتضمن الجم الغفير منها أو تشير أو ترمز الى كثير من ذلك حتى يصح ان يقال ان كل ما يحتاج اليه فى الدين المحمدى هو مضمن فى القرآن والاحاديث اما صراحة واما رمزا واشارة وحيث ان فهم ذلك جميعه لا يمكن لكل فرد من أفراد الامة فقد شرع الله تعالى طريقين آخرين لاخذ الاحكام من دينك الاصلين

العظيمين وبسطها لعموم الامة فاحد هذين الطريقين اجماع الامة المحمدية أى أهل المعرفة الكافية منهم اذ جعل اجماعهم معصوما عن الخطأ لانهم لا يجمعون الا على أمر فهموه من نصوص القرآن والاحاديث وان لم يصرحوا بمأخذهم وثانيهما اجتهاد من فقهه الله تعالى في الدين وأعطاه الفهم لاحكام القرآن العظيم وأحاديث الرسول الكريم فاجاز الله تعالى الاجتهاد لمن هو أهله وأعطى هذا المنصب لمن بان في الامة فضله فاخذت الاحكام تستنبط من ذينك المأخذين بهذين الطريقين حتى اكتفت الامة من التصريح باحكام دينها ووجدت مايلزم لها فى عبادتها ومعاملاتها وآدابها وحدودها وقد بحث علماء الامة المحمدية عن الصفات التي يلزم وجودها في الشخص حتى يبلغ درجة الاجتهاد واستنباط الاحكام من القرآن والاحاديث فوجدوا ان ذلك ينحصر فيما سياتى الاول ان يحوى ذلك الشخص علم القرآن الشريف بان يعرفه بمعانيه لغة وشريعة أما لغة فبان يعرف معانى المفردات والمركبات فى خواصها في الافادة فيفتقر الى علم اللغة الذى يعلم به المعانى التى وضعت لها مفردات اللغة العربية التي انزل القرآن بها وعلم الصرف الذي يعرف به احوال ابنية المفردات العربية وصيغها وعلم النحو الذى يعرف به احوال المفردات العربية عند تركيبها وما لها عند ذلك من الاعراب والبناء والدلالة على المعانى التى تحدث بالتركيب وعلم المعانى الذى يعرف به احوال الكلام العربى التى يطابق بها مقتضى الحال وعلم البيان الذى يعرف به تأدية المعنى الواحد بطرق مختلفة سواء علم تلك العلوم بالتعلم أو كان يعلمها بالسليقة كما كان لمجتهدى الصحابة رضى الله تعالى عنهم وأما شريعة فبأن يعلم المعانى المؤثرة فى الاحكام مثلا يعرف في قوله تعالى (أو جاء أحد منكم من

الغائط) ان المراد بالغائط الحدث وان علة الحكم خروج النجاسة من
بدن الانسان الحى ويعلم أقسام القرآن التى تذكر في اصول الفقه من
الخاص والعام والمشترك والمجمل والمفسر والمحكم والمطلق والمقيد
والصريح والكناية والظاهر والنص والخفى والمشكل والمتشابه والدال
بعبارته والدال باشارته والدال باقتضائه والدال بدلالته والمفهوم المعتبر وما
يقتضيه الامر والنهى وغير ذلك مما هو مذكور في علم الاصول الذى
هو من أعظم العلوم الدينية وبان يعلم ان هذا خاص وذاك عام وهذا ناسخ
وذاك منسوخ الى غير ذلك وهذا الاخير يتوقف على معرفة تواريخ نزول
النصوص بان هذا سابق وذاك مسبوق وهذه الامور مغايرة لمعرفة المعانى
ثم المعتبر هو العلم بمواقع ما ذكر بحيث يتمكن من الرجوع اليه عند الطلب
للحكم لا الحفظ عن ظهر القلب والمراد بالقرآن قدر مايتعلق بمعرفة الاحكام
الثانى علم السنة قدر مايتعلق بالاحكام بأن يعرف متن الاحاديث أى
يعرف معانيها لغة وشريعة كما مر في القرآن ويعرف اقسامها من الخاص
والعام وغيرهما مما مر نظيره في القرآن ايضا ويعرف مستندها وهو طريق
وصولها الينا من تواتر اوشهرة أو آحاد ويندرج في ذلك معرفة أحوال
الرواة الذين رووا هذا الحديث من كونهم معدلين أو مجروحين وهذا
علم واسع يحتاج الى اطلاع تاريخى صحيح ولكن عند طول الزمان
بين المجتهد وبين زمنه عليه الصلاة والسلام وصيرورة معرفة احوال الرواة
عسيرة جدا يكتفي بتعديل وتجريح الائمة الموثوق بهم فى علم الحديث
الثالث معرفة وجوه القياس أى الطريق الذى يتوصل به المجتهد الى
استنباط الاحكام فيعرف شرائط تلك الوجوه واحكامها واقسامها

والمقبول منها والمردود كما مبين في كتب الاصول الرابع ان يعرف المجمع عليه من علماء الدين الذين يعتبر اجماعهم لئلا يخالف اجماعهم في اجتهاده ومن المعلوم انه يشترط ايمان المجتهد وعدالته ولا حاجة الى بسط الكلام في هذا لانه ظاهر فاذا كملت تلك الشروط فى شخص جاز له ان يستنبط الاحكام الشرعية من القرآن والسنة وجاز لغيره ممن ليس من أهل الاجتهاد ان يقلده ويعمل بما استنبط ثم المعتمد عند علماء السنة ان الحق واحد عند الله تعالى والمجتهد ان أصاب الحق بعد ان استفرغ وسعه فى استظهاره فله اجران وان اخطأ فهو معذور وماجور باجر الكد والتعب اذ ليس عليه الا بذل وسعه وقد فعل فلم ينل الحق لخفاء دليله نعم ان كان الدليل الموصل الى الصواب بينا فاخطأ المجتهد لتقصير منه وترك مبالغة في الاجتهاد فانه يعاقب وما نقل عن بعض السلف من طعن بعضهم ببعض في مسائلهم الاجتهادية كان مبنيا على ان طريق الصواب بين فى زعم الطاعن وكل هذا فى الاجتهاد في المسائل الفرعية لان المطلوب فيها تحصيل غلبة الظن وأما الاجتهاد فى الاصول والعقائد فالمخطئ فيها يعاقب او يضلل أو يكفر لان المطلوب فيها اليقين الحاصل بالادلة القطعية والصحيح ان القادر على الاستدلال ولو بدليل اجمالي اذا قلد غيره بعقيدة يكون عاصيا بترك الاستدلال ولو كان ذلك الغير الامام أبا حنيفة النعمان فمن هنا ترى العجب العجاب ممن يقطع بكلام الفلكي او الجيولوجي الفلاني من دون دليل يقيني ويكون ذلك الكلام مصادماً لعقيدة اسلامية او لظاهر نص شرعى متواتر نعوذ بالله من الجهل الفاضح نعم اذا ثبت قول ذلك القائل المصادم بالدليل القاطع فعلينا

التوفيق بالتأويل كما مر (كل ما تقدم في الكلام على الاجتهاد فهو في في الاجتهاد المطلق وهو ماخوذ من التنقيح وحواشيه مع بعض توضيحات زدتها عليه واما الاجتهاد المقيد اى فى مسئلة مخصوصة فليس الكلام فيه) ومن هذا المقام يعلم سبب اختلاف المذاهب بين المسلمين فتجد اناسا منهم اتباع الامام ابى حنيفة النعمان بن ثابت واناسا اتباع الامام مالك ابن أنس واناسا اتباع الامام محمد بن ادريس الشافعى واناسا اتباع الامام احمد بن حنبل رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم فان كلا من هؤلاء المذكورين قد بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق واستنباط الاحكام من نصوص الشريعة المحمدية القرآنية والاحاديث النبوية حسبما أداه اليه اجتهاده وأوصله اليه كمال علمه واستعداده مع السير فى المنهج القويم والتحرى التام فاتباع هؤلاء الائمة يقلدونهم في العمل بما استنبطوه وفهموه من الشريعة وهم ناجون عند الله تعالى في ذلك التقليد حيث ان الله تعالى قد اذن المجتهدين ان يجتهدوا وأذن المقلدين ان يقلدوا فقال تعالى في القرآن الكريم فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون والمجتهدون هم أهل الذكر والمعرفة فى دين الله تعالى ثم اذا سئل كل مقلد عمن قلد غير امامه يقول هو ناج عند الله تعالى لانه قلد مجتهدا مستكمل شروط الاجتهاد وقد كان فى صدر الاسلام جملة من المجتهدين غير هؤلاء الاربعة الذين تقدم ذكرهم رضى الله تعالى عنهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ولكن لم تتوفر لهم اتباع تنقل اقوالهم بالتواتر أو بطريق صحة موثوق به فلذلك درست مذاهبهم وأما هؤلاء الاربعة فقد وفق الله تعالى لهم اتباعا من العلماء الاعلام نقلوا أقوالهم الى هذا العصر بالتواتر أو بطريق

موثوق وحفظوها ودونوها فى الكتب وتلقوها عن بعضهم بالمشافهة
والتدريس جيلا بعد جيل فلذلك بقيت مذاهبهم ذات اتباع الى الآن
وكل فريق من هؤلاء الاتباع لايطعن فى الفريق الآخر ولا يضلله ولا
يفسقه ويسوغ لكل شخص ان يقلد اماما من أولئك الائمة ثم بعد تقليده
يجوزله ان يترك تقليده ويقلد اماما آخر منهم ولا يعد ذلك معيباً عليه في
دينه اذا كان ذلك الانتقال لغرض شرعى صحيح وكل ذلك واضح مما
يشاهده كل مطلع على احوال المسلمين اتباع هؤلاء الائمة اذ يرى انهم
يتناكحون فيما بينهم فيأخذ الحنفى شافعية او مالكية او حنبلية أو
بالعكس ومساجدهم واحدة وخليفتهم واحد ويصلون مع بعضهم ولا
شيء بينهم يشعر بانى بغضاء أو طعن قادح ويرى الحنفى يصير شافعياً
أو بالعكس غاية الامر ان كل متبع يراعى مذهب امامه الذى اتبعه
ويجرى فى العمل عليه وهو لاينكر على سواه جريه على العمل بمقتضى
مذهب من تلك المذاهب غير مذهب امامه فهذه حالة المسلمين فى مذاهبهم
الاربعة الشائعة بينهم وهي الحال التى تنطبق على أصول شريعتهم فليعلم
ذلك من لم يعلمه ثم اذا نظر الى الشروط التى تقدم اشتراطها لنوال
الشخص مرتبة الاجتهاد فى استنباط الاحكام الشرعية نجد انها لايزال
توفرها في اناس ممكناً عقلا الى الآن وبعد الآن ولكن من عصر
اربعماية من الهجرة النبوية على صاحبها ازكي الصلاة والسلام قال
بعض العلماء الاعلام كما ينقل عن علماء الحنفية ان باب الاجتهاد قد انسد
من ذلك التاريخ وربما يتخيل لبعض الناس ان هذا الحكم من أولئك
العلماء غير موافق للصواب اذ يقال مادام توفر شروط الاجتهاد التى تقدم

ذكرها لايستحيل عقلا وجوده فى شخص الى الآن وبعد الآن فما المانع أن يوجد مجتهد بعد ذلك العصر حتى الآن لكن اذا دقق نظر يظهر ان ماله أولئك الاعلام هو موافق للصواب وعين الحكمة وهو ناشيء عن دقة انظارهم ومعرفتهم في أحوال الزمان وتقلباته واسرار الله تعالى في شؤن هذه الامة المحمدية وبيان ذلك ان هؤلاء العلماء القائلين بانسداد باب الاجتهاد من عصر الار بعماية نظروا فى شؤن القرون الثلاثة وهم قرن الصحابة والتابعين وتابع التابعين فوجدوا ان الله تعالى قد وفقهم الى الانكباب على تحصيل علوم الشريعة والحرص على مواد الاجتهاد واستنباط الاحكام من القرآن الكريم وتفاسيره المنقولة عن الرسول عليه الصلاة والسلام والاحاديث النبوية وآثار الصحابة وفتاويهم وامثال ذلك مما أهل علماء تلك القرون ان يبلغ كثير منهم درجة الاجتهاد فى الدين لاسيما وعصرهم قريب من عصر الرسول عليه السلام أو عصر من رآه أوراي من رآه وقد ظهرت عناية الله تعالى بتأهيل أهل تلك العصور لذلك حيث قد تم فيها ما يحتاج اليه فى أمر الدين فجمع القرآن وحفظ وحصن من طوارق التبديل والتغيير وجمعت أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ودونت وضرب فى في تحصيلها بطون الابل من أقصى البلاد وانصب المجتهدون من علماء الامة على استنباط الاحكام من ذينك الاصلين العظيمين حتى أفرغوا الجهد فى ذلك ولم يبق من احتياجات الامة فى أحكام دينها الا النادر الفذ الذى لايتفق وقوع حادثته الا في اجيال وتم أمر الدين على أحسن منوال وأقوم منهاج كل ذلك كان فى القرون الثلاثة فلم يبق لمن بعدهم وظيفة الا تدوين تلك الاحكام ونشرها وتبليغها للامة وقد ظهر من هنالك فتور الهمم عن

ذلك الانصباب في تحصيل علوم الدين ولم يزل ذلك الفتور بازدياد حتى بلغ الغاية فى الازمنة المتأخرة لاينكر ذلك من له أدنى اطلاع على تاريخ هذه الامة الاسلامية فنحن نرى أكبر علمائها اليوم ان برع فى بعض العلوم التي تقدم اشتراطها فى المجتهد فهو مقصر فى البعض الآخر فمن هو الذى نراه منهم محيطا فى هذه الازمان بعلوم القرآن من معرفة معانيه اللغوية والشرعية وبالعلوم العربية التي تلزم لفهمه كالنحو والصرف والمعانى والبيان وباقسامه التى تقدم ذكرها من الخاص والعام الى آخر مامر وبتعيين كل واحد منها وتمييزه عن الآخر وبناسخه ومنسوخه وبوجوده القياس وبما اجمعت عليه الامة وبعلوم الاحاديث النبوية متنا وسندا كما تقدم تقريره فى بيان شروط المجتهد ومن ادعى استيفاء ذلك كله فعليه ان يثبته بالبرهان (كل من يدعى بما ليس فيه * كذبته شواهد الامتحان) وأظن ان كل من يعلم ان مثل أبى يوسف ومحمد وزفر والحسن أصحاب أبي حنيفة رضى الله تعالى عنهم أجمعين لم يدعوا مرتبة الاجتهاد المطلق يخجل أن يدعى هو تلك المرتبة وهو من أهل هذه الازمان وان قيل ان هذا الزمان قد توفرت فيه كتب تفاسير القرآن والحديث وشروحها وكتب أسباب النزول والناسخ والمنسوخ ونحو ذلك مما هو الركن الاعظم لمرتبة الاجتهاد فما المانع أن يتقن شخص في هذه الازمان تلك العلوم التى تقدم اشتراطها ويعتمد على هذه الكتب التى تقدم ذكرها وهي متكفلة بالركن الاعظم لتلك المرتبة وعلى ذلك فالذى يتراءى ان الاجتهاد فى هذا الزمان أسهل حصولا من الاجتهاد في صدر الاسلام قبل أن تدون تلك الكتب قلت نعم قد وجد جميع ذلك ولكن في السطور لافى الصدور وان لم يشترط للمجتهد أن يحوى جميع ذلك في

صدره ولكن لابد أن يعلم مرجع كل شيء من ذلك بحيث لايخفى عليه مرجع حكم عنداحتياجه الى مراجعته ووجود شخص بهذه الصفة فى هذه الازمان هو أيضا غيرحاصل اذا رجع الى الانصاف فمن الذى في هذا الزمان مستعد لاستنباط كل حكم باستيفائه تلك الشروط وقدرته على مراجعة مرجع كل حكم من تلك الكتب بحيث يصل بذلك الى معرفة كل آية ناسخة وآية منسوخة وكل حديث ناسخ أو منسوخ بآية أوحديث ومعرفة مراتب الاحاديث من التواتر والشهرة والاحاد ومعرفة المجمع عليه الى آخر مامر وبالجملة ان تشييد البراهين على صحة قول من قال بسد باب الاجتهاد من عصر الار بعماية يطول شرحه ويحتاج الى تأليف مخصوص ولكني أنقل هنا ما وجدت من كلام العلامة ابن الحاج في المدخل مما يوضح هذا المقام ويقتنع به كل مصنف منزه عن العناد وقد اختصرته بعض الاختصار لدفع التشويش من التطويل قال رحمه الله تعالى وأرضاه في الكلام على قوله صلى الله عليه وسلم (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) الحديث هذا الكلام منه عليه الصلاة والسلام فى القرون المذكورة يعنى فى غالب الحال منهم ما ذكروا والا فقد كان منهم قوم لايقتدى بهم وانما عنى أهل العلم ثم قال وانظر الى حكمة الشارع صلوات الله تعالى عليه وسلامه وكيف خص هذه القرون بالفضيلة دون غيرهم وان كان غيرهم من القرون فى كثير منهم البركة والخير ولكن اختصت هذه القرون بمزية لايوازيهم فيها غيرهم وهي ان الله تعالى خصهم لاقامة دينه واعلاء كلمته فالقرن الاول خصهم الله تعالى بخصوصية لاسبيل لاحد أن يلحق غبار أحدهم فضلا عن علمه لان الله تعالى قد خصهم برؤية نبيه عليه الصلاة والسلام ومشاهدته ونزول القرآن عليه غضاطريا وبحفظهم آى القرآن الذي كان ينزل نجوما

فاهلهم لحفظه حتى لم يضع منه حرف واحد فجمعوه ويسروه لمن بعدهم وحفظوا حديث نبيهم عليه الصلاة والسلام فى صدورهم وأثبتوها على ماينبغى من عدم اللحن والغلط والسهو والغفلة وقد كان مالك رحمه الله تعالى اذا شك في الحديث تركه البتة فلا يحدث به وهو ليس من قرنهم بل من القرن الثانى فمابالك بهم وهم الخيار ووصفهم في الحفظ والضبط لايمكن الاحاطة به ولا يصل اليه أحد فجزاهم الله تعالى عن أمة نبيه خير القد أخلصوا الله تعالى الدعوة وذبوا عن دينه بالحجة قال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه من كان منكم متأسيا فليتأس باصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فانهم كانوا أبر هذه الامة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا وأقومها هديا وأحسنها حالا اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم واقامة دينه فاعرفوا فضلهم واتبعوهم فى آثارهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم اه فلما مضوا لسبيلهم طاهرين عقبهم التابعون لهم رضى الله تعالى عنهم فجمعوا ما كان من الاحاديث متفرقا وبقى أحدهم يرحل في طلب الحديث الواحد وفي المسئلة الواحدة الشهر والشهرين وضبطوا أمر الشريعة أتم ضبط وتلقوا الاحكام والتفسير من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم مثل على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وابن عباس رضى الله تعالى عنهما كان على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه يقول سلونى مادمت بين أظهركم وقال عليه الصلاة والسلام فى ابن عباس ترجمان القرآن فمن لقى مثل هؤلاء كيف يكون علمه وكيف يكون حاله وعمله فحصل للقرن الثانى نصيب وافر أيضا فى اقامة هذا الدين ورؤية من رأى بعينى رأسه صاحب الشريعة صلوات الله تعالى عليه وسلامه فلذلك كانوا خيرا من الذين بعدهم ثم عقبهم

التابعون لهم وهم تابعوا التابعين رضى الله تعالى عنهم فيهم حدث الفقهاء المقلدون المرجوع اليهم فى النوازل الكاشفون الكروب فوجدوا القرآن والحمد لله تعالى مجموعا ميسرا ووجدوا الاحاديث قد ضبطت وأحرزت فجمعوا ما كان متفرقا وتفقهوا في القرآن والاحاديث على مقتضى قواعد الشريعة واستخرجوا فوائد القرآن والاحاديث واستنبطوا منها فوائد وأحكاما وبنوها على مقتضى المنقول والمعقول ودونوا الدواوين ويسروا على الناس وبينوا المشكلات باستخراج الفروع من الاصول ورد الفرع الى أصله وبينوا الاصل من فرعه فانتظم الحال واستقر من الدين لامة محمد عليه الصلاة والسلام بسببهم الخير العظيم فحصلت لهم فى اقامة هذا الدين خصوصية أيضا بلقائهم من رأى من رأى صاحب العصمة صلوات الله تعالى عليه وسلامه ومع ذلك لم يبقوا لمن بعدهم شيئا يحتاج أن يقوم به كل من أتى بعدهم انما هو مقلد لهم فى الغالب وتابع لهم فان ظهر لهم فقه غير فقههم أو فائدة غير فائدتهم فمردود كل ذلك عليه أعنى بذلك أن يزيد فى حكم من الاحكام التى تقررت أو ينقص منها فذلك مردود بالاجماع واما ما استخرجه من بعدهم من الفوائد غير المتعلقة بالاحكام فمقبول لقوله عليه الصلاة والسلام فى القرآن (لا تنقضى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد) (يعنى التكرار) فعجائب القرآن والحديث لا تنقضى الى يوم القيامة كل قرن لا بد له أن يأخذ منه فوائد جمة خصه الله تعالى بها وضمها اليه لتكون بركة هذه الامة مستمرة الى قيام الساعة قال عليه الصلاة والسلام (أمتى مثل المطر لا يدرى أيه أنفع أوله أو آخره أو كما قال عليه الصلاة والسلام يعنى فى البركة والخير والدعوة الى الله تعالى وتبين الاحكام

لا انهم يحدثون حكما من الاحكام اللهم الا ماينذر وقوعه مما لم يقع فى زمان من تقدم ذكرهم لا بالفعل ولا بالقول ولا بالبيان فيجب اذ ذاك أن ينظر الحكم فيه على مقتضى قواعدهم فى الاحكام الثابتة عنهم المبينة الصريحة فاذا كان ذلك على مقتضى أصولهم قبلناه فلما مضوا لسبيلهم طاهرين ثم أتى من جاء بعدهم فلم يجد فى هذا لدين وظيفة يقوم بها ويختص بها بل وجد الامر على أكمل الحالات فلم يبق له الا أن يحفظ مادونوه واستنبطوه واستخرجوه وأفادوه فاختصت اقامة هذا الدين بالقرون المذكورة في الحديث ليس الا فلاجل ذلك كانوا خيرا ممن أتي بعدهم ولا يحصل لمن يأتي بعد هذه القرون المشهود لهم بالخير خيرا لا باتباع من شهد له صاحب العصمة صلوات الله تعالى عليه وسلامه بالخير فبقى كل من يأتى بعدهم في ميزانهم ومن بعض حسناتهم فبان ماقاله عليه الصلاة والسلام خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم انتهى كلام ابن الحاج فى كتاب المدخل ومن يتأمل كلام هذا الحبر الجليل وينظر اليه بعين الانصاف يظهر له صحة القول المنقول عن علماء الحنفية ان باب الاجتهاد قد سد من عصر الاربعماية ويفهم سر ذلك وحكمته الالهية والحمد لله تعالى على تصريح هؤلاء الاعلام بهذا القول المؤيد باوفى بيان وعلى توفيق سلاطين آل عثمان وفقوا الله تعالى دولتهم الى مافيه رضى الرحمن الى انفاذ هذا القول بين رعاياهم المؤمنين والا لكنت ترى في هذه الازمان التي قل فيها الورع وكثرت فيها الدعاوى الباطلة كثيرا من المتجرئين على الله تعالى المغرورين بانفسهم بسبب حصولهم على بعض من مواد الاجتهاد وهو أقل من القليل وغير كاف لبلوغ درجته يدعون هذا المنصب الجليل ويتبعهم بعض الاغرار ويحدثون

في الدين ما يسمونه أحكاما وماهو الا بدع وضلالات تخالف ما كان عليه السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم الذين استوفوا أمر الدين على أتم ما يرام وكنت ترى كل برهة من الزمان يتغير الحال في الدين كما تتغير السياسات بحسب مقتضيات الزمان (والدين الاسلامي قد جعله الله تعالى ثابت الاحكام الى يوم الحشر والقيام) فكان الامر يصل الى حالة تضل فيها الامة عما كان عليه نبيها عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام عليهم من الله سبحانه وتعالى الرضوان ونعوذ بالله من ذلك فجزى الله تعالى العلماء الاعلام خير الجزاء فيما أبدوه من البيان وأدام الله سبحانه وتعالى الدولة العلية العثمانية موفقة لحماية هذا الدين من أعدائه المضلين اللهم آمين

هذا واني قد سمعت عن بعض القاصرين المتطاولين على منصب العلماء المحققين انهم يقولون ان الاولى لنا الاخذ بما يصرح به القرآن الشريف ليس الا يعنون أنهم لا يأخذون بما جاءت به الاحاديث النبوية وهذا الرأى فاسد باطل فى نظر علماء هذه الامة الاعلام لاننا معشر الامة المحمدية كما اننا مأمورون فى نص القرآن والاحاديث التى ثبتت عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالتمسك بما يرد فى القرآن الشريف كذلك مأمورون بالتمسك بما يرد في الاحاديث الكريمة الثابت ورودها عنه عليه الصلاة والسلام وقد انعقد الاجماع على ذلك والآيات الدالة على التمسك بالسنة المطهرة والاتباع للرسول عليه الصلاة والسلام فى أقواله وأفعاله كثيرة جدا وان لم يكن من ذلك الاقوله تعالى (ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذينهم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون النبي

لا انهم يحدثون حكما من الاحكام اللهم الا ماينـدر وقوعه مما لم يقع فى زمان
من تقدم ذكرهم لا بالفعل ولا بالقول ولا بالبيان فيجب اذ ذاك أن ينظر
الحكم فيه على مقتضى قواعدهم فى الاحكام الثابتة عنهم المبينة الصريحة
فاذا كان ذلك على مقتضى أصولهم قبلناه فلما مضوا لسبيلهم طاهرين
ثم أتى من جاء بعدهم فلم يجد فى هذا الدين وظيفة يقوم بها ويختص بها بل وجد
الامر على أكمل الحالات فلم يبق له الا أن يحفظ مادونوه واستنبطوه
واستخرجوه وأفادوه فاختصت اقامة هـذا الدين بالقرون المذكورة في
الحديث ليس الا فلاجل ذلك كانوا خيرا ممن أتي بعـدهم ولا يحصل لمن
يأتي بعد هذه القرون المشهود لهم بالخير خيرا لا باتباع من شهد له صاحب
العصمة صلوات الله تعالى عليه وسـلامه بالخير فبقي كل من يأتي بعـدهم في
ميزانهم ومن بعض حسناتهم فبان ماقاله عليه الصلاة والسلام خير القرون
قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم انتهى كلام ابن الحاج فى كـتاب
المدخل ومن يتأمل كلام هذا الحبر الجليل وينظر اليه بعين الانصاف يظهر
له صحة القول المنقول عن علماء الحنفية ان باب الاجتهاد قد سد من عصر
الاربعماية ويفهم سر ذلك وحكمته الالهية والحمد لله تعالى على تصريح
هؤلاء الاعلام بهذا القول المؤيد باوفى بيان وعلى توفيق سلاطين آل عثمان
وفقوا الله تعالى دولتهم الى مافيه رضى الرحمن الى انفاذ هذا القول بين رعاياهم
المؤمنين والا لكنت ترى في هذه الازمان ا[illegible] الو[illegible]
الدعاوى الباطلـة كثيرا من المتجرئين [illegible]
بسبب حصولهم على بعض من مواد الاج[illegible]
[illegible] يدعون هذا المنصب الجليل [illegible]

في الدين ما يسمونه أحكاما وماهو الابدع وضلالات تخالف ما كان عليه السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم الذين استوفوا أمر الدين على أتم ما يرام وكنت ترى كل برهة من الزمان يتغير الحال في الدين كما تتغير السياسات بحسب مقتضيات الزمان (والدين الاسلامي قد جعله الله تعالى ثابت الاحكام الى يوم الحشر والقيام) فكان الامر يصل الى حالة تضل فيها الامة عما كان عليه نبيها عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام عليهم من الله سبحانه وتعالى الرضوان ونعوذ بالله من ذلك فجزى الله تعالى العلماء الاعلام خير الجزاء فيما أبدوه من البيان وأدام الله سبحانه وتعالى الدولة العلية العثمانية موفقة لحماية هذا الدين من أعدائه المضلين اللهم آمين

هذا واني قد سمعت عن بعض القاصرين المتطاولين على منصب العلماء المحققين انهم يقولون ان الاولى لنا الاخذ بما يصرح به القرآن الشريف ليس الا يعنون أنهم لا يأخذون بما جاءت به الاحاديث النبوية وهذا الرأى فاسد باطل فى نظر علماء هذه الامة الاعلام لاننا معشر الامة المحمدية كما اننا مأمورون فى نص القرآن والاحاديث التى ثبتت عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالتمسك بما يرد فى القرآن الشريف كذلك مأمورون بالتمسك بما يرد في الاحاديث الكريمة الثابت ورودها عنه عليه الصلاة والسلام وقد [illegible] على ذلك والآيات الدالة على التمسك بالسنة [illegible] والسلام فى أقواله وأفعاله كثيرة [illegible] وسعت كل شيء فساكتبها [illegible] الذين يتبعون النبي

الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم والاغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) وقوله تعالى (وما ينطق عن الهوى أن هو الاوحى يوحى)الآية لكان كافيا فى بيان وجوب الاخذ باقواله عليه الصلاة والسلام وهل لنا كمال فهم القرآن الا من أحاديثه الكريمة وقد صرح هو عليه الصلاة والسلام فيما ثبت نقله عنه بان علينا الاخذ بما جاء به من الاحاديث وان الاقتصار على القرآن الشريف يستلزم اننا نكون قاصرين فى أحكام الدين ولانصل الى فهم جميعها من القرآن فقط فمن الاحاديث الثابتة عنه عليه الصلاة والسلام في ذلك ماجاء في أبي داود عن العرباض ابن سارية رضى الله تعالى عنه انه قال صلى بنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم ثم أقبل علينا بوجهه فوعظنا موعظة بليغة ذرفت فيها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل يارسول الله كأن هذه الموعظة موعظة مودع فما تعهد الينا قال أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وان كان عبدا حبشيا فانه من يعش منكم فسيري اختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الامور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار وما فى أبي داود والترمذي عن المقداد رضى الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الاوانى أوتيت الكتاب ومثله معه الايوشك رجل شبعان (كناية عن المغرور الغافل المنهمك بشهوته فتقييده بالشبع اشارة الى انه الحامل الى هذا القول المردود وفيه تنبيه ان الشبع سبب الحماقة

والغفلة ولهذا لم يشبع صلى الله تعالى عليه وسلم على مافى الشفاء عن عائشة رضى الله تعالى عنها وعن أبيها لم يمتلى جوف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قط) على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فاحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه وان ما حرم رسول الله كما حرم الله الحديث وما في أبى داود عن العرباض بن سارية رضى الله تعالى عنه قام فينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال أيحسب أحدكم متكئا على أريكته يظن ان الله تعالى لم يحرم شيئا الا مافى هذا القرآن الاوانى قد أمرت و وعظت ونهيت عن أشياء أنها مثل القرآن أو أكثر وان الله تعالى لم يحل لكم ان تدخلوا بيوت أهل الكتاب الا باذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم اذا أعطوكم الذى عليهم وكثير من الاحاديث الثابتة عنه عليه الصلاة والسلام تفيد ذلك يطول بنا الشرح ان استوفينا نقلها وفيما نقلناه كفاية فان كان شبهة هؤلاء القاصرين فى هذا الحكم الباطل والرأى الفاسد من الزام الامة بالاقتصار على ما يفهم من القرآن وترك ما يفهم من الاحاديث هى ان الاحاديث المنسوبة الى الرسول عليه الصلاة والسلام يوجد بينها الضعيف الذى لم يثبت وروده عن النبي صلى الله عليه وسلم ثبوتا معتبرا لاخذ الاحكام ويوجد بينها الموضوع أي الذى هو مكذوب عن النبى عليه الصلاة والسلام وهذا أمر على زعمهم يرفع الثقة بالاحاديث قلنا لهم ان هذه شبهة ساقطة اذ من المعلوم ان علماء الدين المحمدى الاعلام أهل التحقيق والتدقيق الموثوق بهم في رواية الاحاديث ومعرفة تراجم رواتها لم يدعوا شيئا منها الا بينوا منزلته من الثبوت عن الرسول عليه الصلاة والسلا وأحاطوا بصفاتها وأقسامها وأحوال رواتها على أتم وجه وأكمل

تبيان حتى افردوا لذلك فنا مخصوصا يسمى فن مصطلح الحديث فالفوا فيه الكتب والرسائل ونظموا الاراجيز والقصائد وكذلك فعلوا في تراجم رواة الاحاديث فافردوا لذلك فنا أيضا يسمى فن التعديل والتجريح ثم بعد ذلك نبهوا على منزلة كل حديث يذكر في كتب السنة وعلى حكمه فى الاعتماد عليه فى الاحكام أم لا وبالجملة بينوا الاحاديث المتواترة والمشهورة التي يعتمد عليها فى الاعتقادات الاسلامية وفى الاحكام الشرعية والاحاديث الاحادية الصحيحة والحسنة التي يعتمد عليها في الاحكام والاحاديث الضعيفة التى لا يعتمد عليها فى شيء مما تقدم ولكن قديؤخذ بها فى فضائل الاعمال أعنى انها اذاكانت واردة فى فضل عمل لاشيء فى الشريعة يمنع منه فلا مانع من العمل بها والاحاديث الموضوعة التى لا يعتمد عليهافى شيء من جميع ذلك بل يجب على تاليها ان يبين وضعها وانها مكذوبة عن الرسول عليه الصلاة والسلام ولا يؤخذ بها البتة والكتب المؤلفة فى استيفاء هذه البيانات وتميز منزلة كل حديث هى منتشرة بين علماء الامة حتى لايخفى عليهم شيء من حقائقها فاى ضرر بعد ذلك في الاعتماد على الاحاديث النبوية كما يعتمد على القرآن كل منهما على قدر منزلته من الثبوت هذه أخبار الناس وأحاديثهم يوجد بينها الصادق والكاذب أيسوغ لنا ان نقول لايجوز لنا ان نصدق خبرا ونعتمد عليه لوجود الاخبار الكاذبة بين أخبار الناس كلا والله لايقول بذلك الا كل جاهل بل الصواب ان نقول اننا نبحث عن الاخبار الكاذبة حتى نعرفها ونردها ولا نعتمد عليها ونبحث عن الاخبار الصادقة حتى نعرفها وناخذ بها ونعتمد عليها وهكذا فعل علماء الامة بالاحاديث المنسوبة الى الرسول عليه الصلاة والسلام بحثوا ودققوا عنها

حتى وقفوا على ما صح نقله عنه عليه الصلاة والسلام فنبهوا على ثبوته واعتمدوه ووقفوا على ما كان بخلافه فنبهوا على قيمته فانزلوه منزلته من عدم الاعتماد عليه في الاحكام أو رفضه البتة وان قال هؤلاء القاصرون من اين لنا الوقوف على منازل الاحاديث ومعرفة ما يعتمد منها وما لا يعتمد قلنا فاذن انتم من قسم العامة فان علماء الدين يعرفون ذلك ولا يخفى عليهم شيء منه فعليكم ان لا تتجرؤا بمثل هذه الجراءة وارجعوا في دينكم الى أهل الذكر والمعرفة الذين يعرفون ذلك حق العرفان وان كان شبهة هؤلاء القاصرين انه يوجد في الاحاديث المنقولة عن الرسول عليه الصلاة والسلام ما ظاهره المخالفة لقانون العقل وما قام عليه الدليل العقلي القاطع والاكتشافات التي اكتشفتها فنون هذا الزمان والمخلص من ذلك على زعمهم الاقتصار على القرآن واهمال جميع الاحاديث النبوية فاقول وهذه شبهة أوهن من بيت العنكبوت وتشبثهم بها يدل على تمام قصور فهمهم في حقيقة الدين المحمدي المكين وذلك ان القاعدة في الشريعة المحمدية كما تقدم بيانه في هذه الرسالة نقلا عن علماء الاسلام الاعلام انه يجب علينا معشر المسلمين الاخذ بظواهر القرآن والحديث الثابت عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما لم يقم دليل عقلي قاطع ينافي ظاهر شيء من ذلك فان قام دليل كذلك ينافي ظاهر آية أو حديث فعلينا ان نؤول ذلك الظاهر ونرده الى معنى محتمل وان كان بعيدا يحصل به التوفيق بين ذلك النص وبين ذلك الدليل العقلي القاطع ومن تتبع القرآن وجميع الاحاديث النبوية الثابتة عن الرسول عليه الصلاة السلام لا يجد شيئا من ذلك يخالف ظاهره الدليل العقلي القاطع الا ويمكن تأويل ظاهره والتوفيق بينه وبين ذلك الدليل واما النصوص التي لا تقبل التأويل

ومعانيها متعينة فلا شيء منها يخالف الدليل العقلي القاطع ولا يمكن ان يقام دليل عقلي علي مخالفتها البتة ومن يزعم خلاف هذا فعليه البيان فهؤلاء القاصرون كان من الصواب لهم انهم عوضا عن قولهم بترك الاخذ بالاحاديث النبوية لهذه الشبهة ان يسألوا علماء الامة عن تطبيق كل حديث منها قد وجدوا ظاهره مخالفا لدليل عقلي قاطع وهم يبينون لهم التوفيق على اقوم طريق ويظهر لهم عند ذلك ان الدين الاسلامي لاشيء من نصوصه مخالف للعقل في الحقيقة ونفس الامر وانما يتخيل المخالفة ظاهرا في بعض نصوصه اما لقصور الفهم أو لقلة العلم أو ان النص ورد على ما يظهر فيه من المخالفة لحكمة من الله تعالى اما لابتلاء العلماء وامتحانهم في فهم نصوص شريعتهم واجتهادهم في تحرى الحق والوصول الى الصواب واما لغير ذلك واني شارع في تأليف كتاب اذكر فيه ما يوفقني الله تعالى اليه من النصوص القرآنية والاحاديث النبوية مما ظاهره مخالفة الدليل العقلي والاكتشافات الجديدة المقطوع بها واطبق كلا من ذلك على قانون العقل بتأويل مناسب جريا على تلك القاعدة المتقدمة اسال الله سبحانه وتعالى ان يتفضل على ويوفقني لاتمامه خدمة لهذا الدين هدانا الله تعالى جميعا الى ما فيه الحق وثبت قلوبنا على الايمان والسنتنا على الصدق ووفقنا لما فيه رضاه ومسرة مصطفاه وختم لنا بخاتمة السعادة بجاه سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم صاحب السيادة اللهم آمين

واما التنبيه فاني ارجو ممن يطلع على هذه الرسالة ان لايبادر بالانتقاد لما يتبادر فيه فهمه اني مخطىء فيه قبل ان يستوفى فهم المقام الذى اكون آخذا في تقريره بل ينظر الى السابق واللاحق والى المقصد الذي الفت

لاجله الرسالة والكيفية التي رتبت عليها ثم ليحكم بما يظهر له من الحق فانى لم ادع السلامة من الخطا ما دمت من جملة البشر غير المعصومين وقد ابى الله العصمة لغير كتابه وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام غاية ما اقول انى تحريت الصواب بقدر جهدى وطاقتي فما كان حقا فبتوفيق الله تعالى اليه هديت وببركة رسوله المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم الذى كنت من بعض خدمة شريعته المطهرة وما كان خطأ فهو من قصور فهمى وقلة علمى وضعف فكرى وارجو الله تعالى ان لايؤاخذنى بزللى ومن رام ان ينتقد فله الاختيار ولكن عليه ان يقدم على ذلك بنية خالصة فان تاليفى ما هو الاخدمة للدين الاسلامى فلينظر المنتقد الذي هو من أهل هذا الدين ماذا يرضى الله ورسوله وليفعل ثم انى فى هذه الرسالة وان خضت فى بعض المواضيع الفلسفية فليس قصدى من ذلك التفلسف فى الدين بل ذلك لاقناع عقول المتفلسفين ولبيان ان الدين الاسلامى لايكلف اتباعه الا بالعقائد الحقة المنطبقة على قانون العقل الصحيح وبالاحكام التي ترجع عليهم بالخير عاجلا وآجلا هؤلاء علماء الكلام خاضوا ما خاضوا مع الفلاسفة من شرح المباحث الفلسفية لبلوغ تلك الغاية فلست فى ذلك سالكا طريقا لم تسلكه علماء الامة الاسلامية ومن يعلم شيوع فنون الفلسفة الجديدة وكتبها بين أهل هذا العصر لاسيما منهم غير المتمكنين في معرفة حقيقة الدين الاسلامى يستحسن سلوك هذا الطريق للمحافظة على العقائد الاسلامية من شوائب تلك الفلسفة الجديدة التى اشتملت على مكتشفات لم تكن في عصر المتقدمين من علماء الامة الذين لم يتركوا شيئاً من المحافظة على العقائد من شوائب الفلسفة القديمة ثم انى في بعض المواضيع ارخى العنان للخصم واجعل له

الخيار في الاعتماد على بعض أقوال علماء هذه الامة غير جمهورهم وما كان ذلك مني الا لتسهيل الطريق عليه وتيسير الدخول فى الدين لان دخوله فيه ولو على قول ذلك البعض من العلماء الاسلاميين يجعله فى عداد أهل الملة المحمدية ولا يحرمه صفة الايمان فيكون سبباً لنجاته مما عليه من المخالفة المهلكة هذا الامام الغزالى رضي الله تعالى عنه في كتابه تهافت الفلاسفه يكتفى بالزامهم الحجة ولو على قول بعض اهل الاعتزال لان المعتزلة لم يخرجوا عن كونهم من عداد المسلمين وكلامهم على قانون الاسلام كما في المواقف ومآلهم النجاة على المعتمد هذا الحق سبحانه وتعالى قد اذن لرسوله عليه الصلاة والسلام في القرآن المجيد ان يخاطب الكفار بقوله (وانا أو اياكم لعلى هدى اوفى ضلال مبين) وهو صلى الله تعالى عليه وسلم ليس شاكا فيما هو عليه وانما هو اسلوب خطابى لجلب الخصم الى الدخول في المباحثة والاصغاء الى الحجة فتتلى عليه فيفهمها فتقنعه بالحق وبذلك يحصل المقصود وأما اعتقادى فى الدين الاسلامى الذى ألقى الله تعالى عليه واسأله سبحانه وتعالى ان يحسن خاتمتى به فهواني اعتقد بجميع ماجاء به سيدنا ومولانا محمد عليه الصلاة والسلام اعتقادا جازما على وفق مايعتقده السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم باحسان طبق مذهب أهل السنة والجماعة وانى على مذهبهم في التفويض فى اعتقاد النصوص الشرعية فاعتقد ان كل نص جاء منها هو حق لايخالف العقل الصحيح ولا يستلزم محالا واومن به على ما اراد الله تعالى منه وأفوض علم تعيين معنى المتشابه اليه تعالى ولكنى عند الانتصاب لمحاججة المعترضين على شيء من تلك النصوص أو المنتقدين منها خلاف ما يفيده اصول الدين اجرى

على طريقة الخلف رضي الله تعالى عنهم من التأويل للنصوص التي يخالف ظاهرها العقل بما يحصل به التوفيق بينها وبين العقل كما تقدم من القاعدة وذلك لاقناع الخصم واحتجاجه بأنه يمكن له فهم النص بهذا التأويل وترك المخالفة المهلكة وحقيقة الاعتقاد هو ان النص ذو معنى صحيح طبق العقل الصحيح وتعيين معناه مفوض الى عالمه تعالى كما تقدم هذا مذهبي الذي التزمه واختاره فلينزل عليه كلامي في كل مقام والله ولي التوفيق ثم اني في هذه الرسالة قد التزمت في تحريرها طريقة تناسب افهام العوام على قدر الامكان حتى اني كنت اكرر بعض عبارات واضع الظاهر موضع المضمر اذا أبعد مرجعه أو دخل في نوع خفاء واستعمل بعض الفاظ عامية أو غير ذلك مما تخلو عنه تآليف العلماء المتانقين في التآليف كل ذلك مني لتسهيل الفهم وتوضيح المقام لعل الله تعالى ينفع بهذه الرسالة بعض اخواني في الدين واخواني في الطين واني أتضرع الى الله سبحانه وتعالى بانكساري وضعفي وعجزي واتوسل اليه بصاحب الشريعة المطهرة والملة المنورة سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ان يتقبل عملي وينفع به عباده وان يخلص نيتي لوجهه الكريم وان يوفق وينصر ويؤيد دولة مولانا أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ويحرسه بعين عنايته وحرز وقايته انه مفيض الخير والجود آمين وقد وفقني الله تعالى لاتمام هذه الرسالة صبيحة نهار الجمعة المبارك قبيل طلوع الشمس من يوم عيد الفطر السعيد الذي جعله الله تعالى ترويحاً لعباده المؤمنين بعد أدائهم فريضة الصيام وابتهاجاً بدخول اشهر الحج المبارك من كل عام سنة الف وثلاثمائة وست من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم وعلى

جميع اخوانه من الانبياء والمرسلين وعلى آل كل وصحبه أجمعين والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

صورة ماكتبه مولانا علامة الزمان والحائز قصب السبق في ميادين العرفان المحقق الفاضل والمدقق الكامل الجامع بين المنقول والمعقول والمشيد اركان الفروع والاصول سيدنا الاكرم رافعي زاده السيد الشيخ عبد الغنى افندى الفاروقى الطرابلسى بعد ان قرأ هذه الرسالة بكل تدقيق أطال الله تعالى عمره وحفظ على مدي الايام للمسلمين قدره اللهم أمين

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله العظيم السلطان الباهر الحجة والبرهان الذى جعل العلماء عمد الدين وسرج اليقين وهداة العباد لسبل الرشاد وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له آله شهدت الكائنات بأن لا خالق سواه ونطقت ذرات الوجود بأنه المبدع لما فطره وسواه وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله المنزل عليه كتاب مجيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وكرم وعظم وعلى آله وصحبه وعترته وحزبه وعلى جميع العلماء العاملين والائمة العادلين الذين قاموا بنصرة دينه المتين وشرعه المبين وانتدبوا لرد شبه الملحدين وكشف ترهات المبطلين بالبراهين الساطعة والحجج الصادعة أما بعد فقد طالعت هذا الكتاب المستطاب المتحلى بالحكمة وفصل الخطاب تأليف العلامة الفاضل والمرشد الكامل الحسيب النسيب والبارع الاريب نابغة الزمان ونادرة العصر مولانا السيد الشيخ حسين افندى الجسر نجل الولى الكبير والعلم الشهير صاحب الكرامات الخارقة والارشادات الصادقة التى سارت في الآفاق سير الامثال الاستاذ السيد الشيخ

محمد الجسر الملقب بابي الاحوال فاذا هو كتاب جميل ومؤلف جليل متكفل
ببيان محاسن الشريعة المحمدية وحقيقة الملة الحنيفية الاسلامية ومتعهد
برد أباطيل الماديين وكشف شبه الطبيعيين بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة
حتى أضحت خرافات الضلال واضحة البطلان سافلة البرهان فلله دره
من همام أقرت له بالسبق علماء العصر مع حجاب المعاصرة واعترفت له
بالتقدم في حسن المحاضرة والمناظرة وشكرت صنيعه بما قام به عنهم من
فرض الكفاية فى نصرة الحق ورد شبه الغواية فجزاه الله تعالى عن الامة
المحمدية جزاء رابحا ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وانا نرجو
من حضرة مولانا أمير المؤمنين وكافل حماية الملة والدين أن يأمر بنشر
هذا الكتاب فى جميع البلاد الاسلامية ويحتم تدريسه في كافة المدارس
السلطانية لرد ماشاع فى هذا الزمان من هذيان الطبيعيين وخرافات الماديين
حتى صارت كتبهم الضلالية تنشر بين الانام وتتداولها السنة المارقين وأكف
الطغام كما يجب على كل من نما اليه كلامهم وعلقت فى ذهنه مكابراتهم
وخصامهم ان يستصحب هذا الكتاب في محاورته وينظر به فى عامة أوقاته
حفظا لعقيدته الصحيحة من تلك الخزعبلات وقمعا وردعا لاهل الغواية
والضلالات والحمد لله أولا وآخرا وباطنا وظاهرا وصلى الله تعالى على
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

حرره الفقير عبد الغنى الرافعي الفاروقى الحنفى
المفتى بطرابلس الشام سابقا غفر الله
تعالى له ولوالديه
وللمسلمين

صورة ما كتبه حضرة مولانا العلامة والحبر البحر الفهامة فخر المدرسين الكرام وقدوة المحققين الفخام شافعي زمانه وعين أعيان أقرانه سيدنا الهمام الاوحد نشابه زاده السيد الشيخ محمود أفندى مدرس الجامع الكبير المنصورى في طرابلس الشام أدام الله تعالى وجوده للانام اللهم أمين

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى أوجد جميع الكائنات بقدرته وأتقن سائر المصنوعات بحكمته والصلاة والسلام على سيدنا محمد المؤيد بالايات البينات والبراهين الواضحات وعلى آله وأصحابه أولى الفصاحة والبلاغة والعنايات أما بعد فقد طالعت بالتمام هذه الرسالة العديمة المثال المنيعة المنال الموضوعة للرد على أهل الزيغ والضلال فاذا هي غاية من تحرير المعانى وترصيف المبانى كيف لا ومؤلفها علامة الزمان وناظورة الاقران والمرجوع اليه فى كل وقت وآن جسر زاده السيد الشيخ حسين أفندى حفظه الله المعيد المبدى ولا بدع فى ذلك اذ هو نتيجة من سارت كراماته فى المشارق والمغارب وطارت اشارته بين الاباعد والاقارب ولى الله على التحقيق وحامل لواء أهل الصدق والتصديق قطب العصر وبهجة الدهر العارف بالله تعالى سيدى الشيخ محمد الجسر أمدنا الله بامداداته ونفعنا به فى الدنيا والآخرة ماقلته في شأن هذا المؤلف الفاضل هو المشهور عند أولى الفضائل ولله در القائل حيث قال

حلف الزمان ليأتين بمثله ... حنثت يمينك يازمان فكفر

فلا زال مظهرا لما خفى من الحقائق وفاتحا لما أغلق من الدقائق والله يحفظه مدى الزمان ويجرى على يديه النفع لكل قاص ودان بجاه سيد ولد

عدنان عليه من الله كل تحية وءمان

آمين آمين لاأرضى بواحدة حتى يقول جميع الناس آمينا

كتبه الفقير اليه عزشانه
السيد محمود نشابه الشافعى
الازهري خادم العلم
الشريف عفى
عنه

صورة ما كتبه مولانا العلامة الفاضل والجهبذ الكامل نعمان هذا الزمان وقدوة المدرسين الاعيان صاحب التحقيق والتدقيق والكاشف المشكلات عن كل دقيق سيدنا الاكرم عبد الرؤف زاده السيد الشيخ عبد الله أفندى الصفدى الطرابلسى أدام الله وجوده للانام بجاه النبى عليه الصلاة والسلام آمين

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى شهدت الكائنات بانه الواجب الوجود المتصف باكمل الصفات الحكيم الذى أوجد الكائنات بنظام بديع وأودعها من الحكم التى بهرت العقول ما فيه على عظيم قدرته أظهر دلالات وأشهد ان لا اله الا الله وحده لاشريك له الله عضد الدين بالعلماء الاعلام وجعلهم مصابيح يهتدى بهم فى دياجى الحيرة والظلام وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى أنزل عليه كتابا أخرس أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء عن معارضة أقصر سورة من سوره الكريمة وعجزت أساطين العلماء عن ادراك ماانطوى عليه من الحكم والاسرار العظيمة صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه الذينهم لشريعته

خير اتباع لنطرة دينه خير اشياع وبعد فقد طالعت هـذا الكتاب تأليف العلامة الفاضـل والمرشـد الكامل واحد الزمان وفريد الاوان مولانا الحسيب النسيب السيد الشيخ حسين أفندى الجسر نجل الولي الكبير والعلم الشهير صاحب الكرامات المشهورة والاشارات الصادقه والاعمال المبرورة الطائر صيته فى الآفاق خصوصا بين كمل الرجال الاستاذ السيد الشيخ محمد الجسر الملقب بابي الاحوال فاذا هو من أكمل المؤلفات وأجـل المصنفات أثبت فيه بالبراهين والدلائل حقيقة الملة الاسـلامية ومحـاسن الشريعة المحمدية والتزم فيه رد أباطيل الماديين وكشف شبه الطبيعيين ووفى بما التزمه اتم توفية باعانة المنان حتى صارت تلك الشـبه والاباطيل واضـحة البطلان بالحجج الباهرة وظاهر البرهان فلله دره من امام حاز قصبات السبق فى الفضل والفضايل وهمام قام بفرض الكفاية عن اخوانه فى نصرة الدين ورد شبه الماديين والطبيعيين باقوى الدلايل فجزاه الله تعالى عن المسلمين خـير الجزاء ونرجو من حضرة مولانا أمير المؤمـنين وحامي حوزة الملة المحمدية ان يامر بنشر هذا الكتابَ في جميع البـلاد الاسـلامية ويحتم تدريسـه في كافة المدارس السـلطانية حفظا لعقيدة التلامذة المسـلمين من التغير وعلى كل من نقلت اليـه تلك الوساوس وعلقت فى ذهنه أن يستصحب هـذا الـكتاب وينظر فيه في معظـم أوقاته حفظا لعقيدته الصحيحة من تلك الترهات وقمعا لاهل الغواية والضلالات والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على سيدنا محمـد وعلى آله وصحبه مادامت الارض والسموات

كتبه الفقير عبد الله عبد الرؤف

الصفدى غفر الله له

وللمسلمين

ومما قاله جناب الاريب اللبيب الفاضل والحسيب النسيب الكامل حائز قصب السبق في مضمار النظم والنثر وعين أعيان الاكارم في ميادين المكارم والفخر شهال زاده السيد محمود أفندى الاكرم أدام الله تعالى بقاه بالنعم اللهم آمين

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله مكون الاكوان مدبر الخلائق بعطف وحنان خالق جميع الموجودات مع اختلافهم في الاشكال والالوان وهو غنى عن أن يساعد فى مطلق شيء أو يعان لا تاثير في الكائنات لسواه خلافا لمن تاه من فرط الجهالة فى تيه الضلالة وقد اشتد به من الحيرة الوله والهيمان فاصبح وهو لا يدرى الى اليمين أم الى الشمال يأخذ في الحركة والسريان وضل عن الطريق الموصل لمعرفة من رفع السماء بقدرته بلا عمد ولا أركان وبسط الارض ومد البحار وأجري الانهار والخلجان وأنعم على أجناس خلقه خصوصا نوع الانسان بجلائل نعمه التى لا يحصى شكرها لسان وأجلها نعمة الاسلام والايمان فنشكره على ذلك مدى الازمان ونوحده باللسان والجنان اذعانا بواجب وحدانيته في كل وقت وآن لا اله الا هو اله تنزه عن أن تحيط بكنهه الاذهان أو يحويه مكان أو يمر عليه زمان سبحانه وتعالى عما يصفه أهل البغى والطغيان من القول الزور والبهتان وعما يعتقدونه من الهذيان باعتقاداتهم البديهية البطلان نعوذ بقدرته المنيعة من التلاعب في الاديان ونعتصم بسطوته

القاهرة من هوى النفس الملقى في العذاب الهون والهوان مستغيثين بفخر الكائنات سيد ولد عدنان عبده ورسوله النبي الامى محمد عين الاعيان وقرة جواهر الاعيان الذى أنزل عليه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فاعجز به البلغاء والفصحاء من جميع قبائل العربان صلى الله تعالى وسلم عليه وعلى آله وأصحابه شموس العرفان الذين استنارت بأنوار هديهم الأكوان واعتز بهم عماد الدين المنصان المؤسسة على أقوم شريعة بيضاء منه القواعد والاركان باقوى أساس وأحكم بنيان فلم يغيروا ولم يبدلوا فيه وزنا من الاوزان بل أقاموا الوزن بالقسط ولم يخسروا الميزان حتى انه الى الآن لم يزل ماكان على ماكان وكفى بهذا عنوانا على رضا الملك الديان الذى خص من شاء بماشاء من فيض فضله المتان كالهمام الاوحد المشار اليه بالبنان الذى هو من قاب قوسى السعادة دان من يغبط سنا فرقه الفرقدان ويحسد نور كمال طلعته النيران المحفوف من العناية الصمدانية باعوان ومن السعادة الربانية باخدان صاحب الاطلاع المعجب والاستحضار المعجز سيدنا السيد حسين الجسر الافخم متع الله الانام بموائد علومه الواسعة المدا والميدان وحلى بفرائد فنونه البديعة الافتنان أجياد الطلاب ماكر الملوان وتعاقب الجديدان أمين

أما بعد فانني لما أطلعت لجواد عيني العنان وسرحت طرف طرفي في مذاهب هذه الرسالة التي هي أشبه من المنثور بمنظوم حب الجمان وشاهدت بهجة محاسنها بارزة للعيان وجدتها جنة عرفان وسيفا قاطعا الالسنة أهل الزيغ والطغيان وشهابا ثاقبا رجمت به شياطين الانس والجان تنتعش بفهم معانيها الابدان وترتاح لمبانيها روح كل انسان ويزداد المؤمن بمطالعتها ايمان وقوة

في دينه وايقان كيف لا ومؤلفها ذلك الحبر المنتصب على متن الهداية والاطمئنان الموصل بحجازه للوقوف على حقيقة الاديان والممتد من أدبه وعلمه فوق بحرين يلتقيان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان من لا يحصى مناقبه الحسناء بحسبان فهو لقمان هذا الزمان ونعمان هذا العصر والاوان كان عمرو بن سنان لو كان في زمنه لروى عنه سحر البيان وكذلك سحبان لو انه في هذا العصر لانقاد اليه ليزداد فصاحة في اللسان فلله دره من بليغ فينان وتيار علم بفرائد جواهر الفوائد ملآن وملاذ اذا استعين به أعان وناصر دين الحق بسيف الحجة القاطعة والبرهان اذا شبت أهل الشبه حربها العوان فنحمد الله تعالى على وجود مثل هذا الامام الذي هو من الله نعمان على محجة الخصم والامعان في المعان ونشكره ونستجليه دوام الاحسان انه كريم حنان جواد منان ولما وضح واستبان صبح الحق من أفق هذه الرسالة المسماة بالحميدة في حقيقة وحقيقة الديانة الاسلامية قلت والله المستعان وعليه الاعتماد والتكلان

دين النبي محمد العدناني ... في كل آن ساطع البرهان
دين له رب قديم حافظ ... يحمي حماه لآخر الدوران
دين قويم النهج فيه أخو النهى ... يزداد ايقانا على ايقان
بادلة ان شئتها عقلية ... أو شئتها نقلية سيان
من حيث كل منهما كالشمس في ... نهج المحجة واضح التبيان
أعظم به دينا قويما واضحا ... ومؤيدا في معجز القرآن
لو لم يكن حقا ودينا قيما ... ماقام في سلطانه للآن
مازال كالشمس المنيرة مشرقا ... بسناه يمحو غيهب الطغيان

ياسعدنا فيه غدا ونجاحنا ونجاتنا فيه من النيران

تعسالمن وضحت له طرق الهدى فطغى ولم ينفك ذا نكران

يكفيه في يوم الجزا حرمانه واياه بالخزى والخذلان

ما ثم ياسيف غيره كلا وفى أخراه ليس سواه ذا خسران

هذا وكم من جاهل قد ضل عن نهج الهدى بوساوس الشيطان

ان الرسالة هذه حقا أتت ببيانها للحق كالفرقان

هي محض ارشاد وصرف دلالة وهداية لحقيقة الايمان

وهى الشفاء لقلب كل موحد من علة الاشراك والكفران

ولكم شفت قلبا بلطف علاجها المغدود للامراض عن لقمان

بكر حلت شأ ما السامعها وكم شقت مرارة كل غمر شاني

منها أساليب البلاغة قد أتت منظومة كقلائد العقيان

أمعنت فيها ناظرى فوجدتها ركنا لدين الواحد الديان

لله منشئها حسين من سما بعلو همته على كيوان

علامة الدنيا وبهجة أهلها وملاذ أهل الفضل والعرفان

وهو الجليل القدر والمولى الذي شرفا تشير له الورى ببنان

ذو منطق تزرى فرائد لفظه باللؤلؤ المنضود والمرجان

ما مثله بين الافاضل مجهذا يبدى معانيه بحسن بيان

فهو ابن سيدنا أبى الاحوال من من ربه نال المنى بامان

شمس الشريعة والحقيقه جسر أهل الله سامى السر والبرهان

مشغوف قلب هائم فى ربه مستغرق صاح به سكران

وشهاب فوق سما الولاية من غد منها مكينا فى أعز مكان

هو قطب دائرة الكمال محمد ... غوث المروع ملجأ الولهان
رب الكرامات التي فاقت على ... شمس الضحى بوضوحها الرحمانى
أعظم بها أسنى كرامات لقد ... سارت بها الركبان فى البلدان
جلت فلا تحصى مناقبه بحسبان ولم تحصر بنطاق لسان
انى لمن أجل التبرك فيه قد ... أوردت منها بعضها ببيانى
من بعض مانرويه عنه قوله ... سري بابني واضح البرهان
فوجود ذا المفضال كان كرامة ... أيضا لوالده الجليل الشان
هذا ومن يبغي الوقوف على نقا ... أخبار هذا العارف الربانى
ويرى العجائب فليراجع نزهة الا ... فكر الكتاب الفائق التبيان
لازال ذا القطب العلى مدى المدا ... تهمى عليه سحائب الرضوان
والله يرضى عنه مالاح الصبا ... ح وغرد القمرى على الاغصان
وجزى حسين الجسر حنادائما ... خير الجزاء باوسع الاحسان
اذ قد أتى برسالة تاريخها ... تأليفها قد جل فى اتقان سنة ١٣٠٦
مع حسن أسلوب جديد قد أتى ... بلزومه كالروح للانسان
أدى بها في الدين أوفى خدمة ... قد راح يغبطه بها الثقلان
دامت عليه من المهيمن نعمة ... مصحوبة بالحمد والشكران
ماشنف الاسماع جوهر فضله ... وحلى مديح علاه فى الآذان
أو ماانجلى غيم الضلال عن الهدي ... بشروق صبح الحق للاعيان

وانى بالاختصار أقول فى حق هذه الرسالة المشرقة مصابيح الادلة من نتائج أفق قضاياها المسامة ولاشراق الغزالة انها فى الحقيقه جوهرة لاتقوم باثمان ودرة أمست السبع الدراري بها تثمان اذ مؤلفها كريم النجار فرع سلالة

النبي المختار جمع بها فأوعى وشكر الله منه المسعى فلسان حال هذا العصر
شاهد لها باذعان وناطق باعلان ان ليس فى الامكان أبدع مما كان فنسأل الله تعالى
نيل الامان والفضل بخاتمة الائمان آمين

من قلم الحقير
محمود الشهال

وقد عرضت هذه الرسالة في أول مباشرة طبعها على انظار مولانا
الفضيله والافضال ومعدن المعارف والكمال فخر المدرسين وقدوة المفتين
مولانا الهمام مفتى الانام في ولاية بيروت ذات الثغر البسام فاخورى ذاده
السيد الشيخ عبد الباسط أفندى أدام الله تعالى وجوده للمسلمين اللهم أمين
فتفضل بتقريظها بما يأتى فقال

(بسم الله الرحمن الرحيم)

حمدا لمن شيد معالم الدين وأسسها بالحجج والبراهين وأرسل رسوله
الاكرم لهداية الخلق ليسلكوا بانواره المقدسة فجاج الحلق فمنهم من عرف
بقلبه المنهج المبين وآخر تعبد حتي أتاه اليقين اللهم صل وسلم على هذا
الرسول الصادق الذى صدع بما أمر قاب كل جاهل ومنافق بافصح حجة
وأوضح محجة التي ليلها كنهارها فى علانيتها وأسرارها وعلى آله وأصحابه
الذين حفظوا قرآنه ونقلوا حكمه وتبيانه وعلى التابعين الذين خدموا
الدين ودفعوا عنه شبهات الضالين ووساوس المفسدين وأراجيف الملحدين
أما بعد فانى سرحت الطرف في رياض هذه الرسالة التى غدت لقمر الشريعة
هالة المسماة بالرسالة الحمدية فى حقيقة الديانة الاسلامية وحقية الشريعة
المحمدية تاليف صديقنا العالم العلامة والفاضل الفهامة الشيخ حسين أفندى

الجسر ابن استاذنا وشيخنا يتيمة الدهر فتربعت النفس بدست ريمه علانية وجنت كل لذيذ من قطوفه الدالية

سفر جليل به للطالبين هدى في بابه قداتى من أحسن الكتب
لنا أحاديثه تروى معنعنة عن الحسين باسناد لخير نبي

فهو كتاب لم ينسج في نصرة الدين المحمدى على منواله ولم تأت المتقدمون بتمثل أمثاله لا عن تهاون منهم أو تقصير وهل ينبئك مثل خبير فانهم جزاهم الله خيرا قد خدموا الدين بما هو أهم ونفعه للخلق أعم فكم سردوا المباحث الطويلة ودونوا الفوائد الجليلة أما الآن فقد كلت الهمم وغدت من سقط المتاع عزائم الامم فلا نرى الا ناصرا لبغيته تابعا لنفسه وسهوته غريقا فى بحر جهله متبرجا تبرج الجاهلية بفعله وقد حدث بعد الامور أمور وظهرت مخبآت كانت تحت الستور وكثير منها ما هو أوهام أو أضغاث أحلام يغتر بها كل قاصر العقل واهن اليقين ساقط الفضل فاقتضى الحال درأ لتلك الشبهات والمحافظة على عقائد البعض من غوائل التخيلات فوفق الله تعالى صاحب هذا الكتاب ويسر له الاسباب فى اظهار نتائج بعض أسرار الدين الاسلامى المتين بالقول الشارح الحقائق للمؤمنين وغير المؤمنين باسلوب نفيس مختصر تفهم معانيه كلمح البصر مع رد الشبه الواهية والتطبيق بين المنقول والمعقول بدلائل كافية ملتزما فيه عدم التعرض لمذهب أودين سالكا بالانصاف سبيل المرشدين فجاءت فرائده وافرة وافية تزدان بها الاندية العامية وانه الواسطة الكبرى لحفظ عقائد البنين من شبهات الملحدين وقد حاز القبول لدى الحكومة السنية لما به من من الفوائد الجلية ونظرا لاعتبار هذا الكتاب عند الاجلاء الاخيار سيكون

على قرائه في المدارس الاسلامية المدار حيث انه حوى المباحث العقلية والمسائل النقلية فان المدارس بظل سلطاننا أمير المؤمنين مفتحة أبوابها للطالبين حفظ الله سلطانه ونصر اعوانه فعقد شيد معالم المدارس وأسدى اليها النفائس فمؤلف هذا الكتاب هو من العلماء العاملين وضعه لخدمة الدولة والدين فيجب علينا معاشر المسلمين ان يكون هذا الكتاب ديدن المعلمين وأملى وطيد بحضرات أولياء الامور أصحاب الدين ان يجعلوه دستور التعلم في المدارس كل حين لما فيه من زد جماح العقل عن التهور في وهاد الجهل ولما به من حفظ عقائد الانام في جميع ممالك الاسلام أدامها الله تعالى رافلة بحلل الامان تحت ظل الدولة العلية العثمانية على ممر الزمان وفق الجميع الله لاصلاح الحال ولادراك غاية الكمال

لنهج الهدى والحق وافت رسالة حميدية تأليف شهم مكرم
لقد نسبت واليمن وافق وضعها لسلطاننا عبد الحميد المعظم

كتبه بقلمه وقال بفمه الفقير اليه سبحانه عز شأنه

عبدالباسط بن على فاخورى

مفتي بيروت

ثم عرضت على انظار بعض ساداتنا علماء دمشق الشام الافضل فتكرموا بتقاريظ كانت فرائد عقد هذه الرسالة تفخر بها في محافل الافتخار وتزهو بحلالها في سائر الامصار فمما قاله حضرة مولانا فخر العلماء الاعلام وقدوة الفضلاء الكرام علامة الزمان وفهامة الاوان والمشار اليه بالبنان والمرجع لكل قاص ودان سيدنا المرحوم المبرور عطار زاده الشيخ محمد سليم أفندى أفندى أسكنه الله تعالى بحبوحة جنانه وأظله بظلال رضوانه وعوض الله

المسلمين بمصابه خير عوض اللهم آمين

(بسم الله الرحمن الرحيم)

حمداً لمن وافق من شاء من خلاصة عباده للذب عن الشريعة الغراء وأفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والعلوم الصمدانية ما قهروا به أهل الطبيعة الذين هم لكتابه وسنة رسوله أعداء فسبحان من وفقهم للعمل بما علموا حتي ورثوا علم مالم يعلموا كما أخبر بذلك سيد الانبياء وصلاة وسلاما على أول قابل للتجلي الاقدس والفيض المقدس من حضرة الباء فكان أول من ثنى وجود الحق ولم يكن اذ ذاك عرش ولا كرسي ولا أرض ولا سماء وعلى آله وأصحابه نجوم الهدى وأئمة الاهتداء وعلى التابعين لهم الى يوم الحشر واللقاء وبعد فاني قد تأملت في هذا الكتاب الحاوي من فنون المسائل العجب العجاب الذي ألفه العالم الفاضل والجهبذ النحرير الكامل الوارث للمجد عن والده المآجد وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم فى واحد حضرة السيد حسين نجل المجمع على ولايته و وراثته صاحب الاحوال والكرامات المرحوم السيد الشيخ محمد الشهير بالجسر قدس سره فوجدته قد حوى درر الفوائد والفرائد جمع فيه من السيرة النبوية أصحها وأوفاها ومن الادلة والبراهين على بطلان عقائد أهل الطبيعة والضلال أعلاها وأقواها فلقد أجاد فيه وأفاد و وفى بالمقصود والمراد فجزاه الله على صنيعه أحسن الجزاء ومتع الله المسلمين بحياته بجاه سيد الانبياء والحمد لله في البدأ والختام والصلاة على سيد الانام آمين

كتبه الفقير اليه سبحانه

محمد سليم العطار

عفى عنه

ومما قاله فخر العلماء والمدرسين الكرام وعمدة الفضلاء والمحققين الفخام العلامة الفاضل والفهامة الكامل العامل ذو الفضل والارشاد وقدوة السالكين في سبيل السداد الهمام الاكرم عطار زاده السيد الشيخ بكرى أفندى الافخم أدام الله تعالى هديه وارشاده للمسلمين آمين

(بسم الله الرحمن الرحيم)

حمدا لمن له الحجة البالغة والبراهين الساطعة الدامغة القائل وهو القادر الخالق بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق والصلاة والسلام على أول موجود على الاطلاق سيدنا محمد المخصوص بأحسن الاخلاق من جعله مولاه الحجة الكبرى على العالم وفضله على الملائكة الكرام وسائر بنى آدم وأيده بالمعجزات الباهرة لتكون حجة على النفوس الآبية الكافرة وعلى آله الهداة الكرام وأصحابه السادات العظام أما بعد فان الله تعالى جلت عظمته وعلت حكمته قد أقام لحراسة دينه القويم وصراطه المستقيم من أرباب البصائر والفكر من يدافع عنه فى كل آن وعصر ويذب عنه بسيف الشريعة والقهر من تعرض له بسوء من أهل الضلال والكفر ولما نزغت بين الناس في هذه الايام أقوام من أهل الوساوس والاوهام يقولون باسم الطبيعة ويميلون عن منهج الشريعة قد اتخذوا الهوى مركبا والفساد مطلبا أخزاهم الله تعالى وأغواهم وعن طريق الحق والرشاد أعماهم وفق الله تعالى لا دحاض حججهم الباطلة و براهينهم العاطلة من أولى البصر

والبصيرة ومن أرباب القلوب الخيرة بدر فلك التحقيق فى ليالى المشكلات وسراج أهل التدقيق فى كشف ظلم المعضلات العالم النحرير العامل والمدقق الاريب الكامل جامع فضائل الاوائل والاواخر ووارث العلم عن أسلافه البحور الزواخر مولانا السيد حسين افندى بن مولانا العالم العلامة والعارف الكامل الفهامة ذى الكرامات المشهورة والاخلاق الحسنة المأثورة من اعترف بفضله كمل الرجال الشيخ محمد الجسر أبى الاحوال فألف هذه الرسالة الكافية الوافية وهى لما فى صدور المنصفين شافية وقد أثبت فيها بالبراهين القطعية حقيقة الملة الحنيفية المحمدية وأبطل شبه أهل الطبيعة والاهواء فجزاه الله عن المسلمين أحسن الجزاء ومتعنا والمسلمين بطول حياته بجاه من أيده الله تعالى بآياته والحمد لله فى البدء والختام والصلاة والسلام على سيد الرسل الكرام أجمعين آمين يارب العالمين

قاله الفقير الى رحمة ربه الغفار
بكرى بن حامد العطار
الشافعى القادرى
عفى عنهما

ومما قاله فخر العلماء الافاضل وقدوة الفضلاء الأماثل العلامة الاوحد والعلم الشهير المفرد عين أعيان العارفين وأمام الجهابذة المحققين مولانا الاكرم عطار زاده السيد الشيخ عمر افندى الافخم ادام الله تعالى بقاه للمسلمين اللهم آمين

(بسم الله الرحمن الرحيم)

سبحانه انه المحمود باسمائه يامن تفردت بالافعال فكان لافعل لسواه

ويامن تعاليت عن السوى ومن السوى وليس الا مظاهره ومجلاه صل وسلم على الرحمة للعالمين من انقذنا من الضلالة سيدنا محمد من ختمت به النبوة والرسالة وآله وصحبه وبعد فانى قد سرحت نظرى فى رياض هذا الكتاب المشتمل على كل معنى مستطاب فوجدته في نفس الامروالواقع قد كشف عن وجوه المعضلات البراقع وعلمت حقا انه فتح مبين منزه عن التعمل بيقين ولا عجب فانه شيء جاء على أصله فلا سؤال عن حده ورسمه فلله در مؤلفه من همام أحيى به ذكر اسلافه العارفين الاعلام فشكرا لله العظيم مسماه وأدام نفعه العميم وحفظه وأبقاه فكم رد أهل الغواية على الاعقاب وكم أرشد آل الهداية لما فيه صلاحهم ونعم الآل والاصحاب اللهم كما هديت به فرده توفيقا وكما منحته فامنحنا هدى وتحقيقا واحشرنا جميعا تحت لواء سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى كافة الانبياء أجمعين آمين

كتبه الحقير

عمر العطار

ومما قاله العالم الفاضل والمرشد الكامل السالك بمريديه سبل النجاة والمروى ظمأ الطالبين من زلال عين الحياة مولانا الاجل الامجد خانى زاده السيد الشيخ محمدى أفندى الخالدى الاكرم أطال الله تعالى بقاه وأدام نفع المسلمين بهداه آمين

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد الذى لانبي بعده وعلى آله وصحبه وتابعيه وحزبه أما بعد فقد تصحفت هذا الكتاب الذى حوى كل معنى مستطاب الذى الفه أخونا العالم الفاضل الاريب اللبيب الكامل

الشيخ حسين نجل المرحوم المشهور بالولاية والفضل والعلم والعمل الشيخ محمد الجسر قدس الله روحه ونور ضريحه من أهالى طرابلس الشام زاده الله توفيقا وأفادة للعلوم وتحقيقا فوجدته قد حوى كثيرا من الفوائد وبنى وهدم كثيرا من القواعد مع غاية البيان والتحقيق نفع الله به ووفق لاقوم طريق وجزاه على قصده فانه غير مخلف وعده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين والمرسلين ومشيد هذا الدين الي يوم الدين .

كتبه الفقير اليه

محمد الخاني

الخالدى

ومما قاله العالم الفاضل والجهبذ الكامل صاحب النظم الرائق والنثر الفائق حائز قصب السبق فى مضمار البيان والمشار اليه في محافل البلاغة بالبيان عطار زاده السيد الشيخ ابراهيم افندى محمود أدام الله تعالي وجوده للانام آمين

(بسم الله الرحمن الرحيم)

حمدا لمن تفرد بالايجاد ونور قلوب أوليائه بصحيح الاعتقاد وصلاة وسلاما على أفضل العباد سيدنا محمد الهادي الى سبيل الرشاد الماحى بواضح براهين شريعته سفسطة أهل الزيغ والعناد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحبابه السراة الهداة الطاهرين الامجاد أما بعد فاني لما سرحت جواد النظر وأطلقت عنان الفكر في ميادين هذا السفر المبتكر المعتبر الفيتة قد جمع من ساطع أدلة هذه الشريعة ويقينياتها القاطعة المنيعة ما أزاح به شبه الملحدين ودحض أباطيل المعاندين المتمردين فلله در مؤلفه ما أتقنه وما أبهاه

وأحسنه كيف لا وهو قد ورث المجد كابراعن كابر وأضحت معارفه به تفا
خر وتكاثر عنيت به الحسيب النسيب العلامة الفهامة الاديب الاريب
الهمام المفضال السيد حسين أفندى نجل مولانا المرحوم شيخ أهل
الكمال الشيخ محمدى أفندى الشهير بالجسر والمكنى بأبى الاحوال فحقيق
ان ينشد ويقال

سمى البسط قد أنشا كتابا   فيا بشرى لمقتبس سناه
وذا من فضل آثار الحميد   اله العرش بلغه مناه
بعون الله لما تم أرح   به زاه لقاصده غناه

سنة ١٣٠٦

متعنا الله والمسلمين بطول حياته وأعاد الله علينا وعليهم من طيب نفحاته
و بركاته والصلاة والسلام على ختام النبيين وعلى آله وأصحابه أجمعين وآخر
دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

كتبه الفقير الى الله عز شأنه
ابراهيم بن محمود العطار
عفى عنهما

ومما قاله العالم المفضال والعلامة الفهامة اللوذعى ذو الكمال حائز
قصبات السبق في مضمار المنثور والمنظوم والفائز بالقدح المعلى من المعارف
والعلوم الحسيب النسيب الاكرم منير زاده السيد الشيخ محمد عارف أفندى
الحسينى حفظه مولاه وأبقاه آمين

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي شرح صدرنا للاسلام وجعل لنا نورا نمشى به فى غياهب الظلام

فانقذنا من الغرق في لجج المهالك والآثام وأوضح لنا سبيل الهدى في الانام فمن اهتدى اليه ربح القبول وظفر بالفوز والاعتصام ومن ضل عنه خسر ولم يظفر بالنجاح ونيل المرام سرومن يبتغى غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين قول الملك العلام أحمده وهو ولى الحمد واشكره بلا حصر ولا عد ان خصنا بمن هو للرسل امام ولجميع الانبياء بدء وختام سيدنا محمد المظلل بالغمام المخصوص بالشفاعة العظمى يوم الزحام المنزل عليه ان الدين عند الله الاسلام القائل ان لله تعالى عند كل بدعة كيد بها الاسلام وأهله وليا صالحا يذب عنه ويتكلم بعلاماته وناهيك به من مقام عليه افضل صلاة واتم سلام وعلى اله السادة الطهر الكرام الذين هم امان للامة من جهد البلاء والانتقام وصحابته القادة الغر الاعلام الألى اسسوا لنا قواعد الاحكام وشيدوا الدين بالقنا والصمصام وجمعوا الكلمة على عبادة المولى ذى الجلال والاكرام وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وكسروا الاصنام وهدموا اركان الكفر بعد الاحكام وبددوا جيوش الكفرة الاثام وقاتلوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ولم يهابوا من بطل ولا عرام والتابعين لهم المقتفين اثرهم ابد الابد ودوام الدوام آمين اما بعد فلما كانت حكمة الله الباهرة وارادته القاهرة اقتضتا ان يكون البشر انواعا وشعوبا وقبائل ومشارب وطباعا وكان اللازم لذلك شرع دين لهم ليعبدوا به ربهم ولا يظلموا بعضهم أرسل لهم رسلا امناء معصومين وانزل عليهم شرائع بابلاغها مأمورين وكانت تلك الشرائع بحسب ما يناسب الزمان ويوافق مشرب كل أهل اوان ولذا كان يتعاقبها النسخ والتبديل للاتيان بالخير أو بالمثيل ولما حان ظهور ما اراده الله تعالى من الازل من جعل العالم امة واحدة تدعى لعبادته

عزوجل أرسل نبينا محمدا صاحب العلامة من رسالته لكافة الخلق عامة
بشريعته التي هي خير الشرائع واعد لها كما ان امته خير الامم وافضلها
وانزل عليه بواسطة جبريل الامين قرآنه العربي المبين فاعجز به البلغاء وابكم به
الفصحاء وجعله اسا لتلك الشريعة والدين فآمن به من صادفته العناية وكفر به
من ادركته الغواية من الضالين وامره ان يثخن في الارض ليكون له
اسرى فتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى وبقية فرقة
ممقوتة من الله تنكر وجود الاله وتعد التدين بالدين منافيا للعقل المتين
واخرى تقول بالبعض وتزعم انه الاصل وتنفي النسخ الثابت بالنقل والعقل
وانكرت رسالة نبينا خاتم المرسلين صلاة الله وسلامه عليهم وآلهم اجمعين
ونسبت الى ما جاء به من الدين بعض اشياء كذبا موضوعا وزورا مصنوعا
وزعما بيقين وتسترت شرذمة بدعواها الاسلام وازمعت على هدم اركانه
بالقاء بعض شكوك فيه واوهام فتراها تنكر من الشريعة بعض اشياء لم تظهر
حكمتها لعقلها القاصر مدعية انها ليست من اصل الدين وما هو الا كفر
ظاهر أو تختلق لها حكما لم يقصدها الشارع مخالفة لمراده والواقع فرارا من
التسليم ان يكون في الدين شيء لم تظهر له حكمة وهذا من ضعف الايمان في
القلب وتعاقب الظلمة فعند ذلك نهض المولى العالم النحرير الشهم المفنن العلامة
الخبير الثاقب الفكر الشيخ حسين أفندي نجل المرحوم العارف بالله تعالى
الشيخ محمد الجسر الذي اختاره الله من الازل للذب عن هذا الدين
الصحيح الاجل مستمدا بروحانية جده الرسول متوسلا به في بلوغ المأمول

همام له في كل فضل فضيلة بليغ اذا ما قام في الناس يخطب
ابوه ابو الاحوال كم من كرامة له شهد الاعداء فيها واطنبوا

وتفرغ للتكلم بعلاماته حسبما رمز له النبي صلى الله تعالى عليه واله وسلم ببعض مقالاته ونصر الدين لله فاعانه الله وولاه وايده وعضده وهداه الى ماراده وقصده لانه

امام لنصر الدين شمر ساعدا   لذا حمدت افعاله ومآثره
ومن ينصر الله ابتغاء لوجهه   فلاريب ان الله بالنص ناصره

فالف هذا الكتاب الذى هو غاية فى هذا الباب فجاء كما اراد وافيا بالمراد يغبطه على مثله الاديب ويحار فى وصفه الاريب

هذا التأليف لقد اضحى   اظهار الحق نتيجته
واذا حققت بـه تاتى   احقاق الحق حقيقته

وقد سماه الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الاسلامية وحقية الشريعة المحمدية وهو جدير بان ينسب الى مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان ذى الشوكة والمجد والشان ويحمده كل انسان فجزاه الله تعالى خير جزاء واحسن لنا وله الانتهاء ورحم والدينا ونفع بنا جميعا بجاه من أرسل لنا رحمة وشفيعا عليه واله اشرف صلوات وازكي تسليمات وتحيات على الدوام مافاح مسك ختام

نمقه الفقير اليه عزشانه محمد عارف
المنير الحسني الشافعي الدمشقي
عفى عنه

ومما قاله الاريب اللبيب والاديب النجيب والحسيب النسيب ذو النظم المطرب والنثر المعجب الفاضل الكامل ظيان زاده السيد الشيخ محمد على افندى الكيلانى دم الله تعالى توفيقة آمين

هذى عروس بدت باللحظ تركية   كانها فى بديع الحسن حوريه

امذا رشيق قوام راق مبسمه   اذا بدا يخجل السمر الردينيه

ام ذا مؤلف ارازى الزمان حسين الجسر فيه لآلى العلم محويه

بـه براهين ايات مبينة   جاءت تذب عن الغرا الحنيفيه

فياله من كتـاب أبرزته لنـا   أفكار حبر عن التحقيق مرويه

منه لاهل الضلال الملحدين اتت   أدلة لاخي الانصاف مرضيه

ومنـذ القى عصا برهانه بطلت   عقائـد لهـم بالوهـم مبنيه

فالله فضـله قدرا ففض له   طلاسما من كنوز العلم مخفيه

لله أخلص فى قول وفى عمـل   بشرى له انمـا الاعمال بالنيه

لازال يهدى الورى من بحره دررا   ماغردت فوق غصن البان قمريه

والطبع لما انتهى قلنا نؤرخ فيه راق   طبع الرسالة الحميـديه

٩٥ ٣٠١ ٨١ ٧٢٢

خويدم العلم الشريف محمد
على ظبيان الكيلانى
عفى عنه

ولمؤلف الرسالة الحميدية رسالة صغيرة في تعدد الزوجات وحجاب النساء والطلاق الحقناها هنا تتميما للفائدة وهي هذه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد فيقول الفقير الى الله تعالى حسين الجسر الطرابلسى ان من المسائل المهمة مسألة تعدد الزوجات وحجاب النساء والطلاق وانى اطلعت فى هذه الاثناء على

كتاب في الهجين لبعض الكتبة غير المسلمين تعرض فيه للمسألتين الاوليين حيث قال بخصوص الاولى فى جميع الممالك ان الذكور أكثر من الاناث بقليل ربما كان حكمة العناية فى ذلك النظر الى زيادة نقص الذكور لاسباب الموت مما يتأتى من مشاق السفر واخطار البحر والحرب الى غير ذلك ويظهر من النسبة أيضاً ان الحكمة الالهية لم تجوز اكثر من زوجة واحدة للرجل فيكون تعدد الزوجات أمرا مخالفاً لما وضع في الطبيعة اه وفي ذلك التعريض بأخذ الرجل زوجات فوق الواحدة كما هو حكم شريعتنا المطهرة وبأن ذلك خلاف النظام الطبيعى وقال بخصوص الثانية فى ذلك الكتاب فليس من العدل ولا الحق ان تحتقر الانثى أو تظلم أو يهمل تعليمها أو يحجز عليها في البيت كما يحجر على الاسير والمسجون لسوء الظن فيها مع ان الرجل أقرب منها الى الاثم ذلك من عوائد الخشونة الى آخر ما قال وفيه التعريض بحكم شريعتنا العادلة بالحجاب على النساء والاقامة داخل البيوت فأحببنا ان نبين الحق في ذلك على مقتضى القانون العقلى لما ان المؤلف المذكور لاتقنعه الاحكام الشرعية اذ ليس هو من أهلها فجرينا فى سبيل البيان على مافيه مقنع لكل عاقل فنقول ان المؤلف المذكور حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء وبيان ذلك بعد تسليم تقارب عدد الذكور من عدد الاناث لايخفى ان الحكمة الالهية اقتضت توالد النوع الانسانى بين الرجل والمرأة وتكثير افراده وبقائها الى ماشاء الله تعالى والا لثبت نقيض ذلك وكان واجباً علينا السعى بتقليل التوالد واعدام البشر بوسائط شتى والواقع خلافه وذلك التوالد يكون بتلقيح الرجل و بزور المرأة ومعلوم ان الرجل تدوم فيه أهلية

التلقيح ولو بلغ من العمر مائة سنة وبلوغه ذلك ممكن موجود ليس بالنادر حتى قال بعضهم ان الانسان خلق لان يعيش المائة اذا لم يعالجه الموت وأما المرأة فحيث ان حملها للجنين ووضعه وارضاعه تجهد قوتها ولا تطيق ذلك كله الا فى حالة بلوغ جسمها قوته اقتضت الحكمة الالهية ان يكون استعدادها للتوليد من سن احتلامها الى سنة الخمسين من عمرها (على ما قيل أو خمس وخمسين على رأى اخرين) ومن هناك حيث تأخذ قوتها الطبيعية بالتأخر قد منع عنها البارى تعالى أمر الحمل وقطع دم حيضها الذى منه غذاء الجنين وحرمها تلك البزور لطفاً بها واحساناً فتكون مدة استعدادها للتوليد مقدار خمس وثلاثين سنة لان في الغالب تبلغ الحلم في الخامسة عشرة واذا تقرر هذا فنقول ان المرأة فى مدة استعدادها للتوليد اذا اقترنت بالرجل فى أى زمن كان من عمره بعد بلوغه الحلم تجد فيه استعدادا للتلقيح لايقصر عنه الا لعارض غير طبيعى وأما الرجل فاذا اقترن بها بعد بلوغهما الحلم واقتصر عليها فكثيرا ماتعطل عليه مدة من عمره لايجد فيها لزرعه نتاجا وبيان ذلك انه لو فرض اقترانهما من أول سن احتلامهما فيمكن توالدهما الى سن اياس المرأة وهو الخمسون فان عاشا ستين سنة عطلت عليه المرأة عشر سنين وان عاشا سبعين عطلت عليه عشرين الى ان يقال ان عاشا مائة عطلت عليه خمسين وكذلك يقال ان كان مثلها في العمر واقترن بها عند سن اياسها لداع من الدواعى واذا تخالف معها فى العمر فعلى فرض انه أكبر منها سنا فالغالب انها تعطل عليه أيضا حتى لو فرض انه اقترن بها وهوابن خمسين سنةوهي بنت خمس عشرةوعاشا المائة لعطلت عليه خمس عشرة وأما لوفرض انهاأكبرمنه فهناك ضرره العظيم ويتفاوت

حينئذ زمن التعطيل بفرض سنه وسنها وأكثر ما يتصور ذلك انه لو اقترن
بها وعمره خمس عشرة سنة وهي قبيل سن الاياس لداع من الدواعي فلو ولدت
منه ولدا وأيست لتعطل عليه خمس وثمانون سنة على فرض ان يعيش المائة
فلو لم يكن غير ذلك التفاوت سببا داعيا لاباحة اقتران الرجل بأكثر من
امرأة لكان كافيا لانه تبين ان الرجل لا يعطل على المرأة يوما واحدا من أيام
استعدادها للتوليد وهي قد تعطل عليه كثيرا من الاعوام فباباحة اقترانه بأكثر من
واحدة صار يمكنه مداركة ما كان يحتمل ان يعطل عليه ثم نقول من المعلوم
ان الرجل نظرا لما منحه الله تعالى من القوة على الكسب ومعاناة شدائده
دون المرأة جعل هو المعيل لها والقائم بامر نفقتها وجعلت وظيفتها بمقابلة
ذلك قيامها بتدبير منزله وتربية أولادهما هذا أمر كالطبيعي للبشر ومخالفته
من البعض جرى على خلاف النظام الالهي والمألوف في الطباع ومن المعلوم
أيضا ان الفقراء والقاصرين عن القيام باعباء النفقة على الزوجة أكثر
من الاغنياء القادرين على ذلك في أكثر الممالك وان كان في بعضها يوجد
ما يقارب المساواة في الغني فالملكة التي هي من القسم الاول لاشك ان
الكثير من رجالها الفقراء يمتنعون عن الزواج حذرا من اعباء النفقة
على المرأة بل الشريعة العادلة تحظر عليهم ذلك اذ علموا من أنفسهم انهم
يظلمون المرأة بعجزهم عن نفقتها وعند بعض الائمة يحق للحاكم
ان يفرق بين الزوجين اذا عجز الزوج عن النفقة دفعا للظلم الذي تأباه
العقول وفي هذه الازمان نرى زيادة عدد أولئك الرجال العاجزين بانضمام
من يذهبون للجندية فان هؤلاء يمتنعون عن الزواج خوفا من ترك نسائهم
في مدة التجند بلا معيل فاذا كان الاقتران لا يباح للرجل الا بامرأة واحدة

بقيت النساء اللاتى في مقابلة الرجال الممتنعين عن الاقتران معطلات عن التوالد فتبطل الحكمة فى تكثير النوع الانساني و بقاء نموه ولكن اذا أبيح للرجل أن يأخذ أكثر من امرأة امكن الرجال المقتدرين على النفقة ان يقترنوا باكثر من واحدة من تلك النساء اللاتى على شرف التعطيل وحينئذ لايضيع استعداد تلك المسكينات ولا يختل النظام الالهى وبدون ذلك تمضى اعمار تلك البائسات ولم يستفد منهن النوع الانساني ثمرة تذكر وأما القسم الثانى من الممالك أعنى التى يتقارب مساواة أهلها فى الغنى يمكن فيها ان يقترن كل رجل بامرأة ولا يتعطل من نسائها أحد ولا يمكن الرجل ان يقترن باكثر من واحدة لانه اذا طلب ذلك لم يجده لان الحساب قد تسدد وان قال قائل ان هذا التفصيل يقضى أن يباح الاقتران باكثر من واحدة لاهل القسم الاول من الممالك دون الثاني قلنا من المعلوم ان الممالك لاتدوم على حال واحد من الفقر والغنى بل يتعاقب على كل مملكة الحالان على ممر الازمان ولا يمكن ضبط ذلك وتحديد أوقاته وعلى فرض ذلك الضبط والتحديد فاذا كان الحكم كما قال ذلك القائل يؤول الامر الى الاختلاف دائما وتبديل الحكم الى ضده كل مدة من الزمان وربما آل الامر الى الحكم باباحة الكثير من الزوجات في سنة وحظره فى التى بعدها أو بالعكس اذ من الممكن ان تكون المملكة غنية وتصبح فقيرة بسنة واحدة وبالعكس والاحكام الالهية لاتكون بهذه المثابة ولا تفتح مثل هذه الابواب للتبديل والتغيير الموجب ذلك تلاعب أهل الاغراض والشهوات فنتج مما تقدم إن اباحة تعدد الزوجات هو الامر الموافق لما وضع فى الطبيعة والعقل السليم خلافا لما قاله ذلك المؤلف هذا واما حصر اباحة تعدد الزوجات فى

أربع فلم يتعرض لهذلك المؤلف ولكن نذكر حكمته على سبيل الاستطراد فنقول ان له حكمة شرعية ليس هنا محل لذكرها لان المؤلف المذكور ليس من أهل شريعتنا حتى تقنع أفكاره الحكم الشرعية وله حكمة عقلية على نسق ما يألفه ويقنع به وبيانها انا قدمنا ان الرجل العاجز عن النفقة يمتنع عن الزواج والرجل القادر عليها يقدم عليه ولاشك ان أسباب الكسب أربعة الامارة والتجارة والصناعة والزراعة فكأن البارى تعالى اباح بمقابلة كل سبب زوجة فاذا توفرت هذه الاسباب جميعها للرجل أمكنه أخذ أربع نسوة واذا فقد منه سبب اقتصر على الثلاث وهكذا حتى اذا فقدت الاسباب الاربعة ترك الزواج وأحاله للاغنياء واذا وجد معه أحد هذه الاسباب متوافرا بحيث يقوم مقام سبب آخر أو أكثر أمكنه الجرى فى الاقتران على قدر سعته واذا احطت خبرة بما تقدم وبما هنا انقدح لك سر اباحة التسرى باكثر من أربع من النساء المسترقات لان هؤلاء النساء ليس فى المملكة التى جلبن اليها رجال فى مقابلتهن فاذا كان الرجال الفقراء لايقتدرون على امتلاكهن ولم يبح الاستكثار منهن للاغنياء أصبحن معطلات عن التوليد فاباحة التعدد منهن للاغنياء هو عين الحكمة وهذا البيان كاف للمتأمل البصير واماما ذكره المؤلف المذكور فى كتابه بخصوص المسألة الثانية وهي أمر حجاب المرأة فنقول فيه ان حجاب المرأة أمر يقتضيه العقل السليم وتستحسنه الانسانية والنظام الالهى والناموس الطبيعى وبيانه انا قدمنا ان المكلف بأمر النفقة هو الرجل وأما المرأة فلا تكلف الا بتدبير المنزل وتربية الاولاد حسب المألوف والمستحسن فى العقول ولا شك ان اختلاط الرجال بالنساء يكون فيه بواعث عديدة لارتكاب الفحشاء لتوفر الداعى

من الطرفين ومن المعلوم ان النظر يزيد ذلك الامر القبيح الذى حرمته الشرائع وقبحته العقول لما فيه من اختلاط الانساب وضعف التناصر وقبحه مما لايجحد وناهيك ان الله تعالى أهلك أمما كثيرة من أجل ارتكابه فالناموس المانع من كثرة وقوعه هو منع الاختلاط بين الرجال والنساء وذلك لايكون الا بلزوم أحد الفريقين للبيوت واذا نظرنا للرجال وجدناهم لما كلفوا به من السعى على النفقة خارج المنزل لايمكنهم لزومها والنساء نظرا لتكليفهن بتدبير المنزل صار لزومهن للمنازل موافقا لما كلفن به فاقامتهن داخلها تكون هى عين الحكمة وان قيل ان في اقامتهن ضررا عليهن قلنا مهما فرض ذلك الضرر فالضرر الحاصل من الاختلاط أعظم وأشد وارتكاب أخف الضررين هو الامر المعقول والمشروع ولذلك حكمت الشريعة عليهن بالحجاب وهذا الحكم موافق لمصلحتهن التي كلفن بها ولمصلحة النوع الانسانى وهى حفظ الانساب على ان النساء اللاتي ينشأن من طفوليتهن محجبات لايظهر لضررهن من أثر وذلك للعادة التى يألفنها ولا يخفى ان العادة تعدا لانسان لقبول ما يعجز عنه بدونها وقد قال ذلك المؤلف في نفس كتابه المذكور ما معناه ان الانسان يمكنه التعود ولو على الامور السامة بحيث انه يتناول منها مقدارا لو تناوله غير المعتاد لاضر به جدا فنحن نرى النساء المعتادات الحجاب يتفاخرن به ويعددنه من أعظم أسباب الصيانة ويعيرن النساء المتبرجات اللاتى لايتحرين فيه وينسبنهن للقحة وعدم الصون وما ذلك الا لانهن الفن الحجاب ووجدنه خيرا لهن من التبذل فاذا تقرر هذا ظهر ان الحكم على النساء بالحجاب لايجحف بحقوقهن ولا يعد ظلما ولا خشونة خلافا لما قاله ذلك المؤلف المجازف الذى لادراية له باسرار الشريعة العادلة

وأما ماقاله من تحقير النساء وظلمهن واهمال تعليمهن فهذا أمر تمنعه شريعتنا الغراء وتأمر بمخالفته وارتكابه يعد مخالفة لاحكامها المقدسة فذكر ذلك فى كتابه لايمس بحاسياتنا ولا كلام لنا معه فيه وأما مسألة الطلاق فقد بلغنا الآن ان البعض شارع بتاليف كتاب مسميه الطلاق والظاهر منه ان مراده الرد على الطائفة التى فى مذهبها اباحة الطلاق ولا ندرى بماذا يحتج فيه ولكن نورد الآن ما يبرهن ان اباحاة الطلاق أمر موافق للعقول ومنعه مناف للنظام الالهى والترتيب الطبيعى بحيث لايخالف ذلك الا المكابر فنقول تقديم ذلك فى صدر هذه الراسالة ان الحكمة الالهية تقتضى تناسل النوع الانسانى وكثرة توالده وان الرجل مستعد لذلك من سن احتلامه لغاية أجله وأما المرأة فهى مستعدة له من سن احتلامها لسن اياسها وذلك بمقدار خمس وثلاثين سنة فاذا اقترن الزوجان ولم يحصل بينهما توالد وذلك كثير يحتمل الامران يكون المانع من جهة المرأة الزوج أو من جهة المرأة أو من جهتهما فاذا كان الطلاق ممنوعا يمضيان عمرهما بلا وجود النسل ويتعطل المستعد منهما على فرض وجوده وقد تكون مدة هذا التعطيل مصورة بخمس وثمانين سنة واما اذا كان الطلاق مباحا امكن الزوج بعد فراغ صبره ان يطلق المرأة ويقترن بغيرها وامكنها الاقتران بغيره فالمستعد منهما حينئذ يفوز بالنسل ولا يتعطل عليه شىء وغير المستعد يستريح باله بظهور حقيقة حاله وقد يكون كل منهما مستعدا للنسل ولكن آلتى تناسلهما غير متوافقين فاذا تفارقا امكن كلا منهما بالاقتران بآخر ان ينتج نسلا ولا يحرم ثمرة استعداده ونرجع هنا لما كنا بصدده قبلا من جواز الاقتران باكثر من امرأة فنقول اذا اراد الرجل ان يتربص بامر طلاق امرأته التى [illegible]حمل منه يمكنه لاظهار محل المانع من

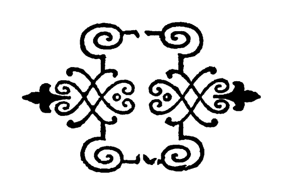
الحمل ان يقترن بغيرها فان ظهر السبب منها ابقاها على عصمته ان شاء ولم ينس الفضـل بينه وبينها اذ لا ثمرة بطلاقها على ما يظهر وان ظهر ان السبب المانع منه فهو مخير ببقائها ولا نقول بمقتضى الناموس المقرر سابقا كان يجب عليه طلاقها حينئذ لتقترن بغيره لان استعدادها غير متيقن بل مشكوك فيه لجواز عدمه منها أيضا ولا تبنى الاحكام على الشك ثم انه قد يوجد سبب آخر لاباحة الطلاق مهم جدا وهو حدوث النفرة بين الزوجين لاسباب شتى من نحو المرض المزمن وحدوث تشويه الخلقة وتعطيل آلة التناسل وخيانة المرأة لزوجها فى حفظ نسبه على وجه لا يمكنه اظهارها واثباتها للحاكم فان كان الطلاق محظورا تنغصت حياتهما وذاقا فى عمرهما الامرين وانفتحت في اعينهما ابواب الفساد والذهاب الى الفحشاء واما اذا كان الطلاق مباحا يؤمان باب الفرج والخلاص من الضيق والصون عن ارتكاب الفحشاء والطهارة من الدياثة وبقى هنا ان يقال انما جعل الطلاق بيد الزوج ولم يجعل بيـد المرأة لانه قد ثبت ان الرجل اثبت عقـلا منها وهى سريعة التقلب في الفكر واظن ان هذا مسلم عند العموم وقد تقدم ان الرجل هو المكلف بامر النفقة على المرأة فاذا حدث له نوع نفور منها يترجح عنده احتماله نظرا لقوة ثبات عقله ولخشية ضياع ما انفقه عليها وذهابه به ادراج الرياح فبذلك يرجع عن طلاقها واختيار فراقها واما هى فنظرا الى انها خالية من ذينك الامرين يقرب انها من ادنى سبب من النفور تسمح بطلاقه وترجيح فراقه وتنشد اهلا باهل وجيرانا بجيران فلذلك اقتضت الحكمة الالهية ان يكون الطلاق بيد الزوج لا بيد المرأة وذلك عين الحكمة فالزوج العاقل لا يقدم عليه الا عند غاية الاضطرار وحينما يكون بابا للفرج واما اقدام بعض الحمقاء عليه لوجود

ادنى سبب فهذا يكون خلاف الامر الشرعى والنظام العقلى وهو مكروه لله تعالى كما نص عليه الائمة الاعلام وبهذا القدر كفاية لاهل الانصاف ولنختم كلامنا بذكر شيء من احوال الامم المتمدنة فى هذه الازمان مما يؤيد ماقررناه وذلك ان تلك الامم آخذة باستحسان ماتبيحه شريعتنا فاباح بعضها التزوج باثنتين ولكن ياسوء حظ الثانية وحظ اولادها حيث لم تعدها زوجة شرعية ولم تعدهم اولادا شرعيين فليت شعرى مايقوله هنا هذا المؤلف المتعصب للنساء وبعض الممالك اباحت الطلاق كما قد شاع وذاع في الجرائد فالحمد لله الذى جعل شريعتنا تستحسن احكامها العقول وتتبع نظامها المعقول فنتأمل من حضرة ذلك المؤلف وامثاله ان لا يتعرضوا فى كتبهم لما يمس حاسيات جيرانهم بل يسرحون بما هو علمهم ويمرحون والا فليعلموا ان الشريعة المقدسة مبنية احكامها على حكم الهية ونظامات عقلية لا تخلها آراؤهم الضعيف ولهـا رجال يدافعون عنها الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

(يقول مصححه العبد الفانى * ابراهيم مصطفى اسماعيل النبهانى)

الحمد لله الذى بقدرته تنشأ المخلوقات وبحكمته تتجمل باحسن الصفات المنفرد في ذاته العلية وصفاته الصمدانية المتصف بكل كمال حى قيوم لا بداية له ولا نهاية ولا مثال خلق الخلق على قسمين فقال هؤلاء الى الجنة دار القرار وهؤلاء الى نار الجحيم دار البوار والصلاة والسلام على سيدنا محمد المؤيد بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة لدامغة من أرسله الله رحمة للعالمين وهاديا لهم بصحيح دينه المتين ومزيحا بنوار اسلامه ظلمات الاوثان والاصنام ومزيلا بقرآنه شبهات الشكوك والاوهام

وعلى آله مصابيح الدجى وأصحابه نجوم الهدى وتابعيهم ومن اهتدي (أما بعد) فقد تم بعون الله تعالى طبع الرسالة الحمدية في حقيقة الديانة الاسلامية وحقية الشريعة المحمدية المشحونة بالدلائل العقلية الجامعة من ساطع هذه الشريعة اليقينية كيف لا وهى لعلامة زمانه وفريد عصره وأوانه وأرث المجد كابرا عن كابر الحائز لمعارف العلوم الزواخر الفهامة الاديب والجهبذ الاريب الشيخ حسين أفندي نجل المرحوم صاحب الكرامات الشيخ محمد أفندى الجسر ذو الكمالات نفعنا الله بهم و بعلومهم وأفاض علينا من بركاتهم آمين وكان طبعها الزهي الزاهر وحسن وضعها الباهي الباهر (بالمطبعة الحميدية المصريه) الكائن محل ادارتها بشارع الحلوجي بجوار الانوار الازهر به سنة ١٣٢٣ هجرية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية



(فهرست الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الاسلامية وحقية الشريعة المحمدية)

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفه

صحيفة

صحيفه

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

(تمت)

